الموسوعة الشاملة

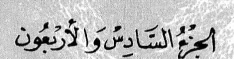
في

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء السادس والأربعون



الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

التاريخ الكبير

تصنيف

متى باريس

(١٢٣٥-١٢٧٣م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء أربعون
(١)

دمشق ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠١م

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

التاريخ الكبير
تصنيف
متى باريس

القسم الأول
(١٢٣٥-١٢٤٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة:

سلفت بي الاشـــارة من قبل إلى متى باريس وكتـــابه في التـــاريخ الذي أوصل به كتـــاب «ورود التـــاريـخ» إلى أحـــداث سنة ١٢٧٣، ومثلما هي معلوماتنا ضئيلة جداً كانت عن صاحب ورود التاريخ هي كذلك عن متى باريس، فهـو قد كان مثـل سلفه من رهبان ديـر القديس ألبان، وهـو شهر بلقب البـاريسي إمـا لأنه ولد في باريس، أو لأنه تعلم في باريس، ولم يشبـه متى سلفه، ولامعـاصريه من الرهبان حيث لم يسع لنيل المراتب الرهبـانية، مع أنه امتلك المؤهلات وكـان عالي الثقـافة، ويبدو أنه صرف اهتمامـه كله نحـو التـاريخ وكتـابته، وقليـلاً هو الوقت الذي صرفـه لدراسـة الكتـاب المقـدس وكتابة تعليقـات عليه، لاهوتيـة أو سوى ذلك، وسعى دومـاً إلى إعادة النظر بما كتبه في التاريخ تنقيحاً وتصحيحاً وإكمالاً.

ولقد صنف متى «التاريخ الكبير» الذي نقدمـه اليوم إلى القارىء العربي للمرة الأولى، وهـذا الكتاب جاء تكملة لعمـل روجر ويندوفر، وهـو معه يصوران أوضاع انكلترا وفـرنسا بشكل رئيسي منذ ماقبل سنة ١٠٩٥ حتى ١٢٧٣، أي مايقـارب القرنين من الزمان، أو بكلمـة أخرى معظم سنوات قرني الحروب الصليبية، ولقد كانت فـرنسا وانكلترا هما اللتان أسهمتا أكثر من غيرهما من بلدان أوربا في أحداث الحروب الصليبيـة، وطبعاً كما سوف يلاحظ القارىء ان روجـر ويندوفر ثم متى باريس لم يقصرا اهتماميهما على فرنسـا وانكلترا، بل شملا بذلـك أوربا كلها، وأن يمتلك الانسـان صورة أوربا خـلال قرني الحروب الصليبيـة فيـه فائـدة جليلة، ومع صـورة أوربا أحـوال الأرض المقـدسـة ومجريات الحروب الصليبيـة في الشرق، فلقـد تطورت فكرة حمل الصليـب، وكـان للبـابويـة ورجـال الـلاهوت الدوز

الأعظم في تطوير عقيدة الصليبية والضمانات الممنوحة لحملة الصليب، ولم تعد الحملات الصليبية مقتصرة ضد المسلمين، بل شملت جميع خصوم كنيسة روما، وخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر ظلت الروح الصليبية متوقدة ضد المسلمين في الشرق، وكان بود البابوية مواصلة إرسال الحملات، لكن أعاقتها الصراعات الداخلية التي تفجرت في كل من فرنسا وانكلترا، حيث كان النظام الاقطاعي يعاني من مشاكل كبيرة، وقد ازدادت المطالب بالمزيد من الحريات العامة وتحديد صلاحيات الملوك، وتوفر صراع مستمر بين الكنيسة وبين التاج، وكانت بذور القوميات قد بدأت تنمو، وتوفرت الأجواء نحو الاتجاه إلى إقامة الحكومات الوطنية إن لم أقل القومية، وكانت نفقات الحملات الصليبية عالية جداً وثقيلة، وفرصة دائمة للاستمرار بفرض الضرائب والمكوس، يوماً لصالح التاج، ويوماً آخر لصالح الكنيسة، ولكن أكثر شيء لصالح البابوية، هذا ويلاحظ أن النهضة الثقافية كانت ضعيفة والعقلية الغيبية هي السائدة لكن توفرت مواجهات جديدة صعبة وتمردات ضد صيغة التثليث والعلاقات بين الأقانيم، ومع ذلك ظلت سلطات البابوية مطلقة وقوية جداً، وتخيف كل انسان بفرض العقوبات الكنسية، ولذلك كانت البابوية تتدخل بالشؤون الداخلية لكل واحدة من دول أوربا، وعانت الادارة البابوية من الفوضى، ومن فعالية الرشوة، وسوء القضاء، وهذا أيضاً عانت منه العروش في فرنسا وانكلترا فالملوك منذ رتشارد الأول ومعاصره فيليب أغسطس باتوا عديمي الخبرة، لابل أحياناً عديمي الوجود، واحتكر المستشارون السلطة، ولذلك لم تتوقف الصراعات السلطوية، وظلت القلاع لها دورها، ولاشك أن الحروب الصليبية كانت لها تأثيراتها على فنون بناء القلاع وتحصيناتها، وعلى التسليح.

هذا في الغرب الأوربي، أما في بلاد الشام والجزيرة ومصر، فقد شكلت الدول الأيوبية عبئاً ثقيلاً على أهل البلاد، حيث انشغل الأيوبيون

بصراعاتهم الداخلية، وتمنوا جميعاً لو أن القدس زالت من الوجود، لذلك كانوا يعرضون تسليمها إلى كل قائد حملة صليبية صغرت أو كبرت، ودفعت دمياط الثمن الباهظ في الدفاع عن مصر وعن القدس.

ومن مزايا كتابينا توفر كميات كبيرة من الوثائق البالغة الأهمية، والتواصل برواية أخبار الأحداث بصدق ودونما تصنيع، مع شيء من العاطفة الانكليزية، هذا وكنا قد ذكرنا أننا لانعرف الكثير عن حياة متى باريس، وبالفعل لاندري بالتأكيد السنة التي توفي فيها، ولعلها كانت سنة ١٢٧٣م التي توقف فيها عن متابعة التأريخ.

هذا وكتب متى كتاباً آخر بالتاريخ حول ملكي ميرشيا Mercia الأوفيين Offas وعن حياة ثلاثة وعشرين من رعاة دير القديس ألبان، واختصر أيضاً التاريخ الكبير بكتاب عرف باسم «التاريخ الصغير»، وأضاف فيما بعد بعض الاضافات إلى هذا الكتاب، وسلف أن ذكرت الجهود الكبيرة التي بذلتها في سبيل الحصول على نسخة من كتاب متى باريس، الذي طبع منذ مائة وخمسين سنة، وبكتاب تاريخ متى باريس، أكون قد دنوت كثيراً من الفراغ من المصادر غير العربية الأساسية.

وإنني إذ أتوجه بالحمد إلى الله تعالى على عونه وتوفيقه، ألتمس منه جلّ وعلا المزيد من العون والتوفيق، والصلاة والسلام على نبيّنا المصطفى وعلى آلة وصحبه أجمعين.

دمشق ١٧ صفر ١٤٢٢ هـ/ ١٠- أيار ٢٠٠١م

سهيل زكار

وهكذا رددنا على الحسد، وفرغنا من ذلك.

«وأعدّ يابرايثي Prythee الكاتب قلمك وجهزه،

وتحرك ثانية ودر في فلكك الخاص بك»

وفي الوقت نفسه، تسلم الملك ضريبة الهايد، أي ماركين عن كل هايد hide من أجل زواج أخته ايزابل، فقد دفع الملك أثناء زواجها إلى الامبراطور، في مدة قصيرة من الزمن ثلاثين ألف مارك، إلى جانب زينة الامبراطورة، والتاج الذي كان غالي الثمن كثيراً.

الانتقام الذي أخذ من أجل موت رتشارد الايرل مارشال

وفي حوالي ذلك الوقت تبجح هنري كليمنت Clement وكان كاهناً، قدم رسولاً من النبلاء الايرلنديين، وتفاخر بشكل غير حكيم، بأنه كان السبب في وفاة الايرل رتشارد المارشال، الذي قال عنه بأنه كان خائناً، وعدواً دموياً للملك، ولجميع المملكة، فقتل الرجل بشكل مهين في لندن، حيث كان الملك، واتهم غيلبرت المارشال بموته، لكنه قدم براهين وافرة على براءته.

وكلف في الوقت نفسه الملك هنري الثالث أسقف كارآيل، واستخدمه لابرام معاهدة زواج مع ابنة ايرل ووركستر، وأن يقدم تعهده، وكذلك تعهد الملك حول هذه المسألة، لكن الملك غيّر فيها بعد رأيه، نتيجة تهديد صدر عن الملك الفرنسي، أنه إذا ما أصر، سوف يجري حرمان والدها، وقد تزوجت فيما بعد من ألفونسو، ملك قشتالة، من أجل جمالها.

الفتاوى الغريغورية الجديدة

وفي هذه الآونة أيضاً، شاهد البابا غريغوري التاسع التداخل المتعب للفتاوى والمراسيم البابوية، فأمر بهم فاختصروا، وجمعوا في إطار صغير، ومن ثم أمر بقراءتهم بشكل مهيب ودقيق مسؤول، ونشرهم في جميع أنحاء

العالم، وبـدأت هذه الفتاوى المعـروفة باسم الغـريغورية نسبـة إلى مصنفها بالجملة التالية: سلام الملك، إلخ، وقـد بدل بعض خصوصياتهم، من ذلك على سبيل المثـال، أن بعض الأشخـاص غير المؤهلين ينبغي عـدم تسلمهم موارد أسقفيـة ولاهوتية، من دون أن يحصلوا أولاً على ترخيـص بالكفاءة من الكرسي الرسـولي، ولأنه عرف أن كثيراً من المنافع تحصل لبـلاط روما، من أجل الحصول على الشيء نفسه، بالطريقة نفسها كما هو الحال من قانون انوسنت، في سبيل أن يحمل ترخيصاً ما منافع أكثر من آخر.

ربا الكورسينيين

سيطر في هذه الأيـام وانتشر الأذى المرعب للكورسينيين Caursines إلى درجة أنه كان من الصعب وجود أي إنسان في جميع انكلترا، خاصة بين الأساقفة الذي لم يقع في شباكهم، حتى الملك نفسه كان مداناً لهم بمبلغ من المال لايمكن تعـداده، لأنهم طوقـوا المحتـاجين وقـت عـوزهم، ومـوهوا رباهم تحت مظهر التجارة، وتظاهروا أنهم لايعـرفون أن كل ما أضيف إلى الأساس هـو ربا، مهما كان الاسم الذي دعي به، لأنه كـان من الواضح أن قروضهـم ليست موجودة في طريق المعونات، بقدر أنهم كانوا لايقدمون يد المساعـدة إلى الفقراء لاسعافهم، بل لخداعهم، وليس لمساعـدة الآخرين في جـوعهـم، بل ليـزيدوا من شراهتهـم، مشـاهدين أن «الدافـع يدمغ عملنا نفسه».

الشكل الذي ربط فيه الكورسينيين المقترضين منهم

إلى كل من سوف يرى الكتابـات الحالية —رئيس رهبان وراعي دير— صحة في الرب— ليكن معلوماً من قبلكم، بأننا قـد تسلمنا قرضاً في لندن، من أجل تسـوية مسـائل تتعلق بنا وبكنيستنا، من فـلان، ومن عـلان، من أجلهم أنفسهم وشركائهم، سكان وتجار مدينة— مائة وأربعة ماركات من نقود استيرلينية جيدة وقانونية، وكل مارك مقدر بحساب صرف ١٣ شلنغ

و٤ بنس استيرليني، وفيها يختص بالمائة وأربعة مـاركات، نحن نعلن باسمنا وباسم كنيستنا، أننا من دون تنازل أو اعتراض، بأنهم دفعـوا إلينا بالكامل، وننكر كليـاً وجـود أي استثناء بالمال، في أنـه لم يجر تعـداده، أو في أن المال المذكـور لم يتم تحويله لاستخـدامنـا، ولاستخـدامـات كنيستنا، وأن المائـة والأربعة مـاركات استيرلينيـات المتقدم ذكـرهـم، في الصفة والعـدد المتقدم ذكره، بأن يحسب للتجار المذكـورين، أو لواحد منهم، أو لوكيلهم المحدد، الذي سـوف يجلب معـه هذه الـرسـائل الحاليـة، في عيـد القـديس بطرس وفينكولا Vincula أي في اليـوم الأول من شهـر آب، في الهيكل الجديد، في لندن، في سنة ألف ومـائتين وخمس وثلاثين لتجسيد ربنا، ونعـد بميثاق شرعي، ونربط أنفسنا، باسمنـا، وباسم كنيستنا، بأننا سـوف ندفع ونسـدد بشكل كـامل، ونضيف زيادة على ذلك هذا الشرط، وهو أن هذا المال إذا لم يدفع ولم يسدد، في المكان والموعد المتقدم ذكرهما، كما قيل، فإننا نعد أننا منذ ذلك الوقت، وفي موعـد هو دائماً قبل انتهائه، ونربط أنفسنا بالميثـاق نفسه، بأن ندفع وأن نقدم إلى التجار المتقدم ذكرهم، أو إلى وكيلهم المحدد، في كل شهـرين، عن كل عشرة ماركـات، مـارك واحد عن المال المذكـور، وذلك تعويضاً للخسـائر، وهي الخسائر والنفقـات التي يمكن أن يتحملها هؤلاء التجـار أو يتلقـوها، وبناء عليـه من الممكن المطالبـة بالخسـائـر والنفقـات والأسـاس بشكل فعال، حسبما ورد الذكـر أعـلاه، والنفقات هي نفقـات تاجـر واحد، مع فـرس واحد، وخادم واحـد، حيثما سيكون التاجـر حتى يجري الدفع بالكامـل لجميع مـاتقـدم ذكـره، والنفقــات التي صرفت، أو سوف تصرف من أجل استرداد المال نفسه، سوف تسدد، وتعاد إلى التجار أنفسهم، أو إلى واحد منهـم، أو إلى وكيلهم المحدد، وبالنسبـة للذي سوف يعوض عن الخسـائر، والفـائدة والنفقـات، إننا نعد التجار المذكـورين أننا سوف لن نحصيه أو نحسبه بالنسبـة لأساس الدين المذكور، وأن لانحتفظ بالدين المذكـور تحت حجـة التعويضـات المتقـدم ذكرهـا، مراغمـة لإرادة التجار المتقـدم ذكرهم، تجاوزاً للشرط المتقدم ذكـره، وفي سبيل تنفيذ جميع

الشروط المتقدم ذكرها، وأننا سوف ننفذها ونفي بها بكل تأكيد، وسوف نراعيها مراعاة كاملة، ونحن نربط أنفسنا، وكنيستنا، وخلفاءنا وجميع سلعنا وسلع كنيستنا المتحركة، وغير المتحركة، اللاهوتية والدنيوية، الموجودة الآن لدينا، أو التي سوف توجد من الآن فصاعداً، أينما كانوا وحيثما وجدوا، لصالح التجار المذكورين وورثتهم حتى يجري دفع كامل لجميع المتقدم ذكره، الذي إذا كان على شكل بضائع، نحن نعترف بتسلم ذلك منهم بوساطة تأجير مشكوك فيه، ونحن نوافق على وجود المتقدم ذكره في جميع الأماكن، وأمام أي محكمة، وأن نقوم بالتخلي عن كل المتقدم ذكره، بالنسبة لأنفسنا، وبالنسبة لخلفائنا، من كل من الجانب الشرعي والمدني، امتيازات كل من الكهنوت والبلاط القضائي، ورسالة القديس أدريان Adrian وكل عرف، وقرار، وجميع الرسائل، والتعهدات، والامتيازات المحصلة أو التي سوف يتم الحصول عليها من الكرسي الرسولي، لصالح ملك انكلترا، ولجميع شعب مملكته، وقانون De du- abus dieties ومنفعة الدفع الكامل، ومنفعة استئناف المرافعة وإعادة الاتهام، ورسائل المنع الصادرة عن ملك انكلترا، وجميع الاستثناءات الأخرى، حقيقة وشخصية، التي يمكن أن تعترض ضد هذه الأداة أو الفعل، ونحن نعد بمراعاة هذه الأشياء كلها باخلاص، وشهادة على هذه القضية التي نعتقد أنها صحيحة، نقوم بتثبيت خاتمنا على الكتابة الحالية، عمل في اليوم الخامس من Elphege في سنة النعمة ١٢٣٥م».

هكذا كانت الروابط التي لايمكن الخلاص منها، التي ربط بها الكورسينيين المقترضين منهم، وهم عن جدارة حملوا اسم كورسينيين، لأننا إذا أردنا أن نتعامل مع كلمة «كوسور» Causor نجد معناها ليغش، ومعنى كلمة Gapio ليأخذ، ومعنى ursine أي فظ، فهم أولاً أثاروا المحتاجين واستدرجوهم بكلمات ناعمة ومعسولة، ولكن في النهاية طعنوهم بالصميم بما يشبه الرمح، وبناء عليه، وبسبب أن كلماتهم

المكتوبة كانت بارعة جداً، ومأخوذة من كتب القانون، وهي متصلة لها قرابة بمخادعات مرافعات الاستئناف، يعتقد كثير من الناس بأن هذه الأعمال والصفقات لم تحدث من دون موافقة بلاط روما وفقاً لكلمات الانجيلي: «أبناء هذا الدهر أحكم من أبناء النور في جيلهم» [لوقا: ١٦/ ٨]، حتى اليهود عندما شاهدوا هذا النوع الجديد من الربا، وقفوا بين المسيحيين يسخرون من سبتنا، ليس من دوق استحقاق.

ايثار بلاط روما للكورسينيين

ورأى في هذا العام نفسه، روجر أسقف لندن، وكان رجلاً متعلماً وتقياً، أن الكورسينيين كانوا يقومون بشكل مكشوف، بمضاعفة أموال الربا لديهم من دون حياء أو خجل، ويمارسون أقذر حياة، ويضايقون رجال الدين بمختلف أنواع الأذى، ويكدسون أكواماً من الثروات، من الأعداد الذين أرغموا على الخضوع إلى نير ظلمهم، فثار بغضب وبإباء عنيف، وأشعل بغيرة قضية العدالة، وبناء عليه وصمهم بالهرطقة، وأنهم الذين نأوا بأنفسهم عن العدل، وهم يثمنون خلال أرواحهم، وأن عليهم القيام بالتكفير عن أفعالهم الأثيمة، ونظروا إلى هذا الانذار نظرة استخفاف وضحكوا منه وازدروه، لابل إنهم هددوا، وبناء عليه سلح الأسقف نفسه بأسلحة العدل، وشرع بحملة تكفير ضدهم جميعاً، وبايجاز وحزم، أمرهم بأن يغادروا على الفور مدينة لندن، التي كانت حتى ذلك الحين محررة من ذلك الطاعون، ولكي لاتتلوث أسقفيته بمثل هذا الدنس، غير أنهم امتلأوا بالتشامخ، ووثقوا بالحماية البابوية، وحصلوا من بلاط روما من دون ضياع للوقت أو صعوبة على قرار، بأن الأسقف المذكور، صار الآن شيخاً كبيراً، وضعيفاً، ومخرفاً، ويتوجب نفيه بشكل قاطع إلى مناطق نائية فيما وراء البحار، وصدر قرار من قبل القضاة الذين كانوا أصدقاء للكورسينيين، ومختارين بناء على رغبتهم، بوجوب أن يمثل الأسقف أمامهم، للاجابة على مااقترفه من ذنب تجاه تجار البابا، ولكن الأسقف

اختـار أن يكون مثل سـام، في أن يغطي عورة أبيـة، وأن لايكون مثل حـام يقـوم بعرض هذه العـورة وكشفهـا، فوضع نهاية سلميـة لهذا الاضطراب الذي أثاره، وتظاهـر باخفـاء الذي وقـع، وأوكل أمـره وقضيتـه إلى حماية القديس بولص، الذي عندما كان يعظ حـول العدالة الصحيحة والشديدة كتب مايلي:

«وإذا مـابشركم مـلاك بعكس هذه الأشيـاء، فليكن آثماً» [غـلاطيـة: ١/ ٨].

وقاحة بعض الرهبان الفرنسيسكان

وفي هذه الآونة نفسهـا، دخل بعض الرهبـان الفـرنسيسكان، وكـذلك بعض الذين انتمـوا إلى طائفة المبشرين، إلى أراضي ديرة أحـد النبلاء، وهم غير مراعين لاختصاصهم، ولتعليمات نظامهم، وجـاء دخولهم تحت حجة القيام بواجبـاتهم بالوعظ، وتظاهروا بأنهم على نيـة المغادرة في اليـوم التالي بعـد الفـراغ مـن الوعظ، غير أنهم بقيـوا وأشـادوا مـذبحـاً من الخشب، ووضعوا عليه حجراً مكرساً، كـانوا قد جلبوه معهم، وأقاموا بشكل خفي تآمري، وبصوت منخفض قداساً، لابل إنهم تلقوا اعترافات كثير من أتباع الأسقفية، مما شكل تحدياً وتجاوزاً للكهنة، وقـالوا بأن لديهم التفويض من البابا بتلقـي الاعترافات من المؤمنين، الذين يستحون مـن عملها لكهنتهم، أو يأبون عملها، لأن الكهنة اقترفـوا الذنوب نفسها، أو أنهم كـانوا يخشون فعل ذلك لأن الكهنة كـانوا مخمـورين، وإلى هؤلاء أعطى الفـرنسيسكان تحليلاً، بعـدما فـرضوا تكفيراً عليهم، وأرسلوا في الـوقت نفسه مـراقباً إلى البلاط الرومـاني بكل سرعة، ليترافع من أجل قضيتهم ضـد رجال الدين، الذين كانوا مقيمين في منطقتهم، وحصلـوا على إذن بالبقاء هناك مع بعض المنافع الاضـافيـة وإذا حـدث وكـانوا غير راضين بهذا، فـإنهم انفجـروا بإهانات وتهديدات، شاتمين كل طائفـة، باستثناء طائفتهم، وأكدوا أن جميع البقيـة هم بين الذين قضي عليهم بـالادانة، وأنهم سـوف لن يوفـروا نعـال

أقدامهم حتى يبددوا ثروات خصومهم، مهما كانت ضخمة، وبناء عليه تنازل إليهم رجال الدين في كثير من النقاط، وتخلوا لتجنب مؤامرات هؤلاء وعدوانيتهم وهم في قوتهم، لأنهم كانوا المستشارين والرسل لدى النبلاء، لابل أكثر من هذا، كانوا أمناء سر لدى البابا، ولذلك حصلوا على كثير من الحظوة المدنية، ووجد بعضهم —على كل حال— أنفسهم معارضين في بلاط روما، فتراجعوا لأسباب بديهية، وغادروا مبتعدين بحالة اضطراب، لأن الحبر الأعظم قال لهم وهو ينظر إليهم نظرة غضب:

«مامعنى هذا يا إخواني؟ إلى أي مدى أنتم ذاهبون؟ أولم تتخذوا عقيدة الفقر وتتخذوها عن طواعية، وأنكم سوف تسافرون في البلدات والقلاع والمسافات البعيدة، حسبما يقتضي الحال، حفاة، غير متباهين، من أجل التبشير بكلمة الرب بكل تواضع؟ وأولم تقوموا الآن باستئناف اغتصاب هذه الممتلكات لأنفسكم، ضد رغبات أصحاب هذه الاقطاعيات؟ ويبدو أن ديانتكم قد أخذت تتلاشى إلى أبعد الحدود وهي في طريقها إلى الموت، وأن عقائدكم باتت مدحوضة»، ولدى سماعهم بهذا، غادروا وأخذوا يتصرفون بأنفسهم بلطف أكثر، مع أنهم كانوا من قبل قد تحدثوا بشموخ وغطرسة، ورفضوا أن يقادوا بموجب ارادة الآخرين، مع أنهم كانوا في بيوت ليست بيوتهم.

وجرى في هذا العام الاستيلاء على قرطبة —وهي مدينة مشهورة في اسبانيا— من قبل ملك قشتالة، وذلك بعد قتله لأخي أمير المؤمنين، وتمزيق جيشه وتفريقه.

موت روبرت فتز— وولتر وروجر دي سومريك

وفي العام نفسه، مع اقتراب ميلاد ربنا، غادر طريق الجسد روبرت فتز— وولتر، الذي كان باروناً من أصل شهير، وصاحب سمعة عالية، في البراعة في السلاح، وفي العام نفسه أيضاً، أخذ روجر دي سومريك -Su

meric وهو في زهرة الشبـــاب، من بين الناس، وكـان رجــلاً فـريداً في فصـاحته، ومن أصل محترم، وصـاحب قوة متميـزة، وفي هذا العام أيضـاً، أرسل الامبراطور جملاً إلى الامبراطور، كعلامة على مواصلة تقديره.

زواج الملك هنري من إليانور ابنة كونت بروفانس

سنة ١٣٢٦ لتجسيــد الرب، التي كـانت السنة العشريـن لحكم الملك هنري الثـالث، وفيها عقـد بلاطه في وينكستر في عيـد الميلاد، وقـد احتفل بذلك العيـد بفرح، فقـد كـان في ذلك الوقت ينظر بتشوق إلى عـودة رسله الخاصين، الذين بعث بهم إلى بروفـانس، إلى ريموند كـونت تلك المقاطعـة مع رسـائل تتضمن تفكيره العميق واهتمامـه الكبير في التعاقـد زواجيـاً مع ابنته إليـانور، وكان الكـونت المذكور من أصل مشهـور، وكان شجـاعاً في المعـركـة، إنما بسبـب استمـرار الحروب، قـد بدد تقـريبـاً جميع المال الذي امتلكه، وكـان قد تزوج من ابنة تومـاس، كونت سـافوي المتـوفى، وأخت أميدوس Amadeus الكونت الحالي، وكانت سيدة ذات جمال مدهش، كـان اسمهـا بيترايس Beatrice وأنجبت هذه السيـــدة من الكونت المتقـدم الذكـر ابنتين لهما جمال عظيم، وكان اسم الكبرى مـرغـريت، وهي التي تزوجت من لويس ملك فرنسـا، حسبما حدثنا كاهن اسمـه جون دي غيت Gates وقـد طلب ملك انكلترا الآن بوسـاطة الرسل المذكـورين الزواج من الابنة الصغـرى، وكانت سيـدة شابة، ذات مظهـر رشيق، ومن أجل الحصول على هذه الحظوة، كان قد أرسل بشكل سري رتشارد، رئيس رهبـان هورل Hurle مقـدمـاً، وقـد تمكن بـاخـلاص وبمتـابعـــة بإنهاء القضيـة، وإثر عـودة رئيس الرهبان، وإخبـاره الملك بالنتيجـة، قـام الملك بمعاودة مراسلة الكونت، بوساطة بعض الرسل الآخرين، وهـم:

هيوج أسقف إيلاي، وروبرت أسقـف هيرفورد، والراهب روبرت دي ساندفورد Sandford مقدم فرسان الداوية، واستقبل هؤلاء الرسل من قبل كونت بروفانس، لدى وصولهم بأعظم تشريف واحترام، وتسلموا من

يديه ابنته إليانور، من أجل أن تتحد مع ملك انكلترا وبه تقترن، ورافقها أيضاً «خالها» وليم الأسقف المنتخب لبلنسية Valentia وكان رجلاً متميزاً، وأيضاً من قبل كونت شامبين، وكان من أقرباء الملك الانكليزي، ولدى معرفة كونت نافار أنها سوف تسافر خلال أراضيه، خرج مسروراً لاستقبالها، ورافق الركب بمثابة دليل خلال ممالكه، أثناء رحلة استمرت خمسة أيام وزيادة، كما أنه بدافع من كرمه الطبيعي، دفع جميع النفقات لكل من الخيول والمرافقين، وضم الركب أكثر من ثلاثمائة عسكري خيال في الحاشية، دون أن نحسب العدد الكبير من الذين تبعوهم، ولدى وصولهم إلى حدود فرنسا، حصلوا، ليس فقط على أمان العبور، بل على ممر تشريفي خلال تلك البلاد، تحت رعاية الملك الفرنسي وملكته، أخت السيدة، التي كانت على وشك الزواج من الملك الانكليزي، وأيضاً من قبل بلانشي، أم الملك، وقد أقلعوا من ميناء ساندويش (الأقوم: قوانتافيك Quentavic أو ويسانت Wissant)، وأخذوا الطريق بأشرعة منشورة إلى دوفر، حيث وصلوا بعد عبور سريع، وذلك قبل أن يتوقعوا ذلك، وبعدما نزلوا إلى اليابسة بسلام، انطلقوا نحو كانتربري، وقد استقبلوا من قبل الملك، الذي اندفع إلى مابين أذرعة الرسل، وبعدما رأى السيدة، واستحوذ عليها، تزوج منها في كانتربري، وعمل الاحتفال في الرابع عشر من كانون الثاني، وأقام الاحتفال ادموند رئيس أساقفة ذلك المكان، يساعده الأساقفة الذين قدموا مع السيدة، وذلك بحضور النبلاء الآخرين وأساقفة المملكة، وفي التاسع عشر من كانون الثاني، ذهب الملك إلى ويستمنستر حيث جرى احتفال مهيب غير عادي، في اليوم التالي، الذي كان يوم أحد، وفي ذلك الاحتفال كان الملك متوجاً وكانت إليانور متوجة ملكة، وعلى هذا تزوج هنري الثالث في كانتربري، أما الاحتفال بالعرس فجرى في لندن، في ويستمنستر، وكان ذلك يوم عيد القديس فابيان Fabian والقديس سيباستيان Sebastian.

الاحتفالات أثناء زواج هنري الثالث

لقد اجتمع هناك أثناء احتفالات عرس الملك حشد كبير من النبلاء من الجنسين، مع أعداد كبيرة من رجال الدين، وكذلك جمهور كبير من الناس، وأنواع كبيرة من الممثلين، إلى حد أن لندن، على الرغم من اتساعها الكبير، استوعبتهم بصعوبة، وكانت المدينة كلها مزينة بالأعلام والرايات، والأكاليل، والمعلقات، والشموع، والمصابيح، مع ابداعات رائعة، وعروض غير عادية، وكانت جميع الطرق منظفة من الوحل والأوساخ، والعصي، ومن كل شيء مؤذي.

وخرج سكان المدينة أيضاً، لاستقبال الملك والملكة، وكانوا يرتدون ثياب الزينة، وتنافسوا واحدهم مع الآخر محاولين الاسراع بخيولهم، وفي اليوم نفسه عندما غادروا المدينة قاصدين ويستمنستر، ليمارسوا واجبات الساقي للملك (وهي وظيفة قديمة عائدة إليهم بموجب امتياز قديم، أثناء التتويج)، ساروا إلى هناك وهم يرتدون ثياباً حريرية، مع أردية معمولة بالذهب، مع غيارات ثمينة، وقد امتطوا خيولاً غالية، تلمع باللجم الجديدة والسرج، وقد ركبوا على شكل عساكر، واصطفوا بأرتال، وحملوا معهم ثلاثمائة وستين قدحاً من الذهب والفضة، وكان يسير أمامهم حملة الأبواق والنفر الملكية وهم ينفخون بها، وهكذا جعلت هذه المسيرة الاحتفالية الرائعة، كل انسان يراها، يصاب بالدهشة، وقام رئيس أساقفة كانتربري، بموجب الحق الخاص به، بممارسة واجب التتويج، وسط المهابة المعتادة وتولى مساعدته أسقف لندن كعميد، وأخذ الأساقفة الآخرون أماكنهم تبعاً لمراتبهم، وبالطريقة نفسها وقف رعاة الديرة، وكان على رأسهم —بموجب امتيازه— راعي دير القديس ألبان (لأن ب. ألبان بحكم كونه رائد شهداء انكلترا، كان المقدم على جميع شهداء انكلترا، وبناء عليه كان راعي ديره المقدم على جميع رعاة الديرة في المرتبة والمقام) لأن الامتيازات الأصيلة لتلك الكنيسة قد رسمت ذلك، وأدى النبلاء أيضاً

واجباتهم التي جعلتها الامتيازات القديمة والعادات عائدة إليهم أثناء تتويج الملوك، وبالطريقة نفسها أدى بعض سكان بعض المدن بعض الواجبات العائدة إليهم بموجب امتياز أجدادهم، فقد حمل ايرل شيستر سيف القديس إدوارد، الذي اسمه Curtun أمام الملك، كعلامة على أنه كان ايرل ذلك القصر، وأن لديه حق السلطة في تقييد الملك وردعه إذا ما اقترف خطيئة، وكان مع الايرل قسطلان شيستر، وهو الذي أبقى الناس بعيداً بعصا عندما كانوا يضغطون نحو الأمام بطريقة فوضوية، وحمل المارشال الأعظم لانكلترا، الذي هو ايرل بيمبروك عصا أمام الملك، وأخلى الطريق أمامه في كل من الكنيسة، وفي قاعة الوليمة، ونظم المائدة وجلوس الضيوف حول المنضدة، وحمل حجاب الـ Cinque Ports الطيلسان فوق الملك، محمولاً فوق أربعة رماح، ولكن الادعاء بهذا الواجب لم يكن كلياً من دون خلاف، وزود ايرل ليستر الملك بطست فيه ماء ليغسل يديه قبل الطعام، وقام ايرل وارني Warrenne بواجب حامل كأس الملك، وحل بذلك محل اير آروندبل، لأن الأخير كان مايزال شاباً، ولم يعمل فارساً بحزام بعد، وكان المعلم ميكائيل بيليت الساقي ex officio وكان الايرل هيرفورد هو الذي مارس واجبات مارشال حاشية الملك، وشغل وليم بوشامب وظيفة موزع الصدقات، وأعد المسؤول عن عدالة الغابات الكؤوس على المائدة، على يمين الملك، ومع أنه قابل بعض المعارضة، فإنها سقطت إلى الأرض، ووزع سكان لندن الخمرة في جميع الاتجاهات، في كؤوس ثمينة، وتفوق الذين كانوا من وينكستر في أعمال الطبخ للاحتفال، وشغل البقية أماكنهم المتنوعة، وذلك وفقاً للقوانين القديمة، أو حاولوا فعل ذلك، ولكي لاتتعكر أجواء الاحتفالات الزفافية بأية خلافات، باستثناء امتياز أي واحد، علق البت بأشياء كثيرة آنياً، وترك ذلك إلى فرصة أكثر مواءمة، وعيّن مكتب مستشار انكلترا وجميع المكاتب المرتبطة بالملك واستحوذ عليها في الخزينة، ولذلك فإن المستشار، والحاجب، والمارشال، ومفوض الجيش، أخذوا مقاعدهم هناك

بموجب حقوق مكاتبهم، وذلك مثلما فعل البارونات، وذلك تبعاً لتاريخ خلقهم، في مدينة لندن، حيث عرف كل واحد مكانه، وكان الاحتفال رائعاً، مع ألبسة سرور ارتداها كل من رجال الدين والفرسان الذين كانوا حضوراً، ورش راعي دير ويستمنستر الماء المقدس، وتولى الخازن دور، نائب العميد، فحمل طبق القربان المقدس، ولماذا عليّ وصف جميع هؤلاء الأشخاص الذين خدموا بشكل جليل في كنيسة، وفقاً لمقتضيات واجباتهم؟ ولماذا عليّ وصف وفرة اللحوم والأطباق على المائدة، وكميات لحوم الطرائد، وأنواع السمك، والأصوات المبهجة لرجال الطرب، وسرور الخدم؟ فكل ماهو موجود في العالم، وكان بامكانه الاسهام في توفير السرور والأبهة كان هناك، قد جلب وجمع من كل جهة من الجهات.

هطول ثقيل للأمطار

وفي تلك الآونة، ولمدة شهرين وأكثر، أي في كانون الثاني، وشباط، وجزء من آذار، تساقطت أمطار ثقيلة متواصلة، لم يشاهد مثلها، ولم يسمع بمثلها في ذاكرة أي انسان، وفي حوالي أيام عيد القديس سكولاستكا Scholastica «١٠-شباط»، عندما كان القمر جديداً، ازدادت مياه البحر كثيراً بسبب أن نهر تورنتس Torrents صبّ فيه، وصارت جميع الأنهار، خاصة التي تصب في البحر، سبباً في تحويل جميع المخاضات بجعلها لايمكن عبورها، فقد تدفقت المياه وفاضت من على الطرفين، وأخفت الجسور، فلم تعد تشاهد، وحملت معها كل طاحون وسد، وغمرت الأراضي المزروعة، والمحاصيل والمروج، والسباخ، وكان بين الوقائع غير المعتادة، أن نهر التيمس، فاض فوق حدوده المعتادة، ودخل إلى قصر ويستمنستر الكبير، حيث انتشرت المياه، وغطت المساحة كلها، وصار بإمكان قوارب صغيرة أن تطفو هناك، وذهب الناس إلى بيوتهم على ظهور الخيول، وشقت المياه طريقها بالقوة إلى الأقبية التي كان من الصعب نضح

المياه منهـا وتصريفها، وأعطت علامـات هذه العاصفة التي ظهـرت قبلها براهين على تهديداتها ومخاطرهـا، لأنه في يوم عيـد القـديس دامـاسـوس Damasus «١١- كـانـون الأول» سمع رعـد، وفي يوم الجمعـة التي جاءت بعد حمل القـديسة مريم «٨- كانون الأول» شـوهدت شمس زائفة إلى جانب الشمس الحقيقية.

وصول رسول إلى انكلترا من عند الامبراطور

وعند الانتهـاء من احتفـالات الزفـاف، غـادر الملك لندن، وذهب إلى ميرتون، حيث جمع النبـلاء لسماع رسالة وصلـت مؤخـراً من الامبراطور، ولمناقشة شـؤون المملكة، لأن رسلاً قدمـوا مباشرة من عند الامبراطور إلى الملك، مع رسـائل تسأله، أن يرسـل من دون تأخير أخـاه رتشـارد ايرل كورنوول Cornwall الذي أخبار براعتـه انتشرت بالطول وبالعرض، ليشن حربـاً على ملك فرنسا، كما أنـه وعد، أن يرسل على سبيل المسـاعدة، جميع قـواته الامبراطورية، في سبيل مسـاعدة الملك الانكليـزي، ليس فقط لاسترداد ممتلكاته القـارية، بل بعد استردادهم، لتـوسعة ممتلكاته السـالفة، وعلى هذا أجاب الملك والنبلاء الذين اجتمعوا هناك، بعد مناقشات كاملة، بأنه سـوف لن يكون سليماً وحكيماً، إرسـال واحد مـايزال شـاباً بمثل هذا العمر إلى خـارج المملكة، وتعريضه لتقلبات الحظ المشكوك فيهـا ولمخاطر الحرب، ولاسيما هو وحده ولي العهـد الموجود للملك وللمملكة، وكـانت جميع الآمال معقـودة حوله بعد الملك، ولأن الملك، وإن كان متـزوجاً، هو ليس لديه أولاد، والملكة زوجته كـانت ماتزال صغيرة، وليس معروفـاً بعد هل ستكون منجبـة أم عقيمة، لكن إذا كـان موافقاً لسمـوه الامبراطوري، استدعاء أي رجل شجاع آخر يختاره من بين نبلاء المملكة، لهذه الغاية، فإن الملك وجميع أصدقائـه ورعيته موافقون على هذا الطلب، وسـوف يقدمون له جميع المسـاعدات التي هـي بإمكانهم، ولدى تسلم الرسل هذا الجواب، عادوا لإخبار مولاهم.

بعض القوانين الجديدة التي عملها هنري الثالث

وفي الوقت نفسه، عمل الملك هنري الثالث، بعض القوانين الجديدة، من أجل انقاذ روحه وتحسين أوضاع المملكة، وكان دافعه المؤثر عليه روح العدالة والتقوى، وقد أمر بمراعاة هذه القوانين وتطبيقها بلا استثناء في جميع أرجاء مملكته.

وتعلقت هذه القوانين بالمقام الأول، بأوضاع الأرامل، اللائي كن بعد وفاة أزواجهن، يحرمن من صداقهن، أولم يكن بامكانهن الاستحواذ على ذلك، وعلى بائنة كل واحدة منهن من مرافعة أو ادعاء، وقد رسم أن كل من يحرمهن بالقوة من صداقهن ومن منازلهن التي كانت بحوذتهن عند وفاة أزواجهن، ينبغي بعد ذلك للأرامل أن يستردن فيها بعد استرداد صداقهن بالمرافعة القضائية، ووقتها يحكم على الفئة المغتصبة بالظلم والاغتصاب وعليهم التعويض عن الخطأ والقيام بالاصلاح نحو الأرامل المذكورات، ودفع الثمن الكامل للصداق الذي هو حق كل واحدة منهن، وذلك من يوم وفاة الزوج إلى يوم استرداد الممتلكات بوساطة القضاء، ومع هذا سوف يكون المغتصبون تحت رحمة الملك، وأيضاً سوف تكون الأرامل من الآن فصاعداً يمتلكن الحرية بالحصول على جميع القمح الناتج عن أراضيهن، والصادر عن صداقهن، وكذلك من الأراضي الأخرى، والاقطاعيات المكتراة، باستثناء الخدمات المستحقة إلى مواليهن من صداقهن ومن الاقطاعيات المكتراة الأخرى، وكذلك كل من سيحرم من اقطاعيته المكتراة الحرة، وسوف يسترد الاستملاك بالاستيلاء على ملكية منتزعة جديدة أمام رجال العدالة، أو أنه قام بانتزاع الملكية بموافقتهم، وعندما يستحوذ المنتزع للمكيات من خلال العمدة، إنه إذا كان المستولي قد استولى عليهن بعد المرور بدائرة رجال العدالة، أو من خلال الدائرة نفسها، وسوف يدان بذلك، فإن المغتصبين جميعاً سوف يعتقلون، ويحبسون بسجن مولانا الملك، حتى يجري تحريرهم من قبله، إما بفدية، أو

بأي شكل آخر، والشكل التالي للادانة هو الذي ينبغي أن تجري مراعاته بالنسبة إليهم: عندما يقدم مشتكون إلى المحكمة الملكية، فإنهم سوف يحصلون على مذكرة من الملك ستكون حاوية على براهينهم على الاغتصاب للملكية التي تولاها مغتصب، وبالمذكرة سوف يؤمر العمدة بأن يأخذ معه مراقبي مرافعات التاج، وموظفين قانونين آخرين، وأن يذهب بشخصه إلى الملكية المكتراة أو المرعى، الذي حوله عملت الشكوى، وأن يقوم بحضورهم، بوساطة المحلفين أولاً، وبوساطة الجيران الآخرين، ورجال القانون، أن يقوم بحضور هؤلاء وبوساطتهم ببحث دقيق حول القضية، وإذا ماتم الاكتشاف وجود اغتصاب كما ورد الذكر أعلاه، فوقت ذلك يسيرون بالاجراءات، وفقاً للمواد القانونية المعلنة من قبل، وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلسوف يكون أصحاب الشكاية تحت رحمة الملك، وسوف تذهب الفئة الأخرى بدون مسؤولية، والشيء نفسه سوف يعمل بالنسبة لقضية أولئك الذين سوف يستردون ممتلكات باستيلاء موت أسلافهم، فإن الشيء نفسه سوف يعمل أيضاً في قضية جميع الممتلكات الاقطاعية المستردة بوساطة القضاة في بلاط الملك، وأيضاً حيث هناك لدى عدد من نبلاء انكلترا فرسان مقطعين، واقطاعياتهم الحرة ممتلكات صغيرة في عزبهم، وقد اشتكوا أنهم لايستطيعون الإيفاء بما عليهم بالنسبة لما يتعلق بفضلة عزبهم، مثلاً بالنسبة للخسارة، والغابات، والمراعي، وبناء عليه حتى يمكن للفارس المقطع أن يمتلك الكفاية، بما هو متوائم مع أراضيه المكتراة، فقد تقرر ومنح أن مقطعين من هذا النوع، من أي واحد كان، سوف يحضرون ملكية منتزعة جديدة قد استحوذوها، ويعرضوها أمام رجال العدالة، فلسوف تجري الموافقة عليها وأنهم صار لديهم مرعى كاف، متوافقاً مع أراضيهم المكتراة، وذلك مع مدخل حر، ومخرج من أراضيهم المكتراة إلى ذلك المرعى، وأن يكونوا راضين بالشيء نفسه، وكذلك أولئك الذين جرى تقديم شكاويهم المماثلة، فهؤلاء سوف تتم ترضيتهم، بحصولهم على رغبتهم بالنسبة لقضية أراضيهم الخاسرة، وللغابات،

والمراعي، لكنهم إذا ما قالوا بأنهم لم يستحوذوا على مرعى كاف، أو مدخل ومخرج كافيين، فوقتها يجري التدقيق بالحقيقة من قبل المقومين، وإذا ماااكتشف من قبل المقومين، وجود أية عوائق كانت، كما تقدم القول، فوقتها سوف يتسلم ممتلكات بعد الفحص الذي يجريه المحلفون، وبناء عليـــه على إخلاصهم، وعلى أيمانهم، يمكن للمشتكين أن يحصلوا على مراعي كافية، ومدخل حر، ومخرج، على الشكل الموضح أعلاه، وسوف يبقى المغتصبون تحت رحمة الملك، وسوف يدفعون ثمن الخسائر، كما اعتادوا أن يدفعوا من قبل هذا التنظيم، ولكن إذا تبين للمقومين بأن المشتكين لديهم مراعي كافية ومداخل حرة كافية ومخارج، كما قيل من قبل، لسوف يسمح للفئة الأخرى أن تعمل ما هو صحيح بالبقية، وسوف تغادر بهدوء، ومنح أيضاً من قبل مولانا الملك، مع موافقة النبلاء، أنه منذ ذلك الحين، سوف لن تتراكم الفائدة ضد قاصر منذ وقت وفاة سلفه، الذي هو وريثه، حتى يصل إلى السن القانوني، إنما على هذا الأساس لايجوز تأخير دفع الرأسمال الأساس، وكذلك فيما يتعلق بالذين اقترفوا اعتداءات في حدائق أو حظائر، جرى نقاش حول قضيتهم، لكن لم يتخذ قرار حول الأمر، لأن النبلاء طالبوا بأن يمتلك كل واحد منهم سجنه، لسجن المتجاوزين الذين يجري اعتقالهم في حدائقهم وحظائرهم، غير أن الملك لم يمنحهم ذلك، ولذلك بقي هذا الأمر كما كان من قبل.

كتابة أرسلت إلى البابا حول
أصل محمد(صلى الله عليه وسلم) وشرائعه

وفي هذا الوقت نفسه، أرسلت رسالة إلى صاحب القداسة البابا غريغوري التاسع من بلدان الشرق، من المبشرين الذين كانوا يرتحلون في تلك المناطق، وعندما نشرت للعالم، وحوت الحديث عن العقيدة الزائفة، وعن... محمد (صلى الله عليه وسلم) نبي الاسلام فإنها أثارت الكراهية والسخرية من قبل الجميع، وهذه الأشياء قد عولجت من قبل في مكانها

المناسب، في أخبار سنة ستمائة، عندما بدأ الوباء المحمدي.

ويصر السراسنة على أنهم عرفوا بهذا الاسم نسبة إلى ساره«١»، لكن والحق يقال ينبغي أن يقال لهم الهاجريين نسبة إلى هاجر، واسماعيليين نسبة إلى اسماعيل، الذي أنجبه ابراهيم من أمته هاجر، ومن اسماعيل ولد أبناؤه:

قيذار، نابت، يشجب، يعرب، تيرح، ناحور، مقوم، أد، أدد، عدنان، معد، نزار، مضر، الياس، مدركة، خزيمة، كنانة، النضر، مالك، فهر، غالب، لؤي، كعب، مرة، كلاب، قصي، وعبد مناف، الذي كان لديه ولدين هما: هاشم، وعبد شمس، وأنجب هاشم الذي هو واحد من الاثنين: عبد المطلب، وأنجب عبد المطلب: عبد الله، الذي منه ولد محمد (صلى الله عليه وسلم)، الذي يعدّ نبي السراسنة.. وقد خلف محمد (صلى الله عليه وسلم) في مملكته وفي أوهامه الخطاب (كذا) وخلف الخطاب عمر، وهو الذي كان معاصراً لكسرى، الذي قتله هرقل، الامبراطور الروماني.

الممارسات التي نشأ فيها محمد (صلى الله عليه وسلم)

وهذا الرجل، الذي اسمه محمد (صلى الله عليه وسلم)، عند موت أبيه عبد مناف، تولى العناية به رجل اسمه أبو طالب، وقد صار وصياً عليه، ورباه، وكان رجلاً يرعى الأوثان في مكان اسمه الكعبة، وأيضاً بيت الله، وعندما وصل إلى سن الشباب، أصبح يعمل لدى امرأة اسمها خديجة ابنة خويلد، التي أعطته أتاناً لخدماته، وليجلب بضائع إلى مناطق آسيا، التي كانت هي تتسلم ثمنها، وأخيراً تصادق مع هذه المرأة وتزوجها، وقد ارتفع شأنه بذلك كثيراً، وبدأ يتشامخ، وسعى لأن يجعل نفسه حاكماً على كل القبائل وعلى شعبه، وفي الحقيقة كان سيدعي لنفسه أنه الملك عليهم، لولا

١ - أصل الكلمة هو التصحيف المعتاد لدى النقل من لغة إلى أخرى، لكلمة «شركة ثمود».

أن بعضهم الذين كانوا أكثر نبالة وقوة منه شخصياً قد عارضوا هذا المغتصب، وعند ذلك أعلن عن نفسه أنه نبي بعث من عند الله، وأن على جميع الناس الإيمان بكلماته، ولم يكن العرب الجاهلين والفقراء قد رأوا من قبل نبياً، ولذلك آمنوا به، وكان هناك أيضاً واحداً مرتداً، قد وقع بالهرطقة، وكان محروماً كنسياً، وقد دعا إلى العقيدة نفسها، وكتب عقيدته، وجذب محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى صداقته جميع قطاعي الطرق واللصوص الذين أمكنه جمعهم، ومركزهم في أماكن سرية على الطرق من أجل سرقة التجار وهم على طريقهم من آسيا، وكان في أحد الأيام قادماً من مدينتي اليمن والشام، فوجد على الطريق جملاً، كان ملكاً لرجل اسمه «أبي جهل ابن هشام»، فاستولى عليه على الفور، وهرب إلى مدينة مكة، غير أن سكان ذلك المكان، لم ينظروا إليه كنبي، فأهانوه، وطردوه من مدينتهم كمدعي، وكرهوه كسارق وسالب للمسافرين، ثم إنه ذهب إلى مدينة في الصحراء، كان شطر من سكانها يهود، والشطر الآخر كفار، ووثنيين، وفقراء، وأناس جهلة، وهناك بنى مع أصحابه معبداً فيه نشر عقائده المزيفة إلى الناس البسطاء، وبعد هذا أرسل واحداً من أتباعه اسمه حمزة بن عبد المطلب Gadimelic مع أربعين جندياً، لنهب التجار الذين كانوا يرتحلون مع مبالغ كبيرة من المال، والتقى هؤلاء الرجال بأبي جهل بن هشام (الذي كان محمد «صلى الله عليه وسلم» قد استولى على جمله)، وكان برفقته ثلاثمائة رجل من مدينته، ولدى رؤية هؤلاء هرب اللصوص الذين أرسلوا من قبل محمد (صلى الله عليه وسلم)، وهذا يدل على أن هذا النبي المزيف لم يستطع أن يتنبأ مسبقاً بهذه الحادثة ليحترس ضدها، لأنه لم تكن لديه روح النبوة، ولذلك فإن السراسنة يكذبون عندما يقولون بأنه كان لديه دائماً عشرة ملائكة معه، كانوا يتولون خدمته في كل شيء.

وفي مناسبة أخرى أرسل محمد (صلى الله عليه وسلم) هذا، رجلاً اسمه عبيدة Gabeit ابن الحارث Alcharith مع أربعين عسكرياً، لجمع

الأسلاب، وقد هوجم هؤلاء من قبل مكرز Abizechem ابن حفص Nubar مع أصحابه، وقد هزم هؤلاء اللصوص وفـرقوهم بعدما قتلوا بعضاً منهم، ومامن واحـد من مـلائكة محمـد (صلى الله عليه وسلم) قـد ساعدهم، ومجدداً أرسل محمـد(صلى الله عليه وسلم) في المناسبـة الثالثـة، واحداً من أتبـاعه اسمه عبد الله بن جحش... [إكتفيت بها تقـدم كنموذج وحـذفت البـاقي لعـدم الفـائـدة، وللتشـويه الشـديد الذي لحق بالأسماء، وللزيف الواضح].

هرطقة الباترينيين والبوغارينيين

وحصل في هذه الآونة الهراطقـة الذين يعرفون باسـم الباترينيين Pat-erinians والبـوغـارينيين Bugarians الذين يسكنون في مناطق مـاوراء الألب، والذين أفضل أن أقف صـامتاً تجاه آثامهم وأن لاأذكـرها، حصلوا على أرضية قوية حتى أنهم تجرأوا على تهديد نقاوة الإيمان في مناطق فـرنسـا وفـلاندرز، لكن بفضل نشـاط وادارة ومتـابعـة الواعظين من الفـرنسيسكـان، والمبشرين، واللاهوتيين، وبشكـل خـاص واحـد من المبشرين اسمه زوبرت (الذي كـان لقبه بوغري Bugre وكان قد تحول من ذلك الإيمان ولبس رداء المبشرين) وكـان قـد عـرف باسم مطرقـة الهراطقـة، فبفضلـه انحسرت أوهامهم، وجـرى الكشف عـن اثمهم وفضحه، وقـد رفض عدد من الجنسين التحـول إلى الإيمان الصحيح، فأمر باحراقهم، وهكذا أحرق خلال شهرين أو ثلاثة أشهر خمسين انسانا، وهم أحياء.

نشوب خلاف بين الامبراطور وبين الرومان

واشتعل في هذه الآونة غضب الامبراطور ضـد الايطاليين، إلى درجـة، أنه لإزدياده وحقنه يومياً تفجـر على شكل حقد شديد لايمكن اصـلاحه، ولذلك تقـدم بشكاوى كثيرة حـول صلفهم إلى صـاحب القداسـة البـابا،

مؤكداً ومصرّاً على أن تشامخ الذين يكرهونه هو الذي يسيطر دوماً، وسأل البابا أن يقوم مع مساعدة جميع البلاط الروماني، في أن يعطي اهتمامه كله، لإعادة إقامة سلام مشرف بينه وبينهم، أو أن يقدم إليه مساعدة فعالة، حتى يتمكن بوساطة استخدام السلاح من تدجينهم واخضاعهم، وانزالهم إلى وضعهم المعتاد بالطاعة، وكما أن البابا قد طُلب منه تقديم مساعدة إليه، وعد الامبراطور بتقديم المساعدة إلى الكنيسة الرومانية، عندما تجد نفسها في ضائقة ومحتاجة إليها، ولذلك وجدت الكنيسة نفسها في وضع حرج، ولم تعرف كيف تقرر التصرف، واشتكى الامبراطور بحدة كبيرة من مدينة ميلان التي كانت حاضنة الهراطقة وحامية المتمردين ضد الامبراطورية، ولكي يحارب ذلك المكان، حشد في المكان نفسه جيشاً كبيراً، وقد سجن ابنه هنري، الذي اتهم بالخيانة ضد أبيه، في سجن مضيق عليه.

عقد مؤتمر في لندن

اجتمع في العام نفسه، في ٢٨ نيسان نبلاء انكلترا في مؤتمر عقد في لندن، للبحث في شؤون المملكة، وكان الذي سبب دهشة كبيرة إلى الجميع أن الملك اتبع نصيحة الأسقف المنتخب لبلنسية Valentia بدلاً مما كان عليه، برفضها، فقد بدا للنبلاء أن مواضيعه العامة تستحق الازدراء، ولذلك غضبوا من الملك واتهموه بالتقلب، وقالوا فيما بينهم:

«لماذا لايحمل هذا الأسقف المنتخب نفسه، ويذهب إلى مملكة فرنسا، بما أن الملك الفرنسي قد تزوج من الأخت الكبرى لملكتنا، وذلك من أجل أن يدير المملكة الفرنسية، كما يفعل هنا، وبسبب أن ابنة أخته هي ملكة تلك البلاد؟»، وكانوا غاضبين جداً، وذهب الملك في اليوم الأول من المؤتمر إلى برج لندن، وبذلك أعطى سبباً كبيراً لعدم الرضا، لكثيرين حول هذه القضية، وقد شعروا بأحاسيس غير موائمة وليست مفيدة، ولذلك لم يذهب النبلاء لافردياً ولاجماعياً إلى برج لندن إلى الملك، خوفاً منهم من أن يقبل بالنصيحة الشريرة، وأن يثور غضبه عليهم، وقد أنذرتهم كلمات

هوراس Horace:

«لأن علامات أقدام هذه الحيوانات تشير نحو عرينك

مامن أحد منهم، بقدر مايمكنني الرؤية، قد عاد ثانية».

ومع هذا فإن الملك ضبط نفسه بعواطف الحكمة، فذهب من البرج إلى قصره، ليبحث هناك حول المسائل الملحة للمملكة، بشكل أكثر مواءمة مع نبلائه، وقد وصل إلى قرار يستحق الثناء، وهو وجوب صرف جميع عمد المناطق، و ينبغي تعيين آخرين مكانهم، لأنهم فسدوا بالرشوة، وابتعدوا عن طرق الصدق والعدل، ولذلك أحل الملك محلهم رجالاً امتلكوا المزيد من الأراضي الاقطاعية المكتراة، وكانوا أغنى، ومن أصل أكثر نبالة، ومن الذين لن تدفعهم الحاجة إلى اشتهاء الهدايا، كما أنهم لن يكونوا عرضة للفساد، كما أنه جعلهم يقسمون أنهم لن يقبلوا أية أعطية، مالم تكن على شكل طعام أو شراب، وفقط بشكل معتدل وليس متطرفاً، ولن يقبلوا هدية أية أرض بمثابة جائزة، فيها تتعرض العدالة إلى الفساد، وإلى هذا المؤتمر أرسل ملك سكوتلندا رسلاً خاصين، طلبوا من الملك بإلحاح الامتيازات العائدة إلى مولاهم، أي إلى ملك سكوتلندا المذكور، حيث قالوا بأن لديهم صكاً، وعندهم شهادات عدد كبير من النبلاء، ولكن وضع القرار حول هذه القضية في الوقت الحالي جانباً، وتأجل البت فيه، وفي الوقت نفسه، لأن الملك لم يكن بإمكانه إعادة إقامة سلام بين أخيه الايرل رتشارد، ورتشارد سيوورد، قام بنفي الأخير من المملكة، قائلاً بأنه يؤثر تحمل غضبه وليس غضب أخاه، وقام أيضاً، لدهشة الكثيرين بعزل مستشاريه من وظائفهم، وهم:

رالف فتز— نيقولا، قهرمان قصره، وعدد كبير آخر من كبار رجالات حاشيته، كما أنه طلب أيضاً على الفور استرداد خاتمه من أسقف شيستر، الذي كان مستشاره، مع أنه قام بواجبات وظيفته من دون ملامة، مبرهناً

على أنه عمـود مدهش للصدق في البـلاط، وعلى كل حال رفـض المستشار تنفيـذ ذلك، ورأى أن عنف الملك قـد تجاوز حـدود الاعتـدال، وقـال بأنه لايمكنه التنازل عنه بأي حال من الأحـوال، لأنه تولى مسؤولية هذا العمل بمـوجب مـوافقة عـامـة من المملكة، ولذلك لايمكنه الاستقـالة من دون الحصول على الموافقة نفسها.

وفي تلك الآونة نفسها أيضـاً، أرسل الامبراطور رسلاً إلى الملك، يطلب مبلغاً كبيراً من المال، كان الملك قد وعده به مع أخته.

معركة حوربت في سكوتلندا

وفي حوالي الوقت نفسـه، احتشد عدد من النبلاء ومن الرجـال الأشداء من مختلف مناطق الغـرب، وخـاصة من غـالووي Galleway وجزر الانسـان، ومن أجـزاء من ايرلندا، وجـاء احتشـادهم بناء على مبـادرة من هيوج دي لاسي، الذي كانت ابنته قد تزوجت من آلان صاحب غالووي، المتـوفى أخيراً، وقـد اتحدوا مع بعضهم من أجل هدف استرداد غـالووي واعادتها إلى الابن الشرعي لآلان المتقدم ذكـره، ولكي يزيلوا بالقوة، الخلع الذي عمله لتـوه ملك اسكـوتلندا، الذي وزع الميراث بين البنات الثـلاث لآلان، اللائي يعـود إليهن الميراث بموجب الحق الشرعي، وبناء عليـه إنه من أجل اعـادة النظر بذلك التوزيع أو إلغـائه، ولكي يعيـدوا الأراضي إلى توماس المتقـدم الذكر، أو إلى ابن تـوماس، الذي هو أخـو توماس، أو على الأقل إلى واحد مـن تلك الأسرة، هبّ أصحاب هذه الدعـوة من المقدمين إلى السـلاح، و انفجروا يمارسـون العنف، ويسعـون إلى تحرير أنفسهم من سلطة الملك، ولكي يجلبوا محاولاتهم إلى النتيجة المرجوة، دخلوا في معاهدة من نوع غريب، وذلك بوساطة عمل تقوي غريب، هو عائد إلى عادة شاذة لأجدادهم، حيث قام جميع هؤلاء البرابرة ومقدميهم ورجال العدالة لديهم بسحب الدم من العـرق القـريب من القلب، وصبـوا ذلك الدم في كأس كبير، ثم حـركوه ومـزجوه، وبعـد ذلك شرب كل واحد منهم تلو الآخـر

جرعة منه، كعهد على أنهم سوف يكونون منذ ذلك الوقت متعاهدين بعهد لايمكن فصمه، وبما أن معاهدتهم هي معاهدة قرابة في السراء والضراء، حتى لو كلفهم ذلك رؤوسهم، لذلك أثاروا الملك والمملكة للإقدام على الحرب، فأحرقوا بيوتهم وبيوت جيرانهم، حتى إذا ما وصل الملك سوف لن يجد لامأوى ولاطعاماً من أجل جيشه، وتورطوا في أعمال الاغتصاب والاحراق، وكدسوا الأذى فوق الأذى، ولدى سماع ملك الاسكوتلنديين بهذا جمع قواته من جميع الجهات، وزحف من أجل اللقاء بهم، وانقلب خط الحرب ضد الغالوويين وأرغموا على الفرار، وطاردتهم القوات الملكية بحد السيف، وقتلت عدة آلاف منهم، والذين أخذوا أسرى وهم أحياء، من قبل الملك وجنوده، واجهوا موتاً مهيناً، دون أية فرصة لفداء أنفسهم، وقد ألقى بعضهم بأنفسهم على رحمة الملك، فألقيوا بسجون ضيقة، حتى يتمكن من التشاور حول الذي ينبغي فعله بهم، وقد قام —ليس من دون مسوغ جيد— بحرمانهم وورثتهم من مواريثهم، وبعدما نال الملك هذا النصر، حمد الرب ومجده، الذي هو رب الجيوش، وأصغى إلى مشورة جيدة، فبعث رسالة إلى روجر دي كوينسي Quincy ايرل وينكستر، وجون بالأويل Baliol ووليم ابن ايرل ألبيمارك، حيث بما أنهم كانوا متزوجين من بنات آلان أوف غالووي، يمكنهم الآن، بعد القضاء على الاضطراب، الاستحواذ بسلام على الحقوق العائدة إليهم، ووقعت المعركة في شهر نيسان، وكان حظ الحرب لصالح ملك الاسكوتلنديين.

اضطراب في المملكة الفرنسية

في الربيع من العام نفسه، ثار كثير من النبلاء في عصيان، لانشاب الحرب ضد مملكة فرنسا، لأن غضبهم قد أثير بسبب أن فرنسا، التي هي ملكة الممالك، كانت تحكم بمشورة امرأة، والتحق رجال من ذوي المراتب العليا، ويتمتعون بالشهرة، وكانوا مدربين منذ صغرهم على استخدام السلاح، بالعصيان، وتحالف ملك نافار، وكونت شامبين، وكونت لي

مـارشي، وكـونت بريتـاني، وعدد كبير آخـر من النبـلاء، فيما بينهم، بعهـد ويمين ومعاهدة.

موت وليم دوبني

وفي هذه الآونة أيضـاً، في الســادس من أيار، أنهى وليم دوبني Dau-beny الأكبر حياته في سن متقدمـة، وكان فارساً شجـاعاً، وشهماً، وقد حُـبي بجميـع السمات النبيلة، وقـد خلفــه ابنه وليم، الذي كــان وريثـه الشرعي، والذي سار على نهج أبيه في كل مجال.

الاستيلاء على قرطبة وابرام سبتة هدنة

وهاجم في هـذا العـام نفســه، سكان جنوى، يســاعــدهم البيــازنة، والمرسيليين، وملك أراغون، بشكل مفاجىء مدينة فخمة في اسبانيا اسمها سبتة Cepta وكانت بيد المسلمين، وكانت تلحق منذ زمن طويل كثيراً من الأذى والضرر بالغزاة المذكورين، وبسبب الخوف من العدد الكبير من أعدائهم، وبسبب الهجوم المفـاجىء للأعداء، استسلم أهل سبتة إلى سلطة الأعـداء، وعملوا هدنة محدودة الوقت، اشترطت أنه إذا لم يقـدم مـولاهم ملك افـريقيـا الذي يعــرف عـادة باســم أمير المؤمنين، أو لم يرسل إليهم مساعدة فعالة خلال ثلاثة أعوام، هم سوف يستسلمون طواعية ومن دون أية مصـاعب ويسلمون المدينة كلهـا إليهم، كما اشترط أنه في الوقت نفســه يمكن لملك أراغـونِ ولحلفائـه في أية وقت خـلال الأعوام الثـلاثة أن يبني بسلام برجـاً، وأن يحصنه حسبما يريد، وذلك على جسر، كانوا قـد استولوا عليـه قبل الإعـداد لهذه الهدنة، ثم جـرى بعـد ذلك الاستيـلاء على مـدينة قـرطبـة، وبما أن سبتــة كـانت قـد احتلت منذ أمـد، فقــد ارتفعت آمـال المسيحيين، واستبد الرعب بالمسلمين، وبشكل خاص بملك افريقيا.

أعجوبة

ظهرت في تلك الآونـة، في شهر أيار، وعلى مقربة مـن دير اسمه روشي

Roche في الجزء الشمالي من انكلترا أيـدي فـرسـان مسلحين بشكل جيد، ويمتطون خيولاً ثمينة، مع رايات، وترسة، ودروع وسوابغ، وخوذ، وكانوا مزينين بتجهيزات عسكرية أخرى، وقد خرجوا من باطن الأرض، ثم اختفـوا وبعـد ذلك ظهـروا مجدداً، وقد استمـر هذا المشهـد لعـدة أيام، وجذب انتباه الذين نظروا إليه وشـاهدوه، ودهشوا تجاهه وتمتعوا، وركب هؤلاء الفـرسـان على شكل صفـوف وأرتال، واشتبكوا أحيـاناً بالضراب، وتبـارزوا أثناء المنازلات، وقصفـوا رمـاحهم وحطمـوها إلى قطع صغيرة أثناء الصـدام، وقـد رآهم السكان وشـاهدوهم، لكن ذلك كـان عن بعـد وليس من قـربهم، لأنهم لم يتـذكـروا أنهم شهـدوا مثل هذا المنظر من قبل، وقـال كثيرون بأن الواقعة لم تكن من دون مهـابة خـاصة بها، وكـانت هذه الواقعة أكثر وضوحاً في ايرلندا وعند حدودها، حيث ظهروا وكأنهم كانوا قادمين من المعركة، وقد جـروا خيولهم خلفهم، وكانوا معقورين منهكين، ومن دون ركّاب، وكان الفرسان أنفسهم مجروحين بشدة وملوثين بالدماء، والذي كـان أكثـر ادهاشـاً هـو أن اثر سيرهم ظهـر على الأرض وعلى الحشائـش النامية وعلى حركـاتها واهتزازاتها، وكثير من الناس عنـدما رأوا هذا المشهد هربوا مذعـورين من أمامهم، وحملوا أنفسهم إلى الكنائس وإلى القـلاع، معتقـدين أن المسألة لم تكن وهماً، بل معـركـة حقيقيـة، ووصلت أخبـار هذه الوقـائع إلى علمنا بعـد عـدة سنوات من وقـوعهـا، وذلك من خـلال تقـريـر ورواية صحيحـة عن الحادثة تم الحصـول عليهـا من ايرل غلوستر، ومن شهادات عدد كبير من الأشخاص.

الملك يسعى إلى إلغاء بعض المنح التي عملها

وفي العام نفسـه نال بطرس ريفول وستيفن سيغـريف، اللذين أتينا على ذكـرهما من قبل أعـلاه الحظوة لدى الملك، وفي هذا العـام أيضاً، في اليـوم الثـامن من حزيـران، اجتمع نبلاء انكلترا في ويستمنستر، بحضـور الملك، عندمـا حاول هذا الأخير، بـوساطة ترخيص من البـابا، إلغـاء بعض المنح

التي عملها لبعض منهم قبل أن يعقد زواجـه، على أساس أنه هو نفسه غير قادر على المنح، من دون رضـا البابا، الذي إليه —كما قال— تعـود حقوق منح الامتيازات في المملكة، وقد اندهش كثيرون تجاه هذا، وقالوا بأن الملك يسعى أكثر من قـدرته، أو أكثر من واجبه، ليضع المملكة مـوضع العبودية، أو أن ينزلها إلى آخر أحوال الضعف.

بعض النبلاء الانكليز يحملون الصليب

وحمل في هذه الآونة الايرل رتشارد، أخو الملك، وايرل غ. G وجون ايرل شيستر ولنكولن، وايـرل سـالسبري، وغ. G دي لوسي، أخـــوه، ورتشـارد سيـوورد، وعـدد كبير آخـر من النبـلاء، الصليب وأمـر الايرل رتشارد، على الفور بقطع أشجار أحراشه وبيعها، وقد بذل جهده بمختلف الوسائل التي توفرت لديه لجمـع المال لدعم حجه، وليس بعد وقت طويل من هذا وبوسـاطة سيمون دي مونتفـورت ايرل ليستر، و[كما قيل] بطرس دي ريفول، نال رتشارد سيوورد بشكل غير عادل، غضب الملك، واعتقل، ووضع في السجن، لكن مـالبث بعـد ذلـك أن أطلق سراحـه بالسهـولة نفسها.

مذبحة اليهود

وفي هذه الآونة، وقعت مذبحة كبيرة لليهـود، في القارة، وبشكل خاص في اسبانيا، ونتيجة لذلك فإن اليهود الموجودين على هذا الجانب من البحر، خوفاً منهم من أن يعانوا وفق الطريقة نفسها، قاموا فقدموا إلى الملك هدايا مالية، وبناء عليه أصدر أمراً، أمر بإعلانه بوساطة المنادين، بأنه لايجوز لأي انسان عمل أي ضرر، و التسبب بأية مضايقة لأي واحد من اليهود.

هدية الامبراطور

في هذا العام، في حـوالي عيد القـديس بندكت، أرسل الامبراطور هدايا لطيفـة إلى ملك انكلترا، تضمنت ثمانيـة عشر حصـانـاً ثميناً، وثلاثة بغـال

محملة بالحرير مع هدايا غالية أخرى، كما أرسل أيضاً بعض الخيول الغالية والأشياء المرغوبة إلى الايرل رتشارد، أخي الملك.

جفاف طويل وتضرر الحاصلات الزراعية

في صيف هذا العام، وبعد شتاء ممطر إلى أبعد الحدود، كما تقدم الذكر، حدث جفاف مستمر ترافق مع حرارة لايمكن احتمالها تقريباً، وجاء ذلك بعد الأمطار، واستمر لمدة أربعة أشهر وأكثر، ولذلك جفت البحيرات والمستنقعات إلى قعرها، وانفلقت الأرض، وتشققت كثيراً، ولم يرتفع نمو القمح في كثير من الأماكن إلى أكثر من قدمين.

تهدئة النبلاء الفرنسيين

وفي العام نفسه، ومع اقتراب انتهاء الصيف، تقدم نبلاء فرنسا، الذين انشغلوا في اضطرابات تلك المملكة، ببعض العروض للسلام، واستقبلوا في حظوة الملك، وفي هذه الآونة أيضاً قام بعض النبلاء في انكلترا، من الشجعان لكن المتهورين —الذين لاندري بأية روح أغويوا— بالتآمر مع بعضهم والدخول في تحالف لعين، من أجل نهب انكلترا، مثل لصوص وعصابات ليلية، وأصبحت نواياهم —على كل حال— معروفة، وكان رئيس التآمر، واحداً اسمه بطرس بفر Buffer وكان عمله بواباً لدى الملك، وجرى اعتقاله، وبوساطته أمكن اتهام البقية، وجرى نصب آلة مرعبة اسمها المشنقة في لندن، من أجل تعليقهم عليها، وبالفعل جرى تعليق اثنين من زعماء التآمر، وكان ذلك بعدما اشتبكا بمبارزة فردية، وكان أحدهما قد قتل بالمبارزة، وقد شنق ورأسه مفلوق، وعلق الثاني وهو حي، وقد لفظ روحه التعيسة على المشنقة نفسها، وسط نحيب الجماهير التي احتشدت.

خلاف بين سكان أورلين ورجال الدين

وفي العام نفسه، في حوالي أحد الشعانين، نشب خلاف مؤسف بين

رجال الدين والسكان في مدينة أورلين Orleans كان قد تأصل وتطور بوساطة صراخ شجار امرأة، وازداد الهياج وتضاعف إلى حد أن بعض العلماء، والشباب المشهورين من أسر نبيلة قد قتلوا في المدينة، من قبل أهل البلدة، وكان بين هؤلاء حفيد كونت لي مارشي، وحفيد كونت شامبين، وملك نافار، وقريب بالدم لكونت بريتاني، وقريب بالدم للبارون النبيل ايركنوولد Erkenwuled دي بوربون، وآخرين كثر، وقد أغرق بعض هؤلاء في نهر اللوار، وقتل بعضهم الآخر، وقد نجا بعضهم بصعوبة حيث أخفوا أنفسهم في كهوف، وكروم، وأماكن سرية، وبذلك نجوا من الموت، ولدى سماع هذا من قبل أسقف المدينة، غضب كثيراً وعظمت غيرته على العدل، فخرج من المدينة، فحرم كنسياً جميع المقترفين لهذه الجريمة، وألقى قراراً بالحرمان من شراكة المؤمنين على المكان كله.

ولدى سماع النبلاء المتقدم ذكرهم —أيضاً— بمقتل أقربائهم، هاجموا المدينة، وجعلوا كثيراً من سكان المدينة طعمة للسيف، دون انتظار لإجراءات المحاكمة، كما أنهم قاموا وسيوفهم تقطر دماً بقطع رؤوس الذين كانوا على الطريق عائدين من بعض الأسواق، وسلالهم محملة بالتجارات، ولم تتوقف هذه الفتنة حتى أقامت الوصاية الملكية —بناء على طلب الطرفين— مصالحة بينهما، وبذلك هدأ الهيجان، وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، وضعت عدة مدن ومقاطعات من المملكة الفرنسية تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وكان بينهم: الرايم Rheims وإيميان Amiens وبوفيا Beauvias وأماكن أخرى، وقامت الانشقاقات الدينية بينهم، وصدرت عن أسباب مختلفة.

الخلاف الذي تفجر في اكسفورد

ونشب في العام نفسه خلاف بين رجال الدين وبين سكان اكسفورد، وبصعوبة، وبعد وقت طويل، مال ذلك الصراع نحو الهدوء بوساطة تدخل الملك، والنبلاء، والأساقفة، ورجال آخرون من ذوي المناصب

والسلطة، واستردت الجامعة وضعها السالف.

وفي شهر آب من العام نفسه، غادر جون أسقف ووركستر، وتوماس أسقف نورويك هذه الحياة، وفي حوالي الوقت نفسه مات هنري أوف كرويلاند Croyland وكان رجلاً من أسرة مشهورة، وكان معروفاً بسبب تقواه، وجاء موته بعدما أدار كنيسته كلها مع الأبنية التي أعاد عمارتها، وذلك لقرابة خمسين عاماً.

شكوى ملك اسكوتلندا

ومضى في العام نفسه الملك، بناء على نصيحة نبلائه، إلى يورك، للتشاور معهم، ولعمل ترتيبات من أجل تسوية الخلاف بينه وبين الاسكندر، ملك اسكوتلندا، الذي تطور الآن إلى كراهية، لأنه بدا للرجال العقلاء الذين عرضوا أحداث المستقبل على ميزان العقل، أنه من الحماقة بالنسبة لمملكة انكلترا، المحاطة من كل جوانبها بالأعداء في القارة، أن تقوم بتوليد الكراهية الداخلية سراً، وكان سبب هذا الخلاف —كما قيل— هو مايلي:

لقد طالب ملك اسكوتلندا بشكل متواصل بكونتية نورثأمبرلاند، التي أعطاه إياها الملك جون بمثابة حصة زواج، لدى اقترانه بابنته جوهانا Johanna وأعلن أنه يمتلك لتأكيد ذلك صكاً، وشهادات عدد كبير من الأساقفة، ورجال دين من ذوي المراتب، وكذلك ايرلات وبارونات، وأعلن أنه من غير اللائق، وعملاً مقيتاً إزالة الذي تفوه به الملوك، وإلغاء ميثاق عمل بين شخصين لهما مثل تلك المكانة السامية، وأضاف أيضاً أنه مالم يقم الملك الانكليزي بإعطائه بشكل سلمي، ماهو واضح أنه حقه، ومبرهن على ذلك بالمنطق، فلسوف يطلب ذلك بحد السيف، وكان يشعر بالطمأنينة، بوجود صداقة سرية —مع وجود ريبة— مع للويلين، وحلفائه، وبتحالفه ومصاهرته مع غيلبرت مارشال، الذي تزوج من أخته مرغريت، التي كانت سيدة جميلة جداً، وكانت عداوة دوله القارية أيضاً،

في حالـة تآمر ضده، وعـلاوة على ذلك، كانـت قضيته عادلة، وقـد تبرهن ذلك بصكوك الملوك الماضين.

وبعـد مناقشـات طويلة من على الطرفين، قـام ملك انكلترا، في سبيل السـلام، ومن أجل حماية مملكتـه، فبـذل كل مـافي طاقتـه، فمنح ملك الاسكوتلنديين مـورداً قـدره ثمانين مـاركـاً من بعض المناطق الأخـرى في انكلترا، وذلك من أجل أن لاتكون حـدود مملكته في المناطق الشماليـة غير عرضـة للخرق، وأثناء انتظار الفـريقين تسوية القضيـة بما يرضي الجانبين، انتهى المؤتمر، وبقي الجميع في تلك الساعة بسلام.

وفي تلك الآونة أنهى فيليب دوبني حيـاته بمـوت حميـد، وكان فـارسـاً نبيلاً، مكـرساً للرب، وشجـاعاً في القتال، وجـاءت وفاتـه بعدما قـاتل في سبيل الرب، في عـدة حجات في الأرض المقـدسـة، وفيها مـات ونال دفناً مقدساً في الأرض المقدسة، وهو ماكان اشتاق إليه طويلاً، عندما كان حياً.

الدعوة إلى حملة صليبية

وعمل في هذا العام، بنـاء على مذكرة من البـابا، تبشير مهيب في كل من انكلترا، وفرنسا، تولاه رهبان طائفتـي المبشرين والفرنسيكسان، مع رجال دين آخرين مشهورين، ولاهوتيين، وقساوسة، وقد منحوا إلى الذين سوف يحملون الصليب تحليلاً كاملاً من الذنوب، التي تابوا منها بصدق، وعملوا اعترافاً، وتجول هؤلاء الوعاظ بين المدن، والقلاع، والقرى، واعدين الذين سيحملون الصليب الكثير من الفرج في القضايا الدنيوية والمنافع، من ذلك مثلاً:

الفـائدة سـوف لن تتراكم عليهم وضـدهم من قبل اليهـود، وحماية من قداسـة البابا لكل مواردهم وممتلكاتهم، وقدمـواعهوداً بتأمين الضروريات من أجل رحلتهم، وهكـذا أثاروا عـدداً كبيراً مـن الناس، لتقـديم العهـد بالقيام بالحج.

وأرسل البابا فيما بعد أيضاً، المعلم توماس، وكان من الداوية، وصديقاً مقرباً منه، وبعث به إلى انكلترا، مع ترخيصه للقيام بتحليل أولئك الصليبيين، الذين اختارهم، واعتقد أنهم مناسبين، وذلك من خلال عهودهم بالحج، ولدى تسلمه المال منهم، قدر أنه صار بإمكانه أن ينفق في سبيل فائدة قضية الأرض المقدسة، ورفعة شأنها، وعندما رأى الصليبيون هذا، دهشوا تجاه نهم البلاط الروماني الذي لايعرف الحدود، وشعروا بقرارة أنفسهم بالغضب، بسبب أن الرومان سعوا هكذا بوقاحة لافراغ حوافظ نقودهم بكثير من الحيل، لأن الواعظين أضافوا، أنه إذا ماقام أي واحد، سواء أحمل الصليب أم لا، وأنه سوف يكون غير قادر بشخصه على القيام بمثل هذه الرحلة المتعبة، عليه أن لاينسى الاسهام بقدر ماتسمح له امكاناته وممتلكاته، من أجل مساعدة الأرض المقدسة، وهو إذا فعل ذلك سوف يتمتع بالغفران المتقدم ذكره، لكن هذه الأشياء كلها جعلت سامعيها متشككين، ذلك أنهم قالوا:

«هل سيبرهن تحليلنا بأنه صادق ووفي؟» وهذا ماحدث وكان، لأن البابا شعر بالغضب ضد الشعب، فعمل حرباً، وجمع الأموال واستخرجها، وجبى العشر من جميع البلدان، وكدس مبلغاً من المال لايحصى من أجل الدفاع عن الكنيسة، لكن السلام مالبث أن أقيم، وأصبح هو والامبراطور أصدقاء، أما المال فلم يسترد قط، وهكذا باتت التقوى لدى الكثيرين عرضة للضعف يومياً، واضمحلت ثقتهم وزالت.

استعدادات الامبراطور لقهر إيطاليا

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، منع البابا، برسائله الرعوية، الامبراطور بشكل دقيق من غزو ايطاليا، لأن الامبراطور، كان قد قام في الصيف بحشد جميع القوات الامبراطورية التي أمكنه حشدها، لمقاتلة الايطاليين الصلفين، وبشكل خاص سكان ميلان، لأن تلك المدينة كانت الحاوية لجميع الهراطقة، والـ Paterines والـ Luciferians والـ Pub-

licans والألبينيين،والمرابين، وقد بدا للامبراطور أن الاشارة عليه بخطة القيام بمساعدة الأرض المقدسة بحضوره شخصياً، مع مثل جيش الرب الكبير هذا، مشورة فاسدة، لأنه لايجوز أن يترك خلفه مسيحيين مزيفين، كانوا أسوأ من المسلمين، وعلاوة على ذلك كان عجب الامبراطور بلا حدود، من أن يقوم البابا بتقديم الحظوة للميلانيين بأي شكل من الأشكال، أو أن يظهر بحال من الأحوال مقدماً الحماية إليهم، وبما أنه بدا بالنسبة إليه أنه أصبح ليس أباً للأتقياء بل عصا للأشقياء، قام الامبراطور بلطف وحكمة، وتعامل مع مثل ذلك الأب المقدس لأنه بابا فرد عليه كمايلي:

جواب الامبراطور إلى البابا

«إيطاليا هي ميراثي، وهذا معروف من قبل كل الدنيا، وأن أطمع بممتلكات الآخرين، وأن أهمل ممتلكاتي، فذلك معناه إثم وذنب عظيم من قبلي، مثلما يفعل الايطاليون بشكل خاص، ولاسيما أهل ميلان، فهؤلاء قد أثاروني، وليس لديهم احترام مناسب لي، بأي طريقة من الطرق، علاوة على ذلك أنا مسيحي، وإنني وإن كنتُ عبداً حقيراً للمسيح، انني مستعد لاخضاع أعداء الصليب، وبما أن كثيراً من الهرطقات، لم تتفجر فقط في ايطاليا، بل نمت وغلظ أمرها، وبدأ السوس يخنق القمح، في جميع مدن ايطاليا، وخاصة في ميلان، لذلك بات أن تزحف لاخضاع المسلمين وأن تبقي هؤلاء من دون عقوبة، كمن يمسح الجرح، حيث دخل الفولاذ محدثاً ضرراً بليغاً، كما أن ذلك يعني احداث ندبة بشعة، وليس المعالجة، ومجدداً إنني وحدي، وأنا بشر ولهذا لست قادراً على القيام بمثل هذه المهمة العظيمة، التي هي اخضاع أعداء الصليب وذلك من دون قوة كبيرة لتساعدني، لأن أعدادهم كبيرة جداً وهم أيضاً أقوياء، ومرة ثانية، أنا وحدي ليست لدي الكفاية للقيام بأعباء مثل هذه القضية المرهقة، من دون كميات ضخمة من المال، ولقد قررت استخدام ثروة المنطقة المذكورة من

أجل تقديم العون إلى المصلوب، والانتقام له، لأن إيطاليا مليئة بالسلاح، والثروات، كما يعرف جميع العالم».

الامبراطور يزحف في إيطاليا للاستيلاء على ميلان

ولدى سماع البابا هذه المناقشة المنطقية العميقة، ولكي لايبدو أنه معارض في هذه المناقشات الجدلية، تظاهر بإعطاء موافقته، وأن بإمكان الامبراطور عبور الجبال والدخول إلى إيطاليا وفقاً لغرضه، وقد وعد قداسته —من دون تراجع، وبقدر مايستطيع أن يقدم له مساعدته الأبوية في كل أمر ضروري، وتشجع الامبراطور بهذا، فجمع بموجب مرسوم امبراطوري جميع القوات التي كان يمكنه حشدها، ودخل إلى ايطاليا، تتبعه كتلة كبيرة من العساكر، وشعر الميلانيون بالخوف —وحق لهم أن يخافوا— من غضبه المرعب، فبعثوا إلى البابا يطلبون نصيحته، والمساعدة الفعالة منه، وبعدما تسلم البابا منهم مبلغاً كبيراً من المال مع وعد بالمزيد، أرسل إليهم كثيراً من التفريج والمساعدة، مما شكل ايذاءاً للامبراطور، وبدا هذا أمراً لايصدق، ومعاكساً لموقف كل انسان، وعجبوا أنه في وقت الحاجة تحول الأب إلى عراب، ثم خرج سكان ميلان منها، وزحفوا من مدينتهم في قوة كبيرة، وصل تعدادها إلى نحو خمسين ألف رجل مسلح، وساروا ومعهم علمهم —الذي سموه Carruca أو Canochium للتصدي للامبراطور، وأرسلوا إليه رسالة، بأنهم كانوا جاهزين لمقاتلته، ووصل في هذه الآونة فارس من انكلترا اسمه بلدوين دي فيري Vere أرسله ملك انكلترا إلى الامبراطور ليعدّ لبعض الأعمال السرية المتعلقة بالملك المذكور والامبراطور، وحول هذه القضايا أعطى فيما بعد إلى مستمعيه معلومات كاملة.

وعندما سمع الامبراطور بأن الميلانيين قد خرجوا بمثل تلك الوقاحة للقتال ضده، قدّر على الفور بأنهم شعروا بهذه الجرأة اعتماداً على مساعدة آخرين، وليس اعتماداً على أنفسهم، وبعدما جرى تقدير القضية في مؤتمر

مع نبلائه، جرى الاتفاق مع التهليل من قبل الذين كانوا حضوراً من جانب الامبراطور، من العالي إلى الداني، على وجوب حمل السلاح من دون تأخير لمحاربة هؤلاء الغوغاء الميلانيين، الذين تجرأوا مثل جرذان خرجوا من جحورهم، لإثارة مولاهم ودعوته إلى الحرب مع محاولة تجريب منازلة قوتهم مع القوى الامبراطورية، وعندما علم الميلانيون بهذا القرار، توقفوا قليلاً، وقام واحد من شيوخ المدينة، الذي اعتمد على رأيه الجميع ليتكلم، فتحلق الآخرون من حوله، فخاطبهم قائلاً:

«أصغوا إليّ، ياأهل المدينة النبلاء، إن الامبراطور على مقربة منا في قوة كبيرة ومع جيش عظيم، وهو، كما هو معلوم لدى العالم أجمع، مولانا، وإنه إذا ماحدث هذا الصراع المؤلم، سوف يصدر عنه ضرر لا يمكن ترميمه، لأننا إذا ما كنا المنتصرين في الصراع، فلسوف ننال الملامة مع نصر دموي على مولانا، لكن إذا ماغلبنا نحن، فلسوف يدمر اسمنا وسمعتنا، واسم شعبنا وسمعة مدينتنا إلى الأبد، ولسوف نكون مهانين بين جميع الشعوب، وبما أنه من جميع الجوانب أمر مهين وخطير أن نزحف مسافة أطول بطريقة عدوانية، أرى إنها خطة حكيمة في أن نعود إلى مدينتنا، حيث أنه إذا مااختار الهجوم علينا، فلسوف يكون أمراً شرعياً بالنسبة لنا، أن نصد القوة بالقوة، وسواء أسمح لنا باقامة سلام معه، أو أرغمنا بالخروج من ديارنا بالقوة، سوف تكون مدينتنا مصانة وسوف يبقى اسمنا الجيد وسمعتنا الطيبة دونما تشويه»، وقبل جميع البقية بهذه الخطة، وعملوا بموجبها، وكان ذلك مشهداً باعثاً على السرور للامبراطور، ودون أن يظهر من جانبه خوف أو رعب، قام بمطاردة المنسحبين، واستعد للحصار، وأثناء وقوع هذه الأحداث أثيرت خلافات في المقاطعات الرومانية، إما بوساطة تآمر الكنيسة الرومانية أو بوساطة أعداء الامبراطور، وتولى ذلك دوق النمسا، وفي سبيل القضاء على هذه الخلافات الداخلية جرى ارسال رسائل ورسل بكل سرعة إلى الامبراطور تشرح له الوضع المنذر الجديد، وتستدعيه

للعودة على الفور، ولذلك رفع الامبراطور الحصـار، الذي كان قد أعدّ له، وعاد إلى ألمانيـا، ولدى سماع سكان ميلان بهذا، استـولوا بالقوة على بعض القـلاع التي كـان الامبراطور قـد استـولى عليهـا، وأسروا حـاميـات هذه القـلاع، ثم أعدمـوا جميع الفرسـان والجنود التابعين للامبراطور، وعندمـا سمع الامبراطور بذلك، غضب غضباً عظيماً، وحق له أن يغضب، ولذلك صبّ جـام غضبـه المشروع على مقترف هذا الاثـم، وعـاقب دوق النمسـا بحرمانه من جميع مـراتبه، وأراضيه، وقلاعه، ومـدنة، وبصعوبة بالغة أبقى على حياته ومنحـه إياها، وعلى هذا بدا أن الانتقام الذي نـزل به الآن عادلاً بسبب الجريمـة التي اقترفت من قبله ضـد الملك رتشـارد أثناء عـودته من الأرض المقدسة، ومع ذلك بدت حتى في هذا الوقت غير كـافية، كما يقول النبي:

«الرب ينتقم بشدة من الأشرار وإن جاء ذلك متأخراً» و«يلاحق الأبناء بجرائم الآباء حتى الجيل الثالث، والرابع».

وفي هذا العـام، في حوالي أيـام عيد القـديس ميكائيل، عـاد بلدوين دي فيري إلى انكلترا، وكان رجلاً مستقيماً، ومخلصـاً، وفصيحاً، وجلب جواب الامبراطور إلى الملك، وقدم روايـة كاملة حول جميع هذه القضـايا، إلى كل من اختار الاصغاء إليه.

وفي تلك الآونة أيضـاً، عاد بطرس، أسقف وينكستر، من القـارة، وهو محروم من جميع قواه الجسدية بسبب المرض، وقـريباً من ذلك الوقت أيضاً، وبالتحديد في يوم الاثنين التالي لذلـك العيد، نزلت أمطار ثقيلة في الأجزاء الشمالية من انكلترا، إلى درجة أن الأنهار والبحيرات فاضت فوق حدودها المعتـــادة، وسببت كثيراً من الـدمــار، بتـــدمير الجســـور، والطواحين، والممتلكات الأخرى على مقربة من الشواطىء.

ومـات في العام نفســه، في السادس عشر من آب، تومـاس دي بلندفيل

Blundeville أسقف أوف نورويك، ومات في حوالي الوقت نفسه وليم أوف بلي Bleis أسقف ووركستر، وهنري دي سانـدفورد أسقف أوف روكستر، ومـات أيضـاً تومـاس راعي دير ايفهـام Evesham في هذا العام، وخلفه رتشارد رئيس رهبان هيرل Hurle.

عواصف ريح عنيفة وفيضانات مدمرة

في اليوم التالي لعيد القديس مارتن، وفي ثمانية ذلك العيد، حدث هيجان كبير للبحـر بشكل مفاجـىء في الليل، وهبت ريح عاصفـة عنيفـة، سببت فيضـانات للأنهار، وكـذلك للبحـار، وفي بعض الأمـاكـن، خـاصـة على السـاحل، ساقـت السفن وأبعدتها عن مـوانئهـا، وفصلتهـا عن مراسيهـا، وأغرقت عـدداً كبيراً من الناس، وأهلكت قطعاناً من الأغنام، وأسراباً من الماشيـة، واقتلعـت الأشجـار من جـذورها، ورمت البيـوت وهـدمتهـا، وأفسـدت السواحل، وارتفع البحـر لمدة يومين وليلة بينهما، وهذا حـال لم يسمع بمثله من قبل، ولم يعرف البحـر المدّ والجزر كما هو معتاد، بسبب أنه أرغم «كما قيل» بقـوة الريح المعـاكسة، وشـوهدت أجسـاد الذين غرقـوا، وهي مـرمية غير مـدفونة، في كهـوف تشكلت بوساطة البحـر، وعلى طول السـاحل وعلى مقـربـة منه، وعند وسبيتش Wisbeach والقـرى المجاورة، كانت هناك أعـداد لانهاية لها من المخلوقات البشرية قد هلكت، وفي إحـدى البلدات، ولم تكن مكتظة السكان، عهد بحـوالي مـائة جثـة إلى القبور، في يوم واحد، وفي ليلة أمسية عيد الميـلاد، ثارت أيضاً عاصفة ريح قوية جداً، صـاحبتها رعود، وأمطار غزيرة جـداً، وقد هزت الأبراج وبقية الأبنيـة، وحـولت اضطرابات الأنواء الطـرقـات والبحـار، إلى مـواضع لايمكن عبـورها، وهكذا في هذا العام، في أيـام موسم الاعتـدالات تولت الرياح مـرتان متكررتان اجتياح انكلترا، محدثة أضراراً لايمكن تعـويضهـا، وفي الحقيقـة، يبـدو أن الرب، قـد أرسل —بسبب ذنـوب العبـاد— هذا الطوفان، كسـوط عذاب إلى الأرض، ولينفذ التهـديد الموجود في الانجيل

قوله:

«سوف يكون فوق الأرض عذاب للأمم، مع ارباك، وسوف يزمجر البحر مع الأمواج».

ملك انكلترا يستخرج ضريبة جزء من ثلاثة عشر جزئاً من الممتلكات المتحركة في جميع أرجاء المملكة

في عام ١٢٣٧ لتجسيد ربنا، الذي كان هو العام العشرين لحكم الملك هنري الثالث، عقد الملك بلاطه في عيد الميلاد في وينكستر، ومن هناك بعث بمذكرات إلى جميع أرجاء المقاطعات الانكليزية، أمرفيها جميع النبلاء العائدين لمملكة انكلترا، وهم:

رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان المعينين، والايرلات، والبارونات، أمرهم جميعاً بالاجتماع من دون عذر أو تخلف، في ثمانية عيد الغطاس في لندن، لتدبير الشؤون الملكية، والقضايا المتعلقة بالمملكة كلها، ولدى سماع النبلاء هذا، أطاعوا على الفور دعوة الملك، وبناء عليه، في يوم عيد القديسة هيلاري، قدمت حشود لاعدّ لها ولاحصر، أي كل جماعة نبلاء المملكة، إلى لندن، وتوجهوا نحو القصر الملكي في ويستمنستر للاستماع إلى رغبات الملك، وبعدما أخذ الجميع مقاعدهم، وقف هناك في وسطهم واحد اسمه وليم كيل Kaele وكان مقرباً من الملك، ورجلاً مستقيماً، وبارعاً بشرائع الأرض، وقد عمل بمثابة وسيط بين الملك والنبلاء، وقد أباح لهم برغبة الملك وبنواياه، حيث قال:

«مولاي الملك يود اخباركم أنه مهما كان الذي عمله حتى الآن، إنه منذ الآن فصاعداً، سوف يقوم من دون تردد، باخضاع نفسه إلى نصيحتكم جميعاً، بحكم كونكم رعاياه الطبيعيين والمخلصين، واعلموا أن الذين تولوا حتى الآن إدارة شؤونه، وكانوا مسؤولين عن خزينته، قد قدموا إليه حسابات غير صحيحة عن الأموال التي تسلموها، ونتيجة لذلك إن الملك

لا مال لديه الآن، ومن دون المال، في الحقيقة الملك مهجور كئيب، وبناء عليه إنه بكل تواضع يطلب مساعدة منكم بالمال، على أساس تفاهم أن المال الذي يمكن أن يجمع بوساطة ارادتكم الطيبة، سوف يجري الاحتفاظ به، حتى يصرف في سبيل الحاجات الضرورية للمملكة، تحت الاشراف الرشيد لأي واحد منكم تختارونه لهذه الغاية»، ولدى سماع النبلاء المجتمعين لهذا الكلام، كانوا جميعاً غير متوقعين أي شيء من هذا القبيل فتمتموا منزعجين بشكل كبير، ورددوا:

[ضاع كل مستمع في دهشة رهيبة

والتفت إلى وجه جاره محدقاً]

وقال كل واحد منهم للآخر:

[هزت الجبال في مخاضها الأرض

فولدت فأراً حقيراً].

ثم إنهم ردوا مغضبين، بأنهم ظلموا وضغط عليهم من كل جانب، وغالباً ماوعدوا، وكانوا الآن جزئاً من عشرين، ثم بعد ذلك جزئاً من ثلاثة عشر، وبعد ذلك جزئاً من خمسة عشر، من أملاكهم، وأعلنوا بأنه سوف يكون مسيئاً إليهم، ومضراً بهم، السماح بمثل هذه السهولة أن يضلل الملك، الذي لم يقم بصدّ واحد من أعداء المملكة، أو بإخافة أي واحد منهم حتى وإن كان الأدنى بينهم، والذي لم يستطع قط زيادة أراضيه، بل إنه بالحري أنقصها، ووضعها تحت نير الحكم الأجنبي، لاستخراج المزيد المزيد من المال، وذلك بالغالب، وبوساطة الكثير من الحجج، من رعاياه الطبيعيين، وكأنهم عبيد، أو من أدنى الحالات، وذلك في سبيل ايذائهم، ومنفعة الأجانب، وعندما سمع الملك هذا، رغب في تهدئة عدم الرضا العام ووعد مقسماً أنه سوف لن يقوم ثانية بإثارة النبلاء أو اغضاب أعيان المملكة، عن طريق الحاق الأذى بهم وفق هذه الطريقة،

على شرط أن يدفعوا له جزئاً من ثلاثة عشر جزئاً من الممتلكات المتحركة في انكلترا، وأن يقدم هذا الجزء الآن إليه من أجل الاستخدام الحالي، لأن المبلغ الكبير من المال الذي كان لديه قبل وقت قليل، قد أرسله إلى الامبراطور —كما ذكر— من أجل زواج أخته، وكان أيضاً الذي أنفقه أثناء زواجه هو، قد أنهك إلى حد كبير امكاناته المالية.

وعلى هذا ردوا بكل صراحة، بأن الملك قد فعل هذا كله، من دون نصيحة رعيته التابعة له، وهكذا ينبغي عدم مشاركتهم بالعقوبة، لأنهم أبرياء، ولاعلاقة لهم بالجريمة، ثم إنهم انسحبوا إلى مكان خاص للتشاور حول إطاعة طلب الملك، ولتزويده بما هو محتاج إليه، ولمناقشة نوع وكمية المساعدة التي طلبها، وفي الوقت الذي كانوا فيه منعزلين من أجل هذا الغرض، قال غيلبرت باسيت للملك على مسمع من الجميع، وبحذر أقل مما ينبغي أن يفعله في كلامه:

«مولاي الملك، أرسل واحداً من رفاقك ليكون حاضراً أثناء مؤتمر باروناتك»، وعندما قال هذا كان جالساً على الجانب الأول من الملك، مع عدد صغير من الأشخاص بينهما، وفي رد على هذا الكلام قال رتشارد بيرسي، الذي كان موجوداً في مؤتمر النبلاء، ولم يكن يفتقد إلى المسوغ لغضبه: «ماالذي قلته، ياصديق غيلبرت؟ هل نحن أيضاً أجانب، ولسنا معدودين وسط أصدقاء الملك؟» وشعر غيلبرت بالملامة بوساطة هذا الكلام غير الطيب والمفاجىء، وهكذا امتد المؤتمر بوساطة مناقشات متراكمة لمدة أربعة أيام.

الشروط التي على أساسها جرى منح الملك جزئاً من ثلاثة عشر جزئاً من الممتلكات المتحركة

وكان الملك خائفاً جداً، ورغبة منه في الحصول على المشاعر الطيبة للبارونات، وعلى المصالحة معهم أخضع نفسه منذ ذلك الوقت فصاعداً،

لنصيحة أتباعه ورعاياه الطبيعيين، وذلك على عكس ماكان قد فعل من قبل، علاوة على ذلك، بالنسبة إلى التقرير الذي أفاد، بأنه كان يسعى بوساطة ترخيص حصل عليه من البابا إلى إلغاء المنح التي أعطاهم إياها من قبل، وأكدها بوساطة صك، بالنسبة لهذا، قال الملك إنه زيف، وإذا ما كان شيئاً من هذا القبيل قد اقترح إليه، فقد أعلن أن ذلك بلا فعالية وأنه هو شخصياً قد تخلى كلياً عن مثل هذا الهدف، وإلى جانب هذا قام بملامح هادئة، وبمبادرة منه شخصياً، فوعد أنه منذ ذلك الوقت فصاعداً سوف يرعى من دون عذر أو تردد امتيازات الصك العظيم، نحو جميع رعاياه التابعين له في مملكته، ولأنه بدا أنه غير متحرر تماماً من قرار الحكم الذي تفوه به رئيس الأساقفة ستيفن مع جميع أساقفة انكلترا، ضد جميع الخارقين للصك المتقدم ذكره، وهو الصك الذي قام هو شخصياً بخرقه إلى حد بعيد، لهذا كله أمر بنشر قرار الحكم المذكور، وبتجديده ضد جميع المخالفين للصك المذكور والخارقين له، ولذلك بات هو نفسه لايمكنه من خلال أي حقد أو تفكير شرير، القيام —ولو صدفة— بخرقه، لأنه لو فعل وخرقه، سوف يصبح أكثر تورطاً، وتحت طائلة ذلك القرار، ونتيجة لعمله هذا، وبوساطة كلماته تمكن من ارضاء قلوب المستمعين إليه، وتصالحهم معه شخصياً، وتقرر أيضاً أنه سيكون عملاً قاسياً جداً وخشناً، الاقدام في ذلك الحين على عزل مستشاري الملك، مهما كانوا أشراراً، ولهذا متنوا أعدادهم بإضافة بعض النبلاء الآخرين، ولذلك عينوا وأضافوا: ايرل وارني، ووليم فيرار، وجون فتز— غيوفري، وكما فعل الملك من قبل في ويندسور، جعلهم يقسمون أنهم سوف لن يحيدوا عن طريق الصدق، بأية وسيلة من الوسائل أو بالهدايا أو بأي شكل من الأشكال، بل سوف يقدمون إلى الملك نصيحة جيدة، وكل ماهو لمصلحة المملكة، وعلى أساس هذه الشروط، جرى منح جزء من ثلاثة عشر جزئاً من الممتلكات المتحركة في المملكة، إلى الملك، لإعادة تزويد خزينته، باستثناء أنه أبقى —على كل حال— لكل واحد، فضته وذهبه، وخيوله وأسلحته، التي سوف تكرس في سبيل

الصـالح العام، وكـان سـوف يجري جمع الجزء من الثـلاثة عشر جزئـاً، في أرجاء كل كونتية وفق الطريقة التالية، وحسب الشكل التالي:

سـوف يجري اختيار أربعـة فرسـان موثوقين، إلى جـانب كاهن واحـد، سـوف يجري تعيينه من قبل الملك، وسيقـوم هؤلاء الفـرسـان مع الكاهن بتأدية قسم بالتـابعية للملك، وأنهم سـوف يتولون جمع المال، وسيضعـون هذا المال بعد جمعـه في أحد الديرة، أو في بيت مقـدس، أو قلعة، وبذلك إذا ماسعى الملك إلى التراجع عن وعوده، سوف تعاد ممتلكات كل انسان إليه، وسوف يجري توزيع صحيح، وكان أول مـن وافق على هذا رئيس أساقفة كانتربري، وأساقفته، وكهنته، وعلى شرط أن الجزء من ثلاثة عشر جزئاً من جميع الممتلكات المتحركـة في المملكة، قد منح إلى الملك، وأن يجمع من جميع أرجـاء المملكة بشكل عـام، أي من كل أسقف وفـارس تبعـاً لاقطاعيـة بارونيته، وغالباً مـاأضيف إلى الشروط، شرط أن يقوم الملك وقتذاك، ومن ذلك الوقت فصـاعـداً، برفـض نصيحـة الأجـانب —الذين كـانوا دومـاً أصدقـاء لأنفسهم، وليس للمملكة، وبددوا الثروات بشكل عـام بدلاً من زيادتها— وكذلك برفض النصائح غير الطبيعية، وأن يلتزم بنصائح أتباعه ورعـاياه الطبيعيين، وعندها ارفض الاجتماع، وانتهـى المؤتمر، ولكن ليس قبل كثير من الغضب السري، وإثـارة لعـدم الرضـا، لأنه بصعـوبة كبيرة أمكنهم تحويل عقل الملك للأخذ برأيهم السليم، واقناعـه بمسايرة نصيحة الذين منهم استحـوذ على جميع مراتبـه الأرضيـة، وعاد كل واحـد إلى بلده وداره.

انتصارات المسيحيين في اسبانيا

جرى في العـام نفسه، تكريس الكنائس والأسـاقفة في قـرطبة، التي هي مدينة كبيرة في اسبانيا، التي جـرى الاستيلاء عليها —كما ذكرنا من قبل— يوم الثلاثاء من اسبوع الفصح، وقـد ذكر لوكان Lucan بأنه قد ولد في تلك المدينة، وهو الذي قال:

«أعطتني قرطبة ميلادي»، وجرى الاستيلاء عليها من قبل ألفونسو الملك المسيحي العظيم لقشتالة، ولدى استسلامها للمسيحيين، تراكم السرور فوق السرور، وكذلك بالاستيلاء على جزيرة مايوركا الاسلامية الغنية، التي كانت مليئة بالقراصنة، وقطاع الطرق، وكانت بشكل خاص مضرة جداً إلى التجار والحجاج الذي يسافرون بحراً بين بلدان أفريقيا واسبانيا، وتحتوي هذه الجزيرة على اثنتين وثلاثين قلعة، ولزيادة سرورنا جرى الاستيلاء في السنة المنصرمة على مدينة بريانة، وعلى قلعة بنشكلة من قبل ملك أراغون، وبذلك تمكن بوساطة البراعة المتناهية من انجاز ماكان من غير الممكن انجازه بوساطة القوة، وهكذا أمكن خلال عامين الاستيلاء على مدينة قرطبة، وعلى جزيرة مايوركا، وعلى مدينة بريانة، وعلى قلعة بنشكلة، ومنحت هذه الأماكن كلها وتم التخلي عنها لصالح السلطات المسيحية في اسبانيا، ووضعت تحت سلطة الرب وتشريفاً لكنيسته المقدسة، وبناء عليه استعد شعبنا في ظل مؤشرات سعيدة لمهاجمة بلنسية، التي كانت أيضاً مدينة أخرى واسعة ومشهورة في اسبانيا، وبحكم محافظتكم على شجاعتكم وعلى آمالكم الطيبة، مع تذكر الأحداث الماضية، باتت مدينة سبته تخشى أيضاً سقوطاً مماثلاً.

للويلين يسأل ملك انكلترا تأكيد معاهدتها

أرسل في هذا العام للويلين أمير ويلز، رسالة إلى الملك، حملها رسل خاصين، جاء فيها أن وقت حياته الحالية يتطلب منذ ذلك الوقت فصاعداً، التخلي عن كل الصراعات، وخوض غمار الحروب، وأنه ينبغي من أجل المستقبل التمتع بالهدوء والسلام، ولذلك قرر وضع نفسه وجميع ممتلكاته تحت سلطاته وحمايته، أي تحت الملك الانكليزي، ولسوف يستحوذ جميع أراضيه منه بكل اخلاص وصداقة وسوف يدخل معه بمعاهدة لايمكن إلغاؤها، وإذا ماكان الملك زاحفاً في أية حملة عسكرية، هو سيبذل غاية طاقته، كتابع ورعية له، لرفع شأن الحملة، بمساعدته بالعساكر،

والأسلحة، والخيـول، والمال، وفي سبيل تأكيد هـذه المعاهدة، وتصـديقها، جرى ارسـال أسقفي هيرفورد، وشيستر، بمثـابة وسيطين للعمل على إنهاء مسألة المعاهدة المذكورة.

وقد قيل بأن سبب هذه المعاهدة، قد كان بسبب الشلل الذي أصيب به، فكان شخصياً غير قـادر على التصدي للحملات الشديدة التي شنهـا عليه ابنه غريفين Griffin والحرب التي كان قد أعلنهـا عليه، ووافق كثير من نبـلاء ويلز على هذه المعـاهدة، وثبتوها في الوقت الـذي ثبتها فيـه للويلين، وعـارض بعضهم بشـدة اتفـاقـاتهم، هـذا ويحتـاج اخـلاص الويلزيين إلى اخـلاص، وهم لايظهـرون رحمة عندمـا يمتلكون الحظ بأيديهم، وعندمـا يكون السعد صديقاً لهم، يقـومون بتعذيب الذين يقعون بين أيديهم،ولكن عندما ينهـزمون، إما يفـرون، أو يذلون أنفسهم، ومثل هؤلاء الأشخاص، لايمكن مطلقاً الوثوق بهم، لأن الشاعر يقول:

«إنني أخـاف مـن الإغـريق، حتى عندمـا يجلبـون هدايا»، وقـد قـال الفيلسوف سينكا أيضاً: «لايمكنك عمل أية معاهدة مع أي عدو».

زواج رتشارد ايرل غلوستر

وفي تلك الآونة نفسهـا، اشتعل غضب الملك مجدداً ضـد ايرل كنت هيـوبرت دي بورغ، بسبب أن رتشارد ايـرل أوف غلوستر، وكان مـايزال صبياً، تحت رعاية الملك، قد تزوج سراً من مـرغريت ابنة الايرل هيوبرت، من دون اذن الملك، أو موافقتـه، لأنه كان قد قـرر —كما روي— أن يوحد الشاب المذكور، أي ايرل غلوستر، مع كونتيته، ومراتبه، ومع الفتاة الشابة، وبقـرابة قـريبـة، مع وليم الأسقف المنتخب لبلنسيـة، الذي كـان من أهالي بروفـانـس، وأمكن أخيراً تهدئـة غضب الملك، بوسـاطة كثير من الناس، وكذلك بناء على إعلان هيـوبرت أنه لم يكن واعياً للأمر، وأن ذلك لم يفعل من قبله، يضاف إلى هذا وعد الملك بمبلغ من المال.

وفي العام نفسه، تمّ بتدبير من الامبراطور فردريك ايجاد سيناتور [شيخ] جديد في روما، في سبيل أنه بوساطة براعة وسلطة اثنين من الشيوخ متحدين، من الممكن ضبط صلف الرومان، وبذلك تصبح المدينة أكثر سلاماً، ومن ثم يجري حكمها بأمان أعظم، وبسهولة أكبر من قبل مستشاريها.

صلف الاغريق نحو الكنيسة الرومانية ونحو امبراطورهم

وتفجر في هذه الآونة صلف الاغريق المعتاد، بالشكل المجنون، نحو الكنيسة الرومانية، ونحو مولاهم امبراطور القسطنطينية، وبذلك نالوا سخط البابا والكنيسة كلها، حتى بات الرأي، وتوفرت الرغبة في ارسال جيش الصليبيين ضدهم، لأن الامبراطور، قام حتى يتجنب غضبهم بالمغادرة إلى البلدان الغربية، ليطلب النصيحة والمساعدة من الكنيسة الرومانية.

البابا يستدعي كونت بريتاني إلى مجلسه

واستدعى البابا في هذه الآونة كونت بريتاني إلى مجلسه، مما أثار دهشة الكثيرين، حيث استغربوا اقدامه على استدعاء رجل مشهور جداً بأعماله الخيانية المزدوجة، ليتولى ادارة شؤونه الصعبة، لكن تبين أنه اختار ذلك الكونت وانتخبه دون سواه، لأنه كان رجلاً بارعاً جداً في فن الحرب، شجاعاً في القتال، ومن أسرة مشهورة، وهو انسان قد نال تجربة من خلال صراعات متوالية بالبحر والبر، ليعهد إليه بقيادة وإمرة الجيش الصليبي، وليضع تحت تصرفه المال لانفاقه في سبيل الاعدادات الضرورية من أجل زحف الصليبيين.

سقوط أمطار غزيرة وتدفقها

ومع اقتراب موعد حلول شهر آذار، وبالتحديد في يوم عيد القديس فالنتاين، عمت عواصف ثقيلة من المطر، وغمرت البلاد، وبتدميرها

لضفاف الأنهار، جعلت المخاضات والطرقات غير ممكنة العبور لمدة ثمانية أيام متوالية، ومما يماثل ماحدث، من الممكن تصور حالات أخرى مشابهة، أي أن يقوم نهر التيمس في انكلترا، والسين في فرنسا، أثناء فيضانيهما بإزالة المدن، والجسور، والطواحين، وأن تنبع البحيرات في الأماكن الجافة من قبل، وتنتشر فوق امتدادات واسعة من البلاد، وإذا حدث ذلك سيكون خلال خمسة عشر يوماً، نتيجة للطوفان، من الصعب جداً، تمييز الطرقات على الضفاف.

وليم الأسقف المنتخب لبلنسية يغادر انكلترا لكنه مالبث أن عاد

ورأى في هذه الآونة، وليم الأسقف المنتخب لبلنسية، الذي إليه عهد الملك كلية بمقاليد الحكومة ان النبلاء قد شعروا نحوه —ليس من دون سبب— بغضب عظيم ضده، ولذلك قرر المغادرة إلى بلاده، وعهد بأراضيه، وبمزارعه الغنية التي أعطاه الملك إياها، إلى هرون، ووضعها بين يديه، وكان يهودياً من يورك، على شكل رهينة، وتسلم منه، عن طريق الدين، تسعمائة مارك من النقود الاستيرلينية الجديدة، وحمل ذلك بيديه، ثم إنه وجه خطاه نحو دوفر، تحت أمان الملك، وعلى ظهور دواب التحميل أوعية مليئة بالذهب والفضة، وهدايا ملكية متنوعة، إلى جانب بعض الخيول الاسبانية القصيرة المرغوبة، وخيول عليها سرج ثمينة، وهكذا تمكن هذا الرجل بمكر وببراعة من تدبر الأمور، حتى أن الملك تخلى عن المثل الذي ضرب له من قبل الامبراطور النبيل، وملك فرنسا الحريص، اللذان لم يسمحا لظهريهما بأن يداس عليهما من قبل زوجتيهما ومن قبل أقربائهما وأبناء بلديهما، فحرم من جميع أمواله، ومن كل ماالديه، فأصبح رجلاً محتاجاً، وسمح لهذا الأسقف أن يمزق مملكته إلى مزق، وبما أنه كان تحت نفوذ زوجته، سمح له، وفقاً لأوهى الحجج بالتهام نتاج أراضيه الخاصة، كما أنه سمح للأجانب من: بواتيين، وألمان، وبروفانسيين، ورومان، أن يسمنوا على الأشياء الطيبة في بلاده، وبإيذاء مملكته.

وذهب آنذاك أسقف بلنسية المنتخب المتقدم ذكره، إلى فرنسا، وبعدما قدم هناك احتراماته إلى الملك وإلى أخته، قام من دون تأخير بالانطلاق مسافراً بسلام، وسمح له بالمغادرة من دون أية هدايا، ثم إنه أرسل الهدايا التي جلبها معه من انكلترا إلى بروفانس، وهناك وزعهم مع بعض الخيول المحملة بمبالغ كبيرة جداً من المال، ثم إنه عاد خالي الوفاض إلى انكلترا، حيث استقبل بذراعين مفتوحين، من قبل الملك.

انتخاب وولتر كانتلوب وجون رئيس رهبان نورويك

بعدما غادر أسقفا ووركستر ونورويك الطيبا الذكرى الحياة، انتخب رهبان ووركستر المعلم وولتر دي كانتلوب Cantelupe ابن وليم دي كانتلوب، القوي والواسع الشهرة، انتخبوه ليكون أسقفهم والراعي لأرواحهم، وقد قبله البابا من دون أية مصاعب، وكرسه أسقفاً، وانتخب رهبان نورويك رئيسهم، وكان رجلاً متديناً ومستقيماً، واختاروه ليكون رئيسهم، لكن هذا الانتخاب مع أنه عمل بشكل صحيح، لم يرض الملك، وبسبب أعذار مضحكة، واعتراضات بعض الذين وقفوا ضدها، بقي لمدة طويلة محروماً من التكريس، لكن ليس من دون بعض الشكوك التي صدرت عن أخطاء مرتاب بها.

الأوضاع التعيسة لانكلترا

أثناء هذا الوقت كله، أخذت بقية حرارة الإيمان الصحيح بالموت والتلاشي، وتحولت بقايا نارها إلى رماد، وبدت وكأنها لم يعد فيها بصيص شرارة واحدة، لأن السيمونية كانت الآن تمارس من دون خجل، والربا بشكل مكشوف، واستخرجت الأموال من الشعب ومن الصغار بمختلف الحجج، وزالت الصدقات، وسحق كرم الكنيسة، وديس على الدين، وبات بدون قيمة، وباتت ابنة صهيون، كما كانت دوماً، من دون حياء، وعاهرة من دون خجل، وأقدم رجال أميون من الطبقة الدنيا، وهم

مسلحون بالمراسيم من الكنيسة الرومانية، واندفعوا متقدمين مع التهديد، واستأنفوا يومياً، على الرغم من الامتيازات المقدسة، التي نلناها من أجدادنا وأسلافنا المقدسين، وباشروا بنهب الموارد التي خلفها الرجال الأتقياء من العصور القديمة، من أجل الانفاق على رجال الدين، ولدعم الفقراء، ولتقديم الضيافة إلى الحجاج، وحصلوا على الفور على الذي طلبوه، وكان إذا ما لجأ انسان من المتضررين أو المسلوبين إلى وسيلة الترافع للقضاء، أو الترافع باسم الامتيازات، قاموا على الفور بتعليقهم، وحرمانهم كنسياً، بوساطة بعض الأساقفة الآخرين، وذلك استناداً إلى التخويل والترخيص الممنوح من البابا، وبهذه الوسيلة، لكن ليس بوساطة الرجاوات، أو الطرائق الشرعية، بل بوسائل استخراج ملوكية عنيفة، سرقوا القوم السذج، وذلك وفقاً لقول الشاعر:

«يتسول الرجل في السلطة بسيف مسلول».

ولقد صار الحال الآن، أنه حيث كان فيما مضى رجال دين نبلاء وكرماء، وأوصياء على الكنيسة ورعاة لها، كانوا قد عودوا أنفسهم على جعلها مشهورة خلال جميع المناطق المجاورة، بوساطة اكرام المسافرين والعناية بهم، وبانعاش الفقراء، صار محلهم رجال منحطين، فارغين من الأخلاق، مليئين بالمكر، وكلاء للضامنين الرومان، وتولى هؤلاء الآن الاستيلاء على كل ماهو مفيد، وثمين، ونقلوا ذلك إلى بلدان أجنبية، أي إلى سادتهم، الذين كانوا يعيشون على الإرث اللذيذ للمسيح، ويتباهون باستحواذهم على أملاك الآخرين، ثم كان أن شوهد حزن عميق من القلب، منه تبللت وجنات القديسين بالدموع، وسمعت التنهدات والشكاوى، وقد انفجرت عالياً، وتضاعفت، وقال كثيرون وهم يتنهدون:

«لقد كان من الأفضل أن نموت على أن نشاهد معاناة وآلام شعبنا، وقديسينا»، الويل لانكلترا، التي كانت من قبل رئيسة البلدان، وسيدة الشعوب، ومرآة الكنيسة، وأساس الدين، هي الآن ملقاة تحت الجزية، وقد

داس عليها بالأقدام أناس وضعاء، وسقطت فريسة إلى أناس أخساء، لكن الذنوب المتنوعة للانكليز هي التي جلبت أسواط العذاب هذه وأنزلتها على أنفسهم، وذلك من خلال غضبه، الذي بسبب ذنوب الشعب، مكّن المنافقين من الحكم، وجعل الطغاة يتولون السلطة.

موت جون بريين والراهب جوردان

في هذا العام انتزع من بيننا جون بريين المشهور، وصاحب الذكرى الخالدة، الذي كان من قبل ملك القدس، والذي كاد أن ينال السلطة الامبراطورية للاغريق، والذي كان من الممكن له أن ينهي حياته بشكل سعيد، وبسلام في ضوء الشمس، لولا أنه جلب على نفسه عداوة فردريك الكبير، امبراطور الألمان.

وفي هذا العام أيضاً، فيما بين الشتاء والربيع، غرق الراهب جوردان، رئيس طائفة الرهبان المبشرين، وكان رجلاً متميزاً بقداسته، وواعظاً مشهوراً، وجاء غرقة في العاصفة، عندما كان مبحراً على طول السواحل الجنوبية لبلاد المغرب، من أجل أن يربحهم للرب بوساطة وعظه، وجلب جسده إلى اليابسة، من قبل بعض الذين غرقت سفنهم، لكن الحظ انتشلهم من الموت، وجاء ذلك نتيجة جهد كبير ومخاطر، وعهدوا به إلى القبر بشكل مشرف وبطريقة معروفة، وعندما كانوا يتولون دفن جسده المقدس، شموا رائحة طيبة رائعة، صدرت عن ملابسه، وكذلك عن شخصه، واستمرت حلاوتها تطيب أيديهم لوقت طويل.

وحوالي ذلك الوقت نفسه جرى تطويب القديس دومينيك، وتسجيله في لائحة القديسين، وكان راهباً من طائفة المبشرين.

موت رتشارد ثاني أسقف لدرم يحمل ذلك الاسم

وفي تلك الآونة، وبالتحديد في الخامس عشر من نيسان، مات رتشارد، الأسقف الثاني لدرم، الذي حمل ذلك الاسم، وكان رجلاً صاحب تقوى

لا نظير لها، ومعرفة عميقة، وقد حكم بقوة ثلاث أسقفيات كنسية هي، أسقفيات: شيستر، وسالسبري، وأخيراً أسقفية درم، التي ترأس عليها بكل ازدهار، وحررها من دين ثقيل، جناه رتشارد الأول، الذي كنيته مارش، والذي كان متقدمه، وكان مبلغ المال الذي سدده الأسقف المذكور، أي رتشارد الثاني، ودفعه في سبيل تسوية الدين، قد أحصي بأنه تجاوز أربعة آلاف مارك، ومعزو أيضاً إلى الثناء الأبدي عليه، أنه حوّل كنيسة سالسبري، من مكان فارغ وجاف في جوار قلعة الايرل، إلى موقع موائم، وأرسى بمعونة بعض المهندسين المشهورين، الذين جمعهم من بلدان نائية، أساسات كبيرة، ووضع هو شخصياً الحجر الأول، لرفع شأن هذا العمل وفي سبيل تقدمه، لم ينفرد به الأسقف بل قدم له يد المساعدة عدداً كبيراً من النبلاء مع الملك أيضاً، ولهذا قال أحد الحكماء:

«قدم الملك المال، والبنّاء يديه،

والأسقف العون، وهكذا وقف البناء».

وإلى جانب هذا أوجد مؤسسة للراهبات في تارنت Tarent وأعطاها إلى الملكة، وهناك اختار مكان دفنه، وعندما اقترب موعد مغادرته، ورأى الأسقف بأن الساعة قد اقتربت بالنسبة له للعبور من هذا العالم، قدم موعظة خاصة إلى جمع من الناس، وأخبرهم بأن موته بات وشيكاً، وفي اليوم التالي اشتد مرضه، فودعهم جميعاً، وسأل المسامحة من كل من أذنب بحقه، وجمع في اليوم الثالث أسرته، والذين كان مرتبطاً بهم، ليقدم لهم بشكل خاص الحماية، ووزع فيما بينهم ماراآه من الضروري توزيعه، وأعطى إلى كل واحد استحقاقاته، وبعدما رتب أموره كلها، وأكمل أعماله كلها بتوزيع موائم وصحيح، قام بتوديع رفاقه واحداً واحداً، وأخيراً قدم الصلاة التعبدية لمنتصف الليل، وأنشد البيت التالي:

«سوف أتمدد أنا بسلام وسوف أنام»، فوقع نائماً بالرب بكل سرور، ثم

قام رهبان درم، بعدما استمدوا العون من عليين، بانتخاب رئيسهم توماس، وكان رجلاً متديناً ومستقيماً، وجعلوه أسقفهم والراعي لأرواحهم.

سبب عودة الامبراطور من إيطاليا

وفي هذه الآونة، وجد الامبراطور فردريك أن مؤمرات أعدائه قد سببت عودته إلى ألمانيا، وتركه لحملته التي كان عازماً عليها، وأن ذلك كان لغير صالح سمعته، لأنه كان قد أرغم على رفع الحصار، والانسحاب من ميلان، وقام بإجراء بحث لمعرفة من الذي تسبب له بهذه الإعاقة، فوجد أن دوق النمسا قد أثار فوضى داخلية في ألمانيا، وأنه كان السبب في إعاقته عن قصده، فهاجمه، وحرمه من أراضيه، ومن مراتبه، وثرواته.

الامبراطور يستدعي للاجتماع جميع أمراء المسيحية

وفي العام نفسه، استدعى الامبراطور فردريك بوساطة مراسلين خاصين، ورسائل امبراطورية أمراء المسيحية الكبار في العالم، للاجتماع في يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، في فوكولور Vaucouleurs الواقعة على حدود —أو على مقربة من حدود— الامبراطورية والمملكة الفرنسية، وهدف الاجتماع هناك كان بحث القضايا الصعبة المتعلقة بالامبراطورية، والمتعلقة أيضاً بالمملكة،وبما أن الملك الفرنسي رعى مشاعر الشكوك حول هذا المؤتمر، توجه في الوقت المحدد إلى المكان المعين، يحيط به ويرافقه جيش كبير، كان قد حشده لتلك الغاية، وبذلك ضرب مثلاً مرعباً وخبيثاً للآخرين، لأنه ذهب للبحث في مسائل السلام، وفق الطريقة نفسها التي يزحف بها عندما يريد قتال أعدائه، وقدم ملك انكلترا اعتذاراً منطقياً لعدم حضوره شخصياً، وبعث سفارة سلمية، تتألف من بعض الشخصيات الرئيسية للمملكة، فيها: رتشارد ايرل كورنوول، أخيه، مع بعض النبلاء الآخرين، المؤتمين للعمل في مؤتمر تحت توجيه رئيس أساقفة

يورك المبجل، وأسقف ايلاي، مع أشخاص آخرين موثوقين، جرى اختيارهم لهذه الغاية، ومع أن أسقف وينكستر، قد جرى اختياره قبل الآخرين، رفض باصرار الذهاب، لكن ليس من دون تقديم سبب معقول، حيث قدم التعليل التالي لتسويغ عدم ذهابه، فقد قال:

«مولاي الملك، لقد تقدمت مؤخراً بشكوى ثقيلة ضدي، ورفعتها إلى الامبراطور، حيث أخبرته، بأنني قمت مع بعض النبلاء الآخرين، بإحداث الاضطرابات في مملكتك، وسواء أفعلت هذا بعدل أو من دون عدل، الرب يعلم، غير انني واثق من أنني حافظت على ضميري في كل مجال، وإذا كانت كلماتك قد وضعت الآن بثقة تفوهت بها من فمك، وأودعتها في رسائلك، وأن تعلن أيضاً أنني صديق مقرب منك ومخلص لك، فهذا سوف يظهر كأمر معاكس، وسوف يسبب لنا معاً، أنا وأنت بعض عدم الاستقرار، وسيسيء إلى سمعتك إلى درجة كبيرة، وبناء عليه، بسبب أن ذلك سوف يظهر مسيئاً لك، أنا لن أذهب بأي حال من الأحوال»، وبرأي كثيرين، أنه أعطى بهذا الرد تعليلاً كافياً عن نفسه، ولدى الفراغ من جميع الاستعدادات، وعندما باتوا جاهزين للاقلاع بهذه الرحلة، ووجهوا برسائل من الامبراطور، قال فيها بأنه لن يستطيع الذهاب إلى المؤتمر، آنذاك، كما سلف وله واقترح، لكن الذي لن يستطيع فعله وقتئذ، سوف —بمشيئة الرب— ينفذه في عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، من العام المقبل، وهكذا عاد كل واحد منهم من دون القيام بأي شيء.

وفي هذا العام، في يوم العشاء الأخير، تولى أسقف هيرفورد تكريس القربان المقدس، في كنيسة القديس ألبان، وفي هذه الآونة أيضاً، أغلق جون سكوت، ايرل شيستر حياته، وكان ذلك في حوالي أحد الشعانين حيث دسّ له السم بوساطة زوجته، ابنة للويلين، وتعرضت حياة أسقف لنكولن للوسيلة نفسها، ولكنه استرد بكل صعوبة من بوابات الموت، وفي العام

نفســه، في الأسبوع الذي حلّ قبل أحـد الشعـانين، كانت هناك عـواصف شـديدة، ترافقت مع سقوط برد، كان حجم البردة أكبر من التفاحة، فقتلت المواشي، وتبع ذلك تساقط الأمطار.

وصول أوتو النائب البابوي إلى انكلترا

وفي هذا العام أيضاً، في حوالي أيام عيد القـديسين بطرس وبولص قدم المعلـم أوتو، الكاردينال الشماس للقديس نيقولا في سجن توليان Tullian بمثابة مندوب بابوي، لكن لأي مقصد، فهذا لم يكن معروفاً، وجاء قدومه بناء على استدعـاء من الملك دون معرفة النبلاء، وبناء عليـه شعروا بغضب عظيـم وسخط ضد الملك، وقالوا:

«يتولى الملك الآن منع جميع الشرائع، وقـد حنث بعهده ووعوده، وبذل كل شيء عمله وألغاه، فهـو قبل مدة وجيزة اتحد ذاتيـاً بالزواج من أجنبية، دون استشارة أصـدقائـه ورعاياه الطبيعيين، والآن استـدعى بشكل سري نائباً بابوياً ليقـوم بتغييرات في جميع أرجاء المملكة، فهـو ما ان يفتح الطريق أمــامــه حتى سيسعى لاسترداد الذي أعطاه»، وهكذا وفقاً لهذا الأسلوب أخذت المملكة يومـاً فيوماً، تماشيـاً مع كلمات الانجيل، تنقسم على نفسها، وتعيش في فوضى وباتت مهجورة مخربـة بشكل رهيب، ويقال بأن إدموند رئيس أساقفة كانتربري، قد وجّه اللوم إلى الملك لتصرفه وفق الطريقة التي عمل بها، وبشكل خاص لاستـدعائـه النائب البابوي، عـارفاً بأنه قـد كان قبل وقت طويل السبب في إلحاق أضرار كبيرة بالمملكة، وبإلحاق اجحـاف عظيـم بمكانته، ولكن الملك رفض نصيحته، وكـذلك نصائح الآخرين من مستشــاريـه، ولم يرض بأي شكل من الأشكال الاقــلاع عما نواه في عقله، ولذلك قـدم المندوب البـابوي المذكــور بأبهة عظيمـة، مع سلطان عظيم، وذهـب الأساقفة والكهنة ذوي المكانة حتى الشاطىء لاستقباله، لابل أكثر من هـذا صعـد بعضهم على ظهور القـوارب لتلقيه، واستقبلوه بالهتـافات، وقـدمـوا إليــه هدايا ثمينة، لابل حتى في باريـس إلتقـاه رسل عــدد من

الأساقفة، وقدموا له أقمشة أرجوانية، وكؤوساً ثمينة، ولفعلهم هذا استحقوا عقوبة جماعية، بسبب كل من الأعطيات، والطريقة التي أعطيت بها، لأنه بالأقمشة ولونها أعطى ذلك مظهراً بأن مكتب النيابة البابوية، ووصول النائب البابوي يلقيان القبول، ولدى وصوله هو لم يتسلم جميع الهدايا التي قدمت إليه، بل بعضها فقط، والذي لم يأخذه أمر بحفظه من أجله، ثم قام بكرم فوزع المناصب الشاغرة والمنافع بين أتباعه الذين جلبهم معه سواء أكانوا مستحقين لذلك أم غير مستحقين، واستقبله الملك شخصياً عند شاطىء البحر، وحنى رأسه حتى ركبتيه، وبعد ذلك استقبله وسار معه وسايره حتى داخل البلاد، وجاء الأساقفة أيضاً، وكذلك رعاة الديرة، وقساوسة الكنائس الآخرين، استقبلوه بكل تشريف واحترام، بمسيرات وموسيقى أجراس، مع هدايا ثمينة، بقدر ماتوفر لديهم، وأكثر مما توفر لديهم.

رسالة فيليب الراهب الدومينيكاني إلى البابا

وفي هذا العام، وصلت أخبار سارة من الأرض المقدسة، بأن واحداً من قادة الهراطقة في المشرق قد تخلى عن هرطقته وأوهامه، وتأثر بالروح القدس، فتحول إلى المسيحية بوساطة الوعظ المستمر والحث التبشيري للراهب فيليب، رئيس طائفة الرهبان المبشرين (الدومينيكان) في الأرض المقدسة، الذي قام من دون تأخير ببعث رسالة حول هذا إلى البابا، وإلى الراهب غودفري، متولي الاعتراف لدى البابا، ليبعث السرور في نفسيهما، بهذه الأخبار المفرحة، ثم إن الراهب غودفري، كتب إلى جميع رؤساء رهبان طائفتي المبشرين (الدومينيكان) في انكلترا وفرنسا يخبرهما بهذه الواقعة بالكلمات التالية:

«إلى الأبوين المبجلين في المسيح، رئيسي طائفتي الرهبان المبشرين في فرنسا، وانكلترا، من الراهب غودفري، متولي الاعتراف لدى صاحب القداسة البابا، أماني الصحة والبهجة في الروح القدس، ليكن معلوماً

لديكما بأن قداسته قد تلقى رسائل من الراهب فيليب، المسؤول الاقليمي في الأرض المقدسة، جاء بها مايلي:

إلى الأب الأعظم قداسة والمولى، وإلى غودفري، الذي هو بموجب الدعوة الربانية الحبر الأعظم، من الراهب فيليب، الرئيس الحقير للرهبان المبشرين، طاعة صحيحة وتقوية في كل شيء:

مبارك هو الرب، الأب لمولانا يسوع المسيح، الذي هو في أيامنا، أب مقدس، الذي أعاد برحمته راعي القطيع، الذي كان تائهاً منذ وقت طويل، لأنه في أيامنا قد أرانا سنة من لطفه، وبدأ يملأ الحقول بالوفرة، ومثل ذلك أعاد إلى طاعتكم، وإلى الاتحاد بالكنيسة الأم، شعوباً قد ضلت منذ زمن بعيد، وابتعدت عن تلك الجماعة، ذلك أنه في هذا العام، قام بطريرك اليعاقبة في الشرق، وهو رجل صاحب علم وصاحب أخلاق، ومحترم في سنه، قد جاء مع جماعة كبيرة، من رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والرهبان من شعبه، للتعبد في القدس، وله أوضحنا قواعد الإيمان الكاثوليكي، وبالتعاون مع النعمة اللاهوتية، أحرزنا تقدماً كبيراً، حتى أنه في أحد السعف، في الوقت الذي تنزل فيه بالعادة المسيرات من جبل الزيتون إلى القدس، وعد وأقسم أنه سوف يطيع الكنيسة الرومانية المقدسة، وأنه سوف يتخلى في الوقت نفسه عن جميع الهرطقات، كما أنه قدم إلينا اعترافه مكتوباً بالكلدانية (السريانية) وبالعربية بمثابة دليل أخير، وبالاضافة إلى هذا تبنى لدى مغادرته لباسنا الكهنوتي، وهذا الرجل رئيس على الكلدانيين، وعلى الميديين، والفرس، والأرمن، التي دمّر أراضيهم التتار الآن واجتاحوها إلى حد كبير، وتمتد صلاته بعيداً حتى ممالك أخرى، إلى حد أن سبعين منطقة أخرى هي خاضعة له، فيها أعداد لاتحصى من المسيحيين يسكنون بمثابة عبيد للمسلمين ودافعين للجزية لهم، وذلك باستثناء الرهبان، الذين يعفونهم من الجزية، ووفق الطريقة نفسها فعل رئيسان للأساقفة، كان أولهما أسقف اليعاقبة في مصر، وكان الآخر أسقف

النساطرة في الشرق، وكان لهما حقوق الرعوية على الناس الذين سكنوا في سورية وفينيقية، ونحن الآن أيضاً مرسلون بكل سرعة أربعة من الرهبان إلى أرمينيا، ليتعلموا اللغة، وذلك بناء على رجاء ملح ومستعجل من الملك والبارونات، وفيما يتعلق برجل آخر، هو رأس الذين فصلتهم الهرطقة النسطورية عن الكنيسة —والذي تمتد رعويته في أرجاء الهند العظمى، أي مملكة بريستر جون، والممالك الأخرى التي هي أقرب إلى الشرق— قد تسلمنا عدة رسائل منه، أخبرنا بها بأنه قد وعد الراهب وليم دي مونتفرات، الذي مع راهبين آخرين، كانوا يتعلمون تلك اللغة، ولذلك أقاموا بعض الوقت معه، أخبرنا بأنه سوف يكون مطيعاً، وأنه سوف يعود إلى صدر الكنيسة المتحدة، وأرسلنا أيضاً بعض الرهبان إلى مصر، إلى بطريرك المصريين اليعاقبة، الذين نأوا بالعادة بعيداً جداً، وضلوا أكثر من الموجودين في البلدان الشرقية، ذلك أنهم أضافوا الختان إلى ذنوبهم الأخرى، أي هم مثل المسلمين، ومنه سمعنا مثل ذلك بأنه يرغب بالعودة للاتحاد بالكنيسة، وأنه تخلى الآن عن جميع ذنوبه المتقدمة، ومنع الذين خاضعين له من الختان، ويتولى هذا الرجل السيادة ويخضع له:

الهند الصغرى، واثيوبيا، وليبيا، ومصر، والليبيين والاثيوبيين —على كل حال— ليسوا خاضعين للمسلمين، أما بالنسبة للموارنة، الذين يسكنون في لبنان، فقد كانوا قد عادوا منذ زمن طويل، وهم مابرحوا محافظين في طاعتهم للكنيسة، وفي الوقت الذي نجد فيه أن جميع هذه الشعوب خاضعة لعقائد التثليث وإلى ما نبشر به، فإن الاغريق لوحدهم مثابرون على التمسك بشرورهم، وهم يعارضون في كل مكان، سراً أو علانية، الكنيسة الرومانية، وهم يدنسون قداساتنا وقرابيننا ويطلقون على كل طائفة غريبة عنهم اسم أشرار، أو هراطقة، وبناء عليه عندما رأينا مثل هذه البوابة العظمى مفتوحة أمامنا، وفي سبيل أن تنتشر حقائق الانجيل في الخارج، وجهنا اهتمامنا إلى تعلم لغات تلك الشعوب، ففرضنا ذلك على

كل جماعة ديرية، وبذلك أضفنا جهداً جديداً إلى الجهود القديمة، وهم الآن —بفضل نعمة الرب— يتكلمون ويبشرون بلغات جديدة، وخاصة بالعربية، التي هي الأكثر انتشاراً بين الناس، لكن ياللأسف، حدث مع جميع هذا السرور، والبهجة الروحية، التي قامت بيننا، نتيجة لتحوّل الكفار، أن مزج الرب من أعماق قضائه، ذلك ببعض المرارة، بوفاة رئيس طائفتنا، إذا لم نقل بأن وفاته قد تحولت إلى حياة للكفار، لأننا سمعنا من كثيرين ممن كانوا هناك حاضرين، ورأوهم، بأن معجزات كثيرة قد شوهدت هناك، إلى حد أن الميت قد بشر بفعالية أعظم بالمعجزات، مما يستطيع الأحياء بالكلمات، مبارك الرب، من أجل جميع الأشياء، ولهذا أرسلنا ثلاثة مبشرين إلى هؤلاء المسلمين، حتى لانظهر أننا مفتقرون إلى نعمة الرب، وبناء عليه، إن عملك أيها الأب المقدس، هو التجهيز والامداد إلى الذين يجتمعون مع بعضهم، وأن تقدموا السلام إلى أولئك العائدين إلى الكنيسة، خشية أن يحدث فيسقطون من بين ذراعي الحاضنة، فيغدون عرجاناً بالقدمين، وبذلك يكون الحال أسوأ من ذي قبل، لأن بعضهم الآن يعارضون أكثر من ذي قبل الرعوية الممارسة عليهم، وأنا لاأتجرأ على حبس انتباهك بالمزيد من الكلمات، فما هو ناقص وليس فيه كفاية، سيكون بامكان الرهبان الحاملين لهذه الهدايا أن يرووه لك، هذا ومات إلى جانب الرئيس وأتباعه: الراهب جيرالد الكاهن، والراهب ايفان المتحول، وإليك يايسوع المسيح كل الحمد والمجد، وشكراً، وشرفاً، وفضائلاً، وقوة، وعالماً بلا نهاية، آمين، وداعاً»، [وفعل هذه الأشياء كلها هذا الكاثوليكي الجديد، من خلال خوفه من التتار، فقد كان مرعوباً من عنفهم، ولأنه لم يكن قادراً على الحصول على المساعدة من الذين أمل بحمايتهم، لجأ هارباً إلى قربان المسيحيين، وبذلك تلقى مساعدة فعالة وسريعة، وفي أيام الرخاء تخلى عن الإيمان نتيجة لضغط نبلائه— إقحام].

هرطقة النساطرة

وبما أنه كانت هناك اشارة إلى النساطرة أعلاه، اعتقدنا أنه من الموائم أن نقحم في هذا الكتاب رواية عن أوهامهم، ففي بلدان المشرق، هناك شعوب همجية تختلف تماماً عن الاغريق وعن اللاتين، ويعرف بعض هؤلاء باسم اليعاقبة، اشتقاقاً من اسم رئيس لهم ومعلم اسمه يعقوب، كان تلميذاً لبطريرك الاسكندرية، وكان هذان الرجلان قد تعرضا منذ زمن طويل مضى لعقوبة الحرمان الكنسي من قبل ديوسكورس Dio-scorus بطريرك القسطنطينية، وطردا من كنيسة الاغريق، وهم الآن يسكنون في الجزء الأكبر من آسيا، وجميع المناطق الشرقية، وسكن بعضهم بين المسلمين، وآخرون متحالفون مع الكفار، المحتلين لمناطقهم، أي النوبة، القائمة على حدود مصر، حيث جزء كبير من أثيوبيا وجميع البلدان بعيداً حتى الهند، تحتوي —كما يؤكدون— على أكثر من أربعين مملكة، وكانوا جميعاً من قبل مسيحيين، ذلك أنهم تحولوا إلى العقيدة المسيحية، على أيدي الرسول متى مع الرسل الآخرين، لكن فيما بعد زرع العدو بذور خلافاته بينهم، فأصبحوا لوقت طويل مظلمين بالخطيئة المحزنة والتعيسة، يختنون أولادهم، من كلا الجنسين، مثل المسلمين غير مدركين أن نعمة التعميد، قد أزالت أوهام الختان للجسد، وذلك مثلما تتساقط الأزهار، وتزول، عند التحول إلى فاكهة، الأمر الذي قال عنه بولس الرسول في رسالته إلى أهل غلاطية: «إن اختتنتم لاينفعكم المسيح شيئاً» [٥/ ٢] وقال أيضاً: «لكن أشهد أيضاً لكل انسان مختتن أنه ملتزم أن يعمل بكل الناموس، قد تبطلتم عن المسيح أيها الذين تتبررون بالناموس. سقطتم من النعمة» [٥/ ٣ -٥]، ومن ذنوبهم الأخرى، ذنب ليس أدنى من الذنب المذكور أعلاه، هو أنهم يعترفون بذنوبهم، ليس إلى الكاهن بل إلى الرب وحده، حيث يضعون بعض البخور المحترق إلى جانبهم، وكأن ذنوبهم سوف ترتفع إلى الرب في الدخان، وخطيئة هؤلاء الأشقياء ليس من خلال

عـدم فهم النصـوص المقـدسـة، ومن ثـم الهلاك بسبب سـوء الفهم، فهم يخفون جراحاتهم عن الطبيب الروحـاني، الذي عمله هو التمييز بين جذام انسان وجذام آخر، وبعد التفكر ملياً حـول جريمة الختان، عليه أن يفرض التوبة، وذلك وفقـاً للمفاتيح الممنوحة للكهنة والمعهـود بها إليهم، بالقدرة على الحل وعلى الربط، وبشكل خـاص الصـلاة إلى الذين اعترفـوا إليهم، وهكذا نجد في الانجيل أن الرب قـال للمجذوم: «اذهب واعرض نفسك على الكهنة» وثانيـة قال جيمس: «اعترف بذنوبك ذنبـاً تلو الآخر»، وقـال سليمان: «لاتستحي مـن الاعتراف بذنوبـك»، ومجدداً إنه وفقـاً للعهـد القـديم، يعترف الكاهن بذنوب الناس على رأس الأضحية، إنما كيف كـان بإمكانه الاعتراف بذنوبهم، مالم تكن معروفة، و قد اعترفوا بها إليه؟، ومرة أخـرى في العهد الجديد، قـال القـديس بولص في جـزء آخر إلى الرومـان: «لأن الإنسـان يعتقـد بالقلـب مـاهو صحيح، ويعترف بالفـم من أجل الخلاص»، ونقـرأ عن يوحنا المعمـدان: «لقـد عمـدوا من قبله، واعترفـوا بذنوبهم» ذلك أن الخجل، والشعـور باللطف، والتـواضع لدى الانسـان المعترف هي الأجزاء الرئيسيـة للتوبة، ويصير الأشخـاص —عرضـة أكثر لاقتراف الذنب— هم الذين لايرون أنه عملاً صحيحاً أن يبوحوا بذنوبهم إلى الناس، لأنه قـد كتب: «إن كل من يخفـي ذنوبه لن يكون مستقيماً، لكن كل من يذنب ويعترف بذنوبه سـوف ينال رحمة»، والخطيئة الثالثة لليعـاقبة المتقدمي الذكر، هي جهلهم البـدائي، مثلما ذلك دليل على سوادهم، هو أن عدداً كبيراً منهم يكوون أولادهم، ويضعون علامات عليهم قبل التعميد، وذلك بالضغط بحـديدة محماة على جبـاههم، ويرسم بعضهم على أولادهم عـلامة الصليب إمـا على خـدودهم، أو على جباههم، ذلك أنهم يعتقـدون أنهم يتطهـرون بالحديد المحمـى، لأنه كتب في انجيل القـديـس متى بأن القـديس يوحنا المعمـدان قـال عن المسيـح: «هو سـوف يعمـدكم بالروح القـدس وبـالنار»، وإنه على كل حـال لأمـر واضح إلى جميع ذوي الإيمان الصحيح، أن إزالة الـذنوب تكون بالنار الـروحيـة، أي بـوسـاطة الروح

القـدس، وليس بالنار المرئيـة، لأن الـرب أثناء نبـوته، غـالبـاً مـا لام بني اسرائيل، وأنزل بهم لعنات مخيفـة، لأنهم قلدوا الكفـار، بأمـرهم أولادهم بالمرور خـلال النار، وجـاء في سفـر التثنيـة على لسان نبيـه مـوسى: «خـذ حـذرك فـلا تقلد آثام هذه الأمـم، وينبغي أن لايكون بينكم واحـد يتـولى تطهير ابنه أو ابنتـه بقيـادتها من خـلال النار»، ومن الـواضح إلى جميع المسيحيين، أنه لاربنا ولارسله، ولا أي واحـد من الآباء المقـدسين سمح بمـراعاة هذه العـادة في الكنيسة، كما أنهم لم يأمـروا الناس بالاحتراق وفق هذه الطريقة، ونحن قد رأينا علامات الحرق على أذرعة الذين يقطنون بين المسلمين، وكـذلك بين اليعـاقبة والسـوريين، ذلك أنهم أنفسهم عـرضـوا بالسماح لشـارة الصليب بأن تطبـع عليهم، ليميـزوا أنفسهم عن المسلمين، باحترامهم لذلك الرمـز المقـدس، وعندما بحثنـا بين الاغريق والسـوريين وسألناهم لماذا يزدرون اليعاقبة، ولماذا طردوهم من جماعتهم، أوضحوا بأن السبب الرئيسي قـد كـان لأنهم انغمسوا في هـرطقة ملعـونة، وهي الأكثـر شراً، بإعلانهم بأن هناك طبيعة واحـدة وشخص (اقنوم) واحد في المسيح، والهرطقات من هذا النوع قـد حرمت كنسياً وأدينت في مجمع خلقيـدونية، وأكـد بعضهم وأصروا بشكل شرير، على أن المسيح بعـدمـا اتخذ شكل انسان، لم يوجـد في طبيعتين، بل الذي بقي فيه هو الطبيعـة اللاهوتية فقط وكان الذي قدم هذه العقيدة الخاطئة هو يوتيخي Eutyches الذي كان راعي دير في القسطنطينيـة، هذا ويؤكـد بعضهم الآن، بأنه من الطبيعتين كانت هناك طبيعة واحـدة في المسيح، وكان هناك أسقفان من الاسكندرية، اسميهما: ثيوديوس وغـالان، كانا مبدعـي هذه الخطيئة، وإنه على كل حال لمن الواضح، أنه وفقـاً لطبيعـة الوجود الانسـاني، قـد جاع يسـوع المسيح، وعطش وتحمل الحاجـة إلى أشيـاء أخـرى، وعـانى ألماً من الموت على الصليب، ولكن وفقـاً للطبيعة اللاهوتيـة هو جلب الموت إلى الحياة، وقـام بأعمال أخـرى جيـدة، كما قـال عن نفسـه: «كنت أنا قبل أن يكون آدم» و: «البـداية أنا الذي أتكلم إليكـم» وقـال مـرة أخـرى: «أنا والأب واحـد»،

ولكن في اشارة إلى طبيعته كإنسان قد قال: «الأب أعظم مني أنا» ومجدداً قال عندما كان الكأس يعبر بعيداً عنه: «إنها ليست إرادتي، بل إرادتك التي ستكون»، وبعدما قمت بعملية تقص كاملة تماماً حول اليعاقبة المتقدم ذكرهم، عما إذا كانوا قد أعلنوا عن وجود طبيعة واحدة فقط في المسيح، لم أعرف هل أنكروا وجود غيرها من خلال الخوف من الافحام الجدلي، أو لسبب آخر، ولدى سؤالي لماذا يعلمون أنفسهم باصبع واحد، أجابوني بأنهم فعلوا ذلك بسبب اتحاد الجوهر اللاهوتي، ومع ذلك يشيرون في ثلاثة أماكن إلى الثالوث، أي اهتماماً منهم بالثالوث المقدس واتحاده، وهم يعلمون أنفسهم في أربعة أماكن، على شكل صليب، وكان السوريون (السريان) والاغريق —على كل حال— مضادين لهذا، ولإظهار أهمية الوحدة، التي يؤمنون بها لوحدها أنها الموجودة في المسيح، يعلمون أنفسهم، ويرسمون عليها بإصبع واحد، ويستخدم بعضهم الكتابة الكلدانية (السريانية)، وآخرون العربية، التي تعرف باسم الاسلامية، ويستخدم رجالهم العلمانيون كتابات أخرى ولغات، وذلك تبعاً لاختلاف شعوبهم وبلدانهم، لكن لغة رجال دينهم، التي يستخدمونها في الكتابات اللاهوتية، لاتفهمها الطوائف الدنيا، لأنهم وإن استخدموا اللغة العربية، إنها لاتشابه العربية الدارجة، لكنها لهجة خاصة بهم أنفسهم، لايفهمها السواد الأعظم من الناس.

تواضع النائب البابوي

ولقد تمكن النائب البابوي أوتو، الذي أشرنا إليه من قبل، بالسلوك بنفسه بشكل حكيم، وبلطف وتواضع، وبرفضه إلى حد كبير، الهدايا الثمينة التي منحت إليه، وذلك على عكس العادة الجارية للرومان، تمكن بسلوكه الطيب من تهدئة مشاعر الغضب، التي تكونت ضده، وكذلك التي تكونت عند رجال الدين وعند النبلاء، وكانت مشاعر الكثيرين ضده قصيرة العمر.

تهدئة النبلاء

في المقام الأول، تولى النائب البابوي المذكور، تهدئة بعض النبلاء، الذين لسبب سري لم يحبوه، ووقفوا ضده، وبوساطة قبلة منه ثبتهم بالإيمان، وكان هؤلاء:

بطرس أسقف وينكستر، وهيوبرت ايرل كنت، وغيلبرت باسيت، وستيفن سيغريف، ورتشارد سيوورد، وعدد كبير آخر، كانوا من قبل، لوقت طويل مضى معادين له، وهذه العداوة والكراهية قد وصلت إلى نهاية محزنة في مبارزات عقدت في بليث Blith في بداية الصوم الكبير لهذا العام، فيها واجه فرسان الجنوب، فرسان الشمال، وكانت النتيجة أن فرسان الجنوب تغلبوا على خصومهم، ووقع بعض الرجال من ذوي المراتب من على الطرف الآخر بالأسر، ونجم عن ذلك قتال نظامي بدلاً عن مباراة مبارزة، وفي هذه المنازلة ميّز ايرل بيغود نفسه بين الجميع، وبعد هذا هدّأ النائب البابوي الغضب بين هؤلاء النبلاء، وكتب إلى جميع أساقفة انكلترا للالتقاء به في لندن، في ثمانية القديس مارتن في كنيسة القديس بولص، لسماع مذكرة البابا المانحة له والساندة إليه صلاحيات كاملة بالنيابة البابوية، وفي المكان نفسه للاعداد لخطط من أجل إصلاح الكنيسة الانكليزية، ولعقد مجمع بحضوره.

مقتل فرسان الداوية قرب دربساك

انتشرت في تلك الآونة أخبار محزنة، وعممت الأسى في الأرض المقدسة، فإثر وفاة سلطان حلب، انتهت الهدنة التي كانت معمولة بين فرسان الداوية والسلطان المذكور، فوقتها رغب الفرسان الداوية في توسعة أراضيهم في سبيل كرامة المسيح، لذلك أعدوا العدة للحرب، واقترحوا إلقاء الحصار على قلعة اسمها دربساك Guaseum واقعة إلى الجانب الشمالي من أنطاكية، ونصبوا مخيمهم هناك في سهل معشوشب قرب

القلعة، وعينوا وليم أوف مونتفـرات، الذي كان من أوفرين Auverone وكان الوصي على أنطاكية، قائداً لهم، وعندما اقتربوا من القلعة المذكورة في تعبئة قتـالية، شـاهد ذلك بعض الأسرى الصليبيين الذين كـانوا بين أيدي المسلمين، وكـانوا بالأغـلال، مع بعض المرتدين، ولدى اقترابهم صرخـوا لهم قائلين:

«اهربوا أيها الرجـال الأشقياء، لماذا أنتم مندفعـون نحو دمـاركم؟ إنكم جميعـاً ستمـوتون، ذلك أن أعـداءكم جـاهزون بأعـداد لاتحصى لقتلكـم، وذلك بأمـر من سلطان حلب، الـذي نصب كمائن لكم»، لكن الوصي على أنطاكية، وإن كان قد سمع ذلك، قد استخف بتحذيرهم، ودعاهم مرتدين وخونة، وقـام كثير من فرسان الداوية، فقـدروا فرص الحرب، ونظروا إلى العـدد الصغير لقـوتهم، وإلى الحشـد الكبير لأعـدائهم، فنصحـوه بتجنب كمين العدو، حتـى يتمكنوا تماماً من تقـدير قدرتهم القتاليـة، وعلى هذا ردّ عليهم الوصي، بأنه لايرغب بأن يكون معه مثل هؤلاء الناس الخنوعين، في صراع مشكوك فيـه، ولا أن يشـاركـوا في نصر عظيم هو سيناله، ودعـاهم باسم جبناء مزيفين، وبهذه الطريقة المعـاندة —مع أن عدداً قد تخلوا عنه— أثار العـدو وحرضـه على القتـال، لكن الذي حدث هو أن المسلمين كـانوا محتشدين ولـذلك انقضوا عليه قبل أن يتـوقع ذلك، ولذلك كـان غير قادر على تحمل صـدمة القتـال، وخالـف أنظمة الداوية بأن أدار ظهـره وهرب، وهرب معـه بعض الآخرين من أتبـاعه، الذين كـانوا من قبل قد شجعـوا البقية، وسقط في هذه المعـركة أكثر من مـائة من فرسـان الداوية، وثلاثمائة من رجال القسي العقـارة، دون أن نذكر المدنيين الآخـرين، وعدد كبير من الجنود الرجالـة، أما الذين قتلوا من التركمان، فكانوا حـوالي الثلاثة آلاف، وفي هذا الصراع غير السعيـد قتل فـارس داوي مـن أصل انكليـزي، كـان اسمه رينالـد دي أرغنتون Argenton وكـان هو الحامل للعلم في ذلك اليوم، لكنه لدى سقوطه، مثله مثل الآخرين الذين سقطوا، ترك نصراً كان

هو الأكثر دموية إلى أعدائه، لأنه دافع عن العلم بدون كلل حتى قطعت ساقاه وذراعاه كما أرسل وصيهم وحده قبل أن يقتل حوالي ستة عشر من الأعداء إلى الجحيم في الأسفل، دون أن نحسب الذين جرحهم بشكل مميت، ووقع هذا الصراع البغيض في شهر حزيران.

إرسال ثيودوريك رئيس الاسبتارية لمساعدة الأرض المقدسة

عند سماع الداوية والاسبتارية الساكنين في البلدان الغربية بهذه المصيبة، أعدوا أنفسهم للانتقام لدماء إخوانهم التي سفكت في سبيل المسيح، وأرسل الاسبتارية رئيسهم ثيودوريك، وكان ألماني المولد، وكان فارساً بارعاً جداً، وأرسل معهم مجموعة من الفرسان مع تابعين مأجورين، ومبلغ كبير من المال لمساعدة الأرض المقدسة، وبعدما فرغوا من جميع ترتيباتهم، انطلقوا من بيتهم في كلاركنول Clerkenwell في لندن، وساروا بنظام جيد، مع حوالي ثلاثين ترساً غير مغطاة، ومع رماح مرفوعة، وأمامهم علمهم، خلال وسط المدينة، نحو الجسر حتى ينالوا مباركة المشاهدين، وحنوا رؤوسهم مع قلنسواتهم نحو الأسفل، وعهدوا بأنفسهم إلى صلوات الجميع.

عودة الامبراطور إلى إيطاليا مع جيش كبير

وفي حوالي عيد القديس ميكائيل من العام نفسه، قام الامبراطور بعدما قمع الاضطرابات التي تفجرت في ألمانيا، وتمكن من تهدئة جميع الفئات هناك، بالدخول إلى ايطاليا مع قوة كبيرة، وقرار بأن يستخدم جميع الوسائل للانتقام للأضرار المضاعفة، التي غالباً ما أنزلها به سكان ميلان، لأنه عندما عاد قبل وقت قصير إلى ألمانيا، أثناء حدوث الاضطرابات الداخلية، التي أثارها دوق النمسا من أجل دماره، ولدى سماع أهل ميلان بخبر تراجعه، قاموا وكأنهم يطاردون الامبراطور بحقد شديد، فقتلوا بشكل وحشي أتباعه، الذين وضعهم في القلاع التي نال تملكها في ايطاليا، وبذلك أثاروا

يوماً غضب الامبراطور، وبناء عليه، ولكي لاينال تهمة عدم الطاعة، قام بمراسلة البابا مراراً وتكراراً، برسائل تضرع، وبعدة رسل خاصين، فتوسل إلى البابا شخصياً بحكم كونه رأس الكنيسة، ليقدم له المساعدة في الحصول على ميراثه، وبانزال العقوبة بسكان ميلان، للأضرار المضاعفة التي ألحقوها به، ولاجتثاث الهرطقة من كل مدينة سيئة السمعة في إيطاليا، ولاسيما أن واجب كنيسة روما، إذا ما صمت البقية، أن تقف ضد وقاحة مثل هؤلاء الناس.

ولدى سماع البابا بهذا، تظاهر بإخفاء نفسه، وسار نحو روما، وكأنه كان هارباً من أمام الامبراطور، لأنه كان غير راغب —أو غير قادر— بمساعدته، واستقبله الرومان بسرور، متصورين أنه منذ ذلك الحين فصاعداً، لن يتخلى عنهم، ويسافر بعيداً، كما فعل من قبل، لأنهم وجدوا أنهم عانوا أثناء غيابه، الذي استمر حتى الآن عشرة أعوام، من خسارة كبيرة في المال.

الحرب بين الامبراطور وبين الميلانيين

ولدى سماع الميلانيين بقرب وصول الامبراطور، الذي أثاروه إلى غضب مسوغ، عملوا جميع الاستعدادات، التي أمكنهم عملها، من أجل الحرب، فقد زودوا أبراجهم بالمؤن، وجعبهم بالسهام، وجهزوا بالسلاح الذين ليس لديهم أسلحة، ولذلك عندما صار الامبراطور قريباً مع جيشه الكبير، الذي قيل بأن تعداده قد تجاوز مائة ألف رجل، بالاضافة إلى المرتزقة المسلمين، وبعدما سار فصار على بعد زحف يوم عن المكان، خرج سكان المدينة مع حلفائهم من دون انذار، في صفوف قتالية، للتصدي له، ونصبوا مخيمهم حتى يتقرر يوم المعركة، وكان معهم حشد عدده حوالي خمسين ألف رجل، ونصبوا رايتهم حيث بدا الجيش أنه الأقوى، ولدى رؤية الامبراطور لهذا، جمع مستشاريه، وشجعهم بالخطبة الحربية التالية:

«انظروا كيف تجرأ هؤلاء الميلانيون الوقحون على الظهور أمامنا، وشرعوا بإثارتي أنا الذي هو مولاهم وتحريضي على القتال، وهم كما ترون أعداء الاستقامة والكنيسة المقدسة، وهم يتحملون وزر ذنوبهم، اعبروا النهر —لأنه كان هناك نهر بينهما اسمه أوغليو Oglio — وانشر رايتي أيها الحامل لها، وارفعوا عالياً نسري المنتصر، واشهروا أنتم يافرساني سيوفكم المرعبة، التي غالباً ماغمستموها في دماء أعدائكم، وأنزلوا انتقامكم بهؤلاء الجرذان، الذين تجرأوا في هذا اليوم على الخروج من جحورهم ليتنازلوا مع رماح الامبراطور الروماني».

ولم ينالوا أي تأخير، لأن الميلانيين انقضوا على الفور على العساكر الامبراطورية، وقاتلوا المسلمين بحماس، ذلك أنهم كانوا أول من تصدى لهم، وفي وقت قصير قتلوهم جميعاً، وعزموا على اقتراف مذبحة مماثلة ببقية الجيش الذي تصدى لهم، ولدى رؤية الامبراطور لهذا ومعه نبلائه الشجعان الذين لايقهرون، ألقوا بأنفسهم كتلة واحدة على الأعداء، وبذلوا كل طاقتهم، فصدوا حملاتهم، وعندما رأى سكان المدينة —من الجانب الآخر— أنها مسألة حياة أو موت، تبادلوا تشجيع أحدهم الآخر، للمحافظة على شجاعتهم، وقاتلوا الأعداء بشجاعة أكبر، وغرزوا سيوفهم البراقة في أجسادهم،وحوّلوا الهجوم إلى معركة هي الأكثر دموية، فقد سقطت أعداد كبيرة من على الجانبين، وامتلأ الهواء بصراخ الجنود المتصارعين، وبأنين الذين كانوا يموتون وبتصادم الأسلحة، وبصهيل الخيول، وصراخ راكبيهم وهم يحثونهم على الاسراع، وغالباً ماعلت أصوات قرع الحديد مثل الصواعق، وأخيراً، وبعد عدة حملات دموية من على الجانبين، أصبح الميلانيون، غير قادرين في ذلك اليوم على تحمل ثقل المعركة، والاستمرار بالقتال مدة أطول، لذلك تراجعوا نحو مدينتهم، عازمين على معاودة القتال في اليوم التالي، وبعثوا برسالة إلى الامبراطور، بأنهم سوف في الصباح الباكر من اليوم التالي يجربون بكل تأكيد حظ

الحرب، وهم وقتها سينالون النصر أو عدوهم، تبعاً لإرادة رب الحشود، حتى لاتبقى عقولهم معذبة مدة أطول بسبب التعليق أو التأخير.

ولدى سماع الامبراطور بهذا عقد مؤتمراً، وكان بحكمة وحذر يرغب في قمع غضب أعدائه، مؤثراً ذلك ومفضلاً له على متابعة القتال المشكوك به بشكل غير حكيم، وعلى أن يعهد بنفسه وبأتباعه المتعبين إلى حظ الحرب غير المؤكد، لأن مذبحة كبيرة وقعت بين صفوف النبلاء من على الجانبين، ستظل موضع نواح وبكاء لأجيال مقبلة، لكن الميلانيون نالوا الحظ الأسوأ في القتال، لأن الامبراطور قد أخذ ثلاثة آلاف منهم أسرى، وذلك من مختلف مراتب أهل المدينة، وذلك إلى جانب قتل عدد لايحصى من عامة الجند بحد السيف، يضاف إلى هذا، نصب كميناً بعد ذلك، فأسر ثلاثمائة من النبلاء، واستولى على رايتهم، واعتقل عمدتهم، ابن دوج البندقية، الذي هو بالحري سقط في المعركة، وقتل أيضاً كثيراً من النبلاء الآخرين، وسقط أسقفهم أيضاً، إما أثناء القتال، أو أخذ أسيراً، والحقيقة المؤكدة، هو أنه لم يترك أحداً، ليقدم أية رواية عنه.

وأمر الامبراطور منذ ذلك الحين باغلاق جميع الطرقات والمعابر حول المدينة، وبحراستها بدقة، وباغلاق المخارج والمداخل العائدة للتجار والفلاحين، بوضع حراس هناك ليلاً ونهاراً، وبهدم الجسور، وبحراسة الطرقات، وكانت الغاية من هذه الوسائل اضعاف قوى أعدائه الثائرين وتدجين وحشيتهم، وأصبح سكان المدينة الذين رفعوا كعبهم ضد الرب يائسين، ولايثقون بالرب، فرفعوا المصلوب في الكنيسة من كعبيه، وأكلوا الجسد في اليوم السادس من الاسبوع، وفي الصيام الكبير، وانغمس كثيرون في هذه المتاهة من اليأس في جميع أرجاء ايطاليا، وكانوا يشتمون ويجدفون، ومن دون احترام لوثوا الكنائس بالقاذورات، التي هي غير جديرة بالذكر، ولوثوا المذابح، وطردوا الموظفين اللاهوتيين، واستولى وقتذاك الرعب والارتعاد على مدن ايطاليا، وجاءت أعداد من السكان إلى الامبراطور يقدمون هدايا ثمينة، لكي لايتورطوا بفاجعة مماثلة، وسلموا أنفسهم

ومـدنهم واستسلمـوا إليـه، وأعطوه أيديهم اليمنى معـاهدين، وتواضعـوا متعظين بأمثولة الآخرين الذين عانوا وتألموا، وهكذا تمكن الامبراطور قبل منتصف الصـوم الكبير من احكام قبضتـه على جميع ايطاليـا، وذلك إلى جانب بولونا Bologna وأربع مدن أخـرى هي التي لم تمتلك الوسائل للمقاومة، وكان جميع رجال الدين في بولونا مرعوبين خائفين على أنفسهم، لأن الامبراطور كان قد أخبرهم في السنة الماضيـة وأمرهم بالمغادرة بسلام، وقد رفضوا طاعة أوامره.

سخط نبلاء انكلترا ضدّ الملك

في الوقت الذي كانت فيـه هذه الوقائع جـارية في مناطق ماوراء الألب، اعتمـد الملك هنري الثـالث على نصيحـة شريـرة، ووثق بها، على عكس مـاقضى عليـه واجبـه، أو المنفعـة لـه، فنأى بنفسـه عن نصيحـة رعـاياه الطبيعيين، وأصبح متصلباً عنيداً ضـد الذين يرغبون به الخير، وضد الذين يتطلعون نحو منفعة المملكة، فقد أدار شؤونها، مع اصغاء قليل، أو معدوم لنصيحتهم، وكـان في سبيل أن يمتلك بعـض الحجج الماكـرة مـن أجل استخراج المال منهم، أعلن بناء على قسمه، في المؤتمر الذي دعـا إليه النبلاء من مسافات بعيدة، بأنه كان معدماً بلا مال، وأنه كان في وضع كبير العوز، ولذلك التمس بكل إلحاح منهم أن يمنحـوه جزئاً من ثلاثة عشر جـزئاً من أمـوالهم وأملاكهـم في جميع أرجاء انكلترا، حتى يمكن دعـم كرامتـه، أي كرامـة الملك، وكرامـة المملكة بطريقة أعظم تشريفـاً، ولكي توسع المملكة على أسس أكثر رسوخاً، وقد انزعج النبلاء كثيراً لدى سماعهم هذا، ورأوا كثيراً من الأجـانب يسمنون على ممتلكاتهم، وقـد ضعفت المملكة بسبب الفقر، وقد أحاقت بها مخاطر مضاعفـةمراراً، وكان بعد كثير من المناقشات فيها تواضع الملك بنفسـه، ووعد أنه منذ ذلك الحين فصاعداً سـوف يلتزم بنصائحهم من دون تردد، وجرى منحه الجزء من ثلاثة عشر جزئاً من جميع الممتلكات المتحركة، لكن ذلك لم يكن من دون صعوبات كبيرة.

وصـدر الأمر بعـد ذلك بجمع هذا الجزء، وبتقـدير ليس وفقاً للتقـدير الملكي، بل وفقـاً للتقـدير العـام، وأن لايوضع في الديرة والقـلاع، حسبما جـرى الاعداد من قبل وتقـرر، وأن لاينفق بناء على تصرف النبـلاء، لكن قام الملـك من دون أخذ مشورة أي واحـد من رعايـاه الطبيعيين في مملكته، فأعطـى المال إلى الأجـانب لينقل إلى الخارج، وأصبح هـو مثل انسـان مسحور، إذا لم نقل إنه أصبح من دون عقل، ولذلك تفجرت الشكوى بين الناس، وازداد سخط النبلاء حماوة وشدة.

الايرل رتشارد يلوم الملك

وكـان رتشـارد، ايرل كـورنوول، وأخـو الملـك، أول من طلب الملك للاستجـواب، ولامه بحـدة للخراب الكبير الذي لحق بالمملكة، وكـان هو سببه، وأعلن أنه يقوم يومياً، بوساطة عذر جديد، بنهب نبلائه، وأتباعه من البـارونات، من ممتلكاتهم، وكل ماأخـذه منهم، وزعه بشكل غير معقـول، بين هؤلاء الذين كانوا يتـآمرون ضده، وضـد ممتلكاته، وأضاف الايرل بأن الملك قـد جمع موارد كبيرة، وجبى في أيامـه مبالغ ضخمـة من المال، وأنه لم يكن هناك لارئاسة أساقفة، أو أسقفية، باستثناء: يورك، وباث، ووينكستر، هي ليست شـاغـرة في أيامـه، وذكـر الشيء نفسـه فيما يتعلق برعـاة الديرة، والكونتيـات، والبارونيـات، والادارات، والوكالات الأخـرى، ومع ذلك فإن خزينة الملك، التي يتـوجب أن تحتوي قوة المملكة واستقـلالها، لم تشعر قط بأية زيادة.

واستمـر الملك في رفضه لنصيحتـه، وكـذلك لنصائح رعـاياه الطبيعيين الآخرين، وازداد مـن سيء إلى أسوأ في جنانه الذي شعر بـه، وألم به، وعهد بنفسـه كليـاً إلى إرادة الرومـان، وبشكل خـاص إلى النائب البـابوي، الذي أرسل خلفـه بشكل غير حكيـم، حتى أنه ظهـر وكأنه يعبـد حتى خطواته نفسها، ذلك أنه أعلن أيضاً، أنه لايستطيع بالعلن أو بالخفاء ترتيب أي شأن من شـؤون المملكة، أو إحداث أي تغيير أو تبـديل من دون مـوافقة مـولاه

البـابا، أو النائب البـابوي، ولذلك مـن الممكن القـول أنه لم يكن ملكاً، بل تابعاً للبـابا، وبهذه التصرفات وأمثالها من المساوىء، أخـرج الملك ونبذ من قلوب نبلائه، وكان لديه أيضـاً مستشارين رجالاً غير مشهورين، ولا يمكن الوثوق بهم، وقد قيل بأنهم كـانوا المحرضين له على هذه الأفـاعيل، ونتيجة لذلك كـانوا مكروهين إلى أبعـد الحدود من قبل النبـلاء الانكليـز، مع أن أصـولهم جـاءت من المملكة نفسهـا، وكـان هؤلاء: جـون ايـرل لنكـولن، وس. S ايرل ليستر، وغ. G وكان من رهبان الداوية.

النائب البابوي يسمّـن نفسه على الأشياء الطيبة لانكلترا

وقـدمت في الوقت نفسـه، هدايا ثمينـة إلى النائب البـابوي، من خيـول صغيرة لركـوب السيـدات، وأوعيـة جميلة، ومـلابس ناعمـة ومضـاعفـة الحيـاكـــة، ومختلف أنواع جلـود الحيـوانات البريـة، وأمــوال، ولحوم، ومشروبات، وعندمـا بدا لأسقـف واحـد، هـو بطرس أسقف وينكستر، ووضح بأن النائب البـابوي مزمع على إمضـاء الشتاء في لندن، أرسل إليـه خمسين رأسـاً من الماشية، ومـائة عبـوة من القمح، وثمانية دنان من الخمـرة الصـافية ليـدعم نفسـه بها، وقـدم له آخرون هدايا مماثلة، تبعاً لقـدرتهم، وللوسـائـل التي توفـرت لديهم، ولكـن النائب البـابـوي لطّـف الشره الرومـاني، ولم يقبل جميع الهدايا التي قـدمت إليـه، وقـد تقبل بعض الهدايا وتسلمها عن رضـا، وبملامح مشرقة، واضعـاً في ذهنه الملاحظة الفلسفية التي تعزى إلى افلاطون قوله:

«أن تتسلم جميـع الهدايا التي منحت إليـك، فـــذاك شره، وأن لاتتسلم شيئاً، فذلك ازدراء، ولكن أن تتسلم بعض الهدايا، فتلك صداقة».

الملك يدعو كونت بروفانس إلى زيارته

وفي الوقت نفسـه توسل الملـك بحـرارة إلى كـونت بروفـانس —والد الملكة— بالرسائل، وبالرسل المتتـابعين، لكي يوافق فيقدم إلى أرض ختنه،

وليحمل وهو عائد بعض ماله معه أثناء رجعته، ومن المعتقد أن المال الذي استخرجه الملك كجزء من ثلاثة عشر جزئاً، كان من أجل التوزيع عليه وعلى آخرين من مثل هؤلاء الناس، واقتنع الكونت بحب الكسب، وجاء بناء على الدعوة، ولم يعق بأي إغراءات أو هدايا من الفرنسيين، مع أن الملك كان متزوجاً من ابنته الكبرى، لكن قبل أن يصل إلى البحر، ثارت حرب داخلية في مناطق بروفانس، ولذلك عاد مسرعاً، ولدى سماع الملك هنري بذلك أرسل إليه ألف مارك ليغطي بها نفقات سفره، وليشتري تجهيزات عسكرية من فرنسا.

لقاء في يورك بين ملكي انكلترا وسكوتلندا

وكتب في العام نفسه الملك إلى نبلائه ليجتمعوا بحضرته وبحضرة النائب البابوي في يورك، في يوم عيد تمجيد الصليب المقدس، للبحث في بعض القضايا الصعبة المتعلقة بالمملكة، وتوجب على ملك سكوتلندا أيضاً القدوم إلى ذلك المكان لمقابلته، بناء على دعوة له من الملك ومن النائب البابوي، بغية الاعداد لشروط من أجل السلام بينهما، وأنه بفضل نعمة الرب يصبح من الممكن تسوية جميع الخلافات بينهما وإنهائها، وأن يكون كل واحد بينهما راضياً بتسلم ماهو حق له، وبعد وصولهما إلى هناك، تم الاتفاق على أن يتسلم ملك الاسكوتلنديين ٣٠٠ Librates [١٥,٦٠٠ acres تساوي الأكره الواحدة حوالي الأربعمائة متر] من الأرض في مملكة انكلترا، دون السماح ببناء قلعة عليها، وعليه أن يقدم الولاء إلى الملك، كما يتوجب إبرام معاهدة تحالف بينهما، وأن عليه أن يقسم على العمل باخلاص نحو ملك انكلترا، وأن يحافظ على المعاهدة، وكان المرجو أنه بهذه الوسائل إنهاء جميع الشكاوى والادعاءات من جانب ملك سكوتلندا، ولدى إلحاح النائب البابوي وتعبيره عن رغبته بالذهاب إلى مملكة سكوتلندا لفحص الشؤون اللاهوتية هناك مثلما فعل في انكلترا، أجابه ملك الاسكوتلنديين قائلاً:

«أنا لاأتذكر قط أنني رأيتُ نائباً بابوياً في بلادي، ولم تكن هناك حاجة قط لدعوة واحد إلى هناك، الحمد للرب، وليس هناك الآن أية حاجة لواحد، لأن كل شيء يسير على مايرام، كما أنه لم يسمح لأي نائب بابوي بالدخول إلى تلك المملكة في أيام أبي، أو أيام أي احد من أجدادي، وأنا لن أسمح بذلك مادمتُ قادراً على فعل ذلك، وبما أن التقارير قد تحدثت عنك بأنك رجل صاحب قداسة، إنني أحذرك، إنه إذا صدف ودخلت إلى أراضي، أن تسير بكل حذر، خشية أن يحدث لك أي حادث، لأنه يسكن هناك أناس متوحشون، ليسوا تحت السيطرة، وهم متعطشون يسعون وراء الدماء البشرية، وهؤلاء أنا لايمكنني تدجينهم، وإذا مارغبوا بمحاربتي، فسأكون غير قادر على منعهم، ولربما سمعت مؤخراً أنهم أرادوا محاربتي وطردي من مملكتي»، ولدى سماع النائب البابوي هذا، لطّف رغبته وشوقه إلى دخول اسكوتلندا، ولم يترك جانب ملكه، أي جانب ملك انكلترا، الذي أطاعه في كل شيء، لكن أحد الطليان، وكان من أقرباء النائب البابوي، بقي مع ملك اسكوتلندا، وأبقاه هذا الملك معه، وذلك حتى لايظهر أنه متمرد تماماً، وشرفه بمنحه رتبة الفروسية، ومنحه بعض الأرض، وهكذا إرفض المؤتمر، وعاد الملك مع النائب البابوي إلى الجنوب.

استعدادات النائب البابوي الكبيرة من أجل عقد مؤتمر

ومع اقتراب موعد عقد المؤتمر، أمر النائب البابوي بوضع كرسي فخم في مكان مرتفع، وأسنده فوق ألواح طويلة، وقد أمر بتشييده لنفسه في الجزء الغربي من كنيسة القديس بولص في لندن، ثم إنه أرسل رسائله إلى جميع قساوسة انكلترا، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان المعينين، يأمرهم أن يجلبوا —أو أن يرسلوا— رسائل توكيل عن ديرهم أو هيئة كهنتهم، وكذلك بأسمائهم، بأن كل شيء سوف يقرره النائب البابوي في المؤتمر، ينبغي أن يصدقوا عليه من على الجانبين، وبناء على هذه الدعوة قدم جميع قساوسة انكلترا الذين هم تحت سلطان

نيـابته البـابوية، مع أنهم تعـرضوا لكثير من الضيق والتعب في أجسـادهم، ومثل ذلك عانت خيـولهم، لأن فصل الشتاء كان قـد اقترب حلوله، ومعه أنواء عاصفة وقاسية.

عاصفة ريح ثقيلة ومدمرة

وكان من بين الذين قدموا إلى ذلك المؤتمر واحد اسمه المعلم وولتر بروز Pruz وكـان كـاهناً وقـد أعلن للجميع بأن جميع الكـواكب مقبلة على الاجتماع معاً، تحت برج واحـد من الأبراج هو برج الجدي، وسوف يسبب هذا هياجـاً عظيماً بالعناصر، ولسوف يثير عـواصف ثقيلة من الريح، وتنبأ أن دماراً هائلاً سيكون بين الحيوانات، خاصـة القرنية منها —التي ندعوها مـاشية أو قطعـان— وهذا سوف يتبع الزوابع، وأضـاف مازحـاً: «ربما لن تكون بشراً لهم قـرون»، أي «من الأسـاقفـة»، ولم تكن توقعـاته هذه كلهـا فـارغـة من الصحـة، لأنه حـدث فجـأة، عندمـا كـانوا مجتمعين في كنيسـة القديس بولص أن اهتزت بشكل مفاجـىء، بسبب تلك العاصفة الشديدة من الريح، فـاستولى رعب شـديد على الجميع، وبشكل خـاص على النائب البابوي، وفي ليلة عيد القـديسة سيشيليا Cecilia حدث أيضاً أنه عندما كان القمـر في ربعه الأول، أن انتشرت غيوم سوداء بشكل غـريب، شكلها مثل برج، وقد ظهرت في الجزء الغربي من السماء، وبدأ الرعد يزمجر، وشرع البرق يرسل ببريقـه، وثارت الريح، وخلال تلك الليلة كلهـا واليوم التـالي كـانت هناك عاصفـة ثقيلة ترافقت مع ريح هائجـة ما من أحـد يتذكـر أن مثلهـا قد وقع من قبل، واستمـرت هذه العاصفـة لمدة خمسة عشر يومـاً أو أكثـر من دون انقطاع، واقتلعت أشجـار البلوط من جـذورها، وسقطت، وسقطت الأبراج والأبنيـة أرضاً، أو أنها اهتزت، وهكذا بـدا أن الأنواء قد اتحدت في سبيل اقلاق الانسان.

الاجتماع والإعدادات للمؤتمر

مع أن رجـال دين انكلترا، قـد اجتمعـوا في كنيسـة القـديس بولص في

لندن، في اليوم الأول المحدد من أجل عقد المؤتمر، والذي كان اليوم الذي جاء بعد ثمانية القديس مارتن، لم يظهر النائب البابوي، لأن الأساقفة سألوه أن يمنحهم ذلك اليوم لفحص الترتيبات التي اقترح عملها، وللتداول حولها، حتى لاتتعرض مصالحهم لأضرار أعدت سلفاً، ووصل في اليوم نفسه فرسان مسلحون مع حوالي المائتي جندي، كان الملك قد زوده بهم بناء على التماس عظيم منه، ووضعهم في كمين، لأنه كان حذراً من جانبه، لأنه قد قيل بأنه قد حرض ضد الذين لديهم عدة مصالح وموارد، وبشكل خاص ضد اللاشرعيين، وقد ظهر هو شخصياً في الكنيسة المذكورة في الصباح الباكر، وكان ذلك في حوالي الفجر، وكان حشد رجال الدين الذي كان ينتظره كبيراً جداً، إلى حد أنه وجد صعوبة بالغة في الدخول إلى الكنيسة، وبعدما تمكن من شق طريقه، عرض نفسه في أثوابه الحبرية، أي في المدرعة الكهنوتية، والقبعة اللاهوتية المغطاة بفراء جلود مختلف أنواع الحيوانات،ثم لبس تاجه الأسقفي، وسار بعد ذلك بشكل مهيب مع رئيس أساقفة كانتربري ويورك، وحمل في المسيرة الوقورة الصليب وشموعاً مشتعلة، وكانوا يرددون الابتهالات، وصعد فوق الدرجات إلى مقعده، الذي —كما ذكرنا من قبل— قد أعدّ له وسط أبهة كبيرة، وصار الآن أكثر أبهة بالزرابي وبالمظلات، ثم أجلس رئيس أساقفة كانتربري نفسه على يمينه، ورئيس أساقفة يورك على يساره، لأن خلافاً نشب بينهما حول ترتيبات الجلوس، وتقدم رئيس أساقفة يورك بطلب للحصول على اليمين، الذي ادعاه لنفسه، وبناء عليه بعدما تمت قراءة: «أنا راعي جيد» من الانجيل، وقراءة بعض المجموعات المناسبة، وفقاً للعادة، من قبل النائب البابوي نفسه، وبعد غناء مزمور: «أقبل ياروح القدس، أيها الخالق أقبل»، تولى رئيس أساقفة يورك —كما ذكرنا أعلاه— تقديم طلبه، ومع ذلك أخذ رئيسا الأساقفة مقعديهما إلى جانب النائب البابوي، حيث جلس رئيس أساقفة كانتربري على يمينه، ورئيس أساقفة يورك على يساره، ورغبة من النائب البابوي، وقتها في إنهاء الخلاف من دون إلحاق ضرر بأي

واحد من الجانبين، قال لهما: «تظهر على مرسوم صاحب القداسة البابا، اصبع القديس بطرس على يمين الصليب المطبوع في وسط المرسوم، في حين تقف إصبع القديس بولص على اليسار، لكن بين هذين القديسين العظيمين، لم ينشب قط أي خلاف، لأنهما متساويين بالشهرة، إنما بسبب أنه [بطرس] يعد في وضعه حامل المفتاح، ولأنه رئيس الرسل، وكذلك بسبب مكانته الكاتدرائية، وأولويته في دعوته، يبدو أن صورته جديرة بالوضع على يمين الصليب، لكن بما أن بولص آمن بالمسيح الذي لم يره، فإن صورته أيضاً جديرة بالوضع على اليمين، لأنه قال: «بورك الذين لم يروني» الخ، وهكذا بما أن صاحب النعمة رئيس أساقفة كانتربري، هو الأول على كل انكلترا، وهو الرئيس على كنيسة كانتربري الأعظم شهرة، وكذلك على كنيسة لندن، التي هي عائدة إلى القديس بولص، يتوجب ليس من دون سبب في أن يوضع على الجهة اليمنى»، وفي الأيام التالية للمؤتمر، جلس رئيس أساقفة كانتربري على الجهة اليمنى للنائب البابوي، وجلس رئيس أساقفة يورك على الجهة اليسرى، وفي اليوم الأول من المؤتمر، جرى ارسال: جون ايرل أوف لنكولن، وجون فتز— غيوفري، ووليم دي ريل Raele وكاهن القديس بولص، باسم الملك، ليمنعوا النائب البابوي، نيابة عن الملك المذكور والمملكة، من الوصول إلى أي قرار في المؤتمر، يحط من مكانة التاج الملكي والمملكة، وفي سبيل الأخذ بهذا الطلب ومراعاته، بقي وليم دي ريل هناك، وعليه الدراعة الكهنوتية والقبعة، وغادر الآخران وذهبا، وفي اليوم نفسه، وعلى مسمع من جميع الحضور، طلب سيمون رئيس شمامسة كانتربري من النائب البابوي، أن يقرأ الترخيص بنيابته التي عهد بها إليه صاحب القداسة البابا،على مسمع من جميع الفئات، وهذا فعل، وفي اليوم نفسه، جرت أيضاً قراءة أحد الامتيازات —بناء على طلب من الملك— فيما يتعلق بأعياد القديس إدوارد والاحتفال بها في جميع أنحاء انكلترا، وبناء على أمر من البابا جرت قراءة واحد آخر يتعلق بمسألة تطويب القديسين: فرانسيس ودومينيك، وكان النائب البابوي قد سمع

عندما كان في مقر إقامته، بأن عدداً من الأشخاص، الذين في حوذتهم منافع في عدة كنائس، وكانوا نبلاء من حيث النسب والممتلكات، وغير شرعيين، والذين كان قد أتى على ذكرهم في قرار المؤتمر، قد غضبوا، وخططوا لعمل خياني ضده، ولذلك تمت حراسته، وكان قد تولى ذلك أيضاً بعض النبلاء من المؤتمر، وهم: غ. G ايرل مارشال، وج. J ايرل لنكولن، وكذلك بعضاً من حاشية الملك، وقد سلحوا أنفسهم بالسيوف، وبالأسلحة الأخرى، لحمايته وحماية أتباعه.

وأثناء المؤتمر عندما جرى نشر القرار ضد هؤلاء الذين لديهم عدة منافع، والذي كان معاكساً لقرار مجمع اللاتيران، وقف وولتر دي كانتلوب، أسقف ووركستر، في وسطهم، وانتزع تاجه الأسقفي، وخاطب النائب البابوي على الصورة التالية:

«أبانا المقدس، مع أن عدداً من النبلاء لهم نسبهم مثلنا، بين أيديهم عدة منافع، هم لم يتسلموا بعد إعفاء، وبعضهم من الذين تقدموا بالسن، وقد عاشوا حتى الآن بشكل مشرف، يظهرون الكرم إلى غاية قدرتهم، وقد وزعوا الصدقات بأبواب مفتوحة، يبدو أنه من الصعب جداً لمثل هؤلاء الناس، أن يحرموا من منافعهم، وأن يتحولوا إلى وضع فقر مهين، وبعض الشبان، الذين هم شجعان وجريئين، سوف يعرضون أنفسهم إلى أعظم المخاطر، قبل أن يسمحوا لأنفسهم أن تحرم من منافعها، مع الاحتفاظ بمنفعة واحدة، وحول هذا أنا يمكنني أن أحكم على نفسي، فقبل دعوتي إلى تلك المرتبة، كنتُ قد قررت في قرارة نفسي، أنني إذا كنتُ سأخسر منفعة واحدة، تحت حجة مثل هذا المرسوم، إنني سوف أخسر الجميع، وبناء عليه، نخشى أن كثيرين مازالوا حتى الوقت الحالي محتفظين بمثل هذا القرار، وبناء عليه، بما أن عدداً كبيراً جداً لهم علاقة بهذه القضية نلتمس من قداستكم، من أجل سلامتكم، وكذلك من أجل سلامتنا، أن تستشيروا البابا، قبل الوصول إلى قرار من هذا النوع، يضاف إلى هذا بما أن

مرسومكم بشأن الطائفة الدينية التابعة للقديس بندكت يمتد بسلطته لينال بالدرجة نفسها الجميع، إنه سوف يكون صعباً بالنسبة لأعداد كبيرة، بسبب فقر بيوتهم، وبشكل خاص من أجل الراهبات، لأنهن ضعيفات، وعاجزات عن مراعاة هذا المرسوم، ولذلك إنه من الضروري إظهار لين مخلص في فرض هذه الإجراءات القاسية، وبناء عليه، نحن نرجوكم فيما يتعلق بهذه القضية أن تستشيروا قداسة البابا».

وفي رد عليه، قال النائب البابوي، إنه إذا ماأراد رجال الدين، أي رئيسي الأساقفة والأساقفة الماثلون أمامه، أن يكتبوا إلى البابا حول هذه القضايا، هو عن طواعية سوف يوافق على ذلك، ويتوجب أن يكون معلوماً، أنه بسبب أن بعض الناس، قد فهموا من النائب البابوي، أن مراسيمه سوف تكون ثابتة ونافذة فقط أثناء أيام نيابته للبابا، قام المعلم أثو Atho وكان واحداً من كهنته، قام بناء على طلبه ووقف في وسط الاجتماع، وفتح كتاب التراخيص، الذي كان سجلاً لقداسة البابا، وذلك في سبيل زيادة سلطاته، ولكي يتمكن بشكل فعال أكثر من تحقيق آرائه ومشيئته، وقرأ هذا المعلم بصوت مرتفع بعض القرارات والمراسيم، التي أراد النائب البابوي أن يبرهن من خلالها بشكل واضح ومتميز صدقه، والتي أظهر من خلالها بوضوح، أنه بعد مغادرة النائب البابوي المذكور، فإن قراراته وقوانينه، سوف تكون ثابتة باستمرار، وينبغي أن لانتجاوز ذكر، أنه في اليوم الأول من المؤتمر، اتخذ رئيسا أساقفة كانتربري ويورك مقعديهما، كما ذكرنا من قبل، أولهما من على يمين النائب البابوي وثانيهما من على يساره، وبعد قراءة قوله في الانجيل «أنا الراعي الجيد»، وبعد قراءة المجموعة المتعلقة بذلك، جرى فرض الصمت على الحشد المجتمع، وطلب منه الالتزام بالنظام، فرفع النائب البابوي صوته، وكأنه كان صوت بوق، وبدأ حديثه، وافتتح ذلك بالنص التالي:

«في وسط العرش، وكان هناك من حوله أربعة حيوانات، مليئة بأعين

من الأمـام ومن الخلف»، وقلد رجل الدين ذاك أثناء قـداسـه، الحيـوانات بأعين من الأمـام وأعين من الخلف، حتى يكون حـذراً أثناء إدارة الأعمال الدنيـوية، وكـان حـذراً أثناء إدارة الشـؤون الروحيـة، جـامعـاً الماضي مع المستقبل، وبعـد القـداس أمـر بقراءة مـراسيمـه بشكل متميـز، وبصـوت مرتفع، وقد أمر بمراعـاة ذلك بدقة، وقد رأينا أنه من الموائم ذكر هؤلاء في هذا الكتاب.

افتتاح المؤتمر الذي عقد من قبل النائب البابوي أوتو في كنيسة القديس بولص في لندن

«منذ أن غدت القداسة هي بيت الرب وقسيسيه، لقد قيل من قبل الرب «كنت أنت مقدس لأنني أنا الرب مولاك مقـدساً»، ويسعى مكر عدو بني البشر لإزالة القـداسة أو لتـدميرها كلياً، وبناء عليـه أعاق في أمـاكن كثيرة الكنائس من أن يجرى تكريسهـا والقسـاوسـة من تأدية واجبـاتهم بشكل صحيح، بافساد أخلاقهم وتدميرها، وكذلك حياتهم بالسلوك ضد أحكام وقوانين الآباء المقدسين، وإعاقة كل شيء فيـه فائدة لتقدم الديانة المسيحية، وبناء عليـه ينبغي أن نقـاوم بكل إخـلاص وبيـد قـويـة ذلك من قبل جميع المسيحيين، ولأن نضعف مسـاعيـه، يتـوجـب استخـدام قـوى جـديدة ومتجددة، مثلما فعل اسحق حين سعى أولاً إلى تجديـد الآبار، التي حفرها أبناء إبراهيم، وهي التي كـان رجـال فلسطين قد طمـوها بالتراب، وبعـد ذلك حفر آباراً جـديدة، وأخيراً نحن أوتو، الذي بفضل النعمـة الإلهية هو كـاردينال شماس للقـديس نيقـولا في سجن تـوليـان، ونـائب الكرسي الرسولي، قد جرى إرسـالنا من قبل الكرسي المذكور، بوظيفة نائب بابوي، إلى بلاد انكلترا، لنقوم معتمدين على العـون الرباني، وعلى الأساقفة، وعلى المجمع الحالي، بتقـوية أوضـاع كنيسـة انكلترا، وبإصـلاحهـا، باستثناء المؤسسـات الشرعية الأخـرى، التي نتمنى ونرغب، المحـافظة عليهـا بكل احترام، وقد رأينا بوسـاطة السلطات المعهودة إلينا، أنه من الموائم، مـراعاة

بعض المراسيم، التي أمرنا بفرزها وترتيبها تحت بعض العناوين».

تكريس الكنائس

«من المعروف أن تكريس الكنائس، قد استقى أصله من العهد القديم، وروعي هذا وطبق في العهد الجديد، من قبل الآباء المقدسين، وهذا ماتتوجب مراعاته بمزيد من التقوى والدراسة، لأنه في الماضي كان ذبح الحيوانات فقط من أجل تقديمها قرابين، لكن صار فيما بعد القربان السماوي هو الحي والصحيح، لأن الابن الوحيد للرب يقدم لنا على المذبح على أيدي الكهنة، ولهذا رسم الآباء المقدسون بحكمة أن مثل هذا الواجب، ينبغي عدم ممارسته —إلاّ في الأوضاع الضرورية— في أماكن غير مكرسة للرب، وعلاوة على ذلك، كما رأينا نحن بأنفسنا، وسمعنا من كثيرين، بأن مثل هذه الطقوس مزدراة، أو على الأقل مهملة من قبل بعضهم، ولهذا نجد كثيراً من الكنائس، لا بل حتى كاتدرائيات، قد بنيت منذ القديم، ولم يتم تكريسها بعد بزيت التقديس، ولذلك إننا نرغب في أن نضع حداً لهذا الاهمال، وإننا نرسم، ونوجب أن يجري تكريس جميع الكاتدرائيات، والكنائس الديرية والأبرشيات، التي بنيت، واكتملت، في بحر عامين من قبل الأساقفة أصحاب المناطق الأبرشية الواقعة هذه المؤسسات تحت سلطانهم، أو من قبل أشخاص آخرين مخولين من قبلهم، ووفق هذه الطريقة، وخلال الحقبة الزمنية نفسها، سوف يفعل الشيء نفسه مع الكنائس التي سوف تُبنى من جديد، ومن أجل أن لايجري إهمال هذا المرسوم الصحيح، أو أن يناله الإهمال، نحن نرسم بأن أية كنيسة لن يجري تكريسها خلال عامين من موعد انتهاء عمارتها، سوف يجري تعليقها من شراكة المؤمنين، وبالتالي تمنع من إجراء القداس حتى يجري تكريسها، مالم يتوفر سبب معقول يحول دون ذلك، وبالاضافة الى هذا، إننا نمنع بكل دقة بموجب المرسوم الحالي جميع رعاة وقساوسة الكنائس من الاقدام على تدمير الكنائس القديمة المكرسة، تحت دعوى بناء كنائس أكثر جمالاً

وسعة، من دون الحصول على إذن وموافقة أسقف الأبرشية، حيث يتوجب على أسقف الأبرشية أن يقدر بشكل دقيق، فيما إذا كان من الموائم إعطاء الاذن، أو رفض السماح، وعليه، إذا ماأعطى الاذن، أن يولي عنايته، وأن يوجه مساعيه لإكمال العمل بأقصى سرعة ممكنة، وهذا شرط نحن نرسم بأن يمتد إلى الذين قد بدأوا، أما بالنسبة للقساوسة ذوي المراتب الأدنى، رأينا أنه من غير المناسب عمل أي مرسوم جديد، تاركين الطريقة وتوقيت تكريسهم إلى قرار كهنتهم».

قداسات قرابين الكنيسة

«تكون قداسات قرابين الكنيسة كما كانت في أوعية سماوية، تحتوي على علاجات الخلاص، وكذلك الزيت المقدس، والميرون، ونحن نرسم بالنسبة لها بأن تدار من قبل رجال الكنيسة بطهارة، وبتقوى، وأن تكون محررة من كل دوافع الشره، ودون إحداث أية متاعب أثناء ادارتهم،، تحت حجة أية عادة، بموجبها يمكن أن يقال أن أي شيء سوف يدفع من قبل الذي يتلقاهم، وقد رأينا أنه من الموائم أن نذكر كم هي القداسات الرئيسية، وهذه القداسات هي:

التعميد، والتثبيت، والتوبة، والقربان المقدس، والمسح بالزيت، والزواج، والتكريس، وقد جرت معالجة كل واحد من هذه القداسات بشكل كامل ومكرس في الشرائع المقدسة، ولكن بما أنها مسألة ليست بلا قيمة أن يكون الطبيب جاهلاً بفن المعالجة، نحن نرسم بوجوب فحص المرشحين لاستقبال معالجة الأرواح والكهنة بهذه النقاط بشكل خاص، وعلى رؤساء الشمامسة أثناء مقابلة عماداتهم، أن يسعوا بشكل رئيسي إلى تعليم الكهنة وتوجيههم حول هذه القضايا، وتعليمهم كيف عليهم أن يعملوا بشأن مايتعلق بالتعميد، والتوبة، والقربان المقدس، والزواج».

التعميد

«من أجل القداس المهيب للتعميد، جرى تعيين سبتين، بموجب الشرائع المقدسة، وذلك بسبب وقاره، وهما: السبت، قبل قيامة الرب، والسبت قبل أحد الشعانين، ولكن بعضهم كما سمعنا — في هذه المناطق، قد أضلهم الشيطان بخداعه، وخافوا على الأولاد من خطر التعميد في هذين اليومين، لكن التفكير، أو أن يكون الانسان خائفاً من أي من هذين اليومين، هو تماماً ضد الإيمان الصحيح، وقد تبرهن بشكل واضح أن ذلك زائف، لأن الحبر الأعظم يقوم شخصياً بأداء هذا القداس المهيب، ويتولى بشكل وقور تعميد الأطفال في اليومين المذكورين، والكنيسة ملتزمة بمراعاة ذلك وتطبيقه في الأجزاء الأخرى من العالم، ولذلك نحن نرسم بوجوب تحويل الكنائس عن هذه الخطيئة الكبيرة، بالوعظ المتواصل، وينبغي اقناعهم بأداء قداس التعميد، وأن يعمدوا أولادهم في اليومين المتقدم ذكرهما، ونحن أيضاً نرسم وجوب أن يتعلم كهنة الأبرشيات بشكل صحيح شكل التعميد، وأن يتولوا باستمرار شرح ذلك للناس بشكل عام في أبرشياتهم في أيام الأحد، حتى إذا كان ضرورياً، إقامة واحد منهم ليتولى تعميد أي انسان، حتى يتعلموا ذلك، ويكونوا قادرين على مراقبة ذلك، ويتوجب بعد ذلك سؤالهم بتيقظ عما إذا كانوا قد راقبوا ذلك وعرفوه».

الشره الذي يتوجب على الكهنة تجنبه

«لقد سمعنا برعب بأن بعض الكهنة الأشقياء — ربما من أجل فائدة مقراتهم الكنسية أو للضمان، أو لتكوين سبب آخر للكسب، أو لتسلم دخل مجموع من المذبح، أو من توبة الذين يأتون إليهم للاعتراف، ولايقبلون أولئك الذين يعترفون للتوبة، ما لم يجري وضع بعض الهدايا أولاً في صدرهم الجشع، ومثل هذا يفعلون بالنسبة للبعض الآخر من القداسات، هذا وإن الذين يفعلون مثل هذا، ويتصرفون وفق هذه الصورة، غير جديرين بملكوت الرب، ولابالمنافع اللاهوتية، ولذلك نحن

نفرض ونحن نرسم بوجـوب قيام أعمال تفتيش وبحث من قبل الأسـاقفة حـول هذه القضيـة، وكل من يكتشـف مـذنبـاً مقترفـاً لمثل هذه الجريمـة، يصرف كليـاً من عمله ويحرم من منافعه التي بين يديه، ويعلق عن مبـاشرة العمل في وظيفته، التي شغلها بشكل فاسد».

الذي يعين لتلقي الاعترافات

«تماشياً مع مـاجرى تقريره في أحد المجـامع، نحن نرسم بوجوب تعيين رجال ذوي حكمـة وموضع ثقة في جميع أرجـاء كل عمادة، وذلك من قبل الأسقف لتلقي الاعترافـات، لهم يمكن للقسـاوسـة والكهنة الصغـار —الذين يستحـون، أو ربما يخافـون من تأدية الاعتراف إلى العميـد— أن يؤدوا اعترافـاتهم، إنما بالنسبـة للكنائـس الكاتدرائيـة، نأمـر بتعيين متلقين للاعترافات بشكل عام».

سمات الذين يتلقون التكريس

«إن منح الأحكام المقدسة واضفائها على شخص جدير، هام جداً، لابل الأعظم أهمية، لأن القداسات الأخرى تمنح من قبله، بعدما يكون قد تسلم هـذه الأحكـام، ومثـل هـذا بالخطـورة أن يكـرس لهذا العمـل أنـاس غير جـديـرين، مثل الحمقى، أو غير الشرعيين، أو أشخـاص غير نظاميين وأجانب، أو أي شخص من دون إجـازة أو لقب حقيقي، وبناء عليه نحن نرسم، أنه قبـل اضفـاء الأحكام، يتـوجب إجـراء فحص وبحث دقيق، يتـولاه الأسقف حول مثل هذه النقـاط كلها، وأن يحترز دون الأشخـاص غير الجديرين في تقـديم أنفسهم بشكـل تآمـري، عـوضـاً عن رفضهم كما ينبغي، وتتـوجب كتـابة أرقـام وأسماء الذين أجيـزوا، أو أن يكتبـوا أثناء الامتحان، أما الذين أجيزوا، أو سوف يجازون فيها بعد، يتوجب أثناء قراءة الأسماء المكتـوبة، وقبل التكريس، أن يجري فحصهم بكل دقة واخـلاص، وتبقى الكتابة محفوظة من قبل الأسقف، أو في الكنيسة».

ضمان الكنائس والعمل الأسقفي فيها

«بالنسبة لضمان الكنائس، أو التعيين العام لأساقفة فيهن، نحن لانرغب بأي حال من الأحوال أن ندعم ذلك بسلطاتنا، ولكن نتيجة لضعف الأعداد المسؤولة في هذه المسألة، نحن نخشى من اصدار مرسوم منع ضد هذه الأشياء، حتى لانبدو وكأننا نرمي مصائد بدلاً من ايجاد حلول ناجعة، لكن بالنسبة لبعض العادات الناشئة عن هذه المسائل، والتي لفت انتباهنا لها، نحن مرغمون على استخدام حل ناجع، لأنه غالباً ماحدث أن هؤلاء الذين يسمون ضامنين، يرغبون بالحصول على الربح أكثر من الرغبة بالدفع، وهم يمارسون هذه الجبايات التي في بعض الأحيان تنغمس حتى في ذنب السيمونية، وبناء عليه نحرم من الآن فصاعداً وضع المراتب الكنسية والمقامات الأسقفية وعرضها على الضمان، أو استخراج الموارد من ممارسة التسلط اللاهوتي أو الروحي، ومن التوبة أو من المذبح، أو أية قداسات أخرى».

كيف يمكن عرض الكنائس للضمان

«بما أنه أمر غير صحيح كلية بالنسبة للكنائس، أن تكون مضمونة من قبل رجل علماني أو من قبل أي واحد من الكهنة لوقت طويل، لأن ذلك من الممكن أن يكون مؤذياً للكنائس بسبب طول الاستمرارية، الذي يسبب بالعادة مخاطر، لذلك نمنع منعاً باتاً ضمان الكنائس لمدة تزيد عن خمس سنوات، سواء من قبل رجال علمانيين، أو حتى من قبل أشخاص لاهوتيين، كما أنه لدى انتهاء السنوات الخمس، لايجوز تجديد الضمان إلى الأشخاص أنفسهم، ما لم يقم بعض الأشخاص الآخرون بوضع أيديهم عليهم في وقت متوسط، ولكي تكون جميع الأشياء سليمة، نحن نرسم أن تعمل الاتفاقات من أجل الضمان بحضور الأساقفة، أو رؤساء الأساقفة، وأن يعمل منهم عدة نسخ، واحدة منهن تترك في حوذتهم».

حول الموضوع نفسه

«لقد سمعنا أنه حدث في بعض الأحيان، عندما تكون كنيسة غنية شاغرة، وأن انساناً ما يرغب بالاستحواذ عليها، لكنه لايتجرأ —على كل حال— بأن يتسلمها باسمه، خشية أن يحرم من منافع أخرى هي بين يديه، فيعمل بمكر ويتدبر أن يتم ضمان الكنيسة من قبله بشكل أبدي، وذلك بأن يدفع مبلغاً صغيراً من المال من أجلها إلى آخر، تحت اسم الشخص، ويبقي كل البقية إلى نفسه، وبناء على ذلك نرسم بموجب قرار، إنه سواء أمنحت منفعة كلياً أو جزئياً إلى أي واحد، وشكل ذلك محاولة لمعاكسة مراسيمنا، فإن ذلك يعدّ ملغياً وفارغاً».

من الذي يتولى تكريس الأساقفة

«نحن نرسم بعدم قبول أي واحد أن يكون أسقفاً، مالم يكن كاهناً مكرساً، أو هو على الأقل شماساً، وهو ينبغي أن يكرس خلال أربعة فصول تالية من السنة، وعليه أن يتخلى عن المنافع الأخرى التي بين يديه، ولأنه صار مسؤولاً عن شفاء الأرواح، عليه أن يقسم أن يتخذ مقر اقامته في البقعة نفسها، وإذا كان الأمر غير ذلك نحن نرسم بأن يكون تعيينه لاغياً، وبذلك يمكن تجنب الغش، وينبغي تجنبه، وهو الذي غالباً مايحدث، نتيجة دفع مبلغ صغير، إلى أي واحد، تحت اسم شخص، كانت الكنيسة قد أعطيت إليه، تحت اسم الأسقف المختلق، الذي لخوفه من فقدان منافعه الأخرى، كان يخشى تسلمها شخصياً، أما بالنسبة للأساقفة المعينين، والشاغلين لمناصبهم، لكنهم ليسوا كهنة، ولأن عليهم كأساقفة خدمة الأشخاص والكنائس، نحن نفرض، ونرسم، بأن يؤمنوا تكريس أنفسهم ككهنة في بحر سنة على أبعد الحدود، وإلاّ عليهم تحمّل خطأهم، إذا لم يكرسوا في بحر سنة —كما ذكرنا— حيث أننا نرسم بوجوب حرمانهم من منافعهم، شروعاً من ذلك الوقت والتاريخ، وينبغي تقرير أمور سكناهم وفقاً لما قررناه أعلاه، فيما يتعلق بمؤسساتهم».

كنيسة الغائب ليس من الخطأ درس إمكانية إعطائها إلى آخر

«في سبيل تدمير خداع الأشرار، يتوجب على كل محب للاستقامة أن يستخدم المساعي الحكيمة، خشية أن تتطور براعة حكامهم وتنمو إلى بلادة، فالبساطة يمكن أن تستبدل بالمكر، وقد يعطي الصدق الطريق للزيف ليحل محله، لأننا علينا عن طريق ما صرّح به عدد كبير من الأشخاص، بأن بعض الناس قد ألقوا بعين الشهوة على منافع شخص متغيب، ونشر تقارير أعلنت بأنهم سمعوا بأن المستحوذ كان في عداد الأموات، أو أنه قد تخلى عن منفعته، وبالتالي تدبروا بوسيلة أو أخرى اقحام أنفسهم في تلك المنفعة، وإذا ما ظهر الرجل الميت أنه ما زال حياً، وعاد إلى كنيسته، سوف يتلقى الجواب التالي: «أنا لا أعرفك أيها الأخ»، ويغلق الباب في وجهه، وقد عمي بعضهم لشدة شرههم، إلى حد أنهم لم يترددوا في شق طريقهم بالقوة بالاستيلاء على تلك المنافع وسرقتها، وبالحري ليس سرقة الأشخاص الغائبين فقط، بل سرقة الحضور، أو القيام بالاستيلاء على أملاكهم وسرقتها عندما يستطيعون، وعندما تصبح بين أيديهم، لا قرارات الحرمان الكنسي، ولا أي شيء آخر يمكنه اخراجهم، لأنهم يقومون بالدفاع عن أنفسهم بقوة السلاح، وبناء عليه، سوف نقدم العلاجات المتوفرة، والتي باستطاعتنا تطبيقها، فنحرم —في كلتا الحالتين— بكل دقة، إعطاء منفعة أي انسان غائب إلى أي انسان آخر، على أساس دعاوي الضم، أو تقارير قد يجري نشرها تتعلق بموته، أو أنه تخلى عن منفعته، لكن على الأسقف الانتظار حتى يحصل على معلومات كاملة حول صدق أي واحد من التقريرين، وإذا لم يفعل ذلك فإننا نرسم بأنه سيكون ملزماً بالتعويض عن جميع الخسائر التي عانى منها الشخص الغائب، فيما يتعلق بهذه القضية، وبالنسبة للشخص الذي اقحم وفرضها في المنفعة، سوف يواجه حقيقة تجريده من كل وظائفه ومنافعه، وذلك إلى جانب تعويض المقتنيات، وهذا نحن ننوي أيضاً أن نمده إلى قضية أي

واحد، عندما يكون هناك متملك لمنفعة لاهوتية، فيحاول بناء على سلطته، أو بالحري بالقوة، أو بوساطة السرقة، فيستولي على تلك المنفعة، أو الذي، بعد الإعلان بأنها عائدة إلى شخص آخر، يسعى للدفاع عن نفسه وعن الذي استولى عليه بقوة السلاح».

عدم جواز تقسيم كنيسة واحدة إلى عدة أسقفيات

«لما كان فن الفنون كلها —كما شهد القديس غريغوري— هو حكم الأرواح، ولم يتوقف المعطل (السوفسطائي) القديم عن استخدام فنون خداعه القديم، وعن دراسة خداع أعمال الدعاوى الزائفة، وذلك حتى يكون قادراً على التطويق بأسس فنه، وعلى العزل عن الخلاص أولئك الذين يجدهم جهلة، أو غير دارين، فهذا هو الذي يجعلهم عدوانيين تجاه أوامر الرب، ومضادين لأحكام الآباء المقدسين، في الوقت الذي لايمكن فيه للمنهج الرباني، ولاللمراسيم الشرعية، رد المذنبين، وإعادتهم من طريقهم المنحرف، ويتطلب الآن فننا الكاثوليكي، أن يكون هناك معلم واحد في كنيسة واحدة، يتوجب أن يكون كاملاً بالنظام، والسلوك، والحياة، والمعرفة، والعقيدة، وأن تكون إدارة الكنيسة صافية وبسيطة، وتسبب معارضة الشيطان —على كل حال— ضلال كثيرين وابتعادهم عن هذا المرسوم، إلى حد يكون الحال فيه في بعض الأحيان، بناء على اقتراحه، اعطاء كنيسة واحدة، ليس لواحد فقط بل لعدد، تحت حجة امتلاكها لعدد كبير من الحصص، وهكذا يكون هناك عدة رؤوس لجسد واحد، حتى تبدو وكأنها تنين، وفي بعض الأحيان يوافق الشخص، مهما كانت المناسبة على أن شيئاً ما ينبغي أن يعطى إلى آخر تحت اسم كاهن، وإلى جانب هذا، إن الذي هو أسوأ، أن الكنيسة غالباً ما تبقى شاغرة، أي ما من قسيس يبقى فيها، لابل حتى لايوجد فيها أسقف بشكل مستمر، بل الذي ربما يبقى فيها كاهن ما جاهل، الذي لا حق له فيها، لابل ولا حتى ظل حق فيها، وإذا صدف وربما أقام القسيس أو الكاهن هناك، تجده هو ليس

كاملاً مناسباً في طائفته، لأنه ليس كاهناً، وليست له سماته، لأنه إذا ما نظر إليه أي واحد، سوف يعتقد أنه ليس حتى رجل دين، بل هو بالحري جندي، وهو —ويالللأسف— يعتني قليلاً بحياته، وبمعرفته، وبعقائده، كما أن ترتيبات الكنيسة أيضاً، نادراً ماعملت بالعين البسيطة كما ينبغي، ولأن مكر الفنون الزائفة للشيطان، ليست معدومة هناك، لأنه يحدث في بعض الأحيان —كما قرأنا— أن تعطى كنيسة بشكل سري إلى واحد ما، وفق شرط متفق عليه، أن الرجل الذي يقدم أو يضع، ينبغي أن يحتفظ ببعض المنافع فيها، أو وجوب أن يتسلم شخص ما آخر، حصة ما منها، وهذا ربما كان بوده الاحتفاظ بها كلها، لولا أنه تمنع عن فعل ذلك من خلال ضعف قضيته، أو من خلال الخوف من فقدان منافع أخرى، ويحدث في بعض الأحيان أيضاً أن يقدم انسان على إقالة كاهن، ثم يأخذ بعد ذلك الأسقفية من واحد جرى تعيينه فيها، وهذا أمر يمكن أن نفترض أنه لايفعل من دون غش، وبناء عليه نحن نشجب هذه الانتفاضات وأعمال التصغير، والتعيينات الخاصة والتغييرات، لأنها مخالفة لما نؤمن به، ونمنع عملهم من الآن فصاعداً، ونرسم بكل دقة، أنه لايجوز مطلقاً بالنسبة للمستقبل تقسيم كنيسة بين عدة أشخاص أو عدة كهنة، والكنائس التي مازالت مقسمة حتى الآن، ينبغي حالما تتوفر الظروف والامكانات، أن تعود موحدة، ما لم تكن الكنيسة كنيسة مؤسسة منذ العصور القديمة، بحيث يقوم الأسقف والقسيس المتوليان شؤون مواردها باقتسام هذه الموارد بينهما بالتساوي، ويتوجب على الأساقفة ترتيب أن يكون هناك دوماً شخص ما مقيم في الكنيسة عليه أن يبذل اهتمامه بكل غيرة نحو معالجة الأرواح، وسوف يشغل نفسه ويستخدم ذاته بشكل فعال وشريف في أداء القداسات الدينية، وفي إدارة قداسات القرابين».

السكنى في الكنائس

«فيما يتعلق بالقساوسة المتخذين مساكن لأنفسهم في الكنائس، يبدو لنا

أنه يتوجب علينا أن نستشير الحقيقة أكثر من استشارة مواد القانون، لأن مجامع الأحبار الرومان، كما هو واضح قد تحدثت عن هذه المسألة بجلاء مثل جلاء النور، لأن التطبيق الدقيق للمواد القانونية هو المطلوب، وليس خرقها، ونقول الشيء نفسه ونعتقده في جميع المجالات المتعلقة بشأن الذين، بدون تخويل خاص من الكرسي الرسولي، يحتفظون بعدة مراتب، أو مراتب كهنوتية، أو منافع مرتبطة بعلاج الأرواح، بشكل مضاد لقانون المجمع العام، والخطر على خلاصهم الذاتي».

ألبسة الكهنة

«وفيما يتعلق بألبسة الكهنة، التي يبدو أنها ليست كهنوتية، بل هي بالحري عسكرية، قد نشأت فضيحة بين العلمانيين، ولذلك نأمر بكل دقة، ونرسم، أن عليهم، تحت طائلة الحرمان من منافعهم، الالتزام بدقة، بوساطة الأساقفة، بشكل اللباس، الذي اتفق عليه وتقرر في المجمع العام، وذلك فيما يتعلق بلباس الكهنة، وكذلك بتزيينات خيولهم، ولذلك يمكن للذين تولوا المسؤولية عن الكنائس وعن علاج الأرواح، ارتداء ملابس أصبحت معياراً، وعليهم ارتداء أغطية رؤوس ضيقة، عندما يجري تعيينهم في طوائف مقدسة، خاصة في كنائسهم، وكذلك أمام أساقفتهم، وفي اجتماعات الكهنة، وفي كل مكان في أبرشياتهم، وعلى الأساقفة أن يكونوا أكثر قدرة على الالتزام من الآخرين بأن تكون ملابسهم ملابس محتشمة، وكذلك فيما يتعلق بقص شعورهم، ومثل ذلك فيما يتعلق بتزيين خيولهم، وعليهم مراقبة هذه الأشياء والالتزام بها، حسبما تقدم التبيان، وذلك بالنسبة لأتباعهم من الكهنة، في أن يكونوا ملتزمين بأحكام الحشمة الكهنوتية في ملابسهم، وفي مهاميزهم، ولجمهم، وسرجهم».

ضدّ إبرام عقود زواج سرية من قبل قساوسة الكنائس

«لقد لفت انتباهنا من قبل عدد من الرجال الصادقين، أن عدداً من

الكهنة، قد تولوا دون الانتباه إلى خلاصهم، إبرام عقود زواج سرية، وتجرأوا على الاحتفاظ بملكية الكنائس بعد الزواج، ليحصلوا على منافع لاهوتية، ولكي يجري ترفيعهم مجدداً إلى طوائف مقدسة، وذلك محافظة لمراسيم الشرائع المقدسة، وسيبدو فيها بعد، مع مرور الأيام، أنه مفيداً للذين ولدوا من هذا الزواج، أسواء أكانت الأطراف أنفسها على قيد الحياة أم لا، أن يبرهنوا إما بوساطة شهود، أو بوساطة أدلة مكتوبة، بأن مثل هذا الزواج قد عقد، وبسبب أن الكهنة قد انشغلوا بزواجهم، أو كانت لهم علاقة غير شرعية بالنساء، فإن المحصلة ستكون دمار الأرواح، وقد جرى إهمال خلاصهم، ونهب مقتنيات الكنيسة، وقد رسمنا في سبيل التخلص من هذا الوباء الذي استشرى وترسخ رسوخاً كبيراً مايلي:

إنه إذا ما اكتشف بأن أي واحد قد أبرم مثل هذا العقد للزواج، يتوجب عزله من كنيسته، وحرمانه من المنافع اللاهوتية، وحول هذا نحن نرسم أنهم هم أنفسهم، أو أي واحد قد تزوج، سوف يحرم حتماً وبلا تراجع، وإذا ما تم الحصول على أية ممتلكات بعد زواج من هذا النوع، مهما كانت طريقة الحصول عليها، أي من قبلهم أنفسهم، أو بوسائل أشخاص آخرين، إن هذه الممتلكات، لن يجري الإفادة منها، بأي شكل من الأشكال، أو استخدامها من قبل الزوجات، أو الأولاد من مثل هذا الزواج، بل سوف تكرس من الآن فصاعداً لصالح الكنائس التي كانت بين أيديهم، أو التي استحوذوا فيها على منافع، أما بالنسبة لهم أنفسهم أيضاً، لن يسمح لهم كأشخاص بأي شكل من الأشكال بالقبول في الكنائس، أو في المنافع اللاهوتية، أو في الطوائف المقدسة، حتى يجري منحهم استحقاقاتهم بموجب التوزيع الشرعي».

حول رجال الدين الذين لديهم خليلات

«مع أن أحكام الكنيسة قد تناولت دوماً في دراساتها قرار طرد العدوى القذرة لشرور العمل الجنسي من أمام أبوابها، حيث لوث هذا العمل جمالها

ودنسه بشكل جدي، مابرح هذا الدنس الواسع الشر والضرر مستمراً في عرض نفسه بكل وقاحة أمام الناس وعلى مشهد منهم، ولذلك رغبة منا بعدم المرور بمثل هذه الاهانة الكبيرة والاساءة إلى الكنيسة، من دون ضبط، وكأننا نشير إليها بشكل عابر فقط، ينبغي أن نلتزم بقرارات الأحبار الرومان، ولاسيما مرسوم البابا الاسكندر، الذي جرى إعلانه حول هذه القضية، نحن نرسم، أنه مالم يقم رجال الدين، خاصة الذين منهم في الطوائف المقدسة، الذين يحتفظون بشكل معلن بخليلات في بيوتهم أو في بيوت الآخرين، بصرفهن من داخل بيوتهم في بحر شهر، وبعدم الاحتفاظ بهن مطلقاً مرة جديدة، أو بأخريات مهما كان الادعاء، فإنهم سوف يعلقون عن ممارسة أي عمل أو وظيفة ومنفعة، وإلى أن يقوموا بتكفير مناسب عن هذا الذنب، لن يسمح لهم، بأي شكل من الأشكال بالدخول أو بالتقدم من أية منافع لاهوتية، وإلا فإننا سوف نرسم بحرمانهم من هذه المنافع، وتقضي إرادتنا، كما أننا نأمر بأن يقوم رؤساء الأساقفة والأساقفة بتفتيشات دقيقة حول هذه القضية في جميع أرجاء عماداتهم، وأن الذي رسمناه سوف تجري مراعاته وتنفيذه».

حول الذين خلفوا آباءهم في كنائسهم

«مع أن الآباء المقدسين قد أعلنوا بأن المنافع اللاهوتية لايجوز الاستحواذ عليها بموجب حق الوراثة، وأن خلافتهم من قبل أبنائهم الشرعيين ينبغي حرمانها من شراكة المؤمنين، ومع ذلك فإن بعض الذين ولدوا من خلال اتصال شنيع، يسيرون بخطوات الصفاقة، ويدوسون على سلطات الشريعة، والشرف، ويسعون إلى فرض أنفسهم في منافع من هذا النوع، التي استحوذ عليها آباؤهم من قبل من دون مسوغ صحيح، وقاموا بادعاء سريع وفرض واقع جديد بالاستحواذ عليهم، ولذلك، إننا نحن الذين قدمنا إلى هذه البلاد لإيجاد علاج لهذه النازلة التي ألمت بشرف الكنيسة، نمنع بكل دقة، أساقفة الكنائس من القيام من الآن فصاعداً

ـــتحت أية حجة، أو بوساطة أي خـداع— من تعيين أو قبول أياً من أمثال هؤلاء لاستحواذ منافع من هذا النوع، أو مما استحوذ عليه آباؤهم مهما كان نوع العنوان، سواء أكان الأمر كلياً أم جزئياً، ونحن نأمر أيضاً بهذا المرسوم الحالي، أن يجري حرمان كل من بين يديه منفعة من هذا القبيل، قد استحوذ عليها بشكل غير قانوني، وانتزاعها منه».

ضدّ الذين يحمون اللصوص

«للوقوف ضـد جرائم اللصوص، الـذين بهم المملكة الانكليزية ممتلئة، سـوف يكون ذلك بـلا فعـاليـة، مـادام أناس مـن ذوي المراتب يحمـونهم ويحتفظون بهم، ولذلك رأينـا من المناسب أن نرسم، أنه لايجوز لأحـد أن يخفي في بيته أو في بلدته أولئك الذين معروف أنهم اقترفوا سرقة، أو الذين هناك براهين أو أدلة ضـدهم، ولايجوز حمايتهم أو إيوائهم، والذين سـوف يعملون ضد هذا المرسوم، إذا لم يقومـوا بعد انذارهم ثلاث مرات من قبل قـاض لاهوتي عـادي، بطرد اللصـوص وابعـادهم عنهم، نحن نعلن أنهم سـوف يكونوا خـاضعين للحـرمـان الكنسي والـلاهوتي، وإنها إرادتنا ومرسومنا أن انذاراً عاماً سوف يكون كافياً، وأنه ينبغي أن يعطى دون ذكر لأسماء أي واحد، أو الاشارة إلى أي واحـد، شريطة اصداره بشكل علني، وبصورة مهيبة حتى يصل إلى علمهم».

حول أكل اللحوم من قبل الرهبان

«لقد سمعنا، وسررنا، أن الرعاة الدينيين لطائفة رهبان القديس بندكت في جميع أرجاء انكلترا، قـد اجتمعوا مـؤخراً في هيئتهم العـامة، وذلك على شكل أبناء حقيقيين للكنيسة، ووفقاً للقول النبوي قد عادوا إلى حدودهم، وقرروا بشكل حكيم، أنهم من ذلك الوقت فصاعداً، التزاماً منهم بأحكام القـديس بندكت، سـوف يمتنعـون عن أكـل اللحـوم، وذلـك باستثناء الضعفاء والمرضى، الذيـن يتوجب، وفقاً لبنود الأحكام نفسهـا، تزويدهم

من مصحة العجـزة، وبقدر ما نوافق على هذا نحن نرسم بوجوب مـراعاة ذلك، من دون تعطيل أو استثناء، وبالاضافة إلى ذلك نحن نرسم، أنه لدى إنهاء المتسبون الجدد سنة اختبـارهم الأولى بعد ارتدائهم للبـاس الرهباني، يتوجب ارغامهم من قبل الرعاة، بوساطة السلطات اللاهوتية أو الشرعية، على عمل تكريسهم واعترافهم وفقـاً لمرسـوم أو قـانون البـابا أونوريوس، صاحب الذكرى الطيبة، وكل واحـد لم يعمل تكريسه واعترافه، سوف لن يقبل للترقيـة إلى مرتبـة راعي دير أو رئيس رهبان مهما كـانت المسوغـات، وهذا الذي رأينـاه مـوائماً بـالنسبـة لعمـل هذا الاعتراف عند انتهـاء سنة الاختبـار، نعتقـد أنه مـوائم أن نجعله يشمل الكهنة النظاميين والراهبـات وبالنسبـة للقضـايا الأخـرى، التي نعلم أنها عـائدة إلى تقـويم أو اصـلاح الكهنة وكذلـك الكهنةالنظاميين نحن عزمنا على تقـديم ماينبغي تقـديمه، وسـوف نرسـم بمشيئة الرب بما سيكون مفيـداً لكنائسهـم ونافعـاً لهم أنفسهم، ونحن نأمـر بتعميم نشر هذه القـرارات بشكل مهيب بين جميع هيآتهم الكهنوتية».

واجبات رؤساء الشمامسة

«فيما يتعلق برؤسـاء الشمامسـة، نحـن نرسم بوجـوب زيارتهم إلى الكنائس، والقيـام بشكل مخلص بالبحث والتقصي حول مـايتعلق بالأواني المقـدسة والملابس، وحـول الطرائق التي تدار بها الكنيسـة وتخدم بالنسبـة لقداسات النهـار والليل، وحول شؤونها الدنيوية وكـذلك الروحية بشكل عـام، والقيـام بعناية بالاصـلاحـات التي تكون ضرورية، وعليهم عـدم الضغط على الكنائس وظلمهـا بضرائب فيهـا مغـالاة وشطط، بل الذي عليهم هو المطالبـة بالحصول على ايجارات معتـدلة، ويكون ذلك فقط لدى زيارتهم لهم، وعليهم عـدم جلب أجانب معهم، وأن يرافقهم عـدد معتدل من الخدم والخيـول، وعليهم عـدم قبـول أيـة رشـوى من أي واحـد حتى لايزوروه ويقـوّمـوه، أو لكي لايعـاقبـوا المذنبين، ويتـوجب عليهم عـدم

ادخـــال أي واحـــد في الإدانـة بأحكامهم بشكـل غير عــادل، مـن أجل استخراج المال منهم، وبما أن مثل هذه الأشياء تخدم السيمونية، نحن نرسم أن كل من يتصرف بمثل هذه الطريقة، سـوف يرغم في مكان آخر على منح الممتلكات التي حصل عليها وفق هذه الطريقة، وأن يكون مقـدار ماسوف يرغم على دفعه ضعف المبلغ، ويكـون ذلك تحت عناية واخلاص الأسقف من أجل استخدامات تقـوية، وذلك مع ابقاء العقوبة القانـونية، وممارستها ضدهم، وعليهم جعل همهم وشغلهم الشـاغل أن يكونوا بشكل متواصل حـاضرين لدى اجتماع الهيئة الكهنـوتيـة في كل عمادة، ويتـوجب عليهم في هذه الاجتماعات، صرف اهتمامهم إلى أشياء كثيرة، يتصدرها توجيه الكهنة بانتباه ودقة، بعلم صحيح، وبفهم سليم، إلى كلمات الشريعة والتعميد، أي إلى مايشكل لب التعميد وأسسه».

وجوب عدم طلب أي شيء من تسوية الخلافات

«ومجدداً نحن نمنع بكل دقة وحزم رجال دين الكنائس، وبشكل خاص رؤسـاء الشمامسـة والعمداء، أو مـوظفيهم، أو أي آخـرين جـرى تعيينهم بفضل سلطاتهم اللاهوتية، أو مناصبهم الروحية، من تقـرير أسباب عامة، أو أية مسائل لها عـلاقة بسلطات الكنيسة، من منطلق فرض إعـادة السلام والعلاقـات الطيبة بين الأطراف، وذلك فيما يتعلق بخلافـاتهم، أو بأسباب الشكوى، لكن عندمـا تختار الأطـراف، يمكنهم أن ينسحبوا من المحكمـة بتسـوية، إذا كانت القضيـة تحتمل التسوية بوسـاطة الشريعة بشكل مـؤثر، وسوف لن يكـون هناك استخراج أية مـدفوعات من الأطـراف حول هذه التسوية».

واجبات الأساقفة

«إن الواجبات المفروضة على هـؤلاء الآباء المحترمين: رؤساء الأساقفة، والأسـاقفة، الذين معنى ألقـابهم (المشرفين)، أي الذين يتـولون الاشراف

والنظارة، قد جرى تبيانها بكل وضوح، فعملهم هو القيام بالاشراف على القطعان وحراستها، وحسب كلمات الانجيل (القيام بالحراسة أثناء الليل)، وبما أنهم —بناء عليه— ينبغي أن يكونوا أمثولة طيبة للقطيع، الذي كله خاضع لهم، والذي عليه أن يتكيف ويتماثل معهم أنفسهم، وهذا ما لايمكن عمله، ما لم يضربوا بأنفسهم مثلاً للجميع، بناء على ذلك نحن نحثهم باسم الرب، ونتمنى عليهم، الإقامة بعض الشيء في كنائسهم الكاتدرائية، وأن يؤدوا هناك بطريقة صحيحة القداسات، على الأقل في أيام الأعياد الرئيسية، وفي أيام الأحد، أثنا الصوم الكبير، وأثناء الميلاد، وعلاوة على ذلك، عليهم الارتحال بين أنحاء أسقفياتهم في أيام المواسم، مصلحين، ومقومين المخالفات، ومكرسين للكنائس، وبذر كلمة الحياة في حقل الرب، وأفضل طريقة تمكنهم من أداء جميع واجباتهم، هي أن يتدبروا قراءة اعترافهم وتعهدهم الذي عملوه أثناء تكريسهم، مرتين في العام، وخلال الشطر الأكبر من الصوم الكبير».

مرسوم ضدّ القضاة غير البارعين

«بما أنه ليست السلطة فقط هي المطلوبة لوحدها في تصريف القضايا بشكل مستقيم، بل أيضاً الاستقامة والبراعة مطلوبتان بشكل خاص، يتوجب على الجميع إيلاء عناية خاصة أن لايتعين أحد للقضاء أو أن يكون ناظراً من الذين غير بارعين، أو جهلة، أو غير موائمين، أو غير عادلين، حتى لاتصدر عنهم أحكام تجري فيها تبرئة الفئة المذنبة، وإدانة الفئة البريئة، ولذلك رأينا أنه من الموائم أن نرسم بأن يعهد بالقضايا الزواجية، التي تتطلب فوق كل القضايا المعالجة ببراعة كبيرة ويقظة، إلى رجال واعين وموضع ثقة، وأن يكونوا ممتلكين لمعرفة وافية بالشريعة، أو على الأقل خبرة كافية فيها، وإذا صدف وكان أي واحد من رعاة الديرة، أو رؤساء الشمامسة، أو الشمامسة، يمتلك امتيازاً، أو عرفاً مخولاً بالقيام بالبحث في القضايا، على هؤلاء الاهتمام والاعتناء بفحص هذه القضايا بكل عناية

ودقة، وبذلك لايقومون هم أنفسهم، وكذلك وكلائهم بإصدار قرار حكم محدد، من دون القيام أولاً بعقـد مداولات دقيقة، حـول محاسن القضية مع أسقف الأبرشية، وذلك من دون طلب نصيحتـه أو الحصول عليها، ولهذه الغاية نحن نود أن يكونوا معفيين، أو محميين بوساطة امتياز خاص

يمين المطالب

«إن يمين المطالب مطلوب في القضايا اللاهوتية، وكـذلك قول الصدق في الشؤون الروحيـة، لأن بذلك يمكن بسهولة أكبر الكشـف عن الحقيقة، ومن ثم تقـرير المسألة بشكل أسرع، ولـذلك رسمنا أنه يتـوجب العمل في جميع أرجـاء انكلترا، في المستقبل وفقاً للشريعة والأوامـر القانونيـة، وليس وفقـاً للعـادات الأخـرى التي تؤدي إلى العكس، وإلى هذا المرسـوم، نحن نضيف —من أجل منفعة الجميع— هذه الاضـافة، وهي: من الممكن منح تأجيل للمحاكمـة بناء على اختيار القاضي، وذلك وفقاً للأحكام القـانونية والشرعية».

تعيين الناظرين

«إن عـادة استخدام الوكـالات، التي أدخلت إلى محاكم العـدالة، أي أن قضيـــة أي شخص لايمكنه شخصيـــاً الحضـــور، من الممكن عـــرضهـــا وايضاحها، من قبل آخر في أثناء غيابه، هذه العادة غالباً ما بدلها مكر العدو القديم إلى ممارسة شريرة، لأنه كما تقدم الذكر، عدّت العادة هنا أن الانسان الذي تجري دعـوته للحضـور في يوم محدد، من الممكـن له تعيين ناظر فقط من أجل ذلك اليوم برسـالة موقعـة، وممهورة بختمه الأصيل، وقـد حدث أنه إذا مـا اختـار الوكيل عـدم طـاعـة الاستـدعـاء، أو اخترع أية حيلة في الرسائل، بوساطة تقديم شهـود، أو وقائع أخرى معيقة، مامن شيء يمكن فعله في ذلك اليـوم، وفي اليـوم التـالي تنتهـي مهمـة الناظر، وهكذا تسقط الأعمال إلى الحضيض من دون تأثير، وكـذلك رغبة منا في عمل شيء لسـدّ

هذا العجز، نرسم، أنه من الآن فصاعداً، يجري تعيين الوكيل، بالنسبة للقضايا اللاهوتية في مملكة انكلترا، ليس ليوم واحد، بل لعدة أيام، إذا كان ذلك ضرورياً، والاستدعاء سوف تجري البرهنة على صحته بوساطة كتابات صحيحة، ما لم يكن جرى تعيينه في تلك الساعة، أو أن الشخص الذي عيّنه لايمكنه إيجاد ختم أصيل».

طريقة عمل الدعوات للمثول أمام القضاء

«ببراعة متناهية ومكر، تهاجم الفئات المتصارعة بعضها بعضاً، إلى حد أنه ما من أحد، يتردد في الدوس على العدالة، وأن يفعل كل شيء لهزيمة خصمه، ولقد سمعنا من كثيرين أن الذين لديهم دعوات، يرسلونها بوساطة ثلاثة أولاد إلى المكان الذي يُقال بأن الفئة المستدعاة ساكنة فيه، وفي ذلك المكان يضع اثنان من الرسل الدعوات على مذبح الكنيسة في ذلك المكان، أو في مكان ما آخر هناك، ويأخذ الثالث على الفور هذه الدعوات ويبعدها، وبذلك يتوفر شاهدان يشهدان بأنه جرى استدعاء صاحب القضية، ونتيجة لذلك يتعرض للحرمان الكنسي، تماشياً مع شروط ابلاغ قرار الحكم، وعادة المنطقة، أو يجري تعليقه بمثابة متمرد، مع أنه بريء تماماً من العصيان، وجاهل بالدعوة غير عارف بها، وبناء عليه نحن في غيرتنا على العدل، ومن أجل تقويم هذا الفساد الشنيع، وأمثاله، نرسم، أنه من الآن فصاعداً، بالنسبة للقضايا اللاهوتية في مملكة انكلترا، سوف لن يكون توجيه الدعوات بوساطة الذين يتقدمون لأجلهم، أو بوساطة رسلهم، بل يتولى القاضي، مقابل نفقة معتدلة يتحملها المشتكي، إرسالهم بوساطة رسل موثوقين من عنده، عليهم البحث بتيقظ عن الفئة المستدعاة، وإذا كان الرسول غير قادر على ايجاد المستدعى، عليه العمل على تدبر قراءة رسائل الاستدعاء، ونشرها في كنيسة المكان، الذي يسكن المستدعى بالعادة فيه، وذلك في يوم الأحد، أو في بعض الأيام الأخرى، أثناء أداء القداس، أو على الأقل إرسال الدعوات إلى العميد الذي يسكن

في عمادته الطرف المستدعى، فهذا العميد سوف يقوم باخلاص، بناء على أوامر القاضي بتنفيذ هذه الخدمة شخصياً، أو بوساطة أحد الموثوقين لديه، أو برسل معتمدين، وسوف يكتب، من دون تقاعس إلى القاضي، لإخباره بالذي عمل حول هذه القضية».

مامن أحد يضع ختمه على رسائل الاستدعاء ما لم يكن حاضراً أثناء كتابتهم

«هناك حاجة قصوى من أجل استخدام الكتابات تحت أختام صحيحة أصيلة (وخاصة في مملكة انكلترا حيث لايوجد كتاب للعدل عامين)، واتخاذ احتياطات دقيقة، حتى لايساء استخدامها من قبل أي أشخاص دون تجربة، لأننا سمعنا، أن صكوكاً كتبت ووقعت، ليس فقط من قبل كهنة من المراتب الدنيا، بل أيضاً من قبل أساقفة، وأن عناية كبيرة قد بذلت نحو هذه الصكوك، لإظهار أن واحداً ما قد أحضروه ليكون موجوداً أثناء كتابة العقد، أو القضية المطروحة، أو أن انساناً استدعي للمحاكمة، وعليه الحضور، أو أن رسائل الاستدعاء قد قدمت إلى واحد لم يكن قط حاضراً، أو ربما حتى لم يكن موجوداً، أو هو ربما كان أثناء وقت الاستدعاء يعيش في أسقفية أخرى أو في منطقة ثانية، وأيضاً بما أن رسائل من هذا النوع تحتوي على الزيف بشكل واضح، نحن نمنع بدقة هذه الرسائل، أو عمل أي شيء مشابه، وبعد مداولات دقيقة، وضعنا أسس مرسوم قضى بأن الذين يمكن أن يدانوا بمثل هذا الذنب، أو الذين يقدمون على الاستمرار بإصدار مثل هذه الصكوك، سوف يعانون من العقوبات التي يستحقها المزيفون، أو الذين يستخدمون أدوات زائفة».

الأشخاص الذين يتوجب أن يكون بين أيديهم أختاماً أصيلة

«بما أنه لايوجد كتاب عدل عامين عاملين في انكلترا، بات لهذا السبب من الضروري منح المزيد من الثقة إلى الأختام الأصيلة، ولذلك نحن

نرسم بوجـوب أن يحمل ليس فقط رؤساء الأساقفـة والأساقفـة، بل أيضاً مـوظفيهـم، أختـامـاً، من أجـل الحصـول على مسـاعـدتهم بسهـولة أكبر، وكـذلـك يتـوجب على جميع رعــاة الديرة، ورؤسـاء الكهنـة، والعمـداء، ورؤسـاء الشمامسة ومـوظفيهم، وعمـداء الأرياف، وكذلك أعضـاء هيئة الكنائس الكاتدرائية، والتجمعـات الرهبانية الأخـرى، مع قساوستهم، أو بشكل افـرادي، وفقـاً لعـاداتهم، أو أحكامهـم، ووفقـاً لتنوع الذين تقـدم ذكـرهم، يتـوجب أن يحمل كل منهم ختمـه الخاص، عليـه اسم مـرتبتـه، ووظيفته، وكليتـه، وكذلك اسم الذين يتمتعون بالمكانة، أو بمرتبـة دائمة، أو وظيفـة، وأن يكون ذلـك محفـوراً عليـه بخط واضـح، وبذلك يحملون أختامـاً صحيحة، وأما بالنسبـة للذين يشغلون منصباً دنيـوياً مثل العمداء الريفيين والموظفين، فسيكون لديهم أختـامهم، عليها قـد حفرت أسماؤهم فقط، ولـدى انتهـــاء وقت تعيينهم وعملهـم في وظائفهم، عليهـم تسليم الأختـام من دون تأخير، إلى الشخص أو الأشخاص الذين تسلمـوا منهـم تعيينهم، وفيما يتعلق بالوصـاية على الأختام، نحـن نوصي بالعناية الفائقـة بها، أي أن يتـولى كل واحد شخصيـاً الحفـاظ على ختمه، أو أن يسلمـه إلى شخص واحد، فيه يضع ثقته، وذلك ليتولى حفظه، وعليه أن يقسم على أنه سوف يتولى حفظه باستقامة، وأن سوف لن يختم به أي شيء إلى أي انسان، من ختمه يمكن أن ينشأ أي ضرر، وأن يتمنع عن ختم أي شيء إلاّ بعد أن يكون مـولاه قــد قـرأه وتفحصـه بكل دقـة، ثم أمــر به ليختم، وفي منح استخـدام الختم يتوجب مـراعاة الاخـلاص واتخاذ الحذر والحيطة، فالثقـة يمكن أن تمنح بسهـولة إلى الذين يطلبونه، أمـا الحذر فيوجب منعـه وعدم إعطائه إلى الأشخاص الزائفين والغشاشين، ونحن أيضاً نرسم بوجوب أن يذكر في بداية كل كتابة أصيلة وفي نهايتها، اسم اليوم، والزمان، والمكان».

القسم الذي ينبغي على المحامين أدائه

«لقـد سمعنا صراخ العـدالة، وهي تشكو، بأنها أعيقت كثيراً، بوسـاطة

مـراوغـة ومكر المحـامين، وأنها غـالبـاً وكثيراً مـاجحـدت من قبل قضـاة بارعين، من خـلال الجهل، الذي غـالباً مـاخـدعت به الأطراف بوسـاطة عصيانها، لأنه يحدث في بعض الأحيان أن شخصـاً قد يوضع في ملكية من أجل الحفـاظ على ممتلكات، فيسعى إلى الاحتفـاظ بالملكيـة، مع أن الفئة المعاكسة قـد عادت في بحر سنة، واستعدت لإرضـاء العدالة في كل شيء، وفي بعض الأحيـان أيضـاً، يكون الشخـص الذي أرسل للاستحـواذ على الملكية غير قـادر —مع أنه حكم بأنه المتملك الحقيقي— على الحصول على الملكيـة في بحر سنة، أو بعـد ذلك، لأن الفئة المضادة تقـاوم بقوة السـلاح، وبناء عليه نهضنا نحن إلى مسـاعدة العدالة، واعتماداً منا على مـا وافق عليه المجمع، نرسـم بأن على كل مـن يرغب بالحصـول على مكتب المحـامي، أن يؤدي قسماً إلى الأسقفيـة، التي يعيش تحت سلطانها، أنه في القضـايا التي تحتـاج منه المرافعـة، أن يترافع باخـلاص، وأن لايعيق العـدالة، أو أن يحرم الفئة الأخـرى منها، بـل أن يدافع عن موكلـه وفقاً للشريعـة والعقل، وإلاّ فإنهم لن يسمح لهم بالترافع في القضـايا الزواجيـة وفي الانتخـابات، مـا لم يؤدوا قسماً مماثلاً، ولن يسمح لهم بـالمثول في قضـايا أخـرى أمـام القـاضي اللاهوتي، لأكثر من ثلاث مرات، من دون يمين من هذا النوع، ما لم يحدث صـدفة أن يأتي طلـب لصالح هذه الكنيسـة، أو لمولاه، أو لصـديق، أو من أجل رجل فقير، أو من أجل أجنبـي، أو من أجل أي شخص تعيس، وعلى جميع المحامين أن يكونوا على دراية وحذر أن لايكونوا أنفسهم، أو بوساطة وسـائل الآخرين، شهـوداً كـاذبين، أو أن يأمروا الفـرقـاء بتقديم شـواهد مـزيفـة، أو أن يقمعـوا الصـدق، والذين سـوف يفعلون مثل هذا، سـوف يحرمـون حتماً من وظائفهم ومن منافعهم، حتى يقـوموا بتكفير مـوائم عما عملوه، وإذا ما أدينوا بفعلهم كـذلك، سوف يعاقبـون بشكل قانوني، دون الاهتمام ببقية القضـايا، وعلى القضاة، الذين يجهلـون القانون، إذا ما كـانوا شاكين حـول إحدى النقـاط التي قامت، والتي من الممكن أن يحصـل منها ضرر لواحـدة من الفئتين، أن يسألوا النصيحة من انسـان عاقل، على نفقـة

الفئتين معاً».

إحالة أعمال المحاكم إلى التدوين

«نحن فضلاً عما تقدم، نرسم أنهم بقدر ماهم مستطيعون، عليهم مراعاة مرسوم المجمع العام، وأن يبقوا بحوذتهم بشكل مخلص جميع الأوامر الأصيلة والصحيحة، وكذلك بشكل اعتيادي بمثابة محاكمات غير اعتيادية، أو أن يتدبروا شأن حفظهم من قبل كتابهم، حتى يتمكنوا ويكونوا قادرين على عمل نسخة عنهم للأطراف، كما ينبغي، ونحن نأمر ونرسم إنه بعد مايكونوا جميعاً قد نسخوا من قبل هؤلاء الكتاب، يتوجب نشرهم جميعاً من أجل أنه إذا كانت هناك أية أخطاء في الكتابة يمكن أن تصحح، وتكون الحقائق الصحيحة للقضية قد أصبحت ظاهرة».

تقديم ضمانة

«فضلاً عما تقدم على القضاة، الانتباه أنهم عندما يقررون وضع أي واحد في حالة التملك، بسبب عصيان الفئة المخاصمة بالنسبة لإعادة الممتلكات مع الانتاج، هذا إذا كانت قد تسلمت أياً منه، بعد حسم النفقات القانونية، وإذا ماعادت الفئة المخاصمة، في بحر سنة، فإنها سوف تأخذ ضمانة كافية، بناء على أوامر الشخص الذي من المفترض أنه وضع في التمليك، ونحن نرسم أيضاً، أن أي واحد أقدم على الاستحواذ على ممتلكات بالقوة، للاستيلاء على ماتركه آخر، بسبب تمرده، انه حتى وإن كان سيعين بمثابة الملاك الحقيقي بعد سنة، سوف يحرم من أي حق يمكن أن يكون له فيها».

ولدى اكتمال هذه المسائل في اليوم الثالث من المؤتمر، بدأ النائب البابوي يرتل:

(Te Deum) وعندها نهض الجميع من مقاعدهم، وبعدها جرى ترداد الترنيمة الدينية:

(Viaum Pacis) وغنائها، ثم أعقب ذلك غناء مزمور «مبارك هو الرب إله بني اسرائيل» ثم إنه غنى بعض المجموعـات الخاصة، وبعد ذلك أضفى تبريكاته، وغادر الجميع بعد ذلك مسرورين كثيراً.

رسائل من الامبراطور إلى الايرل رتشارد أخبره فيها عن انتصاراته على الميلانيين

في العـام نفسه، أرسل قبيل عيـد الميلاد، ذلـك القاهر القـدير لأعدائـه، الامبراطور الرومـاني فردريك، رسـائل امبراطورية، مختومـة بالذهب، كما هي عادته، إلى رتشارد ايرل كـورنوول، ليخبره، وليخبر آخرين من خلاله، عن النصر الذي منحتـه السماء إياه على الميـلانيين، حسبما ذكـرنـا، وجـاء محتوى الرسالة ومقصدها كما يلي:

«من فردريك، الذي هو بنعمـة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى رتشارد ايرل أوف كورنوول، ابن ختنه المحبـوب، الصحـة، وأصـدق العـواطف: كم كـان متهـوراً ووقحـاً قيـام الليغوريين Ligurians [الجنويين] في ثورتهم ضد شخصنا الملكي، وقد أخبرت التجـربة وقـرب المكـان، الناس الجيران وحملت أخبـار الشرور المتأصلة إلى الناس إلى مسـافـات بعيـدة، ونحن نعتقـد أنك على دراية بها يعلمـه الناس، عن تجاوزنا المستمـر عن ذنوبهم لمدة طويلة، إلى حـد إذا مـا مضينا هكذا فإن تحملنـا سـوف يفقـد اسم الصبر الحقيقـي، وسـوف ينال وصمـة الجبن الشريرة، وذلك عـوضـاً عن الاسم الشريف ذي الفضيلة، وبعـد تقـدير وتأمل لبعض الوقت أن الجراحـة التي لاتشعـر بأي تأثير من استخـدام الكمادات، ينبغي أن تقطع بالسكين، ولذلك فـإن الحاجـة قـد أرغمتنا على اللجـوء إلى السـلاح، وإلى إيقـاظ الامبراطورية النـائمـة من سبـاتها، هذا ولم نستطع لا في السنة الماضيـة، أو خلال السنة الحاليـة، اقناع رعايانا المتمردين باللجوء إلى مخاطـرة مواجهتنا في قتال مكشوف، من أجل

أن ننال على الفور نصراً عليهم، وحدث لدى توفر فرصة سعيدة، أن الميلانيين مع حلفائهم قد احتشدوا عند حصن بريشيا Brescia وبذلك حال نهر بيننا وبينهم، وقد أحاط بهم هذا النهر، وكأن خندقاً قد أحاط بهم، وبناء عليه نصبنا معسكرنا، على الطرف الآخر من نهر أوغليو Oglio ووقتها عاد الفرسان المخلصين وسكان المدن إلى ديارهم، لأنهم لم يعودوا قادرين على تحمل التأخير الممل غير المتوقع، وقسوة الموسم، وقد وجهنا —على كل حال— خطانا مع كتلة منتقاة من جيشنا، فسرنا على طول شواطىء الطرف الآخر من هذا النهر، وقصدنا الجسور التي كان العائدون إلى ديارهم مرغمون على عبورهم،وبات الميلانيون وحلفائهم غير قادرين على البقاء مدة أطول في أماكن اختبائهم، وذلك بسبب قلة الحاجيات الضرورية لديهم، فعبروا نهر أوغليو، بوساطة المخاضات والجسور، ووصلوا إلى السهل المفتوح ودخلوه، ظانين أن بإمكانهم النجاة منا بالفرار سراً، ولعلهم لم يتصوروا أننا كنا على مقربة كبيرة منهم، وعندما —على كل حال— علموا بقربنا، استولى عليهم الرعب والخوف، ونزل بهم نزول صاعقة من السماء، ولدى رؤية مقدمة جيشنا الامبراطوري، وقبل تمكنهم من رؤية أعلامنا المنتصرة، والنسور الامبراطورية، نكصوا على أعقابهم، وشرعوا بالفرار من أمامنا باضطراب كبير، وفوضى عظيمة، وظلوا فارين حتى وصلوا إلى رايتهم، التي بعثوا بها أمامهم إلى نوفاكروسي Nu-ovacroce بسرعة فائقة، أي بقدر مايستطيع حصان سريع حملها، حتى أن ما من أحد من عساكرنا المطاردة لهم، استطاع أن يلمح وجوه الفارين، ولأننا اعتقدنا أنه بات من الضروري بالنسبة لنا المبادرة بالاسراع لتقديم المساعدة إلى القوات الاحتياطية، التي تقدمت وسارت أمامنا بقوة صغيرة، لذلك زحفنا خلفهم بسرعة كاملة، مع قوى جيشنا، وحيث توقعنا أن نجدهم قد صدوا بهجوم الأعداء المقاتلين، وجدنا أن تقدمنا معاق بأعداد الخيول التي كانت تركض هنا وهناك، من دون ركّاب، وكذلك بحشد الفرسان المممددين جرحى أو قتلى، في حين كان الذين بقيوا أحياء إما

واقفين أو متمـــددين على الأرض، لأنهم كـانوا مــرتبطين إما بســادة أو بفرسان، كانوا من أتباع مـواليهم، وبعد لأي عثرنا على رايتهم قرب أسوار نوفاكـروسي، وهي محاطة بخنادق، ومحمية بمجموعة كبيرة من الفـرسان، مع جميع جنودهم الرجـالة الذين قاتلوا بشكل رائع في الدفـاع عنها، وعند ذلك صرفنا اهتمامنا نحــو الهجـوم والاستيـلاء على هـذه الراية، ورأينا أن بعض جنودنا بعدما تمكنوا من شق طريقهم بالقوة إلى ذروة الخنادق، قاموا بشجاعـة محمودة فشقوا طريقهم بالقـوة نحو عمـود الراية، وكانت ظلال الليل على كل حال تقترب، وهـو ماتشوق إليـه رجالنا بشـدة، فتوقفنا عن القتال حتى الصباح الباكر من اليوم التالي، ذلك أننا كنا قد استلقينا للراحة فقط مع سيـوف مجردة، ودون أن ننزع سوابغنـا ودروعنا، مقررين العـودة لنيل نصر غير مشكوك فيـه، ولنستـولي على الـراية، ولدى انبـلاج الفجـر، اكتشفنا على كل حـال، أنها كـانت مهجورة، وقـد تركت وسط حشـد من العـربات السيئة، غير مدافع عنهـا تمامـاً ومهجورة، ورأس القصبـة حيث كـانت عـلامة الصليـب، كان الصليب قـد فصم، لكن يبـدو أنه ظهـر إلى الفارين ثقيل جداً، لذلك ترك في منتصف الطريق، أمـا بالنسبة لحامية قلعة نوفاكروسي وسكان المدينة، الذين ظننا أنهم سوف يلجأون إلى الاحتماء بها وينجـون إليها هرباً من هجماتنا، فقـد وجـدناهما مهجورين تمامـاً، ولم ينج رئيسهم الذي هـو ابن دوج البندقيــة من الوقــوع بين أيدينـا، وهو الذي بأوامـره رفعـوا رايتهم المأسـوفــة، ولكي نقـدم رواية مختصرة حـول هذه المسألة، يقـال بأن قـرابـة العشرة آلاف رجل قـد أسروا أو قتلوا، كـان من بينهم كثير من النبلاء والقادة للفئات الميلانية، وحول هذه المسائل كلها، قد أرسلنا لكم رسالة لنقـدم إليكم السرور، ولكي تروا كيف أن امبراطوريتنا قد ابتهجت بالأخبار التي نرويها لكم الآن.

صدر في كريمونا، في هذا اليوم الرابع من كانون الأول، في الحادية عشرة من الخمسعشرية».

رسالة بعثت إلى النائب البابوي حول أوضاع الكنيسة الرومانية

وكتب في هذا العام نفسه أيضاً، في حوالي عيد الميلاد السيد الكاردينال ج. ل دي كولونا، وكان قوياً ومستشاراً خاصاً للكنيسة الرومانية، إلى النائب البابوي في انكلترا، كما يلي:

«**من الأخ إلى أخيه، ومن الكاهن إلى الكاهن، ومن المحب إلى الحبيب، تمنيات الصحة في المسيح** —لو أن هذه الرسالة، التي أنا كتبتها يمكن أن تبقى سرية عن الغرباء، ولولا أنه بحكم المسافات بين الأماكن، كثير من الأشياء يمكن أن تتعرض للخطر، لأودعت كتابة كثيراً من الأشياء، التي اللسان صامت عنها لايتحدث، ولايبيحها إلى الصديق، وهذه أمور لاينبغي لي أن أخفيها عن معاليكم، وهي أن الأم قامت بتشوق، أو بالحري بشكل غير حكيم، بتغطيس نفسها واغراقها بين الأمواج، وعن طواعية واختيار من نفسها، ألقت بذاتها بين فكي الذئب، بوساطة خطط اثنين فقط، مع أن ثالثاً قدم تعاونه، أو بالحري لنتكلم بشكل صادق أكثر كان سباقاً بهذه الخطة، وبما أن الحرية قد ألقي بها جانباً، فقد بدأت العبودية، وغاب نجم القداسة، ونزل الميراث والحظ إلى مرتبة العبودية، وشموخ العالي والقوي نال الثناء، واشتري السجن، وازدري الشرف، وتم السعي وراء الفوضى، وتسلح الاضطراب، وأرغم الهدوء على الفرار، وما من اهتمام صرف نحو ذنوب الرهبان والغرباء، وتلا ذلك وأعقبه نتائج محزنة، ولحسن حظك أنك ابتعدت عن هذه المشاكل، وأنك ذهبت إلى بلاد نائية، حتى لاترى معاناة شعبك وآلامه، ولاتشاهد القديسين وهم يتعرضون للضربات اليومية، ويمزقون بأدوات نخس متواصلة، ولقد رغبنا، وغالباً ماحاولنا أن نقوم بإصلاح أحوال الكنيسة وأوضاعها، ذلك أنها هوت وفسدت وصارت بلا شكل وفي وضع سيء متدهور ومعزول، وأديرت المؤتمرات بشكل عابث، حيث أن الأهواء لم تضبط بضوابط العقلاء، بل أثيرت بعنفها، وبالإضافة إلى كتلة أحزاننا الأخرى، إن العمود النبيل،

الذي جرت العادة أن يدعم بشكل نبيل،، ويسند آلية الكنيسة، وهو مولانا أسقف سابينا، صاحب الذكرى الطيبة، قد اختطف فجأة من بين أوساطنا، فقد أصيب أولاً بالحزن تجاه اضطرابنا، ثم إنه هوجم فيها بعد بمرض بطيء، ومات، ليدخل تحت سلطان الرب، تاركاً مشهداً محزناً من الدماء لأمه، ورجع الرهبان من بلادهم وهم على خلاف مع رئيسهم، ولم تظهر علامات خطوات نحو السلام، لأن أتباع الخلاف لم يطيعوا العاملين في سبيل السلام، وقد انسحب أسقف أنطاكية من الجماعة، ولم يتوافق مع الذين عادوا، وبودنا ياصديقي لو أن ذلك أحيط بعناية حاشية صغيرة، وأنه بذلك لم يكن عبئاً على الآخرين، وأنه لم يمزق بأسنان المستخفين، ولكن بما أن قوة غمر فيضان المذنبين والعواصف الشديدة قد ازدادت قوة، لقد أصبحت لازماً لأمك، ولذلك أعدّ نفسك للعودة. صدر في فيتربو، في يوم عيد القديسة لوسي».

الإغريق يرفضون الخضوع للكنيسة الرومانية

وعندئذ ظهر من هذا ومن علامات مماثلة، ووضح أن الكنيسة الرومانية قد حصلت على غضب الرب، لأن الرؤساء فيها والأساقفة، لم يسعوا إلى دعوة الناس إلى التقوى، بل لجمع محافظ نقود مليئة بالأموال، وليس لكسب الأرواح إلى الرب، بل للاستيلاء على الموارد، وتكديس الأموال، وللضغط على رجال الدين وظلمهم، ولمصادرة أملاك وتكريسها لاستخداماتهم بوساطة الكفارات، والربا، والسيمونية، وما من تقدير قدم للعدل أو للشرف، ومامن انتباه صرف إلى توجيه الجاهل وتعليمه، وحالما ينال أي واحد منصباً لاهوتياً له منافع، تراه يبحث على الفور ليتعرف كم من المال سوف يحصل منه، وآخر سؤال يجري طرحه —هذا إذا طرح— يتعلق بقديسه، أو باسم الذي حملت كنيسته عنوانها، ولذلك فإن اللعنات والشكوى ثارت بين الناس، وأثير غضب الرب يومياً، لسبب صحيح، ولدى مشاهدة الكنيسة الاغريقية هذه الشرور وهذا الظلم، ثارت ضد

كنيسة روما، وطردت امبراطورها، وأظهرت الطاعة نحو رئيس أساقفتها فقط في القسطنطينية الذي كان اسمه جرمان German الذي في ضلاله ابتعد عن الإيمان الكاثوليكي، ودافع بجرأة عن العقائد الخاطئة للاغريق، وعن الأخطاء القديمة وكذلك عن الأخطاء المبدعة حديثاً، وعقيدتهم الحمقاء هي كما يلي:

هم يؤكدون أن الروح القدس لم تصدر عن الابن، بل عن الأب وحده، لأنه وجد مكتوباً في الكتابات المقدسة: «روح القدس التي صدرت عن الأب»، فضلاً عن ذلك هم يكرسون القربان من الخبز المختمر، وهم يعاكسون اللاتين ويخالفونهم في عدد من النقاط، ويمقتونهم، ويدينون الكنيسة الرومانية في عدة نقاط، وهم يولون بذلك أعمالها أكثر من أقوالها، وقام بناء عليه، مثل ابليس آخر، فأسس كرسيه في الشمال، أي أن تقول في القسطنطينية، التي هي المدينة المطرانية للأغريق، وكان بذلك ابناً ممسوخاً وبابا مضاداً، وسماها كنيسته، وأعلن أنها الأكثر جدارة، وقال أيضاً بأن الكنيسة الرومانية هي أختها، وليست أمها، لأن القديس بطرس، رئيس الرسل، كان قد أسس في الأيام الخالية كرسياً كاتدرائياً في أنطاكية، التي هي مجاورة للامبراطورية الاغريقية، وتابعة لها، وكان قد فعل ذلك قبل القدوم إلى روما، وأضاف أيضاً بأن أنطاكية أبدت كل التكريم والاحترام الذي كان في طاقتها إلى رسول المسيح، وبناء عليه وبسببه تشرفت بنيلها اسم «ثيوفيلوس» (Theophilus) في حين قامت روما بعد كثير من الاهانات، وأعمال تمرد كبيرة، فحكمت على بطرس المذكور، وعلى تابعه الرسول بولص بالموت، وهكذا كان الذي ظهر من الجانب الاغريقي وجرى التعبير عنه هو التشريف والاحترام، في حين كان ما ظهر من الجانب الروماني وجرى تقديمه هو عدم الاحترام والاهانة، ولذلك فإن الاغريق يستحقون عن جدارة وبموجب الحق، أن يدعو باسم «الأبناء»، والرومان باسم «أبناء الزوجات»، والذي يمكن استخلاصه من محتوى

الرسائل المقبل ذكرها، أن رئيس الأساقفة جرمان المذكور قد رغب في جمع إغـريقه واللاتين —أي الرومـان— مع بعضهم، من أجل أنهم بعـد سماع الحجج المقـدمـة من الطرفين المتنازعين، يمكنهما الوصـول إلى طـريق ما للتفكير، وفقـاً له يكون مـؤيـداً لحجج، أو يكون سلطة تثبت مـواقفهم، وبذلك يمكن للكنيسـة كلها التي تقـاتل في سبيل الرب، أن تدعى كنيسـة واحـدة ومتحـدة، وأنه وفقـاً لما رسمـه مخلصنا، يمكن أن يكون هناك راع واحـد وقطيع واحـد في جميع أرجـاء العـالم، ولهذا السبب كتب جـرمـان المذكور، إلى البابا بما يلي:

رسالة جرمان رئيس أساقفة القسطنطينية
إلى غريغوري البابا الروماني

«إلى الأعظم قـداسة، والأكثـر فخـامة، البـابا لرومـا القديمـة، وأسقف الكرسي الرسـولي، من جـرمـان، الـذي هو بنعمـة الرب رئيس أسـاقفـة القسطنطينية في روما الجديدة:

آه يامولاي يسوع المسيح، امنحني الخلاص، وآه يامولاي الرب أعطني نجـاحـاً طيبـاً، لأنني أرى فيك، وأعـدّك، الشرف، وحجـر الزاوية الثمين المنتخب بمثابة أسـاس لهذه المناقشة التي يمكن أن تجلب الخلاص إلى جميع العـالم، لأنني قـد تعلمت بوسـاطة النبي اشعيـا، بأن كل واحـد يؤمن بك بأنك هذه الحجرة، سـوف لن يرتبك بأي شكل من الأشكال، كما لايمكن تحريكه من أساس أهله، وهذا هو الصدق، وما من أحد يتجرأ على معاكسة ذلك، ما لم يكن تلميذاً لأبي الكذب، وعملك أنت الذي هو حجر الزاوية، أن تتـولى توحيـد الأشيـاء التي نأت عن بعضهـا بعضـاً، أو توحيـد الذين اختلفوا فيما بين بعضهم بعضاً، وأن تجمع الأشيـاء التي افترقت عن بعضها في وحـدة الإيمان، فأنـت الذي بشرت بإنجيل السـلام إلى هـؤلاء الذين يسكنون في القرب وفي البعـد، وأنت الذي برفع يديك فـوق الصليب، قد

جلبت نهاية طرف الأرض إلى الاستقامة، وبعد ذلك، حسب عادة الرب رفعتهم فوق كتفيك، وبناء عليه إنني أتوسل إلى رحمتك الواسعة، أنت الذي هو كلمة الأب الكلي القدرة، والذي هو من الجوهر نفسه في حكمة الرب، عمّر في صرح هذه المناقشة، وكن أنت أساسها وسقفها، فأنت وفقاً للقول الرباني ليوحنا، البداية والنهاية، البداية التي لايسبر غورها، والنهاية لكل شيء، فهكذا مددنا صلواتنا، وهكذا رفعنا في المقام الأول أبصارنا إلى الجبال السماوية، التي صلينا من أجل أن تأتينا المساعدة منها، ثم نتوجه بعد هذا بحديثنا إليك أيها البابا الأعظم قداسة، الذي حصلت على رئاسة الكرسي الرسولي، تلطف وانزل قليلاً من مجدك العالي، واصغ إلى كلماتي، أنا الذي ذي قيمة صغيرة، والتعيس في كل من الحياة والطريق، إذا كنت —كما أقول— تشابه الذي يسكن في عليين كرب، وينظر نحو الأسفل على الأشياء الموجودة هنا تحت، ومن هاهنا أنا سوف أبدأ:

إن الحكمة المبهمة للرب، التي عملت من لاشيء كل شيء، قد أبقتهم دوماً داخل الحدود، وحكمتهم بشكل عقلاني، قد عملت منذ زمن مضى عادة في أقل المناسبات، لبناء أشياء عظيمة على ذلك، وكأن الأساس قد أرسي منذ زمن طويل مضى، فيوسف قد بيع في مصر مقابل فضة، بعدما ألقي في الجب، ورمي به بعد ذلك في السجن، والأحداث التي تلت، وكم كانت مجيدة ومشرفة، وكيف تمجد الرب في وسط ذلك، هي معروفة بشكل جيد من قبل الفهم الحكيم لعقلكم، أيها الأب الأعظم قداسة، والذي يريد هذا الخطاب أن يشير إليه، ويقصده ويستهدفه، هو الرهبان الذين هم موجودين، والذين عددهم يساوي عدد العذارى الحكيمات، والذين اجتماعهم الخطير، وسجنهم غير العادل قد لفت انتباهنا له، وهذا ماسوف نبيّنه إلى قداستك، ذلك أن مصباح أعمالهم، مع النور الصادر عنه، أشع نحو الأمام من أجل مجد الأب السماوي، وهم بحكمة يزودونه دوماً بزيت الأعمال الطيبة، حتى لاينطفىء نوره، ولكي لايغرقوا هم

أنفسهم في الكسل، وبـذلك يرفض قبـولهم إلى الملكوت، وهم جميعـاً بلا عصي، وبلا نعـال، ولكل واحـد منهم مـلابسه الخاصـة، وأنا أعتقـد الآن —وفقـاً للرسل— أن أقـدامهم جميلة، حيث أنهم يبشرون بانجيل السـلام بين الاغـريق واللاتين، وهم من الممكن باختصار دعـوتهم، وكأنهم بلا أي عبء، أكثر الساعين رشاقـة وأسرعهم، مبادرين بسرعة نحو الرب، الذي هو هدف جميع الـرجـال الصـالحين، وعند وصـولهم إلى الهدف، سـوف يتـوقفـون عن الركض، ويتسلمـون جـائـزتهم التي تشـوقـوا إليهـا كثيراً، وهؤلاء الرجـال، الذين بالنسبـة للـرب يدعـون بالفـرنسيسكان، لكونهم متحدين برغبة واحدة، وبمقصـد واحد، ولأنهم مثل ذلك قد امتازوا برقم خمسة، هؤلاء قـد ظهروا بمثابة شـارة طيبة، وأعطوا أملاً جـديداً —برضا الرب— بالوحـدة والوئام، لأنهم تأسسوا بين خمس بطريـركيات، وهؤلاء الرهبـان أنفسهم، قد التحقـوا ببيتنا، كما أعتقد بمـوجب الحكمة الربانيـة، التي توزع جميع الأشياء لخير الفوائد والمنافع، وبعد مرور مناقشات من على الطرفين بيننا، اتجه الخطاب وتحوّل قبل كل شيء، نحـو الشقاق القـائم منذ أمد طويل، في ثوب التقـوى الذي لانظير له، والذي نسج هكذا من الأعلى إلى الأسفل، وهو الثوب الذي ألبست به أيدي الرسل الكنيسة الكاثوليكية للمسيحية، ولم تكن أيدي الجنود هي التي أقدمت على تمزيقه وتقسيمه، بل خـلافـات اللاهـوتيين هي التي فعلت ذلك، والتصـدع كبير، وله سنين طويلة قـائماً، وليس هناك من أحـد لديه رحمة نحـو قـرينة المسيح، المرتدية لثوب ممـزق، أو التي سوف تبكي على تعـاستها، وهذا —كما أعتقـد— قد رثاه داوود أيضاً في ميراثه، حيث قـال في كتاب المزامير: «لقد تفـرقوا دون ندامـة»، وإذا مـاأردنا أن نشعـر بالندامـة، ينبغي أن نحـزن وأن نشعـر بالأسف، وإذا كنا سنواجه الاضطراب والحزن، علينا أن نتوجه بالدعاء إلى اسم الرب، ومادمنا ننشـد عونه، سـوف يقدم إلى مساعـدتنا، وكأنه وسط تلاميـذه، يجلب الهدوء والسكينة إلى الذين هم على خـلاف، ويقـوّم عـدم الوفـاق في أفكارهم، أو لم تكن أحشـاؤه هي التي تمزقت؟ أوليسـوا هم

آسفين بسبب عدم اتفاقهم؟ نعم هم كذلك كثيراً، لأنه هو الأب، والأعظم قداسة بين جميع الآباء، ولايمكنه تحمل رؤية أبنائه يبكون بشكل متبادل، ويدمر أحدهم الآخر، وفق هذه الطريقة العدوانية، وأن يرى أحدهم وقد إلتهم من قبل الآخر، على طريقة الأسماك، لأن العظيم قد ازتقى فوق الأدنى، والأعظم قوة يظلم الضعيف، فهل مثل هذا تعلمنا من قبل صياد السمك ذاك، الذي هو بطرس، والذي هو على عكس متقدميه، اقتاد الذين أمسكهم بشبكته من الموت إلى الحياة؟ وا أسفاه، من الذي سوف يعطي ماء إلى رأسي، ونبعاً من الدموع إلى عينيي، حتى أبكي ليل نهار على دمار القدس الجديدة، خارج أمم الكنيسة المجتمعة؟ وكيف نحن الشعب المختار من الرب قد انقسمنا إلى يهود واسرائيليين، ومدينتينا إلى القدس والسامرة؟ والحال نفسه كما وقع في قضية قابيل وهابيل، أو عيسو ويعقوب، اللذان كانا أخوين بالولادة، ولكن عدوين بالعقل، وهكذا عادى أحدهما الآخر، الحال هذا نفسه واقع الآن بيننا، وأنا حزين لإقحام هذه الأشياء في رسالتي، خشية أن أبدو وكأنني أجرح أولوية أخوتك، أو أن يظن بأنني أسعى للاستيلاء على حق الولادة للمولود الأول، وعلى كل حال، لم يصبح «أبي» مسناً، كما أن عينيه لم تغدوا غير بصيرتين، لكنه يسكن في السماء، وبوضوح يرى جميع الأشياء، وعلى الذين ظلموا بشكل غير عادل، قد أضفى تبريكاته، وهذه الأشياء في الحقيقة مؤلمة، وإلى انسان ذي فهم، هي الدودة التي تقرض عظامه، إذا ما استحضرت مراراً إلى الذهن، والذي بقي ليقال هو أكثر مرارة وحدة، وأكثر مضاء بالقطع من أي سيف ذي حدين، ضد أية طائفة من الناس جرى توجيهه، سواء أكانوا إغريقاً أم لاتيناً، وماذا هذا؟ دعونا نسمع الذي قاله بولص: «وسواء أكنا نحن، أو ملاك من السماء، يبشر بانجيل آخر إليكم، غير الانجيل الذي بشرنا نحن به، فليلعن»، ولقد ضرب بالسيف الذي هو من هذا النوع أكثر من مرة، وهو من الممكن أن يجلب علينا حزناً أعظم، للمرة الثانية أيضاً، بضربة ثانية، والذين يخافون الموت على أرواحهم، يطلبون الطبيب، وبعد هذا ماذا

يمكنني أن أقول أكثر؟ دعونا نطرد كل اهتمام آخر وقلق من عقولنا، مثلما ننفض الغبار من على أقدامنا ودعونا نستخدم كل مساعينا، لنكتشف من الذي أصابه هذا السيف المرعب، وذي الحدين، والذين فصلهم عن اتحادهم بأطراف الكنيسة، التي المسيح هو رأسها، فإذا كان قد أصابنا نحن الاغريق، أرونا الحز، وأزيلوا الدم من الجرح، واستخدموا رباطاً روحياً لربطه، واحفظوا إخوانكم الذين هم في هذا الخطر، خشية أن يهلكوا، وهكذا اتفقوا مع سليمان الذي ضرب هذا المثل «الصديق وقت الضيق»، ودعونا أولاً وبشكل رئيسي نصغي إلى الرب نفسه، الذي أعطى حكمة إلى سليمان هذا المذكور، والذي قال من خلال النبي:

«كل من يفصل الثمين عن الرخيص سوف يكون وكأنه عظمي»، ولكن إذا كنا نحن الاغريق من دون ندبة ومتحررين من الجرح بهذا السيف، سيف اللعنة الكنسية، وإذا كان قد جرد ضد الايطاليين واللاتين، وقد رفع من أجل قتل البعض ولتدميرهم، نحن نعتقد أنكم لن تسمحوا لأنفسكم بالانفصال عن جانب الرب، من خلال الجهل، أو العناد الشرير، فكل واحد منكم يؤثر عن طواعية تحمل عشرة آلاف موت، إذا كان ذلك ممكناً، على هذا الانفصال، وبما أن كل من الخلاف الكبير، والتباين بالمواقف والتضاد بالآراء، هي المدمرة للأحكام الشرعية، أو المغيّرة للعادات التي أورثنا إياها آباؤنا، وهي أيضاً مواد السياج التي فصلت هذه الأشياء، التي كانت من قبل متحدة بروابط السلام والوئام، فالعالم كله سوف يعلن بصوت واحد، وهو يدعو الرب، والسماوات والأرض لأن تشهد بأننا رجونا بأعظم إخلاص لأن نتحد يداً بيد معكم، أو أنتم معنا، بالقيام بتقص يقظ، وأن نمحص بحثاً عن الحقيقة حتى القعر، وأن نطلب مساعدة الروح القدس، حتى لانكون عرضة مدة أطول إلى شقاق مخز مماثل، وأن يتحدث بسوء عنا من قبل اللاتين، أو أنتم تشتمون من قبل الاغريق، وأن نتمكن من الوصول إلى اللب الحقيقي للصدق، فإن عدداً

كبيراً من الرجال الأقوياء والنبلاء سوف يطيعونكم، إذا كانوا لايخشون الظلم غير العادل، وطلب استخراج الأموال الذي تمارسونه، والخدمات غير المستحقة التي تطلبونها من الذين هم خاضعون إليكم، ونظراً لأن الحروب الوحشية تقوم بين واحد ضد آخر، فهي مصدر دمار المدن، وإنه لهذا السبب وضعت الأختام على أبواب الكنائس، ونظراً لنشوب الانشقاقات بين الرهبان، فإن عمليات خدمات الكهنة قد توقفت، ولذلك فإن الرب لايمجد في البلاد الاغريقية وفق الطريقة الصحيحة المتوجبة، وواحد من الأشياء —كما نعتقد— قد منح منذ زمن طويل، ووصف إلى الاغريق من عليين، هو حتى الآن مطلوب، وهو زمن الشهادة، وعلى هذا إن الوقت الذي قد بات الآن وشيكاً هو وقت افتتاح منابر القضاء، وأن توضع أختام المنازلات، من أجل تدفق الدماء، ومن أجلنا نحن لكي نصعد إلى ميدان الشهادة، وأن نقاتل قتالاً جيداً حتى نتسلم تاج المجد من اليد اليمنى للرب القدير، وإن جزيرة قبرص الشهيرة تعرف أن الذي أقوله هو صدق، فهي تعرف، وهي قد أنتجت شهداء جدد، ورأت جنود المسيح، الذين عبروا أولاً البحر، وتطهروا في حمام الدموع، وبالتعرق اجتازوا أخيراً، وعبروا حتى من خلال النار، واقتيدوا من قبل الرب —الذي أشرف على قتالهم— إلى مكان الاستراحة السماوية، أوليست هذه الأشياء جيدة أيها البابا الأعظم قداسة، وخليفة الرسول القديس بطرس؟ وهل فرض بطرس التلميذ اللطيف والمتواضع للمسيح هذه الأشياء؟ وهل هكذا وجه الشيوخ عندما كتب: «إنني أحث الشيوخ الذين بينكم، ذلك أنني أنا شيخ، وشاهد على آلام المسيح، وكذلك شريك في المجد الذي سوف يظهر؟ أطعموا قطيع الرب الذي هو بينكم، واعتنوا به، ليس بالكره بل بالطواعية، ليس من أجل ربح قذر، بل بعقل جاهز، وليس على شاكلة سادة على ميراث الرب، بل بمثابة مثل للقطيع، وعندما سيظهر الراعي الرئيس، سوف تتسلمون تاجاً للمجد لايخبو ولايتلاشى»، فهذه عقيدة بطرس والذين لايطيعونه سوف يرونها، وقد نلنا تهدئة كافية وترضية

بذلك الجزء من رسالته، التي أمر فيها الحزينين، لأن يكونوا مسرورين تحت مغوياتهم المتنوعة، بقوله: «بأن محنة إيماننا أغلى بكثير من الذهب الذي يتلف، علماً بأن المحنة بالنار، يمكن أن تلقى المديح، والتشريف، والمجد، عند ظهور يسوع المسيح»، وامنحني عذراً، أيها السيد الأعظم قداسة، والأكثر رحمة بين جميع أسلافك لروما القديمة، وتحمل كلماتي، مع أنهن يحملن كثيراً من المرارة، لأنهن تنهدات قلب متألم، وقد منح الغفران إلى الرجال المستقيمين، الذين بسبب الحزن العظيم في القلب، انفجروا يتفوهون بكلمات مزيجة بالتنهدات، وبناء عليه احزم أمرك واشدد عزمك، وأضيء مصباح رشدك، وانشد الدرهم المتعرض للتلاشي من أجل وحدة الايمان، وسوف نكون متعاطفين مع قداستك، وسوف لن نوفر جسدنا الضعيف، ولن نسامح أنفسنا من مرافعة العصر القديم ولن نعفيها، كما أننا لن نشكو من الرحلة الطويلة، لأنه كلما كان العمل الذي نقوم به متعباً، كلما توفر هناك سبب من أجل عدة تيجان من المجد، لأن كل واحد سوف ينال مكافأته وفقاً لتعبه، كما قال بولص بأن المصارع العام في الحلبة مع منتصر خاص ينالان تاجاً للمجد، ونحن لسنا جاهلين، أيها الأب الأعظم قداسة، أنه كما نحن الاغريق، في الطريق نفسه، نسعى نحو مراعاة العقائد (الأرثوذكسية) المستقيمة والتقوية في كل شيء، وكذلك حتى لانضل فنبتعد عن أحكام الرسل والآباء المقدسين، كذلك تفعل كنيسة روما القديمة، حسبما نعرف بشكل جيد، فهي تناضل من جانبها حتى ترى نفسها لم تخدع في أية نقطة، وهي تؤكد أنها ليست بحاجة لا إلى الانقاذ ولا إلى التقويم، وهذا نعرفه، لأنه قد قيل في كنيسة الاغريق، وكذلك في كنيسة اللاتين، ولأن ما من أحد يمكنه أن يرى شيئاً قبيحاً في وجهه، ما لم ينظر في المرآة، أو يجري إخباره من قبل شخص آخر، كيف يبدو هو في وجهه، سواء أكان قبيحاً أم غير ذلك، ولدينا الكثير من المرايا الواسعة، وأعني بذلك الانجيل الواضح للمسيح، ورسائل الرسل، وكتب الآباء المقدسين، ودعونا ننظر فيهم، فهم يظهرون كيف يشعر كل انسان، سواء أكان بشكل

غير شرعي أم شرعي، هذا وإن كل من يستدعى إلى المرآة ليقوم بمحاولة، سوف عندما يبتعد يعترف —وإن كان من غير رضى— بأن وجهه قد تشوه، وأن رب السلام، سوف يكدم الشيطان تحت قدميه بعد وقت قصير، الذي هو صانع الخلاف، والذي هو السلام، الذي هو سبب جميع المحاسن، سوف يكدم الذي يكره الصلاح، ويسبب الخزي، ولعل الذي هو رب السلام أن يرسل إلينا، الذين هم رعاة لشياهه العاقلة، وملائكة السلام لتعلن الفرح العظيم، كما فعلت من قبل لرعاة الشياه البهيمية، عند ولادة المخلص بالجسد، وأن يجعلنا جديرين بأن نغني أغنية المدح تلك، أي: «المجد للرب في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وحسن الإرادة نحو الناس»، ولأن يحيي الواحد الآخر بقبلة مقدسة، وليكن معكم مجد مولانا يسوع المسيح، وسلام الرب الأب، والصلة الحميمة للروح القدس. آمين».

رسالة منه نفسه إلى الكرادلة

«من جرمان الذي هو بنعمة الرب، رئيس أساقفة القسطنطينية، روما الجديدة، إلى الكرادلة المشهورين، والأعظم قداسة واستقامة، شرف الكرسي الرسولي:

إنه بالفعل هناك فائدة كبيرة إلى العالم، ونافع جداً إلى جميع الناس، لأن نجتمع معاً، ونعقد مجمعاً، من أجل ترتيب المسائل، لأن ماأخفاه الرب أحياناً عن انسان ما، قد أباحه وكشفه إلى آخر، وهكذا إن كل ماكشفه من صلاح إلى أي انسان، إنه عندما يجلب لمنفعة الجميع ومعرفتهم، يجري تداوله، بدرجات متزايدة لصالح الحشود التي هي رعية له، ولئن كانت هناك عدة من المختلفين بالرأي، لكنهم رجال متعلمين ومخلصين عاقلين، كم كان عظيماً الربح، وكم كانت كبيرة المنافع التي حصلت إلى جماعة الخاضعين لهم؟ لأن الانسان الذي يعمل من دون مشورة يعاكس نفسه، كما قال سليمان بصدق: وعلى هذا إنه من جهة أخرى، كل من لديه نصيحة

طيبة يجذب أصدقاءه إليه، ويدني أعداءه ويقربهم من الصداقة معه، وكون هذا هو خطة ربانية وسماوية، النبي اشعيا هو شاهد على ذلك، حيث دعا الجوهر المتجسد لكلمة الأب، والملاك العظيم للحكمة، بأنه المستشار محط الاعجاب، حتى يمكن أن نفهم حقاً وبالواقع، كم هو ضروري في مسائل تتعلق بالرب، تمييز الفوارق بين الأشخاص، لأنه تبعاً للطبيعة اللاهوتية، هناك إرادة واحدة للأب، والابن والروح القدس، ولذلك يحصل كثيراً من التشريف إلى الذين ينصحون بأشياء جيدة، لأنهم من هذا يحصلون على اسم بالاشتراك مع الرب، إذا ماأعطوا مشورة من أجل الخلاص البشري وفقاً لما هو مقبول منه، وعلى هذا، مع موافقة الحكمة في عليين، التي توزع الأشياء كلها، تبعاً لأحسن المنافع، نجد أن روما قد وضعتكم في السلطة عليها، كجديرين بعظمتها ومجدها، وقد تفوقتم على جميع الكرادلة الآخرين من أسلافكم في الحكمة والتدين، وذلك حسبما أخبرنا إخواننا رهبان الطوائف الدينية، وبتواضع كما نحن، إنني أرجوكم القيام للدخول في الصراع الروحي، والبسوا دروع وسوابغ الروح، ودمروا حاجز العداء القديم القائم بين كنيسة الاغريق وبين كنيسة اللاتين، لأن أسلحتكم قوية لتدمير أعمال من هذا النوع، وبعد إزالة هذا الحاجز طمئنوا الأطراف الممزقة، واربطوها مع بعضها في وحدة السلام، والخير، والإيمان المشترك، وتلك الأشياء التي فرقت لسنوات طوال، وكونوا أنتم أيضاً نصحاء جديرين بالثناء ومقبولين لدى الرب، أمام البابا المقدس والسامي، الذي هو رجل متوافق مع رغباتكم، معروف عنه أنه مسالم، ولطيف بالروح، وتبعاً لاسمه، هو دائماً متيقظ، ودائم الصلاة، ومداوم على خدمة مولاه، حيثما تحرك، حتى يجعله جديراً بأعلى مراتب السعادة، والذي هو في بساطة قلبه يغذي أفراد شعب المسيح، وبوساطة يديه سوف يقودهم إلى مراعي الجنة، لأنه بالأيدي كما تعلمون، وحسبما جاء في الكتابات المقدسة، صممت العملية، ونحن في الحقيقة في الآمال والوعد الصحيح للمسيح، الذي أكمل الصدق في ضعفنا، وقد شرعنا بأعمال الوحدة، ونحن مرسلون

رسائل إلى صاحب القداسة البابا، وانني أصلي لملك السماء، الذي ارتدى شكل العبد، لصالحنا نحن عبيده الذين بلا فائدة، والذي صلب، والذي رفع إلى مستواه الذين سقطوا في أعمال التعاسة، ليزيل من قلوبنا كل تكبر بالتفكير، هذا التكبر الذي رفع ذاته معادياً لاتحادنا الأخوي، ونأمل أن ينير أفهامكم بنور المعرفة، حتى نتكلم موحدين والشيء نفسه، وأن لايكون بعد الآن تمزق بيننا، وأن نستمر نحن فنلقى التوجيه بعقل واحد هو العقل نفسه، وأن لايقال بيننا كما قيل بين المسيحيين القدماء: «أنا من أتباع بولص، وأنا من أتباع أبولو، وأنا من أتباع كيفاس Cephas وأنا من أتباع المسيح»، بل أن نكون جميعاً من أتباع المسيح، بحكم أننا نعرف باسم المسيحيين، لعلنا أيضاً نبقى نتلقى التوجيه من قبل واحد ومن قبل العقل نفسه، وأن نمارس تقديم الصدقات، التي هي تبعاً لشريعة المسيح، أن نضع في أفواهنا كلمات الانجيل التي هي: «رب واحد، إيمان واحد، وتعميد واحد» ولعلنا نتمكن من الاعتراف بالصدق، وأن نجعل منكم أصدقاء لنا، حتى تتمكنوا أيضاً من الاعتراف بها، كما كتب «إن كلمات الانسان الحكيم، الذي يقول الصدق، ويبرهن على الصدق مثل المسامير تثبت في الأعلى»، وغالباً ماينجب الصدق الأعداء، وذلك ومع أنني أخاف، ولكن سوف أعترف، بأن فصم اتحادنا قد نشأ عن طغيانكم وعن ظلمكم، وعن الإملاء القسري للكنيسة الرومانية التي عوضاً عن كونها أماً صارت زوجة الأب، ومثل طائر جشع جرى طرده عن فراخه، وطرد فراخه وأبعدهم عنه، وكلما ازدادوا تواضعاً، ونزعوا نحو الطاعة، كلما ازداد دوساً عليهم، وزاد من معاملتهم بالشر، والنظرة إليهم نظرة سوء، دون الاصغاء إلى قول الانجيل بأن «الذي كلما زاد من تواضعه، استحق الرفعة أكثر»، وبناء عليه دعوا الاعتدال يضبطكم، ومع أن الشره الروماني قد استقر فيكم لوقت قصير، دعونا نهبط إلى أمان الصدق، وبعد أن نقوم بفحص دقيق بالصدق، بالنسبة لما يتعلق بطرفي المسألة، دعونا نعود إلى اتحاد ثابت، لأننا كنا كلنا نحن الاغريق واللاتين، منذ وقت مضى، نتبع الإيمان نفسه، ونتقيد

بالأحكام الشرعية نفسها، في فرض السلام بيننا أنفسنا، يقاتل كل منا في سبيل الآخر، ومسببين الفوضى لأعداء الكنيسة، وعندما رأت الشعوب التي قدمت أيضاً إلى مابيننا من الشرق، أنها وجدت مكاناً آمناً للالتجاء إليه، هربت بكل سرعة إلينا، وقسم منهم إليكم، أي إلى روما الكبيرة، بحكم كونها حصن حصين لايتزحزح، وتلقوا الطمأنينة من على الجانبين، وهكذا باحسان متبادل جرى تلقي الأخ في صدر الأخ، وعندما جرى الاستيلاء على روما من قبل شعوب أخرى، تولت الامبراطورية الاغريقية تحريرها من طغيانهم، وقد فرّ آغابتوس Agapetus وفيجيلوس Vigil-ius لبعض الوقت إلى القسطنطينية، بسبب الخلافات في روما، واستقبلا بحفاوة ومنحا الحماية، مع أنكم لم تقدموا لنا قط مأوى، ولم تمدونا بالمساعدة، عندما كنا في وضع صعب، وإنه —على كل حال— واجبنا أن نتصرف بشكل جيد حتى نحو الجاحدين، لأن البحار هادئة من أجل القرصان، والرب يجعل الشمس تشرق على المستقيم وغير المستقيم، وواأسفاه، وواأسفاه، بأي انفصام مرّ قد انفصلنا، فابتعد أحدنا عن الآخر، وتجنب كل واحد التحالف مع جيرانه، وكأنه معرض روحه للخطر، وماذا بعد هذا يمكن أن نقول؟ إذا سقطنا، أقيمونا وانهضوا بنا، ولاتعملوا مجرد عمل جسدي بالنهوض بنا من سقوطنا، بل اعملوا معنا أيضاً من أجل خلاصنا الروحي، ولربما سوف نعترف بأننا ندين لكم بالشكر، لكن إذا كان الاثم والشروع بالعدوان قد جاء من روما القديمة، ومن خلفاء الرسول بطرس، اقرأوا كلمات القديس بولص التي خاطب بها الغلاطيين حيث قال:

«لكن عندما قدم بطرس إلى أنطاكية واجهته وجهاً لوجه لأنه كان سيلام»، وهناك أشياء أخرى قالها بولص فيما بعد، فيما يتعلق ببطرس، لكن ينبغي أن نعتقد بشكل تقوي، أن مقاومة هذا النوع لم يكن السبب في أي خلاف، أو نزاع حاد، بل كان بالحري تفحصاً ومناقشة عميقة، أثارت

لطافة دنيوية، ذلك أنهم كانوا متحدين بالمسيح بروابط عاطفية، وبإيمان متماثل وعقيدة متشابهة، ولم يبتعدوا عن بعضهم بموجب أي طموح أو شره، ونحن في هذه المجالات نشابههم ومثلهم، ولكن ذلك بعث تفكيرنا نحو العدوانية، بأنكم فغرتم أفواهكم سعياً وراء الممتلكات الأرضية، كلما استطعتم جرفها وجمعها مع بعضها، وجمعتم الذهب والفضة، ومع ذلك أنتم تقولون بأنكم تلاميذ الذي يقول: «أنا ليس لدي لاذهب ولافضة»، فأنتم ترغمون ممالك لأن تكون تابعة لكم ودافعة للجزية إليكم، وأنتم تكدسون الأموال بالمقايضات المشبوهة، ولاتعملون بأفعالكم التي بشرتم بها بأفواهكم، ولذلك دعوا الاعتدال يضبطكم، حتى تكونوا مثلاً لنا، وكذلك للعالم أجمع، وأنتم تعلمون كم هو عمل صالح أن يعان الأخ من قبل أخيه، وإنه الرب وحده هو الذي لايحتاج إلى نصيحة أو عون من أي واحد، لكن الناس يتطلبون أن يعان كل واحد من قبل جاره، وبما أنني أحترم بطرس الرسول العظيم، الذي هو رأس رسل المسيح، وصخرة الإيمان، أود أن أعيد إلى ذاكرتكم كيف أن هذه الصخرة قد هزت إلى أساسها، وحركت من قبل امرأة منحطة، وذلك بإذن المسيح، وذلك وفقاً لأحكامه التي تنبأ بها بجميع الأشياء، وأحكامه هذه عميقة جداً، وهو الذي بصوت الديك، أعاد إلى ذاكرة بطرس كلمات النبوءة، وأيقظه من نوم اليأس، ولدى استيقاظه، غسل وجهه بالدموع، واعترف إلى الرب، وإلى جميع العالم، وصار مثلاً بالصبر، حاملاً لمفاتيح ملكوت السماء، ويركض بحضور جميع الناس وهو يقول: «أوليس الذي يسقط ينهض ثانية؟ انهضوا أنتم يامن سقطتم، وانظروا إليّ وأطيعوني، وأنا مبادر مسرع إلى الجنة اللاهوتية، التي امتلكت السلطة لفتح أبوابها»، وأنا أكتب هكذا إلى قداستكم، وإنني أذكر هذه الأشياء لأعيدها فقط إلى ذاكرتكم، لأنني أعلم أنكم قد وهبتم الحكمة كلها والمعرفة، وتتفقون مع سليمان الذي كلماته هي هذه:

«أعط الفرصة إلى رجل حكيم، وهو سوف يكون أكثر حكمة، وعلّم رجلاً صالحاً، وهو سوف يكون متشوقاً للتلقي»، وقد بقي شيء واحد سوف أضيفه، وعندها به سوف أنهي حديثي، وهو أن هناك شعوباً كثيرة تتفق معنا بالتفكير، وتتوافق في جميع النقاط معنا نحن الاغريق، وأول هؤلاء الأثيوبيين الذين يسكنون في الأجزاء الأولى من الشرق، ثم السريان، وآخرين هم أكثر نفوذاً وفضائلاً، مثل: Hyberians واللازي Lazi واللان، والقوط، والخزر، وحشود لاتعد ولاتحصى من شعب روسيا، والمملكة المنتصرة للبلغار، وهؤلاء جميعاً مطيعين لأمنا، ومابرحوا محافظين لايتزحزحون في أورثوذكسيتهم القديمة، ونرجو الرب المقدس، الذي من أجلنا أصبح انساناً، وقد وضع على رأس الكنيسة، أن يقوم بجمع الأمم ثانية، وحشدنا في وحدة الإيمان ولمّ شملنا، وأن يجعل الكنيسة الإغريقية تتحد مع أختها في روما القديمة، لتمجيد المسيح أمير السلام، بوحدة للإيمان من أجل إعادة الأورثوذكسية، التي عليها اتفقوا منذ وقت طويل مضى، نأمل أن تعطيكم يد الرب القدير، أيها الكرادلة الأعظم قداسة، عواطف أخوية، وأن تقودكم جميعاً، حتى تصلوا ببهجة إلى ميناء السلام، ولتكن نعمة الرب معكم، آمين».

رسائل من البابا

«**من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى أخيه جرمان المحترم، رئيس أساقفة القسطنطينية، تمنيات الصحة، والمباركات الرسولية**: لقد جرى تقديم رسائلك الأخوية إلينا وإلى إخواننا، من قبل رسولك، ولقد استقبلناهم بمشاعر طيبة ومناسبة، وتم فهم مقاصدهم تماماً، وقد عملنا ترتيبات لأن نرسل إليكم بعض رجال الدين من ذوي المعارف المجربة، ليحملوا إليكم كلام الحياة، وليشرحوا لكم ببيان أوفى رغباتنا، ولكن بقدر «مايصدر عن الآكل اللحم، وعن القوي تصدر الحلاوة»، أو خشية أن يصدر عن فم الميت أسد، نحن نخجل أن نكتب بأن قرص العسل الذي

قدمه الأب قد ازدري، ولقد ارتأينا من المفيد أن نرسل بضع كلمات في جواب، خشية أننا إذا لم نفعل ذلك، قد يبدو بأن رسائلك قد ازدريت، لأنه عندما يصغي الرجل العاقل سوف يصبح أعقل، وإنه إذا مافهم، سوف يستحوذ الحكومة، ومع أن محتويات رسالتك تعيد إلى ذاكرتنا بأن المسيح هو الأول، والأساس الرئيسي للإيمان، وهذا ما نعترف به، فبدون ذلك مامن شيء من الممكن إرسائه، نحن نود أن نذكر في المقام الثاني، وذلك كأساس ثاني، الرسل، والأنبياء، وأساسات صهيون في الجبال المقدسة، وسكان القدس السماوية، التي قيل بأنها تأسست على أسس الرسل والأنبياء، والأول بين هؤلاء والرئيس هو بطرس المبارك، وذلك ليس من دون سبب، وبامتياز خاص قد سمح له بأن يسمع من الرب قوله: «أنت سوف تدعى كيفاس، الذي ترجمته: الصخرة»، وبما أن قوة المشاعر الجسدية الكاملة مركزة في الرأس، الذي منه تتدفق من خلال معابر سرية أجزاء إلى كل عضو من الأعضاء، مثلما يصدر النهر عن النبع، وكذلك الطوائف الثلاث للإيمان، وهم: نوح، ودانيال، ويعقوب، يعني أن تقول الأساقفة من كل من الرهبان، والأشخاص المتزوجين، الذين قيل بأن حزقيال، الذي قيل بأنه شوهد كأشخاص لينقذوا، فبطرس الذي جرى تعيينه الصخرة، التي عليها قد بنى الرب ليس بيتاً من الخشب من جبل لبنان، وليس رواقاً من الأعمدة، وليس بيت ابنة فرعون، بل كنيسته من أجل الناس المؤمنين، الذين وقعوا في شباكها، وكأنهم من جميع كتلة السمك، أي من جميع الأنواع، فهو قد كان فعلاً أول الأوائل، الذي شرب من أنهار من ينابيع فهم ربنا، التي لابد أن وسائل الخلاص قد صدرت عنها، وبكل الصبر، والتبشير ليس بتمرد، وليس بمقاومة متعجرفة، لابد لظلام الخطيئة أن يزول، والذي ذكرته لايتعارض مع هذا، إذا ماقمت بالتمييز بين الزمان والمكان، وأن بولص قد وقف في وجه بطرس، مادام بإمكاننا أن نقرأ بأن هذا قد عمل من قبل الآباء الأورثوذكس، فبطرس، بمعرفته بالشريعة الموسوية قد سعى لأن يربح اليهود، وأبعد بولص الختان

بكل الوسائل التي كانت في طاقته، وناضل ليكسب الشعوب ويبعدهم عن هذه العقيدة الزائفة، وغير ذلك يمكن المحاججة بأن بولص عندما كان مسافراً خلال سورية وكليكية، وصل إلى دربه ولستره، فختن تيموثاوس، الذي ولد من أب من الأميين، ومن أرملة ذات إيمان صحيح، وفي المكان الثاني والثالث، من الممكن أن نستخرج من المناقشة، بأن بولص عندما أبحر إلى سورية وكان بصحبته بريسيلا وأكويلا، قد حلق شعره في قيسارية، خوفاً من اليهود، ووفقاً للشريعة هو حلق هناك الشعر الذي أطاله بسبب نذر كان قد عمله، والذي يفعله النصارى بالعادة، الذين عملوا نذراً، وفقاً لأوامر موسى، وإذا مافهمت ياأخي فهماً كاملاً سر عظمة ومنصب سلطة بطرس وبولص، وإذا ماقدرت غيرتهما، التي التمست أرواح الناس، سوف تجد أن هذين الرجلين الذي حوّلهما الإيمان الواحد، والمعاناة الواحدة، إلى قريبين —بالحقيقة— أحدهما من الآخر، لم يختلفا في العقيدة، لا أثناء حياتهما، أو من بعد موتهما، لأنه مع أن بطرس وبولص قد مارسا عملهما بلغات مختلفة، وبطقوس مختلفة، حيث قدما الحليب إلى الأطفال، واللحم إلى الذين كانوا متقدمين بالسن أكثر، فقد عمل الأول بين العنيدين من سكان اليهودية، وعمل الآخر بين الشعوب، ومع ذلك حينما حلّ الميعاد واكتمل الوقت، عمل الاثنان مع بعضهما بالروح نفسها، وبشّرا لرب واحد، ولإيمان واحد، ولتعميد واحد، مع بقية أركان العقيدة، وفقاً للنعمة التي أضفيت على بطرس من قبل الرب، وذلك تبعاً لكلمات الرب، الذي تحدث إلى بطرس وإلى بقية الرسل قائلاً هذه الكلمات:

«كل الذنوب التي أنت تحللها، هم يحللونهم منها، وكل ذنب أنت تبقيه، هم سوف يبقونه»، وكان بولص مرتبطاً مع بطرس، يتولى ممارسة أسرار وظيفته، ووفقاً للكلمات التالية، أعطيت السلطات نفسها إلى بطرس بشكل خاص: «إن كل ماستربطه على الأرض سوف يربط في السماء، وكل ماتحله

على الأرض، سوف يحل في السماء»، وهكذا اعترف بمقام بطرس، ولذلك قدم إليه عاداً إياه الرئيس ونبع انجيل الرب في القدس، وبشر بعد ذلك بالاتحاد معه ومع آخرين بالانجيل وفقاً للوحي، حتى «لايكون قد ركض عبثاً»، وقد تأكد الحال نفسه بكلمات ربنا التي تحدث بها إلى بطرس وحده، والتي فيها فرض: «إذا الأخ أذنب ضده، عليه أن يغفر له، ليس فقط سبع مرات، بل سبعاً وسبعين مرة» وإليه وحده فقط، وبشكل واضح، عهد بشياهه، وقد امتلك فضيلة عظيمة في عمل المعجزات، حيث جرى وضع المرضى على أرائكهم وعلى فرشهم في الطرقات، وقد شفيوا بظله، وتثبتت سلطته أيضاً بقوة أعظم بكلمات ربنا، عندما قال له: «أبحر نحو الأعمق»، وأتبع ذلك بوضوح أكبر عندما قال له: «ألق بشباكك لرمية واحدة»، وإنه بناء عليه، وعلى أساس سمو إيمانه، الذي صدقاً اعترف بطبيعتين في مسيح واحد، عندما قال: «أنت المسيح، ابن الرب الحي»، بطرس تسلم وحده على الأرض مفاتيح ملكوت السموات، وبما أن هناك رب واحد، وإيمان واحد، وتعميد واحد، وبداية واحدة، وجسد واحد للكنيسة المحاربة، وأن جسداً برؤوس عدة، يعدّ أمراً غير عادي، وواحداً من دون رأس، هو من دون بداية، ويبقى بالنسبة لحكومة الكنيسة العالمية، التي جمعها بطرس المذكور بالاتحاد مع بولص من بين الاغريق واللاتين والبرابرة، أنه من المتوجب —كما سلف القول— أن يتولى الرب تعيين رئيس لها، وأن يوضح من الذي سيخلفه، وهو —على كل حال— رأى متنبئاً بأن الكنيسة سوف يداس عليها من قبل الطغاة، وسوف تتمزق بوساطة الهرطقات وسوف تتفرق بالانشقاقات، فقال له: «إنني صليت من أجلك يابطرس، حتى لاينهار إيمانك، فأنت عندما تحولت متنت إخوانك»، ويستخلص من هذا بكل وضوح أن جميع قضايا الإيمان ينبغي أن تحال إلى كرسي بطرس، ولكن لنستخدم كلمات رسالتك الخاصة، نحن نقول بأسف إن الثوب الطويل والذي لادرزة له ليوسف الحقيقي، قد جرى الاقدام على تمزيقه، ليس بأيدي الجنود، بل بعواطف أشخاص لاهوتيين، ولذلك دعنا نرى

من الذي مزقه، حيث أنه ما أن انفصلت الكنيسة الاغريقية عن الاتحاد والكنيسة اللاتينية، حتى بادرت على الفور إلى خسران امتيازات حريتها اللاهوتية، وهي التي كانت من قبل حرة، صارت عبدة للسلطة المدنية، وهكذا كان بقدر من الرب، أن الكنيسة التي لاتعترف لبطرس بالأولوية اللاهوتية، عليها أن تتحمل الحكم المدني، وإن كان ذلك من دون رضا، وفي ظل هذا القدر، انزلقت أشياء كثيرة مكروهة —ليست من دون أهمية— بدرجات، وآمنت واعترفت بإيمان لاقيمة له، وجمدت فيها المشاعر الأخوية، وعادت مسرعة إلى حقل الفساد والفوضى، وعلى هذا —دون أن نوجه اللوم إلى أي واحد— أخفت ماهو شرعي تحت ماكان غير شرعي، وابتعدت عن معبد بطرس، وكأنها قد طردت من قبل الرب من قاعته، التي لم يقم يوحنا —بالتوافق مع تحريم الرب— بقياسها بعصاه، لأنها أعطيت إلى الأميين، وهي كما ترى بوضوح جلبت إلى الاكتمال، وبسبب أن السامرة، أيضاً انفصلت عن معبد الرب، وعن يهوذا، وعن الاعتراف بالايمان الصحيح، وأصبحت وثنية، فقد تلاشت بسبب الحروب المتواصلة، وانحدرت وتهاوت بسبب ثقل أوزارها وذنوبها (مع أن إيليا واليشع أشرقا هناك مثل مصباحين في مكان مظلم)، وأعطيت إلى الشعوب، وطردت عقوبة لها على تمردها وعلى وثنيتها، لأنها بذلك فصلت نفسها عن الرب، هذا وإذا كانت الكنيسة الاغريقية، تعدّ نفسها بأنها تمتلك سلطة بولص، عليها إظهار ذلك، أو التعرف إليه، عندما ظهر مع بطرس، وبوساطة خليفة بطرس، ونائب يسوع المسيح، في كنيسة الرسل، التي بنيت من قبل قسطنطين، وقد أشير أيضاً إلى أسرار وظيفته، مع أنك في رسالتك قد ورد ذكر ذلك بمثابة سبب للنقد والملامة، من أن بطرس أنهض ثلاث مرات وأوقظ بصراخ الديك، وقد جعل حاجب الجنة، من أجل أنه سوف يمتلك الأمر، يمكنه أن يعرف ويعاني ويتعاطف، وبفضيلة سلطته ردد ثلاث مرات: «لاتطعم نفسك، أطعمني، وأطعم شياهي» —وليس شياه الآخرين— حتى يتمكن أن ينقل إلى خليفته ويقدم له المثل

عن الراعي الحقيقي، وروح الرفق، وتقـويم إفـراط الناس، وإعادة وحـدة الكنيسة، وأن يعطـى إلى الشيطان أولئك الضائعين، وأن يعيـد الشياه، وإن كـان ذلك عن غير رضـا، إلى الحظيرة الحقيقيـة، لكن إذا مـا عـدت —من منطلق الرحمة— كإسرائيلي حقيقي، إلى أولوية الكرسي الـرسولي، وإذا مـا تحركت أحشاؤك بندم حقيقي، من أجل تقديم رداء يوسف الذي بلادرزة، ومن أجل استخـراجه، نحن نتعـاطف مع آلامك، ومع الرسول نشـاطرك حـزنك، ونحـن نقف لنقـدم الشكر إليـه الذي فتـح عيني الابن الأعمى، وتوسل بتـواضـع إلى الذي أعـاد الرؤية إلى عيني طوبيـا، وذلـك بوسـاطة مـرهم صنع من صفراء سمكة، لإضـاءة قلوب أتباع الكنيسـة الاغريقيـة، وكذلك قلبك، وأن نعود بوسـاطة الحكمة الربانية، في أيامنا وفي أيامك إلى حظيرة واحدة، وإلى راع واحد، وبناء عليه قم ياأخانا العزيز، فخذ الكتاب الذي تقـــدم ذكـــره، والذي عمـل من قبل يـوحنا في رؤاه، وانظر فيـــه باخلاص، ومع أن ذلك سيؤلم معدتك بـأشواك الندم، التي تنفذ في البداية فيها، إنها سوف تكون حلوة مثل العسل في فمك، وفقاً لكلمات العريس في المزامير قـوله: «سـوف تتردد كلماتـك وترن في أذني، لأنها كلمات حلوة»، وبناء عليـه، استشر مـاتمليـه عليك حكمتك، من دون أية أوهام، وعندمـا تنار، سوف تجد أن الكنيسـة الرومانية، هـي رأس جميع الكنائس وسيدتها، وتتبين أن لاشيء في المرآة، التي أتيت على ذكـرها، أي في انجيل الرسل، أو في عقائـد الرجال المتعلمين الآخرين، التـي لم تأخذ لاتأويلاً أو تدبيراً، غير متوافق مع أحكام الآباء المقدسين، ومع الوحدة بالروح، وعند فتحك لهذا الكتـاب، سوف تجد أن الحبر الرومـاني قد صـار كل شيء إلى جميع الناس، حتى يكون الجميع سـالمين، ومـدعـوين إلى محطتـه، ليس من أجل دراهمه القذرة، أو في سبيل رغباته، بل بوساطة أخوته، من خلال إلهام رباني، ومن أجل أن يصبح على الفور عبـد عبيد الرب، هو قد وضع نفسـه مع اخوانه، وقـدمهـا بمثابة سـور لإخـوانه الرهبـان، وأتبـاعه الأسـاقفـة، وإلى الذين خاضعين لهم، في تصـد للهراطقـة، والمنشقين، والطغاة، وفي سبيل الـدفاع

عن الامتيازات اللاهوتية، ومع أنه قد يكون هناك بعض الاستثناءات، مع ذلك إن كنيسة روما تتنفس في الأيام الحالية، متحررة من جميع غارات الفرقاء وحملتهم، لكن إذا كانت كنيسة الاغريق تستطيع (وأستخدم هنا كلامك) أن تتحمل بصبر الكلمات التي تغيظها، بالاضافة إلى المخاطر على الأرواح، التي تنشأ عنها، فإن هذه الاضطرابات يتوجب أن تكون كافية لإعطائهم حكمة كافية وإعادتهم إلى رشدهم، لأنه بأيديهم، قد انقسم النظام اللاهوتي إلى عدة أجزاء لشعوب متعادية في الشرق، وضعت نتيجة ذلك في أحوال فوضوية، ظلمت فيها حرية الكنيسة، أما كرامة رجال الدين فقد ديس عليها وصارت تحت الأقدام، وليس هناك من أحد بين أبنائها الأعزاء يقوم بمواساتها، لأنها —كما هو الحال— من دون رأس، وهم يرفضون العودة إلى رأس الكنيسة: «آه، عد بناء عليه، عد ياشونامايت Shunamite حتى يمكننا أن نعتني بك، لأنه وقتها، بالفعل يمكن للأخ أن يستعين بأخيه، وللابن الذي يعيش منعزلاً، وقد استهلك كل ماله، أن يستيقظ بإلهام من الرب، ويقول: «أبي، لقد أذنبت ضد السماء، وأمامك، وأنا لست جديراً بأن أدعى ابنك، اجعلني بمثابة واحد من خدمك المستأجرين»، ووقتها يركض الأب لاستقباله، ليس كخادم، بل كابن عائد، و«يقدم إليه أجمل ثوب، ويذبح أسمن عجل»، ويعمل احتفالاً عاماً لجميع المؤمنين من أتباع المسيح، ويعلن بكل سرور وبهجة، بأن الأخ والابن الذي كان ميتاً، قد عاد إلى الحياة، وقطعة المال التي فقدت، قد وجدت، وهكذا سوف نحن نستقبلك في صدر أمك الكنيسة، وأنت سوف ترى بوضوح الصدق في مرآة الصفاء، التي لاتتقبل الدنس أو الوسخ. صدر في ريت Reate الخ، في السنة السادسة [لحبريتنا]».

رسالة أخرى من البابا

«من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى المبجل رئيس أساقفة الاغريق، تمنيات بالصحة ومباركات رسولية:

إنه لمن المقرر، أنه وفقاً لشهادة الحق، يمكن للخطيئة أن تقع، ويمكن أن يكون هناك جهل بالكتابات المقدسة، لذلك موائم للجميع أن يقرأوهم أو أن يسمعوهم، لأن كل ماأقحمته الالهامات الربانية فيهم، من أجل توجيه الأجيال المقبلة، قد رغبت بمناولته بمثابة وسيلة انذار إلى شعوب العصور الحاضرة، فانقسام القبائل في أيام يربعام —الذي كما قرأنا: «قد سبب أن تذنب اسرائيل»— يشير بوضوح إلى انشقاق الاغريق، وإلى الحشود البغيضة للسامرة، ويبين بشكل واضح حشود الهراطقة المتنوعين، الذين انفصلوا الآن عن عبادتهم وعن تبجيلهم للهيكل الصحيح، الذي هو كنيسة روما، هذا وإن وجود خريسوستوم Chrysostom ونازيانزن Nazianzen وباسيل الكبير، وسيريل Cyril الذين تميزوا في مجالس المنشقين، كان برهاناً على الحكمة الإلهية، مثل إقامة إيليا واليشع، وأبناء الأنبياء بين الكفار الوثنيين، وبما أننا أوضحنا لكم بمزيد من التفاصيل، في الرسالة التي بعثنا بها إليكم مؤخراً، حول هذه القضية وقضايا أخرى، بشأن الأسباب التي آثرت أولوية كنيسة روما، نحن نضيف الآن هذه الفكرة، وهي إنه وفقاً لقراءة الانجيل، نحن نحمل السيفين العائدين إلى الحبر الروماني، فعندما كان يسوع المسيح يتحدث إلى تلاميذه حول استحواذ السيف الروحي، أروه سيفين، كانا موضوعين هناك، وكانا عائدين إلى ربنا، وكانا يعدان كافيين لإرغام كل من العدوانين الروحي، والجسدي، وبما أنك تعترف بأن السيف المادي عائد إلى السلطة الدنيوية، أصغ إلى ماقاله مولانا بطرس في انجيل القديس متى: «ضع سيفك في مكانه»، وبقوله: «سيفك» قصد السيف المادي، الذي به ضرب بطرس خادم الكاهن الأعلى، أما بالنسبة للسيف الروحي، فما من أحد يمكنه أن يرتاب حول منحه له، وكان ذلك بوساطة السلطات ذات النوع الروحي التي عهد بها الرب إليه (أي القديس بطرس) أي سلطة الحلّ والربط، ولقد عهد بهذين السيفين إلى الكنيسة، لكنها استخدمت فقط سيفاً واحداً، أما السيف الآخر فيكون تجريده، لصالح الكنيسة من قبل السلطة المدنية، أي

واحد يستخدم من قبل الكهنة، ويستخـدم الآخر بناء على إرادة الكهنة من قبل الجنود، وإنه بناء على هذه المعطيـات، ومعطيات أخـرى، وبعد فحص دقيق للحقيقـة، ولكي يكون من الممكن أن نجلب عـواطف حقيقيـة بدلاً من الانقســـام، رأينا من الموائم أن نـرسل إليكم كحـــاملين لهذه الهدايا، الراهبين: هيـوج وبطرس، من طائفــة المبشرين (الدومينيكان) والراهبين: هيمـون Haymon ورالف من طـائفـة الفــرنسيسكان، وهم رجـــــال مشهـــورين بشكل رائع من أجـل تدينهم وفضـــائلهم، وهم مشهـــورين باستقـامة أخلاقهـم، كما أنهم موهوبين بمعارف الكتـابات المقدسـة، وفق فحـوى الرسـائل التي تقـدمت تسميتهـــا أعـلاه، ولذلك إذا مـا ناقشتهم بجرأة، وتحادثت معهم بلطف حول جميـع النقاط التي هي موضع الاهتمام والمتعلقة بالقضية موضع المناقشة، من الممكن أن تسمع صوت العاصفة في العجلة، التي ظهــرت تحت عجلـة حـــزقيـــال، وأن تشــاهد، في البحـــر الزجاجي، بأن آدم واحد قد وضع في الجنة ليتمتع بها وليعتني بها، وأنه اتخذ لنفسـه زوجـة واحدة، وكـذلك مـولانا يسـوع المسيح قـد خلق في عـدالة واحـدة، واتخذ لنفسه قـرينة واحـدة، هي الكنيسـة وكيف أن لامخ، الذي معنى اسمه «التـواضع» عندما قسم زوجة واحـدة إلى اثنتين، أصبح رجلاً دمـوياً، وقتل رجـلاً لإيذائه، وكـذلك عندمـا نقرأ عـن سفينة واحدة، قـد وجهت فوق الطوفـان من قبل بطريرك واحد، وأبقى أحيـاء عدداً صغيراً، لكن منتخبـاً من الأرواح، وكيف أن الـرب أعطى للمـرة الثـانيـة شريعـة لتكون مختلفـة، مع أنها هي نفسهـــا، وكيف أن وجهي اثنين من الكروبين، اللذان يظللان عـرش الـرحمة، لايتـزحـزحـان عنه، بـل ينظر أحـدهما إلى الآخر، وكيف أنه كـان لدى يوسف ثوب واحد، واصل إلى قدميـه، وكان لدى مولانا ثوباً بـدون لفقة، وعلى كل حال، إذا كـان اعتقادك يختلف عن اعتقـادنا، وأعطيت منطقاً لازدواجيـة قـداس القربـان، قدّر بأن الاغـريق واللاتين يحتفلون بأسرار خـلاصنا بالطريقة نفسهـا، من خلال رب واحـد هو يسوع المسيح، الذي خضع للآلام الانسـانية، عندما اتخذ لنفسـه طبيعة

انسـانية من أجلنـا، ولكن بعد مـوته تحرر من جميع الآلام، ويتبع الاغـريق مثل التلميذ الصغير، وهم غير واعين للرحمة التالية، وهي الرحمة التي تذكر يومياً برحمة الـرب، في أنه أصبح خاضعاً للآلام البشريـة، وذلك باستخدام كميات من الخبـز المختمر، في سبيل —وفقـاً للرسول— أن الخبـز المختمر يمكن أن يمثل الفسـاد الذي كـان مـولانا خاضعـاً له، قبل قيـامتـه، لكن اللاتين يتبعون أمثولة الرسول الأكبر، الذي هو القديس بطرس، الذي كان الأول في دخـول الضريح، ونظر بـالحري إلى القماش الكتـاني الذي أحـاط بجسده المقـدس، أي الكنيسة، والمنديل الـذي كان حول رأسـه، ويحتفلون بقـداس جسـده الممجـد بشكـل أكثـر روعـة، بوسـاطة خبـز فطير من الاخـلاص، وكلاهما على كل حـال خبـزان صرفان قبل القـربان، ولذلك لايمكن التفريق بينهما كفطير أو مخمـر، لكن الأول من هذين هو الذي من المعتقد أنه خبـز الحياة الذي نزل من السماء، وأعطى حيـاة إلى العالم، وهذه هي العقـائـد التي علمهـا الروح القـدس، والمنطق الصحيح إلى الكرسي المقـدس، وأنا أصلي، أنكم أنتم الذيـن تتبعـون أمثـولة التلميـذ الأصغـر، والذين رأوا واعتقـدوا، أن تتمكنوا أخيراً من الدخـول، وأن تتفهمـوا كل شيء، حتى تغنوا معنا مزمور داوود ذاك الذي جاء فيه: «قدروا كم هو أمر ممتع للإخـوان ليسكنـوا مع بعضهم في وحـدة». صـدر في اللاتيران، في السابع عشر من أيار، إلخ، إلخ».

كيف تخلى الاغريق عن الطاعة كلها للكنيسة الرومانية

مع أن الاغريق قد سمعوا هذه التحذيرات الودية، لم يهتموا بها، كما أنهم لم يخضعـوا أنفسهم إلى الكنيسة الرومـانية، ربما بسبب الخوف من طغيـانها وشرهها، أو لأمر آخر، فكانوا متمردين، وذلك تبعاً لكلمات الانجيلي، من أن الذين دعيوا إلى العشـاء لم يقدموا «لكن قدّمـوا بالإجماع الاعتذار»، فهم متواضعون في اعتذاراتهم، ولكنهم متكبرون ومتمردون في ممارسة أعمالهم، وحول هذا قـام البابا وكرادلتـه بإجراء مناقشات ومـداولات، وحول هذه

المسألة، وقرروا ارسال جيش الصليبيين كله ضدهم، وبناء عليه جرى التبشير بحملة صليبية، وحمل بعضهم الصليب للزحف ضد الاغريق، وبشكل خاص ضد القسطنطينية.

وأصل هذا الشقاق، والخلاف بين الاغريق والكنائس الرومانية كان كما يلي:

كان هناك رئيس للأساقفة قد جرى انتخابه بشكل قانوني لتولي منصب رئاسة الأساقفة السامي لدى الاغريق، أو بالحري جرت تسميته هناك، فذهب إلى روما من أجل التثبيت، لكنه لم يتمكن من الحصول على سماع هناك من دون وعد بدفع مبلغ كبير من المال، مقابل الحصول على الذي طلبه، لكنه رفض السيمونية من ذلك البلاط المرتزق، وغادر دون الحصول على ماأراده وابتغاه، وأخبر بواقع الحال جميع النبلاء الاغريق، وجرى تقديم براهين أخرى من قبل آخرين كانوا قد ذهبوا إلى روما، وتحدثوا عن حالات مماثلة، أو أكثر سوءاً، ولذلك قاموا جميعاً، في أيام غريغوري هذا، بسحب أنفسهم من كل أنواع الخضوع للكنيسة الرومانية.

وفي الأسبوع الذي تقدم على عيد الميلاد، أقلع إدموند، رئيس أساقفة كانتربري وذهب إلى روما، ولم يرغب بالعودة، مع أن النائب البابوي استدعاه، ونتيجة لهذا أصبحا منذ ذلك الحين معاديين أحدهما للآخر.

وكان المناخ، خلال هذا العام كله عاصفياً، وغير مستقر، ومؤذياً للناس، وغير صحي، ولايوجد في ذاكرة أي انسان، أنه تألم مثل هذا العدد من الناس من الحمى الربعية.

زواج سيمون دي مونتفورت من إليانور أخت الملك

سنة ١٢٣٨، التي كانت السنة الثانية والعشرين من حكم الملك هنري الثالث، وفيها عقد بلاطه في لندن، في ويستمنستر، حيث حدث أنه في اليوم التالي لعيد الغطاس، الذي كان يوم خميس، اقترن سيمون دي مونتفورت

بشكل مهيب بـإليـانور، ابنـة الملك جـون، وأخت الملك هنري الثـالث، وأرملة وليم مارشـال، ايرل بيمبروك، وجرى الاحتفال مع قـراءة القداس في بيعـة الملك الصغيرة، الموجودة في زاوية من حجـرته، وعمل ذلك وولتر قسيس البيعة الملكيـة للقديس ستيفن في ويستمنستر، وقـدم الملك شخصياً العـروس إلى سيمـون المذكـور، الذي تلقـاهـا وهو عظيم الامتنان، وذلك بسبب حبه النـزيه، ولجمالها، وللشرف العالي المرتبط بها، ولسمـو الانحدار الملكي لها كسيدة، لأنها كانت ابنة شرعية لكل من الملك والملكة، وبناء عليه إن الذين سيلـدون من هذه السيـدة النبيلـة سـوف يكونـون من الأصل الملكي، وأعطاه صاحب القداسة البابا إعفاء معها، كما ستبين الرواية المقبلة ذلك.

وفي العشرين من كـانون الثـاني من هـذه السنة، سمع رعـد مخيف، قـد ترافق مع رياح قوية، وغيوم كثيفة.

الامبراطور فردريك يكتب إلى الإيرل رتشارد بشأن قلقه حول الحملة الصليبية

وفي حـوالي الوقت نفسـه، كـان الامبراطور فردريـك قلقاً حـول تقـدم الصليبيين، وإعـداداتهم حـول الزحف، وبشكل خـاص فيما يتعلق بتقـدم الايرل رتشارد، فكتب إلى الايرل المذكور كما يلي:

«من فـردريك، الذي هو بنعمـة الرب امبراطور الرومـان، والأغسطس الدائم، وملك القـدس وصقليـة، إلى ابـن ختنه المحبـوب، رتشـارد ايرل كورنوول، تمنيات الصحة، وعواطف خالصة:

غالباً ماأقنعنا التقدم العام للأرض المقدسة ومنفعتها، الأمر الذي يعتمد على جهود الصليبيين، أن نقوم بوساطة الانذار لهم، وتوجيه الرجاء إليهم، وأن نحثهم على تأجيل عبور الصليبيين في مملكـة فرنسا والأجـزاء الأخرى من العالم، حتى انتهاء موعـد الهدنة المقررة من قبل، أي من شهر آب المقبل

حتى نهاية السنة التاليـة، حيث نعتقد أن ذلك سوف يكون موائماً لمسـاعدة الأرض المذكـورة، ولمنفعتها، وأيضـاً لكرامـة الذين سوف يعبرون إليهـا، ذلك أن عبور حشـد ذي أعداد كبيرة جداً ينبغـي أن يكون في وقت موائم، أي بعـد الاحتفال المقبل بعيـد القـديس يوحنا المعمـدان، يعني حتى ذلك العيد في العام المقبل، ويتوجب أن لانمر بهذا كله صامتين، بما أن ثقل أعمال تحرير الأرض المذكـورة يقع على أكتافنا، أكثر من وقـوعه على أكتـاف أي أمـراء آخـرين في العالم، وفي سبيـل ذلك المقصد، نحـن ملتزمـون بتقـديم المساعدة، وأن نصرف أموالنا، أي بأن نأخذ النصيحة مسبقاً، عندما يكونوا أنفسهم قد استعـدوا بشكل كامل من أجل خدمـة المسيح، مقدرين بشكل كـامل جميع الظروف من دون اسقـاط أي احتمال من الاحتمالات، وهؤلاء الأشخاص الذين أوقفوا قلوبهم وأجسـادهم على خدمة الصليب، والذين يرغبـون بتقـديم مسـاعـدة مفيـدة إلى المصلوب، قـد سألناهم حـول هذه القضيـة من قبل رسلنا ورسـائلنـا، وقـد أجـابوا بحكمـة وعقـلانيـة على اقتراحاتنا، أنه حتى انتهـاء الهدنة المتقدمة الذكر، سـوف يستجيبون لطلبنا، ولذلك وافقنا مع كثير مـن الشكر على الحكمـة التي ظهـرت في جـوابهم، وبناء عليـه إنه صدوراً عن عـواطفنا الأخوية في رؤيتكم شخصيـاً، وفي أن نحصل لكم على عبـور مشرف، نحن نرغب إليكم ونرجـوكم —إذا كنتم أحيـاء— أن تعملوا عبوركم في وقت مـوائم من خلال مملكتنا في صقليـة، لأنه سوف لن يكون مـرضياً لنا، إذا ماقمـت برحلتك عبر أي طريق آخر، دون أن نراك، لاسيما وأن مملكتنا قـائمـة بشكل مـوائم جـداً، ومن السهل أكثـر، ومن المناسب فيها تأمين معـابر من خـلالها إلى بلدان ماوراء البحـر. صـدر في فيرسيلي Vercelli في ١١ شبـــــاط في الحادية عشرة من الخمس عشرية».

استدعاء النائب البابوي إلى روما وعدم عودته

وفي تلك الآونة، سمع قـداسة البـابا وبلاط رومـا كله، بأن اضطرابات

كثيرة قد تفجرت في انكلترا، بسبب أعداد الأجانب الذين استدعاهم الملك، وبشكل غير حكيم أرسل خلفهم، وبسبب وصول النائب البابوي إلى هناك، الذي أيضاً جذبه الملك إلى انكلترا، من أجل إفقار رعاياه، وبسبب الرسائل الكثيرة الغاضبة ضده، لذلك جرى استدعاء النائب البابوي المذكور بسرعة كبيرة، لكنه لطف من قسوة اجرائه بالكتابة إليه كما يلي:

«من غريغوري، إلخ، إلى ابنه المحبوب أوتو، الكاردينال الشماس للقديس نيقولا، في سجن توليان، ونائب الكرسي الرسولي، تمنيات الصحة، والتبريكات الرسولية:

لقد فهمنا بأن هناك بعض رجال الدين في مملكة انكلترا، الذين بين أيديهم عدة منافع، والذين من غير الممكن السير ضدهم، وفقاً لمراسيم المجمع العام، من دون إثارة الاضطراب في المملكة، وتسبيب سفك الدماء، ومرد ذلك إلى قوة أقربائهم، وبما أننا نرى أنه لايجوز اقتراف الذنب حتى في سبيل تجنب الفضيحة، وأن العمل الطيب المتوجب صنعه يمكن أحياناً أن يتأخر لهذه الغاية، وإننا بهذه الرسائل الرسولية نفرض على استقامتكم، إذا كنتم لاتستطيعون السير ضد رجال الدين المذكورين من دون التسبب باقتراف الذنوب، أن تقوموا بتأجيل المسألة في الوقت الحالي»، وخشية من حدوث أي شيء سيء له، قام البابا بالرسالة نفسها، أو برسائل أخرى، باستدعائه للعودة على الفور، وكان النائب البابوي، يفضل —على كل حال— أن يطيل البقاء في انكلترا، وأن يجني مالم يكن قد زرعه، وببراعة تمكن من إعداد رسالة ومن ثم ارسالها إلى البابا، وهي تحمل أختام الملك، وأخيه الايرل رتشارد، وجميع الأساقفة، فهؤلاء جميعاً قد وضعوا أختامهم بمثابة برهان على صدق ماذكره وصرّح به، من أن إطالة إقامته في انكلترا، كان فيها فائدة عظيمة إلى الملك، وكذلك إلى المملكة، وإلى كنيسة انكلترا، وعندما أرسلت هذه الكتابة إلى البابا جعلت عقله يرتاح.

إرسال الامبراطور رسالة إلى الإيرل رتشارد حول ولادة ابنه

وقام الامبراطور رتشارد في هذه الآونة، تعبيراً عن عواطفه، فكتب الرسالة التالية إلى الايرل رتشارد، يخبره عن سروره، حيث أن ولداً قد ولد له، من قبل الامبراطورة ايزابيلا، التي كانت أخت الايرل المذكور:

«من فردريك الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى ابن ختنه رتشارد، ايرل كورنوول، تمنيات الصحة، وكل الأماني الطيبة:

لقد حدثت حادثة بهيجة، وهي حادثة تطلع الانسان إليها مع رغبات الجميع بشكل عام، وهي أعطية، لابل هي أعظم العطايا حمداً بين الأعطيات التي تلقيناها من كرم الطبيعة وهي التي بوساطتها تباركت صوجانات الملوك، ومع رغبة الخلافة، رأينا أنه من الموائم أن يكون معلوماً لديك مبكراً، ذلك أنه بسبب جدة البهجة، لم يسمح لنا ذلك بالتأخير، لأنه توجب علينا أن نوصل إليكم أخباراً جيدة، ونحن نفعل ذلك الآن مع هذه التقدمات، وهي أنه بتقدير وعطاء من عند الملك الأعظم، الذي يعطي المزيد والصحة إلى الملوك، في اليوم الحادي عشر من شهر شباط، قد ولد لنا صبي من الرحم المثمر لقرينتنا الأوغسطة، وحفيد جديد قد أعطي لنا، ويشير ميلاده إلى مجد أبيه وخاله، ويجدد بهجة أمه، ويؤكد آمال رعايانا، وبهذا تمتنت العواطف الصحيحة المتبادلة، التي ارتبطنا بها بروابط المصاهرة، وهي تشير إلى زيادة ازدهارنا، وتحولت جودة قيصر مع الوقت إلى سرور وشرف الجماعة كلها، وحدث ميلاد هذا الطفل في وسط سرورنا، أثناء زحفنا السعيد في إيطاليا، التي تخضع الآن لسلطاتنا، وعند انتصارنا على أعدائنا المنهزمين، رافق نجم سعيد هذه الأحداث الميمونة، وبما أن هذا الولد المنتظر طويلاً قد ولد في وسط هذه الأحداث السعيدة وانتصاراتنا، ونحن نثق به، الذي بعد ولادة ابنة من قرينتنا المثمرة، أي أختك، قد منحنا ولداً ذكراً، وبذلك زاد بكرمه المجد القديم

لامبراطوريتنا، الذي كـان قـد تلاشى في الأوقات الماضيـة، وهو الآن قـد نهض متجـدداً بـولادته، في سبيل شرفنا ومجدنا، وازدهارنـا، ونحن نرغب لك، أنت الذي نعلم أنك تمنيت منـذ وقت طويل ولادة هذا الابن الأخت المتوقع، أن تشاركنا بسرورنا، وبسرور قرينتنا الأوغسطة. صدر في تورين، في اليوم الثالث من آذار، في الحادية عشرة من الخمسعشرية».

هيجان النبلاء الإنكليز ضدّ الملك

وشعـر الايرل رتشارد بسرور عظيم تجاه هـذه الأخبار، وأعطى الحمـد للرب، ذلك أنه كـان يأمل، أنـه سيحـدث له مع مـرور الأيام تقـدم عظيم شخصياً ومنفعـة كبيرة لمملكة انكلترا، من خلال هذه الحادثـة، ولكن وفقاً لتقلب الشـؤون البشرية، هـو استثير من جهـة ثانيـة، ووصل إلى حـد الغضب، لأنه سمع بأن هذا الزواج قـد جرى تثبيتـه بشكل سري، أي من دون معرفته، أو الحصول على موافقة النبلاء، وقد غضب كثيراً بشكل محق، وخـاصة وأن الملك قـد خـرق أيمانه وحنث بها، ولاسيما يمينه عندما وعـد بأنه لـن يفعل شيئاً له أهميتـه، مـن دون الحصـول على نصيحـة رعـاياه الطبيعيين ولاسيما هو نفسـه، ولذلك هاجم الملك وحمل عليـه بانذارات وتهديدات، وبذلك أعطى منفـذاً إلى رفع شكاوى كبيرة، وعدم رضـا ضد الملك، لأنه بتهـور أدار الأعمال الهامـة للمملكـة، آخـذاً بنصـائح هؤلاء الأجانب، الذين كـان قد أقسم من قبل على إبعادهم كليـاً عنه، وأنه سوف يصرف الآخرين من جانبه، وهو لم يصغ فقط إلى مشورة وآراء سيمون دي مونتفورت، وج. L ايرل لنكولن، بل قام من دون تغاضي نبلائه، ففرض زواجـات غير مقبولة، فقـد عمل سيمون، كما تقـدم القول، وتدبر زواجـاً ليس شرعيـاً بينه وبين كـونتسـة بيمبروك، وأختـه، وجـون ايرل لنكولن، ورتشارد دي كلير ابن كـونت بولون، وابنته— ج. L الايرل المذكور— من دون معرفة الملك.

وعندمـا ثـار الايرل رتشـارد ضـد الملك، التحـق به الايرل غيلبرت

المارشـــال، وجميـع ايرلات وبارونات انكلترا، والمواطنـون والناس بشكل عام، وكان المأمول وقتها بثقة عظيمة أن يقوم الايرل رتشارد بتحرير البلاد من العبـودية التعيسـة، التي ظلمت بها مـن قبل الرومـان، ومن الأجـانب الآخرين، وقـام جميع الفرقاء من الرجـل الشيخ إلى الطفل بتكديس الآمال عليـه، ومـا من أحـد وقف إلى جـانب الملك، باستثناء فقط هيـوبرت ايرل كنت، ولم يتـوفر خـوف منه، وذلك بسبب أنه أقسم أنـه لن يحمل سلاحـاً قط، وكذلك بسبب تقدمه بالسن، وبسبب حذره الذي تبرهن في مناسبات متنوعة.

وعندما وجـد الملك، كيف قامت القضـايا، شعر بالذعـر وأظهر ذلك، وأرسل رسلاً إلى كل واحد من نبـلاء المملكة، وعمل بحثاً دقيقاً ليعرف إن كان بإمكانه الاعتماد عليهم من أجل المساعدة، وإليه أجابوا جميعاً، وبشكل خاص سكان لندن، بـأن الذي بدأ به الايرل رتشارد، قـد أعلن آخذاً بعين التقـدير كـرامتهم، ومنفعـة المملكة كلهـا، مع أنه، أي الملك، لم يوافق على مساعيه، وهم بناء عليه لن يقفوا ضـد نواياه، وعندما وجد النائب البابوي هذا، ورأى بـأن الخطر بات وشيكـاً، شغل نفســـه بأعظـم يقظة واهتمام لمصـالحة الملك مع رعـاياه الطبيعيين، ونصح بشكل سري الايرل رتشـارد الذي كان المحرض الرئيسي على هذا العنـف، بأن يقلع عن مقصده، واعداً بأن الملك سوف يعطيه أملاكـاً أكبر، وأن البابا سوف يثبت الذي منح إليه، مضيفـاً أيضـاً، أنه من الممكن أن تثـور المملكة كلهـا ضـد الملك، الذي هو أخوه، لكن الـذي عليه هو الوقـوف إلى جانبه من دون كلـل أو ملل، ضد جميع الناس، وعلى هذا أجابه الايرل رتشارد:

«مـولاي النائب البـابوي، إنه بالنسبـة لتثبيت أراضي العلمانيين، لاشأن لك ولا عمل، عليك الالتـزام شخصيـاً بـالمسـائل المتعلقـة بالكنيسـة، ثم لاتندهش كـون أوضاع المملكة قـد أثارتني، لأنني أنا ولي العهد الوحيـد، لأنه مع أن الملك كان مسـؤولاً عن جميع الأسقفيات تقـريباً، وعن كثير من

مـواريث الدولة، مع ذلك لم تظهـر على خزينتـه أية زيادة، في سبيل الدفـاع عن المملكة، مع أننا محاطين بمختلف الأعداء من كل جانب، بالاضافة إلى هذا إن كثيرين أصيبوا بالدهشـة، لكون الملك الذي دوماً هو بشكل رئيسي في حـالة عـوز، وحـذر، لم يتبـع آثار الرجـال الواعين، فهـو لم يتبع أثر الامبراطور، الذي إليـه أعطينا أختنا بـالزواج، مع مبلغ كبير من المال آملين بأن ذلك سوف يكون لمصلحتنا ومنفعتنا، لكنه احتفظ فقط بزوجته، وأعاد حـاشيتهـا، من دون أن يضفي على أحـد أرضـاً أو مـالاً، مع أنه كـان مليئاً بالثروة والغنى، ومثل آخـر يمكن ذكره هو في قضيـة الملك الفرنسي، الذي تزوج من الأخت الكبرى لملكتنا، غير أن ملكنا الانكليزي هو على العكس قـد سمّن جميع آل وأقربـاء زوجته، بالأراضي، والممتلكات، والمال، وعقـد نوعاً من الزواج، لايمكنه معه أن يكون أكثر ثروة، لكن بالحري أكثر فقراً، ولذلك لايمكنه الحصـول على عون قوة عسكرية، إذا كـان ذلك ضرورياً، وعـلاوة على ذلك، سمح بالاستيـلاء على الموارد وعلى المنـافع اللاهوتيـة، التي كان أجدادنا الأتقياء قد منحـوها (خاصة إلى رجال الدين) أو بسلبها، ومن ثم أن يجري توزيعهـا على الأجـانب، مع أن هذه البـلاد نفسهـا مليئة بالرجـال المناسبين لتسلمهم، وبـاتت انكلترا، وكأنها كـرم من دون سـور، منها يجمع العنب كل من يعبر الطريق».

النائب البابوي يسعى إلى إقامة سلام بين الملك وبين نبلائه

ولدى سماع النـائب البـابـوي هذه الكلمات، ذهب إلى الملك، ومعـه بطـرس أسقف وينكستر لتشجيعه، ولنصيحته، القيام بالخضوع إلى إرادة النبـلاء وطـاعتهم، وهـم الذين نهضـوا ضـده لسبب عـادل، وكـذلك يسعـون إلى تقـويمـه مـرة أولى وواحـدة بالتهـديدات، ومـرة ثـانيـة بالانذارات، ومرة ثالثة بالالتماسـات، ثم إن الملك عندما رأى أن حملاته لم تلق التأييـد، وأن جميع الفرقـاء قد مالـت نحو أخيه الايـرل رتشارد، حـاول استخـدام كـل الدهاء الذي هو ممكـن، وطلب وقتـاً للتفكير

والتداول، من أجل أن يعطي جواباً أكثر مواءمة لطلباتهم، وبناء عليه واستجابة لطلب الذين سألوا ذلك (مع أن ذلك كان بعد صعوبات جمّة) منح وقتاً، حتى اليوم الأول، بعد الأحد الأول في الصيام الكبير.

إنتهاء المشاورات كلها إلى لاشيء

ثم اجتمع النبلاء في لندن، في اليوم المحدد، بغية ترتيب هذه المسائل، وقدم كثير منهم مجهزين بالخيول والسلاح، من أجل أنه إذا مارغب الملك بالانسحاب من وعده، يمكن إرغامه على تنفيذ الشروط التي تقدم ذكرها، ثم إنه بعد كثير من المناقشات والحوارات بين عدد كبير من الحضور، أخضع الملك نفسه إلى تدبير بعض الفئات الأكثر قوة، وأقسم على الالتزام بقرارها، الأمر الذي جرت الموافقة عليه، وجرى تدوينه كتابة، ووضع عليه أختام النائب البابوي والنبلاء الآخرين، حتى تتم مشاهدته من قبل جميع الفئات بشكل عام، وقبل الفراغ من إكمال ترتيب هذه المسائل، وعندما كانوا معلقين ينتظرون، أخضع سيمون دي مونت فورت نفسه وتواضع لايرل رتشارد وبوساطة كثير من الوساطات، وبعض الهدايا، حصل على قبلة السلام من الايرل المذكور، الحال الذي أغضب كثيراً بعض النبلاء الآخرين، الذين جرت هذه المحاولة من دون رضاهم، والذين الآن بجهودهم تطورت القضية تطوراً عظيماً، وقام ايرل جون أوف لنكولن، وفق الطريقة نفسها، فأطفأ غضب الايرل رتشارد، بوساطة الالتماسات وكذلك الرشاوى، وأعطى ضمانة أنه سوف يعوض عليه من جميع الجوانب حول كل ماوقف به ضده، وبوساطة هذه الإجراءات غير النظامية، أعيقت الأعمال كلها إعاقة كبيرة، ولم تنل التنفيذ، بل زادت من تعاسات المملكة، ولطخت بالسواد، إلى درجة كبيرة سمعة الايرل رتشارد وظللتها، وبذلك صار عرضة للشك، وهو الذي كان من قبل محور قوتهم.

موت جوهانا ملكة سكوتلندا

وفي هذه الآونة، وفي الرابع من آذار، أغلقت جوهانا Johanna ملكة سكوتلندا، وأخت ملك انكلترا، التي قدمت إلى انكلترا لزيارة أخيها، حياتها، وقد دفنت في تيرنت Tarenteالذي كان ديراً للراهبات، كان المبجل رتشارد، الأسقف الثاني لدرم الذي حمل هذا الاسم، قد أسسه، وبناه، ومنحه إلى الملكة إليانور، عندما قدمت إلى انكلترا. [لحق النص الأصلي هنا بعض الاضطرابات والخطأ، ومرد ذلك إما إلى النساخ أو إلى المؤلف نفسه].

سيمون دي مونتفورت يعبر بشكل سري من انكلترا

ورأى سيمون دي مونتفورت، أن قلبي الملك والايرل رتشارد، وكذلك قلوب جميع النبلاء قد تغربت عنه وجفته، ووجد أن الزواج الذي عقده مع أخت الملك، قد نظر إليه من قبل عدد كبير من الناس، وكأنه لم يكن موجوداً أو ملغياً، ولذلك انسحب وتوارى وهو حزين جداً، وبعدما استحوذ على سفينة، أقلع بها خلسة، بعدما استخرج كمية كبيرة من المال من كل جهة من الجهات، ومن سكان ليسترشاير Lei-cestershire ومن سيمون دي كورلافاش Curlevache وقد جمع مبلغ خمسائة مارك ثم إنه ذهب إلى بلاط روما، آملاً أن يتمكن بأمواله، أن يقنعه، ويحصل منه على اذن يسمح له بالتمتع بزواجه غير الشرعي، وقام أولاً بالخدمة تحت ظل الامبراطور، في سبيل أن يرضيه، وحصل منه على رسائل ليأخذها إلى البابا حول القضية، وجلست في الوقت نفسه كونتسة بيمبروك مخفية نفسها، وكانت حاملاً، وأقامت في قلعة نيلوورث Kenilworth تنتظر نتيجة الواقعة.

حكم البابا في مسألة رهبان روكستر

صدر في هذا العام قرار حكم من البابا في قضية رهبان روكستر،

وذلك فيما يتعلق بالخلاف الذي نشب بينهم وبين رئيس الأساقفة إدموند، فيما يتصل باختيار أسقفهم، وصدر قرار الحكم لصالحهم، وكذلك فيما يتعلق بمسألة الإدعاء حول الممتلكات، وفي يوم عيد القديس كوثبيرت Cuthbert جرى تثبيت انتخاب الأسقف المنتخب رتشارد أوف ويندوفر، وجمع رئيس الأساقفة هذا الرهبان، وقد أنهكهم التعب، ولم يبق معهم مال بسبب النفقات، وكانوا فضلاً عن هذا، قد عبروا الألب، حتى يمكن تسوية هذا الخلاف بشكل صحيح، حسبما يفرض القانون.

ومثل هذا، صدر في الوقت نفسه حكم ضد رئيس الأساقفة المذكور، الذي كان موجوداً آنذاك في بلاط روما، في مسألة خلافية مهمة، هي النزاع بينه وبين ايرل أوف آروندل Arundel وأدين في القضيتين معاً بالنفقات، بحوالي ألف مارك، وقرار الحكم الذي كان صادراً ضد الايرل المذكور قد سحب، لأنه كان له عدو قوي جداً، تمثل في النائب البابوي أوتو، الذي كان قد حرض بفعالية الملك على هذا.

وصول امبراطور القسطنطينية إلى انكلترا

وقدم في العام نفسه إلى انكلترا، بلدوين امبراطور القسطنطينية، والابن الشاب لبطرس كونت أوكسري Auxerre ليطلب المساعدة، بعدما خلع ونفي من امبراطوريته، لكن عند رسوه في دوفر، أخبر باسم الملك، إنه كان عملاً غير لائق، ونصيحة سيئة لمثل هذا الأمير الكبير، أن يتطفل بالدخول إلى مملكة أجنبية، دون أن يعرف رأي الملك، ومن دون إذنه، وأن هذا قد بدا أشبه بالاستخفاف والتكبر، وكان هذا الوصول أيضاً غير مرض في نظر الملك ومستشاريه، لأنهم تذكروا كم من التشريفات والمنافع قد أضفتها انكلترا على الملك جون دي بريين أثناء قدومه إلى هناك، وكيف أنه لدى عودته إلى فرنسا، تصرف تصرف رجل شرير وبلا وفاء، وخطط بشكل خياني ضد مملكة انكلترا، وكان

على كل حـال، لدى مغـادرته فـرنسا، ولاستـدعـائـه تحت طالع سيء، لاستــلام السلطة الامبراطورية للإغــريق، لم يتمكن من تنفيــذ خططه الخيانية.

وإثر إخبـار امبراطـور القسطنطينيـة بهذه المسـائل، بات آسفــاً جـداً لقـدومه إلى انكلترا، واستعـد لعـودة سريعة، واشتكى في الوقت نفسـه وعبّــر عن براءته إلى الملك، وعرض بتـواضع أسباب رحلتـه، وبعدمـا سمع الملك هذا، وبعد تشـاوره حول الموضوع، بعث برسالة إليـه، قال فيهـا بها أنه لم يقـدم كعـدو يمكنـه دخـول المملكة، والقـدوم إلى لندن، حيث هو شخصيـاً سـوف يستقبله بتكريـم مناسب ولائق، وبناء عليـه، وصل الامبراطور في الثاني والعشرين من نيسان إلى لندن، والتقى بالملك في وودستــوك، ونال منه قبلـة الســلام، وشرح إلى الملك، وإلى الايرل رتشـارد سبب قدومـه، ولدى فراقـه لهما، أغني بكثير من الهدايا الثمينة، وحمل معه حوالي السبعمائة مارك.

خلاف بين النائب البابوي وبين باحثي اكسفورد

ووصل في هـذه الآونة النائب البــابـوي إلى اكسفــورد، واستقبل بتشريف هـو الأعلى، وذلك حسبما هو جــدير به، واحتفي بـه في بيت الكهنة الذي كــان في أوسني أبي Oseney Abbey إلى حيث أرسل إليـه البـاحثـون الكهنة قبل وقت الافطار، هديـة تكريميـة، على شكل لحم وشراب، وسـاروا بعـد الافطار إلى مكـان إقـامتـه ليقـدمـوا تحياتهم إليه، وليزوروه صدوراً عن الاحترام، ولدى وصولهم كان هناك بواب من بلاد ماوراء الألب، فقام بطريقة غير لائقة وبسلوك فج، فرفع صوته حسب طرائق الرومـان، وترك الباب مفتوحاً قليـلاً، وقال: «ماذا أنتم تريدون؟» وعلى هذا السؤال، رد الكهنة قـائلين: «نحن نريد سيادة النائب البابوي، حتى نستطيع تقـديم احتراماتنا له»، لأنهم اعتقدوا أنهم سـوف يتلقون تشريفـاً مقـابل تشريف، لكن البـواب رفض السماح لهم

بلغـة مهينة وبفظاظة، وأهانهم بعجـرفــة وتشـامخ، ولدى رؤية الكهنة ذلك اندفعوا نحو الأمـام بغضب وشقوا طريقهم بالقوة، في حين سعى الأتبـاع الرومـان إلى ردهم فضربوهـم بقبضـاتهم وبالعصي، وفي الوقت الذي كان فيه الطرفان مشتبكين يتبـادلان الضربات والشتائم، حدث أن كـان هناك شماس ايرلندي فقير، واقفـاً عنـد باب المطبخ، وكـان يفتش بحرارة عن شيء ليعطى إليـه، باسم الرب، وفق طرائق الرجـال الفقراء والجائعين، ووقتهـا سمعه رئيس الطبـاخين لدى النائب البـابوي (الذي كان أخوه، وكان قـد وضعه على رأس تلك الوظيفة حتى لايدس السم إليـه، الأمر الذي كـان النائب البـابوي يخشاه كثيراً) لكنه لم يعبأ بطلبـه، وعندمـا صار غـاضبـاً من الرجل المسكين، رمى على وجهـه بعض الماء المغلي الذي نضحه من فوق مـرجل حيث كان لحم سمين يطبخ، ولدى رؤية هذا الأذى الذي لحق بالرجل الفقير، صرخ بصـوت مرتفع واحـد من الكهنة، وكـان من سكان حــدود ويلز: «عيب علينا تحمل أي شيء من هذا القبيل»، وفوّق قوساً كـان يحمله (لأنه عندما ازدادت الفوضى، حمل بعض الرهبـان ماوصل إلى أيديهم مـن سلاح)، ورمى بنشـابة منه، فخـرق جســد الطبـاخ، (الـذي دعـاه الكهنة بطريقــة هجـائيــة باسم «نابوزردان "Nabuzardan" ومعنى ذلك رئيس الطبــاخين)، ولدى سقـوط الرجل ميتاً، ارتفع الصراخ، فأصيب النـائب البابوي بالدهشـة، وتلبسه الرعب، الذي يمكن أن يستبد بأشجع الرجال، فحمل نفسه إلى برج الكنيسـة، مــرتدياً لغطاء رأسـه الشرعي، وأغلـق الأبواب خلفـه، وعند حلول الظلام، وقيـام الليل بإنهاء الفـوضى، خلع ثيابه الشرعيـة، وبسرعــة امتطى أفضل خيــوله، وقـــام تحت توجيــه وارشــاد بعض الأشخاص الذين يعرفـون أكثر المخاضات الخاصـة، فعبر النهر واجتازه من أقـرب منطقة منه، ومع أن ذلك قـد ترافق مع كثير من الخطر، فقـد كـان مقصـده الفـرار طيراناً إلى تحت حماية جناحي الملك، بأكبر سرعـة ممكنة، لأن الكهنة الـذين تعــاظم غضبهم، تابعــوا البحث عـن النائب

البابوي في أكثر المخابىء سرية، وكانوا يصرخون:

«أين ذلك السيموني المرابي، الناهب للموارد، المتعطش للمال، والذي أفسد الملك، ودمّر المملكة، وأغنى الأجانب بأسلاب أخذها منا»؟، وعندما كان النائب البابوي يسمع هذه الصرخات من مطارديه، قال في قرارة نفسه:

«عندما تركض الحماقة بسرعة كاملة

يطلب الرجل الحكيم ممراً لينأى بنفسه».

وبصبر تحمل هذه الأشياء كلها، وصار أشبه برجل لم يسمعهم، وكأنما ليست لديه قدرة على صدهم، وبعدما عبر نهر مع صعوبات جمّة (حسبما ذكرنا أعلاه)، ومعه عدد قليل من المرافقة، بسبب صعوبة المجاز، بقي الآخرون في الدير، وقد وصل إلى الملك مقطوع الأنفاس، وفي حالة ذعر، مع الدموع والتنهدات تقطع حديثه، وقد شرح للملك وكذلك إلى حاشيته سلسلة الأحداث التي وقعت، مقدماً شكوى جادةحول القضية، وحزن الملك لدى سماعه هذه الحكاية المؤسفة، وتعاطف كثيراً معه، وأرسل ايرل وارني Warrenne مع قوة مسلحة إلى أكسفورد، بكل سرعة لانقاذ الرومان الذين كانوا متخفين هناك، وللقيام باعتقال العلماء، وكان بين هؤلاء الأخيرين، واحد اسمه المعلم أودو، وكان محامياً، وقد اعتقل بخشونة، وأودع مع ثلاثين آخرين السجن بشكل مهين في قلعة وولنغفورد، على مقربة من اكسفورد، وبعدما تحرر النائب البابوي من المصيدة المحطمة، جمع إليه بعض الأساقفة ووضع أكسفورد تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وحرم كنسياً جميع المحرضين على هذا الاثم العظيم، وبات السجناء الآن تحت تصرف النائب البابوي، فجرى نقلهم بعربات مثل لصوص إلى لندن، وهناك أودعوا سجناً ضيقاً، وقد حرموا من مواردهم، وربطوا بالتكفير والحرمان.

مصالحة جامعة أكسفورد مع النائب البابوي

وكان النائب البابوي، الذي انطلق برحلة نحو شمال انكلترا، قد حوّل اتجاهه وعاد إلى لندن، وهناك نادراً ماتجرأ على الإقامة في المقر الملكي التابع لأسقف وينكستر حيث كان يقيم بالعادة، وأرسل الملك رسالة إلى مدينة لندن، بأن يقوم عمدة لندن مع جماعة سكان المدينة كلها، مع كتلة من الرجال المسلحين بحراسة متواصلة على النائب البابوي المذكور، وأن يحرسوه حراسة بؤبؤ أعينهم.

ثم استدعى النائب البابوي بفضل السلطة التي توفرت لديه، رئيس أساقفة يورك، وجميع أساقفة انكلترا، للاجتماع به في لندن، في السابع عشر من أيار للبحث هناك في أحوال الكنيسة، وفي الوضع الخطير لرجال الدين، واجتمع الأساقفة في اليوم المتقدم على التاريخ المحدد، وتباحثوا حول الوسائل التي يمكن بها انقاذ مجموع رجال الدين كلهم، وكأنهم كنيسة ثانية، وتلطف النائب البابوي نحوهم أيضاً، واستعطفهم من أجل انقاذ الكنيسة الرومانية، حتى لايقال نقداً، بأنه قدم من أجل إصلاح رجال الدين والكنيسة، لكنه بالحري أفسدهم، وأخيراً اقترح على النائب البابوي من قبل الأساقفة مع جميع رجال الدين الحضور، بأن ينطلق النقاش حول جماعته الشخصيين، ولكن لدى نهاية النقاش حصل رجال الدين على النتيجة السيئة، لأنه بناء على أوامره، ألقي شطر كبير منهم في السجن، أما البقية منهم، فكانوا على استعداد لطاعة أوامره، وكانوا جاهزين للتواضع والخضوع إليه، في مكان على سفر ثلاثة أيام من أكسفورد، فهناك —بناء على التماس عدد كبير من الرجال العظماء— يتوجب على عقله وتفكيره أن يميل نحو الرحمة، وأخيراً تمّ الاتفاق، بأن يمنح النائب البابوي رحمته، إنما على شرط، أن يقوم جميع الباحثين الذين اجتمعوا هناك بالسير على أقدامهم، بصحبة الأساقفة، أيضاً على الأقدام، من كنيسة القديس بولص، التي كانت على مسافة

تقارب الميل بعداً عن مقر إقامة النائب البابوي، وذلك حتى يصلوا إلى مقر إقامة أسقف كارآيل، وعليهم أن يذهبوا من هناك من دون أغطية رأس وأقبية، وحفاة، إلى مقر إقامة النائب البابوي، حيث سوف يلتمسون هناك العفو، الذي سوف يمنح إليهم، وسوف يصبحون متصالحين، وجرى تنفيذ هذا، ولدى رؤية النائب البابوي هذا التواضع والتذلل، استقبلهم ثانية في حظوته، وأعاد الجامعة إلى مقرها الإقليمي، وسحب برحمة منه التعليق من شراكة المؤمنين مع قرار الحرمان الكنسي، ومنحهم رسائل، أنه من جانبه من غير الممكن تلطيخ سمعتهم في أي وقت من الأوقات.

وبعد عيد الفصح مباشرة في هذا العام، أرسل ملك انكلترا قوة من الجند، تحت قيادة هنري دي تربلفيل Trubleville الذي كان عسكرياً بارعاً جداً، لمساعدة الامبراطور ضد رعاياه العصاة في المقاطعات الايطالية، وأرسل مع هذه الوحدة العسكرية ج. J مانسيل Mansel ووليم هاردل Hardel وكان محاسباً من سكان لندن، وقد بعث الملك معه مبلغاً من المال، حتى يوزعه بين المرتزقة، وبشجاعة قاتل جيش الملك هذا من أجل الامبراطور أثناء الصيف كله، حيث قهروا سكان بعض المدن التي قاومت، وأعادوا المدن إلى الامبراطور، وكان بين الذين ميزوا أنفسهم ج. مانسيل المذكور، وغضب البابا غضباً عظيماً تجاه هذا، وفي تلك الآونة أرسل ملك انكلترا رسالة إليه، رجاه فيها أن يتعامل بلطف أكبر مع الامبراطور، وجاءت ردة فعله على هذه الرسالة غاضبة بشكل جاد، وذلك بشكل غير معتاد الصدور عنه، وأثير وبلغ به الغضب إلى حد دفعه إلى الاستمرار به إلى وقت طويل، وإلى تعليق القضايا التي لها علاقة بالانكليز، وكان أسقف بلنسية عندما سمع بأن مثل هذا الجيش على وشك الإرسال إلى ايطاليا، قام بمكر وبراعة بالالتحاق باللورد هنري تربلفيل، كدليل لهم، وأبحر معه.

وعاد في العام نفسه بلدوين امبراطور القسطنطينية، الذي تقدمت الإشارة إليه أعلاه، بعدما حصل على مبلغ خمسمائة مارك من الملك، وعلى مبلغ كبير من الايرل رتشارد، إلى بلاده، وفي تلك الآونة أيضاً، وجد الأسقف المنتخب لبلنسية أن إقامته في انكلترا لم تعد موائمة ولامقبولة فقام إما رغماً عنه، أو عن طواعية، فأقلع مسافراً ومغادراً البلاد، لكن ليس من دون حذر مناسب لأن خيوله كانت محملة، وكانت سروج دوابه مليئة بأواني ملكية من الذهب والفضة.

موت السلطان الأعظم قوة

وفي هذا العام نفسه، عندما كان السلطان [الكامل محمد] الذي كان السلطان الأعظم قوة على وشك الموت، وزع بكرم أعطيات وافرة، ومبالغ كبيرة من المال على المسيحيين المرضى، الذين كانوا قد بقيوا في دار الاسبتارية، وأطلق سراح عدداً كبيراً من الأسرى المسجونين، وعمل أعمالاً أخرى كثيرة قدم فيها الصدقات، ثم لفظ أنفاسه، مما سبب الحزن إلى الكثيرين، لأنه وإن كان وثنياً، كان —صدقاً نقول— رجلاً سخياً، كما كان (بقدر ما سمحت له صرامة عقيدته وشكوك جيرانه) رجلاً رحيماً نحو المسيحيين، وعندما سمع الامبراطور الروماني بهذا، بكى موته بدموع، لمدة طويلة، ذلك أنه كان يأمل —كما كان ذلك السلطان نفسه قد وعد— بأنه سوف يتسلم العماد، وأن المسيحية، سوف تتلقى بوساطته في وقت أو آخر كثيراً من الزيادة في ازدهارها.

سفر سيمون دي مونت فورت
من عند الامبراطور إلى البلاط الروماني

وحمل في الوقت نفسه سيمون دي مونتفورت نفسه، مع الرغبات الطيبة للامبراطور، ومع رسائل توصية منه، وتوجّه إلى البلاط الروماني، وحصل هناك، بوساطة مبالغ لا حد لها من المال، والوعود،

على مرسوم من البابا —مع أن تعهده المهيب أمام ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، كان ضد ذلك— أن بإمكانه التمتع بزواجه غير الشرعي، وكتب قداسته، إلى النائب البابوي أوتو، آمراً إياه أن يعطي مرسوماً خاصاً لصالح سيمون دي مونت مونتفورت، ولدى سماع الراهب وليم دي أبينغدون Abiingdon من طائفة المبشرين، بهذا مع رجال متعلمين آخرين، كانت لديهم غيرة على الرب، وكانوا واضعين لها، أمام أعينهم، رفعوا أصواتهم عالياً بلوم هذا القرار، مؤكدين بصدق، بأنه قد فرض فرضاً على قداسة البابا، وأن ذلك يعرض الأرواح للخطر، وأن هذا يثير المسيح ويدفعه للغيرة، ومع أن الفئة المعارضة قد أعلنت، بأن المرأة مثار النقاش، قد تكون لم تقدم على ارتداء الثوب والحجاب، لكنها أخذت الخاتم، الذي به تكرست، أو بالحري زوجت نفسها للمسيح، وبالتالي اتحدت اتحاداً لايمكن فصمه بالمسيح الذي هو قرينها، وذلك كما هو واضح في الكتابة الأصيلة في مراسيم المعلم بطرس، في رسالته حول «التعهدات» في الكتاب الرابع، الذي فيه بعدما قدم الأسباب وسلطات القديسين والشرائع مضى ليقول:

«يبدو من هذه الأشياء أن العذارى أو الأرامل اللائي ربطن أنفسهن بعهد منع الذات عن الشهوة الجنسية، سواء أأخذن الحجاب أم لا، لايمكنهن الزواج بأي حال من الأحوال، وهذا يتوجب فهمه وفق الطريقة نفسها، بالنسبة إلى جميع اللائي عملن عهداً بمنع الذات عن الشهوة الجنسية، والذي كان قانونياً قبل النذر، سوف يكون غير قانوني بعده»، ولعل البلاط الروماني قد امتلك —على كل حال— وجهة نظر أعمق بمعانيها مما يمكننا فهمه.

التتار يجتاحون البلدان الشمالية

وجرى في هذه الآونة، إرسال رسل خاصيين من قبل المسلمين،

وبشكل خـاص من قبل شيخ الجبل، ولصـالحه، إلى الملك الفـرنسي، لاخباره بأن جنساً مـن البشر مرعباً وغير انساني البته، أخـذ بالتدفق من المناطق الجبلية الشمالية، وقد استولى على البلدان الكثيفة السكان والغنية في الشرق، وقـد أفـرغ هـؤلاء هنغـاريا الكبرى مـن السكان، وأرسلوا رسـائل تهديد، مع سفـارات مـرعبـة، وأعلنوا بأن رئيسهم هو رسـول الرب من عليين، قـد أرسل لإخضاع جميع الشعـوب التي تمردت ضده، ولهؤلاء القـوم رؤوس كبيرة جـداً، غير متناسبـة تمامـاً مع أجسـادهم، ويعيشون على الأسماك غير المطبـوخة، لابل حتى على لحوم البشر، وهم رمـاة لايمكن مقارنتهم، ويعبرون أي نهر بقـوارب صغيرة معمـولة من الجلود، وهم رجال أقوياء البنيـة، وضخمة هي أجسادهم، وغير أتقياء، وصلبين عنيـدين، ولغتهم غير معروفـة لدى جميع من نعـرفهم، ولديهم قطعان كثيرة، ومـواشي، ويربون الخيول، وخيولهم سريعة جـداً، وقادرة على انجـاز رحلة ثلاثة أيام في يوم واحد، ويتسلح الرجـال منهم بشكل جيـد من الأمـام، وليس من الخلف، حتى لايفـرون، ورئيسهم رجل شرس جداً، اسمه خان، ويسكن هؤلاء في المناطق الشمالية، إما في جبال بحـر قـزوين، أو في المواضع المجاورة، ويعـرفـون باسم «التتـار» وذلك اشتقاقـاً من نهر «تار»، وأعدادهم كبيرة جـداً، ومن المعتقد أنهم أرسلوا بمثـابة طاعـون لبني البشر، ومع أنهم تدفقـوا مهـاجمين في المناسبـات الماضيـة، يبدون في هذا العـام في حالة هيـاج حـادة أكثر مما هو معتـاد، وسكان بلاد القـوط Gothland, والفـريزيين، مـرعـوبين من حملاتهم، لذلك لم يقدموا إلى يارماوث Yarmouth, في انكلترا، كما هي عـادتهم، في أيام صيـد سمك الرنكة (مـن أنواع السردين)، حيث كانـت سفنهم تحمل به بالعادة، ولهذا السبب، عـدّ سمك الرنكة في هذا العام بلا قيمة، نظراً لكمياته الوافرة، وقد بيعت حوالي أربعين أو خمسين سمكة، من النوع الجيـد جداً مقـابل قطعـة واحدة من الفضـة، حتى في أماكن بعيـدة جداً عن البحر، وقدم هذا الرسـول المسلم والنبيل القوي

الذي وصل إلى الملك الفرنسي، باسم جميع أفراد شعب الشرق، ولصالحهم، للإخبار بهذه الأشياء، وقد طلب المساعدة من الشعوب الغربية، من أجل صدّ هجمة المغول المرعبة، وخضد شوكتهم، وقد أرسل أيضاً رسولاً مسلماً من جماعته إلى ملك انكلترا، وهو الذي وصل إلى انكلترا وروى أخبار هذه الوقائع، وليقول بأنهم أنفسهم، إن لم يستطيعوا الصمود أمام حملات مثل هؤلاء الناس، لن يبقى شيء يمنع اجتياحهم لبلدان الغرب، وذلك وفقاً لقول الشاعر:

«لأنه عندما يحترق بيت جارك،

سوف بدورها تستولي النار على دارك».

وبناء عليه طلب المساعدة في حالة الطوارىء السريعة والعامة هذه، حتى يتمكن المسلمون بمساعدة المسيحيين من مقاومة حملات هؤلاء الناس، وصدف أن كان أسقف وينكستر حاضراً آنذاك، وكان مرتدياً لعلامة الصليب، فقاطع خطابه، وأجاب مازحاً مستهزئاً قائلاً:

«دعونا نترك هؤلاء الكلاب يلتهم أحدهم الآخر، حتى يؤكلوا جميعاً، ويهلكوا، ونحن عندما سنزحف ضد أعداء المسيح الذين سيبقون، سوف نقتلهم وننظف وجه الأرض منهم، وبذلك سوف يكون العالم كله، خاضعاً لكنيسة كاثوليكية واحدة، وسوف يكون هناك راع واحد لقطيع واحد».

موت بطرس دي روشي أسقف وينكستر

وفي التاسع من حزيران من العام نفسه، مات بطرس دي روشي Roches أسقف وينكستر، وكان قد أغلق حياته، بعدما حكم كنيسة وينكستر لمدة اثنتين وثلاثين سنة، وأيضاً بعدما قام بحجه بشكل معلن، إلى الأرض المقدسة، بصحبة أسقف ايكستر Exeter وكان كذلك قد بنى عدة بيوت لأشخاص دينيين، وعمل عهداً نبيلاً، وكان

عندما مـات متقدماً بالسن، وحـدثت وفاته بعـزبة فارنهام Farnham وقـد دفن في كنيسـة وينكستر، حيث كـان خـلال حيـاته، واختـار قبراً متـواضعـاً، وبوفـاته، فقـد مجمع المملكة الانكليـزية كله من ملكيين إلى لاهوتيين خســارة لاتعـوض، وينبغي أن لانسقط من الذكــر، أن جميع التشريفات والمنافع التي منحت إلى الكنيسة، سواء أثناء السلام، أو أثناء الهدنة، أو حتـى أثناء الحرب في الأرض المقـــدســـة، عندمـــا ذهب الامبراطور فـردريك إلى هناك، كله تحقـق بشكل نبيل وحكيم، وجـرى تنفيـذه بمشورة هذا الأسقف نفسـه ومعـونته، وإلى جـانب هذا عندمـا تفجـر الخلاف فيها بعـد بين البـابا وبين الامبراطور، وهدد حظ ومصير الكنيسة كلها، أعاد هو بسعـادة، وبفضل نعمة الرب، السلام بين هذين الشخصيتين المشهـورتين، وأسماء البيـوت الدينيـة التي بناها، أو منحهـا ممتلكات، وأبنية، وموارد هي كما يلي:

في هيل Hales, لطائفـــة الـــ Praemonstratensians, وتيكيفـورد Tykeford للطائفـة نفسهـا، وسيلبـــورن Selburn لطائفـة القـديس أوغسطين، يعنـي لكهنة نظاميين، والمشفى المشهـور في بورتماوث، وفي الأرض المقـدسة أيضـاً، حوّل كنيسـة القديس تومـاس الشهيد، من مكان غير لائق، إلى موضع مناسب، وغيّـر طائفة الرهبان في تلك الكنيسة إلى طائفـة أكثر جدارة وقوة، فاعتماداً منـه على مساعدة بطريـرك القـــدس، فإن هـؤلاء الذين كــــانوا من قبل علمانيين بـالفعل واللبـاس، حملوا الآن الصليب على صـدورهم، وهم خـاضعين لطائفـة الداوية، وحصّـن يافـا، وجدد مكان لجوء للصليبيين، وقد عمل ميثـاقاً رائعاً، وقدم مبلغاً كبيراً من المال، لكل مـن الأماكن المتقدم ذكرها، وإلى بيت القـديس تومـاس في عكا، الـذي كـان أصغـر مبلغ منحـه إياه هو خمسمائة مارك، وبـالاضافة إلى هذا ترك إلى خليفته أسقفيـة غنية، واسعة في حقولها وقطعانها، وعندما سمع الملك بوفاة بطرس أسقف وينكستر،

تدبر تعيين وليم أسقف بلنسية المنتخب ليجري تعيينه في تلك الأسقفية، لكن المستشـــار رالف دي نيفيـل، أسقف شيستر، طُـلب بشكل محق —ضـد رغبـة الملك— من قبل ديـر وينكستر، الذي إليـه يعـود حق الانتخاب، وقـام الملك بصرف هذا الذي رغبوا به من مستشـاريته ومن بلاطه، وذلك بعـدمـا أخـذ منه الختم الذي كـان معهـوداً به إلى ذلك المستشار المذكور، بموجب نصيحـة المملكة كلها، وتمكن بوساطة محاميه المستقـرين في روما، وبانفـاق مبلغ كبير من المال، من إلغـاء طلب ذلك الدير، من قبل البابا.

حصار مدينة ميلان

وفي الوقت نفسـه من العـام، تابع الامبراطور حصـار ميـلان، وأثناء ذلك أرسل إليه تقـريباً جميع أمـراء المسيحية عساكـر إضافيـة، فقد بعث إليـه ملك انكلترا —ابن ختنه— مـائـة فـارس، مجهـزين بشكل جيـد بالخيـول والســلاح، تحت إمـرة هنري دي تربلفيـل، مع مبلغ كبير من المال، وبادر أيضاً الأسقف المنتخب لبلنسية، الذي أجاد معرفة الأسلحة الدنيوية، أكثر من الأسلحة الروحيـة، إلى هناك مع الفرسان الذين بعث بهما كونتا طولوز وبروفانس لمساعدة الامبراطور، ومن المدهش لكثيرين ان الامبراطور، الذي أحـاط به ذلك الحشـد الكبير من النبلاء، قـد بدّد وقتاً طويلاً في الحصار، مع خسائـر كبيرة، باستثناء أنه في معركة واحدة، استطاع فيها هنري دي تربلفيل، مع الراية المنتصرة لملك انكلترا، ويتبعه الجنود الانكليز الذين كانوا تحت إمرته، بشجاعة وتمكن من صدّ حملات الأعـداء، وأرغمهم على فرار بلا أمل، ولذلك أعـاد الامبراطور الشكر إلى الملك بوساطة رسـالة بعث بها إلى الملك، وأعلن بها بأن ذلك القتال الشجـاع، كان السبب بسـلامته وكـرامتـه، وبعد أمـد وجيز، توجّـه مع جيش كبير لإلقاء الحصـار على بريشيا Brescia فأهالي ذلك المكان كانوا يمدون الميلانيين بالمساعدات، أثناء وضعهم المتأزم آنذاك، ولم يكن

الميلانيون، في الوقت نفسه كسالى، حيث أحاطوا مدينتهم بخنادق عميقة، وتابعوا مراراً تقديم العون إلى سكان بريشيا، وهكذا جرى تبديد فصل الصيف، وعلى هذه الصورة انتهى، وبناء عليه لدى اقتراب الشتاء، تمّ الاتفاق على عقد هدنة، بموافقة كلا الطرفين، والذين جاءوا لتقديم المساعدة إلى الامبراطور، غادروا دون أن يحققوا هدفهم، وغدا الامبرطور نفسه الذي لم يتمكن من قهر مدينة بريشيا، واخضاعها لتكون تحت حكمه، مع أنها كانت مدينة صغيرة بالمقارنة مع المدن الأخرى، غدا أقل إخافة لأعدائه، وأدنى احتراماً من قبل أصدقائه.

عودة ادموند رئيس أساقفة كانتربري من بلاط روما

وعاد في حوالي ذلك الوقت نفسه، ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، من بلاط روما، ووصل إلى انكلترا، ومع أنه غادر انكلترا مع موافقة المجمع الديري، فقد حصل من البابا على مرسوم لصالحه، وضد رهبان كانتربري، وبسببه نشب خلاف متقطع وغير معلن بين الراعي وقطيعه، وعانت الكنيسة من كثير من الخسائر، وقلة الكرامة، والتعليق، ووصمة العار، وسوء السمعة، وبناء عليه جرت دعوة النائب البابوي لتصحيح هذا الشقاق، وأثناء ترؤسه هيئة الكهنة في كانتربري، وبسبب أن كتاباً كان يحتوي على الامتياز الذي تمّ الحصول عليه في أيام القديس توماس، جرى حرقه بشكل أحمق من قبل بعض الأشخاص، قام بعزل رئيس الرهبان في ذلك المكان، وبعث به إلى طائفة أكثر قسوة وخشونة، حتى يقوم بممارسة أعمال توبة مستمرة، وأبعد أحد الرهبان لأنه (كما قيل) قد أزال بشكل سري من الامتياز المتقدم ذكره، الأشياء التي ظهرت بشكل واضح أنها ضد الرهبان، وأقحم أشياء أخرى بدت بأنها تخدم مصالحهم، ولأن مثل هذا المسح في ذلك الكتاب الأصيل لم يكن لينجو من ملاحظة الأشخاص الذين فحصوه بدقة، قام أحد الرهبان بشكل أحمق بإحراق ذلك الكتاب، وذلك حتى لاينال الدير

وصمةالعار والتزييف، وبناء عليه عنـدما أشار رئيس الأساقفة إلى ذلك الكتـاب، وطلبه، وعندمـا لم يتم العثـور عليـه، عملوا اعترافاً صحيحـاً بالذي وقع، واشتعل النائب البابوي —وهو محق— غضباً، وعقوبة على مثل هذه الغلطة العظيمـة (حسبما تقـدمت الإشـارة أعـلاه) طرد رئيس الرهبان وعزله من منصبه، وأبعـد بعضاً من الرهبان الذين ظهروا بأنهم مجرمين، وأمـرهم بأن يعيشـوا بانضبـاط أعظم، وبتوبة مستمـرة، وبعـد ذلك، لأن رئيـس الرهبـــان دخـل إلى بيت الكهنة مـع بعض العلمانيين لعمل انتخاب ضد العـادة المعمول بها بالبيت، انتخب مجمع الدير رئيساً عليهم من دون موافقة رئيس الأساقفـة، ثم سمع رئيس الأساقفة بهذا، فلم يوافق عليه، وألغى الانتخـاب، ولم يكتف بانزال عقوبة التعليق، بل إنه حـرم كنسياً رئيس الرهبـان المنتخب مع الناخبين، لكن مجمع الدير، ترافع بجرأة واشتكى حول هذه القضية إلى البابا ضد رئيس الأساقفة.

الملك يسعى لتثبيت انتخاب وليم الأسقف المنتخب لبلنسية ليكون أسقفاً لأسقفية وينكستر

واستخـدم الملك في هذه الآونة (مع أنه غـالباً مـا أقسم من قبل على صرف الأجـانب وعلى عـدم تقـديم العـون لهم) كل الوسـائل الممكنة، وأكثـر مما ينبغي، وبالوســائط غير الصحيحــة، في سبيل ترقيــة وليم الأسقف المنتخب لبلنسية، وانتخابه (وهو الرجل الذي وصف بأنه كان دمـوياً) لتسلم أسقفية وينكستر، لكن هـذا رفضه الرهبـان بين أنفسهـم، وهم الرهبـان الذين إليهم يعـود حق الانتخاب بشكل معلوم، وذهبـوا إلى الملك —كما جرت العادة، يطلبـون الاذن بانتخاب أسقفهم— وقبل أن يعطيهم الملك أي جـواب، رجاهم انتخـاب وليم، الأسقف المنتخب لبلنسية، الذي دعاه باسم عمه، ولم يـوافق الرهبان، وطلبوا منحهم وقتاً للتداول حول القضية مع بقية أعضاء المجمع الديري، الذي يعود إليهم حق الانتخاب، وشعر الملك أنه بمنحهم هذه المهلة فإن التماساته سوف

تسقط من دون تـأثير، فتحـــول إلى مكره المعتـــاد، وفي رد على التماس الرهبان قال:

«لقـد أخبرت بأن اثنين من شمامسة أسقفيتكم في وينكستر متـوجب عليهما الحضـور أثناء انتخـابكم، وأنـا لاأرى هذين في القضيـة الحاليـة، ولذلك لايمكنني الاستجابة إلى التماسكـم»، وعلى هذا رد الرهبان بأنهما «وإن كـان من المتوجـب حضورهما أثناء الانتخـاب (الذي يبـدو لنا أنه سخيف ولايتماشى مع العـدالة) هما لايحتـاجـان للحضـور أثناء التقـدم بالطلب للانتخـاب»، ومع أن الملك وقف عند هذا الأمـر طويلاً وتفكر به، هو لم يستطع معـارضة مطلبهم، لكن بعـد مضي بعض الوقت، علم بشكل يقيني بأن الرهبـان يرعـون بشكل جـاد فكرة انتخـاب وليم دي ريل Raele وكـــان رجـــلاً جـــديراً كله بالثنـــاء، ليكون أسقفهم، فغضب غضبـــاً عظيماً، وأجـــابهم بسخـــرية: «أنتـم رفضتم الأسقف المنتخب لبلنسية، قائلين بأنه كان رجلاً دموياً، وانتخبتم الآن وليم ريل، الذي قتل بلسانه رجـالاً أكثر مما قتله أي انسـان آخر بالسيف»، وبتكبر واستخفـــاف أقسم أنـه لن يتحمل هذا بأي شكـل من الأشكال، ولهذا خـــاف الرهبـان من غضـب الملك، فتخلوا عن نيتهم، ودمـــر الملك في الوقت نفسه ممتلكات وتحسينات الأسقفيـة، وغالباً مـا جلس في العزب التابعة لها، مع أعداد كبيرة من الأتباع كانوا يحيطون به.

الملك يتدبر إلغاء انتخاب رالف أسقف شيستر

ولدى رؤية الرهبـــان وقتهـــا التأثير المضر للتأخير، شرعـوا بنشـــاط متـواصل يفكرون حـول اختيـار رئيس لأنفسهم، وعندمـا سمع الملك بهذا، بادر مسرعـــاً وعلى الفـور إلى هنـاك، ودخل إلى بيت إدارة الكهنة بنشاط وحماس أكبر مما هو معتاد، وطلب من الرهبـان بالوعد والوعيد، بأن عليهم انتخـــاب عمـه، الأسقف المنتخب لبلنسيـــة، وقـد حـــاولوا ببراعة، ورغبـوا في ازالة غضب الملك، وسعـوا لتهدئة عنفـه غير المحق

بوساطة التأخير، وكانوا غير راضين بالموافقة على مطالبه غير العادلة، وقد وافقوا بالاجماع على المطالبة برالف دي نيفيل، أسقف شيستر، ومستشار الملك، ليكون أسقفهم، والمسؤول عن أرواحهم، ووجد الملك أن التماساته، قد أخفقت مجدداً في التأثير عليهم، فعارض الطلب المحق للرهبان، وكدس كثيراً من الشناعات على الأسقف المذكور، وقال عنه بأنه كان قليل الصبر، وسريع الغضب، ورجلاً فاسداً، ثم وسمهم بالحماقة لأنهم طلبوه ليكون أسقفاً لهم، وبالاضافة إلى هذا، انتزع بعنف ختمه، الذي كان الأسقف المذكور قد تسلم المسؤولية عنه، بناء على رغبة عامة من المملكة، وعهد بالعناية به إلى الراهب غيوفري الداوي مع جون لكسنغتون، وذلك مع العطاء المعدّ للمستشارية، والمورد المعين للأسقف كمستشار، وتابع إجراءاته العدوانية، كما كان بدأها، فبعث سيمون النورماندي والاسكندر، وهو علماني، وكلاهما محاميين مستأجرين، إلى بلاط روما، الذي قام بوساطة هدايا كبيرة، ووعود من المال، فحرم رجلاً مستقيماً من حقه، وألغى قراراً محقاً، وألغى بشكل فاسد، الطلب المتقدم ذكره.

الميلانيون يرغبون بالتصالح مع الامبراطور فردريك

وفي هذه الآونة خاف الميلانيون من المقدرة الامبراطورية، فبعثوا إلى الامبراطور، يرجونه بكل الالتماسات الممكنة، بعدما أعلنوا أنه مولاهم الحقيقي وسيدهم الطبيعي، أن يزيل غضبه عنهم، وأن يوقف قتاله ضدهم، وأن يرعاهم، وأن يحميهم، بمثابة كونهم رعيته التابعين له، والموضوعين تحت جناحي حمايته القديرة، وأعلنوا أنهم سوف من الآن فصاعداً، كما فعلوا من قبل، يخدمونه بمثابة مولاهم وامبراطورهم، مع الاحترام كله، وكبرهان على طاعتهم، ومن أجل أن ينالوا حمايته بوساطة أسلحته وعواطفه، وفي سبيل نسيان عصيانهم السالف الذكر، ولعدم تذكره، وعدوا عن طواعية من أنفسهم أن يقدموا له جميع

المدخرات الأساسية التي يمتلكونها من ذهب وفضة، وعلاوة على ذلك، وكعلامة على خضوعهم وطاعتهم، وعلى نصره الامبراطوري، إنهم سوف يجمعون جميع راياتهم، ويحرقونها عند قدمي الامبراطور، وأنهم بالاضافة إلى هذا، عندما سيستأنف الامبراطور ثانية القتال في خدمة الصليب في الأرض المقدسة، سوف يزودونه سنوياً بعشرة آلاف جندي، في سبيل تقدم الكنيسة، وفي سبيل كرامته، شريطة أن يتولى محبة سكان المدينة من دون شوائب أو أذى، وأن تبقى حالة المدينة وسكانها كما هي محافظ عليها.

لكن الامبراطور، رفض بشموخ جميع هذه العروض، وطالب بشكل قطعي، أن يقوم السكان بشكل عام مع مدينتهم، ومع جميع ممتلكاتهم، بالتخلّ عن أنفسهم وعن إرادتهم ووضع ذلك طوع رغباته، ورد السكان بموافقة عامة على هذا السلوك الطغياني، بأنهم لن يفعلوا هذا بأي حال من الأحوال، وقالوا:

«لقد تعلمنا بالخبرة، وبالخوف من وحشيتك، أن نفضل الموت تحت ترستنا، بالسيف، أو الرمح، أو بالنشاب، على الموت بالخيانة، والجوع، واللهب»، وبدأ الامبراطور منذ ذلك الحين يفقد الحظوة لدى الكثيرين، لأنه قد أصبح طاغية، ونال الميلانيون لتواضعهم التشجيع، وحصلوا على القوة، وذلك وفقاً لكلمات الانجيل في قوله: «يقاوم الرب المتشامخ، ويعطي النعمة إلى المتواضع»، ووقتها رأى الميلانيون أن المسألة مسألة موت أو حياة، فتولوا تحصين مدينتهم بمزيد من النشاط أكثر مما هو معتاد، بالسلاح وبالخنادق، وبالدخول بتحالفات مع مدن أخرى.

واقعة الراهب جون من طائفة المبشرين

وفي هذه الآونة نفسها، نبغ واحد من طائفة المبشرين، واسمه الراهب جون، وكان رجلاً متعلماً، وفصيحاً، وممتعاً في عمله كمبشر، وقد تمتع

بسمعـة عظيمـة واحترام كبير في ايطاليـا، إلى حـد أنه أطفأ الحروب بين السكان، وقـد عمل الرب معجـزات لـه، حيث أنه عبر الأنهار حـافيـاً، وأرغم الطيـور الجارحـة الطائـرة في الهواء على النزول إلى الأرض، بناء على أوامره، وأخيراً أصبح على كل حال، بوساطة مكر الشيطان متشامخاً بشهرته، وضعف بالعلاقة الجسدية الشهوانية لأصدقائه، وبذلك استحق فقدان محبة الرب، والتشريف لدى البشر، والاحترام لدى رجال الدين.

محاولة أحد الأشرار قتل الملك في قاعة نومه

ووقعت في السنة نفسهـا، واقعة مرعبـة للملك، جعلت الناس كلهم يرتعبون، ففي اليوم الذي جاء بعد ميـلاد القديسة مريم، قدم واحد من السـادة المتعلمين —كما قيل— إلى بلاط الملك في وودستـوك، وتظاهر بأنه كـان مجنوناً، وقـال للملـك: «استقل من الملك لصـالحي، وسلمني حكم المملكة الذي اغتصبتـه بشكل غير عـادل، والذي حـرمتني منه لزمن طويل»، كما أنه أضـاف بأنه يحمل شـارة الملك على كتفـه، ورغب رجال حاشية الملك بضربه، وبطرده من الحضرة الملكية، لكن الملك منع الذين كـانوا منقضين عليـه من استخـدام العنف ضـده قائـلاً: «اتركـوا الرجل المجنون يهذي كما يريـد، وحسبما يأتيـه، لأن كـلام هؤلاء الناس ليس له تأثير الصـدق»، وفي منتصف الليل —على كل حـال— دخل هذا الرجل نفسـه إلى قـاعـة نوم الملك من النافـذة، حـاملاً بيـده مـدية مفتـوحة، واقترب من فـراش الملك، غير أنه أصيب بالاضطراب لعـدم وجـوده هناك، وبدأ على الفور يبحث عنه في عـدد من قاعـات النوم في مسكنه، وكان الملك، بفضل الرب نائماً مع الملكة، وكـان هناك بالصدفة واحدة من وصيفات الملكة مستيقظة، وكان اسمها مرغريت بيزث -Bis eth وكـانت تغني ببعض المزامير على ضـوء شمعـة (لأنها كـانت وصيفـة مقـدسـة، وواحـدة مكرسـة للرب)، وعندمـا رأت هذا الرجل المجنون، يفتش في الأمـاكن الخاصـة، ليقتـل الملك، وهو يسأل بصـوت

مـرعب عـن المكان الذي فيـه الملك، ارتعبـت كثيراً، وأخـذت تردد صراخها، ولدى سماع صراخها المرعب، استيقـظ حراس الملك، وقفزوا من أسرتهم بكل سرعـة، وركضوا نحـو المكان، وفتحـوا الباب بالقـوة، الذي كـان اللـص قـد أغلقـه بإحكام، واعتقلوا اللـص، على الرغم من مقاومته، وربطوه وغلوه بقوة، وضمنوه.

وقد اعترف هـذا الرجل بعد بعض الوقت، بأنه قـد أرسل إلى هناك، ليقتل الملك وفق طرائق الحشيشيـة، من قبل وليم مارش، ابن غيـوفري مـارش، وأفاد بأن آخـرين قـد تآمـروا لإقتراف الجريمة نفسهـا، ولدى معرفة الملك بهذا، أمر به، بحكم كونه مجرماً بمحاولة قتل جلالة الملك، بأن يمـزق طرف منه عن الطرف الآخـر بوسـاطة الخيول في كـوفنتري، وكـان بذلك مثـلاً مخيفـاً ومشهـداً مؤسفـاً لكل من يتجـرأ على التـآمـر لإقتراف مثل هذه الجرائم، وجـرى سحله أولاً وهـو ممزق إرباً إرباً، ثم جرى قطع رأسـه، وتقسيم جسده إلى ثلاثة أقسـام، ثم إنه جرى سحل كل جزء خلال إحدى المدن الرئيسية في انكلترا، وبعد هذا جرى تعليقه على المشنقة المعدة للصوص.

عاصفة من الريح ثقيلة

في حـوالي يوم عيـد القـديس متى (٢١- أيلول) ثارت عـاصفـة من الريح بعنف مـدمر، ومن دون أن أذكـر الأضرار التي تسببت بها والتي لايمكن تعويضها، غرقت أكثر من عشرين سفينة في بورتماوث.

عودة سيمون دي مونتفورت إلى إنكلترا

وفي يوم عيـد القديس كـاليكستوس Calixtus (١٤- تشرين أول) عاد سيمون دي مونتفورت من القارة، واستقبل من قبل الملك، ومن جميع الحاشية الملكية بقبلة السلام، ثم إنه انطلق بكل سرعة نحو زوجته إليانور، التي كانت مقيمة في نيلوورث Kenilworth وهي على وشك الولادة.

-٦٩٢١-

دعوة رعاة رهبان الطائفة السوداء
للمثول أمام النائب البابوي في لندن

وفي العام نفسه، استدعى النائب البابوي أوتو، بناء على تفويض من البابا، جميع رعاة رهبان الطائفة السوداء، للمثول أمامه، في كنيسة القديس مارتن في لندن، ليتولى تقدير الدرجات التي أمر بها صاحب القداسة البابا —بعد مناقشة كافية— من أجل إصلاح الطائفة الرهبانية.

إصلاح أحكام رهبان الطائفة السوداء

وعندما اجتمع جميع رعاة طائفة الرهبان السود، نهض النائب البابوي، وحثهم ليكونوا جميعاً صبورين، ثم شرع بإلقاء خطبة منمقة كانت كما يلي:

«باسم مولانا يسوع المسيح، والأب والابن والروح القدس، آمين، إنها لمهمة عظيمة وصعبة القيام بتحصين مدينة الرب، التي هي الكنيسة، بمراسيم جديدة ومتطورة، ضد مصائد العدو الخبيث، الذي يسعى باستمرار ببدع قديمة وجديدة لإخضاعها، وقمنا نحن أوتو، الذي بفضل رحمة الرب، الكاردينال الشماس للقديس نيقولا، في سجن توليان، والنائب للكرسي الرسولي، صدوراً عن واجبات النيابة البابوية المفروضة علينا، وتقديراً لأنفسنا بأننا مسؤولين عن تقديم المساعدة في مثل هذا العمل المفيد، فتدبرنا جمع وتدوين بعض الأحكام من نظام الأب المقدس بندكت، وكذلك من المجامع المقدسة، والمراسيم الشرعية، وكذلك من أحكام رعاة الرهبان التابعين لطائفة بندكت المذكور، التي إذا ما تولوا رعايتها سوف تخدم في مساعدة ديانتنا المقدسة والدفاع عنها».

الذين يجري قبولهم في الطوائف الدينية

«ورسمنا في المقام الأول، أنـه من الآن فصاعداً، لـن يجري قبول أي واحـد للقيـام باحترافـه وتكريس نفسـه للـرهبـانيـة، قبل إكماله سن العشرين، ولا لإختبار التأهيل قبل إكماله التاسعة عشرة من عمره».

عند انتهاء سنة اختبار التأهيل يبدأ التكريس للرهبانية

وكذلك كل من جرى قبوله لاختبار التأهيل، سوف، فور انتهاء سنة اختبار التأهيل، يقوم بأعمال التكريس للرهبـانية، أو سوف يغادر الدير، وخـلافاً لهذا، إن كل راعي دير، أو رئيـس للرهبان سـوف يحتفظ بأي واحد بعـد عام من دون القيـام بالتكريس للرهبنة، سوف يتلقـى عقوبة حـادة، من قبل رؤسـاء الهيئة الكهنوتية، ومع هـذا سوف يعـدّ المترهبن مرغماً على عمل التكريس، ولسوف يعدّ وكأنه مكرس للرهبنة».

لايجوز قبول أحد شرطياً أو مقابل دفع

«وكـذلك لايجوز استخـراج أي مـال من أي واحـد يرغب بدخـول الدير، والذيـن يقبلون سـوف يجري قبـولهم فقط مـن أجل الرب، ومن دون أي التزام، ومع ذلـك، إذا ماجرى تقـديم أي شيء مجاناً، من دون أي إلزام، أو استخـراج، أو ضريبـة، من الممكن قبـول ذلك من دون ملامة».

لايجوز لأحد أن تكون لديه أية ممتلكات خاصة به أو ذاتية

«وكذلك، إنه من الآن فصـاعداً، لايجوز لأي راهب أن يستحوذ أي شيء خـاص به، وإذا مـاكـان لديه أي شيء يتـوجب عليـه، على الفـور التخلي عنه إلى رئيسه».

لايجوز لأي واحد السكنى وحده في عزبة أو كنيسة

«وكذلك، لايجوز مـن الآن فصاعداً، لأي راهب الاقـدام على تسلم

أية عـزبة من رئيسـه، أو أيـة ممتلكات أخـرى، للضمان، وإذا فعل ذلك سـوف يعدّ متملكاً، وبالتـالي سـوف يعاقـب، وكذلك لايجوز للرهبـان السكنى في العـزب، ولاحتى في الكنائس، مـالم يكن هناك أكثـر من واحد، أو على الأقل اثنين».

على المطيعين تقديم حساب عن إداراتهم

«وسوف كذلك يجري تعيين المستقيمين، والرجال الموثوقين في بعض المناصب، وعلى هؤلاء أن يقدموا ثلاث مرات في العام حساباً صحيحاً عن إداراتهم ومناصبهم، إلى رئيسهم، وذلـك بحضـور بعض الشيـوخ، وعند ذلك إن كل مايزيـد يمكنهم أخذه، مهما تضمن، سواء أكـان مالاً أو أية مقتنيـات أخـرى، إنهم سـوف يأخـذونها من دون منـاقشـة أو خلاف، وأن يضعوا جانباً كل غش، ثم أن يتخلوا عن ذلك إلى رئيسهم أو يعهـدون به إليـه، وكـل من يتصرف على عكس هذا، سـوف ينال العقوبة لكونه متملكاً».

ومثل هذا على رئيس الرهبان تقديم حساب

«وعلى راعي الرهبان أيضـاً، أو رئيس الرهبان، في حال عـدم وجود راعي، أن يقـدم حسـاباً وافياً، على الأقـل مرة واحـدة في السنة، حـول وضع ديره، وحـول إدارته للمجمع الرهبـاني، أو أن يقـوم بذلك بعض الشيـوخ الذين جـرى تفـويضهم وإنابتهم مـن قبل المجمع الديري لهذه الغاية».

من المتوجب التفوه بقرار الحرمان الكنسي ضدّ المتملكين بشكل علني

«ونحن نرسم أيضـاً، أنه يتوجب على الرؤسـاء المشرفين، أن يتفوهوا على الأقل مـرة واحـدة في العـام، بشكل علني بحكم الحرمـان الكنسي

ضد المتملكين، أو معاقبتهم بطرق أخرى إذا لم يثوبوا إلى رشدهم، وبشكل رئيسي بعار عدم الدفن».

وجوب الالتزام بالصمت وفقاً للأمر

«ونحن نرسم أيضاً، أنه وفقاً للنظام، تتوجب مراعاة الصمت، في بعض الأماكن المخصصة، والأوقات، والساعات المحددة، وعلى الجميع أن يسعوا لمعرفة الشارات الضرورية».

تحريم أكل اللحوم

«وبالاضافة، إلى هذه الأشياء، إنه فيها يتعلق بأكل اللحوم، قد جرى تحريمها على رهبان الطائفة السوداء، بموجب أحكام نظام القديس بندكت، وحكمنا، وكذلك حكم الهيئة العامة للرهبانية برئاسة رعاة الديرة في انكلترا، ونحن في سبيل إزالة جميع مناسبات وقضايا الشكوى من بين هؤلاء الرهبان الذين اعتادوا فيها على إثارة الفوضى من أجل أكل اللحم، نأمر الرعاة والرؤساء بشراء —حسب إمكانات بيتهم— وتزويد الرهبان، ببعض المواد الغذائية المناسبة عوضاً عما هو محرم عليهم».

وجوب تقديم ملابس مناسبة وكافية

«قرار بوجوب امتلاك الرهبان ملابس مناسبة وكافية، لكل من أجسادهم وأسرتهم، وأن يزودوا بذلك وفقاً لنظام البيت وإمكاناته، لكن لايجوز لهم ارتداء قمصان من الكتان، أو أغطية رأس».

على الرهبان النوم مع بعضهم

«ويتوجب كذلك نوم الرهبان مع بعضهم، وأن يمتلكوا أسرة وفقاً للنظام، ولايجوز أن يكون مهجع نومهم من دون ضوء».

وجوب مراعاة الضيافة

«نحن نأمر ونرسم، بوجوب مراعاة الضيافة، من قبل كل من الرؤساء، ومن الذين هم أدنى منهم، وفقاً لقداسة النظام ولإمكانات المكان، وأن يكون ذلك مصحوباً مع كل الإحسان والسرور، وأن يجري دوماً ندب راهب لطيف وأديب من أجل هذه الغاية، ونحن نرسم أيضاً بوجوب مراعاة الشيء نفسه نحو الرهبان المرضى».

على الرهبان جميعاً الحضور أثناء القداسات الكبرى والصغرى

«وكذلك يتوجب على الجميع أن يكونوا حضوراً في ساعات القداسات الدينية، لاسيما أثناء القداسات الصغرى والكبرى، مالم يمتلك أحدهم عذراً جيداً للتغيب، بأن يكون مشغولاً مع ضيوف، أو بموجب إذن خاص من رئيسه، حيث يعدّ ذلك سبباً موجباً للغياب».

وجوب تجنب الاسراف

«ويتوجب على الأساقفة السعي لتحديد عدد خيولهم ومرافقيهم بقدر ما يستطيعون».

وجوب تدوين الأحكام وفقاً للنظام

«ونحن نرسم أيضاً، أن يتدبر رعاة الديرة ورؤساء الرهبان يومياً تدوين —وفقاً للنظام— مراسيم الأحبار الأعظميين، ولاسيما التي تشير بشكل خاص إليهم وإلى طائفتهم، والواردة في مجموع صاحب القداسة البابا غريغوري التاسع، والتي كتبت تحت العناوين الواردة أدناه وهي: «حول المدنيين الذين على وشك الدخول إلى البيوت الدينية» الخ، «حول دورك» الخ، «خشية الدين» الخ، «حول أوضاع الرهبان» الخ، «في كل منطقة» الخ، «الأشياء التي من أجل كرامة الدين» الخ، «حول السيمونية— أي حول التلوث بالسيمونية» الخ،

«حول قرار الحرمان الكنسي» الخ، «الجسد كله» الخ، «حول التحليل من هذه الأشياء كلها» الخ، «حول الراهبات» الخ، «حول الثبات— أي التأكد» الخ، «حول المدفوعات» الخ، «حول أي شيء كان».

الأشياء التي يجري بالغالب تكرارها

«ونحن نفرض أيضاً بكل دقة على جميع رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، أن يقوموا بدراسة الأحكام المتقدم ذكرها أعلاه وتعلمها، وهي أحكام نظام القديس بندكت، والمراسيم والنظم التي كتبت أعلاه، وأن يحتفظوا بهم دوماً على مقربة منهم، وأن يجعلوا شغلهم الشاغل ألا تكون هذه الموضوعات غير معروفة من قبلهم».

قراءة ماورد أعلاه مرة واحدة في اليوم

«ونحن نرسم أيضاً، ونأمر بمراعاة مايلي بكل دقة، وهو قراءة النظام الذي تقدم ذكره أعلاه، والمراسيم، مرة واحدة في كل يوم، في ساعة موائمة، في الدير بحضور جميع الرهبان، وأن يجري شرحهم إلى الذين لايفهمونهم».

قانون البابا أونوريوس الثالث المتعلق بالذين يدخلون البيوت الدينية

«**لقد تقرر من جهتكم مايلي، الخ**: من أنوريوس الثالث إلى أسقف أريزو Arezzo: من المعروف ان هناك بعضاً، مع أنهم ارتدوا منذ سنين طويلة ثياب الرهبان، هم لم يقوموا بالتكريس المطلوب ليكونوا رهباناً، ولذلك عندما يجري اتهامهم من قبلكم، أو من قبل آخرين، بأن لديهم ممتلكات، وأنهم يعيشون بشكل نظامي، هم لايخجلون من القول بأنهم غير ملزمين، أو غير متعهدين في أن يكونوا من دون ممتلكات خاصة، وفي سبيل الامتناع عن الشهوات، والأحكام الانتظامية

الأخرى، إنه ليس الرداء الرهباني هو الذي يعمل الراهب، بل التكريس النظامي، الخ، الخ، ولذلك إننا نأمر أخوتكم، بموجب الروادع الكنسية، أن ترغموا الخاضعين إليكم بموجب القانون الأسقفي، والذين يتجرأون على دخول الأرض بطريقين، وفق المنهج الذي تقدم ذكره، أن يقوموا بتكريسهم الرهباني المطلوب، وأن يراعوا النظام، وفقاً لأشكال الطائفة، وذلك بعد ارتدائهم للباس الرهباني لمدة سنة واحدة».

مرسوم البابا غريغوري التاسع حول الأمر نفسه

«نحن نرسم، بأن المترهبنين في أيام اختبارهم، وقبل ارتدائهم لرداء الرهبنة، الذي يعطى بالعادة إلى الذين عملوا تكريسهم المطلوب، هم أحرار في أن يغادروا ويعودوا إلى أوضاعهم المتقدمة، وذلك خلال سنة، اللهم مالم يظهر بشكل واضح بأن مثل هؤلاء الأشخاص قد اتخذوا قرارهم بشكل حاسم بتغيير طريقتهم في الحياة، وأن يخدموا الرب في تكريس تقوي مستمر، الذي معه يمكن أن يكون مفيداً التخلي عن ذلك الذي معروف أنه أضيف على فضائله الخاصة، ومع هذا نحن نرسم —في سبيل إزالة كل شك— بما أن أردية المترهبنين، في بعض البيوت الدينية لايمكن تمييزها عن أردية المكرسين، ينبغي أن تجري مباركة الملابس التي تعطى إلى المكرسين وقت التكريس، وبذلك يمكن تمييز ألبسة المترهبنين عن ألبسة المكرسين».

المزيد حول الموضوع نفسه

«خشية من أن يتعرض بعض رجال الدين في بعض المناسبات إلى السفر، ومن ثم الحصول على بعض الأذى بالنسبة لصحتهم، وأن تجري المطالبة بدمائهم على أيدي رؤسائهم، نحن نرسم، بأنه يتوجب على الرؤساء، أثناء شغلهم لمنصب رئيس الهيئة الرهبانية، وذلك تماشياً مع قانون المجمع العام، سواء أكانوا آباء، أو رعاة ديرة، أو رؤساء كهنة،

البحث بدقة كل سنة عن الرهبان الذين هربوا، أو الذين طردوا من طائفتهم، وإذا ما أمكن فيها بعد استقبالهم وفقاً للنظام القائم، أن يجري استقبالهم في ديرتهم، وأن يتم بموجب الروادع اللاهوتية إرغام رعاة ديرهم أو رؤساء رهبانياتهم، على استقبالهم، وذلك وفقاً لنظام الطائفة، لكن إذا كانت الطائفة لاتسمح بفعل ذلك، على الرئيس المذكور، القيام بموجب سلطاتنا، تأمين عزلهم في ديرة تابعة للطائفة نفسها، وفي أماكن مناسبة، على شرط أن يعمل ذلك من دون أي فضائح، وينبغي تأمين الضرورات المعاشية، وتزويد مثل هؤلاء الأشخاص بها في البيوت الدينية الأخرى للطائفة نفسها، ليقوموا هناك بالتوبة، لكنهم إذا وجدوا عدم طاعة من أي نوع، سوف يتولون حرمانهم كنسياً، ولسوف يعلن عنهم أمام الملأ ويشهر بهم على أنهم محرومين كنسياً، من قبل رؤساء الكنائس، حتى يعودوا بكل تواضع لدى استدعائهم».

وضع الرهبان

«لن يجري قبول الرهبان في الديرة بوساطة دفع المال، كما لن يكون لديهم أية ممتلكات خاصة بهم، وسوف لن يجري توزيعهم واحداً واحداً فيما بين الكنائس في البلدان المختلفة، وفي القرى، حتى لايكونوا هم أنفسهم بين المدنيين، لانتظار الصراع من الأعداء الروحيين، لأن سليمان قد قال: «ويل له، الذي يكون وحيداً عندما يقع، لأنه ليس لديه آخر ليساعده على القيام»، وإذا ما قام أي واحد لدى سؤاله، فأعطى أي شيء في سبيل القبول، إنه سوف لن يرتفع إلى الطوائف المقدسة، وسوف يجري تعليق المتسلم وايقافه عن عمله، وكل من سوف يبقي أي شيء لنفسه، ما لم يكن قد سمح له من قبل راعي الدير، من أجل بعض الخدمات المفروضة عليه، سوف ينقل مبعداً عن المشاركة بقداس العشاء الرباني عند المذبح، وإذا ماوجد أي انسان، في لحظته الأخيرة، مع أي ممتلكات خاصة، ولم يقم بالتوبة بشكل موائم، سوف لن تعمل أية

تقدمة إليه، كما أنه لن يتلقى دفناً بين جميع الطوائف الدينية، وليعلم راعي الدير الذي سوف لن يحترس بعناية ضد هذه الذنوب، بأنه سوف ينال الحرمان من منصبه، كما أنه لايجوز إعطاء رئاسات الرهبان أو المناصب، إلى أي واحد مقابل الدفع، وإذا حدث ذلك، فإن كلا من المعطي والمتسلم سوف يجري طردهم من مناصبهم، أما بالنسبة لرؤساء الرهبان، فإنهم بعد تعيينهم بشكل قانوني في كنائس ديرية، بوساطة الانتخاب من قبل هيئاتهم الرهبانية، لن يجري تغييرهم، إلاّ لسبب واضح ومعقول، مثل التخريب، أو الفسوق أو شيئاً من هذا القبيل يبدو أنها تؤهل للعزل، أو أيضاً إذا جرى نقلهم بناء على نصيحة رهبانهم إلى منصب أعلى».

المزيد حول الموضوع نفسه

«ونحن نمنع من الآن فصاعداً، بكل دقة، أياً من الرهبان، من ارتداء قمصان كتانية، كما اننا نحرم أيضاً على أي من الرهبان، بحكم فضيلة طاعتهم، وتحت تهديد الحساب اللاهوتي من امتلاك أية مقتنيات بأية طريقة من الطرق، وعلى الذي لديه أي شيء خاص به، التخلي عنه على الفور، وإذا ما وجد فيما بعد، لديه أية ممتلكات خاصة، وكان ذلك بعد تسليمه انذاراً نظامياً، سوف يطرد من الدير، كما لن يسمح له ثانية بالقبول به، مالم يكن قد قام بالتكفير، وفقاً لأنظمة الدير، وإذا ماجرى اكتشاف وجود أية مقتنيات، عند موت أي واحد، سوف يجري دفنها معه، في كومة من القاذورات، وذلك وفقاً لما قاله المبارك غريغوري وفعله، وبناء عليه إن أي شيء سوف يجري إرساله إلى أي واحد، بشكل خاص، يتوجب عليه عدم التجرؤ على استلامه، بل عليه تسليمه إلى راعي ديره أو إلى رئيس رهبانه، ويتوجب الالتزام بصمت مستمر في القلاية، وفي المطعم، وفي مهجع النوم، وفي الدير في بعض الأوقات، وفي بعض الأماكن، وذلك وفقاً للعادة القديمة للدير، ولايجوز لأحد

أن يأكل لحماً في المطعم، ولا في المناسبات العـامة الوقـورة، حسبما كانت العادة أحياناً في الدير، ولكن على الراهب أن يترك قليلاً في المطعم، وأن يخرج مع الـراهب ليأكل لحماً في الخارج، لأنـه في هذه الأيام تتـــوجب مراعاة نظام خاص بدقة أعظم، ومع ذلك على الرهبان أن لايعتقدوا أنه مسمـــوح لهم بأكـل اللحم خـــارج المطعم، مـــالم يكـن ذلك في مأوى المرضى، مع أنه يمكن أحياناً لراعي الدير، عن طريق الـرعاية، أن يدعو بعض الرهبان إليه، أحياناً واحداً، وأحيـاناً واحداً آخر، ليقدم لهم وجبة خاصـة في غرفتـه، بالاضافـة إلى هـذا يمكن للرهبان المرضـى والضعفاء الذين يحتاجون للتقوية، أو لبعض الأدوية، أن يتسلموا كمية مناسبة، مما هو ضروري لهم، من كل من اللحم ومن الأشيـاء الأخـرى، وإذا كـان أحـدهم ناقهـاً، أو حتى ضعيفـــاً، ولايمكن أن يكتفي بالطعـام العـام، ينبغي تدبر ذلك له هكذا، مـن دون فضائح بالنسبـة للآخـرين، أي إذا مـارغب راعي الدير أو رئيس الرهبان، أن يقـدم له معروفـاً خاصـاً في المطعم، يمكنه أن يتدبر تقديم كمية كـافية من الطعام أو جلبها له، لكن ليس أمـام الناس المرضى، بل أمـامـه نفسـه، ومـن ذلك يمكن للرجل المريض أن يأخـذ كميـة صغيرة ليـدعـم الطبيعـة، ويتـوجب تعيين مثل هؤلاء الأشخـاص لتأدية واجبـات الدير بشكل مخلص وأمين، ومـا من منصب، يجوز أن يعهـد به إلى أي واحـد، ليحتفظ به إلى الأبد، أي كأنه عين له مدى الحياة، لكن عندما يتوجب عزله، هو سوف يعزل من دون أية معـارضة مهما كـان نوعها، وسـوف يكون رئيس الرهبان هو التـالي لراعي الدير، وينبغي أن يكون فـوق البقية، مؤثراً في أعماله وفي كـلامه، وبذلك يمكن بمثل حيـاته، وبكلام عقيدته، أن يكون قـادراً على توجيه رهبانه نحو ماهو خير، وأن يبعـدهم عما هو شر، وأن تتوفر لديه الغيرة على الدين، وفقاً لمعارفه، وذلك حتى يتمكن من تقديم الرعاية اللطيفة، وأن يعتني بنيل طاعة مـريحة، وراعي الدير هو الذي على الجميع إطاعته في جميع القضـايا، ويتوجب أن يكون دومـاً —بقدر مـا هو ممكن— مع

رهبانه في الدير، وأن تكون لديه رعاية يقظة، واهتمام متواصل بشأن جميع الرهبان، حتى يتمكن أن يقدم إلى الرب حساباً صحيحاً عن المنصب الذي أسند إليه، ولكن إنه إذا ما سيكون خائناً لطائفته، أو مستخفاً بها، أو مهملاً، أو مبدداً، عليه أن يعرف بشكل مؤكد، أنه لن يخلع فقط من منصبه، بل إنه سوف يعاقب بطريقة أخرى، وفقاً لذنبه، وكأن ذلك ليس ذنبه الخاص، بل ذنب الآخرين، فهو سوف يكون مطلوباً على يديه، ولايجوز لأي راعي دير أن يفكر بأن بإمكانه إعطاء أي راهب ترخيصاً بامتلاك مقتنيات، لأن التخلي عن المقتنيات، والمحافظة على الإحسان أمران مرتبطان تماماً مع الأنظمة الرهبانية، ذلك أنه حتى الحبر الأعظم لايمكنه أن يمنحه ترخيصاً في هذه القضايا».

المزيد حول الموضوع نفسه

سوف يكون في كل مملكة، أو مقاطعة —كل ثلاث سنوات— باستثناء امتياز أساقفة الأبرشيات— اجتماع عام للهيئة العامة لرعاة الديرة ولرؤساء الرهبان، الذين ليس لديهم رعاة ديرة مرتبطون بهم، والذين غير معتادين على عقد مثل هذه الهيئات، حيث يتوجب أن يجتمع فيها جميع الذين ليس لديهم معيقات قانونية، في واحد من الديرة يكون مناسباً لهذه الغاية، مع التحذير التالي الذي يقضي بأن لايجلب أي واحد منهم معه أكثر من ست عربات وثمانية أشخاص، وعليهم أيضاً لدى شروعهم بهذه المسألة الجديدة، استدعاء اثنين من رعاة الديرة المجاورين من طائفة السسترشيان، لإعطائهم فرصة للنصيحة، ومساعدة، بحكم أنهم، منذ زمن بعيد معتادين، ولديهم معارف أفضل في عقد هيئات من هذا النوع، ودعوهم يوحدوا مع أنفسهم أي اثنين يرون أنهما موائمين، وليقم هؤلاء الأربعة بالترؤس على الهيئة كلها، وبذلك لايمكن لأي واحد منهم أن يدعي لنفسه الرئاسة الأسقفية، وعندما يكون موائماً، من الممكن عمل تغيير، بعد تداول وتفكير دقيق،

ويتـوجب عقد اجتماع هذه الهيئـة الرهبانيـة يوميـاً، لمدة عدة أيام، وفقـاً لعـادة طائفـة الرهبـان السسترشيـان، ويتـوجب الدخـول في الاجتماع المذكور للهيئة الرهبانية بمناقشات دقيقة حول إصلاح الطائفة، والمراعاة المنتظمـة للنظم، وكل مـايجري تقـريره مع التعـاون مع هؤلاء الأربعـة، سـوف تجري مـراعـاته من دون أي تحفظ، أو معـارضـة، أو مـرافعـة استئناف، لكن مع تقـرير مـوعد عقـد اجتماع الهيئة الرهبـانية في الحقبـة المقبلة، والذين سـوف يجتمعـون هناك، سـوف يعيشـون مع بعضهم، وسوف يتوازعون فيما بينهم المشـاركة بالنفقات بشكل عام، ولكن إذا لم يكن بإمكان الجميع العيش في البيت نفسـه يمكن لعدد منهم العيش مع بعضهم في بيـوت متنوعة، وسـوف يجري أيضـاً في هذا الاجتماع للهيئة الرهبانية تعيين أشخاص دينيين وواعين، عوضاً عنا، ووفقاً لنظام جرى تعيينه من قبـل لهم، للقيـام بزيارات تفقـدية لكـل رعـوية في المملكة المذكورة أو في المقـاطعة، ليس فقط للرهبان، بل للراهبـات أيضاً، حيث يقـومـون بتقـويم وإصـلاح، كل مـايعتقـدون أنه يحتـاج إلى الإصـلاح والتقويم، وإذا ما وجـدوا أن القسيس في أي مكان ينبغي عزله كلياً من منصبـه، عليهم القيام على الفـور إعلام أسقفـه بقرارهم بعـزله، وبذلك يقوم هذا الأخير بادخال العزل حيز التنفيذ، وإذا ماتقاعس الأسقف ولم ينفـذ، على الزوار التفقـديين رفع القضيـة إلى الكرسي الرسـولي، ونحن نقضي ونأمر، أن على جميع الكهنة النظاميين —تبعـاً لطوائفهم— مراعاة هذا النظام نفسـه، وإذا ماانبعثت في هذه المسألة الجديدة، أية مصـاعب، من غير الممكن إزالتهـا من قبل الأشخـاص المتقـدم ذكـرهم، يتـوجب إحـالتهـا، من دون أي أذى، إلى الكرسي الـرسـولي، حتى يجري حلهـا، وبالنسبة لجميع الأشياء الأخـرى، التي من الممكن الاتفاق حولها بشكل اجماعي، من المتـوجب مـراعـاتها من دون مـواربـة، وزيادة على هذا، يتوجـب على أساقفة الأبرشيـات السعي لإصلاح الديـرة الخاضعة لهم، من أجل أنـه عندمـا يصل الزوار التفقـديون، يمكنهم أن يجدوا أنهم

يستحقــون المزيد من الثنـاء، وليس التقــويم، وعليهم أيضــاً الاحتراز بالعنـاية الأعظم، حتـى لايجري تحميل الأديـرة المذكــورة، واثقـــالها بحمولات غير مستحقـة، لأننا نرغب بمراعـاة امتيازات الرؤسـاء بقدر عـدم رغبتنا في أن يتعـرض الأدنى مرتبـة للأذى، وبالاضـافـة إلى هذه الأشياء، تقضي إرادتنا أن يقـوم أساقفة الأبرشيات وكـذلك الأشخاص الذين يترأسـون على اجتماعات الهيئات المذكـورة، بأن يلقوا جانبـاً جميع مـرافعات الاستئناف، وأن يمنعـوا جميع المحـامين، والنصراء، والقسس من خــارج الأبرشيـات، والكونتــات، والنبـلاء، والفـرســان، وجميع الآخرين، مـن الإقدام على انزال الأذى بالديرة سـواء في الأشخاص أو في المقتنيـات، وإذا صـدف وألحقوا بهم الأذى شخصيـاً، لإرغـامهـم من دون تقـاعس على عمل التكفير، وذلك مـن أجل أن يتمكنوا من عبـادة الرب بحرية أكبر، وبهدوء أعظم».

المزيد حول الموضوع نفسه

«هذه أشياء هي من أجل كـرامة الدين، الخ، الخ: علاوة على ذلك، بعـدمـا يكون قـد جرى تعيين الزوار التفقـديين، وفقـاً لقـانون المجمع العـام، من قبل الهيئة العـامـة لرعـاة الديرة، عليهم الاقـلاع للعمل على شغل مناصبهم كزوار تفقـديين، وهنا يتوجب عليهم البحث بكل عناية في أوضـاع الرهبـان، وفي مـدى التـزامهم بالأنظمـة، ومـن ثم تقـويم وإصـلاح كل مايعتقـدون من المتـوجب إصلاحـه وتقـويمه، سـواء في المسـائل الروحيـة أو المسـائل الدنيـويـة، بشكل حكيم، بحيث يجعلون الرهبـان المذنبين يجري تقــويمهم من قبـل راعي المكان، وأن تفــرض عليهم العقـوبة المدنيـة وفقـاً لنظام القـديس بندكت، وأنظمـة المؤسسـة الرسولية، وليس وفقاً لأنظمـة العادات الشريرة، التي نمت حتى عدّت بمثابة شريعة في بعض الكنائس، ويتوجب على هؤلاء الزوار التفقديين، أن يضربوا، بالنيـابة عنا بأنظمـة المعـاقبـات والروادع الرهبـان الذين

يجدونهم متمـردين وعصـاة، وذلك وفقـاً لدرجـة ذنوبهم، وذلك دونما تقـدير لـلأشخـاص، وأن لايوفـروا الأشخـاص العصـاة على أسـاس العـلاقات والقـرابات، أو قـوة أصـدقـائهم، بل سوف «يلقـون بالشـاة المريضة خارج القطيع، حتى لاتعـدي الشياه الصحيحة»، وإذا ماتبين أن الرعـاة أثناء تنفيـذهم للعقـوبات، وفقاً لأوامـر الزوار التفقـديين، وللقوانين المرعيـة، مهملين، إما في أنفسهم، أو بالنسبة للرهبـان، سوف يعلن عنهم، ويعتقلون ومن ثـم يعـاقبـون لدى الاجتماع العـام للهيئة، حتى تأتي عقوبتهم بمثابة مثل رادع للآخـرين، وإذا ما وجد راعي دير، هو ليس معفيـاً، من قبل الزوار التفقـديين، مهمـلاً، ومتغـافـلاً، عليهم القيـام من دون تأخير، بشجبـه، وإبـلاغ ذلك إلى أسقف المكان نفسـه، حتى يتـولى تعيين معـاون لذلك الراعي يكون مستقيماً وحـريصـاً، حتى يجري عقد اجتماع الهيئة العامة، وإذا كان مخرباً، أو يستحق العزل لسبب من الأسباب، يتوجب بعـد اخبار الأسقف عنه، عزله من منصب حكم رعوية الدير، ومن الدير من دون هيـاج أو محاكمة، وأن يتولى في الوقت نفسـه مدير مـوائم تسيير الشـؤون الدنيـوية للدير، حتى يجري تزويده براعي، لكن إذا مارفض الأسقف أو أهمل تنفيـذ هذه الأوامر، يتوجب على الزوار التفقديين، أو على رئاسة الهيئة الرهبانية العامة، عدم التراخي عن الإعلان عن هذا التقاعس الـذي قام به الأسقف، وإعلام الكرسي الرسولي به.

ونحن نأمر بعمل هذه الأشياء نفسها في مسألة إعفاء رعاة ديرة، بعدم عـزلهم من قبل الـزوار التفقـديين، أو من قبل رؤسـاء الهيئة الـرهبـانيـة العامـة، محتفظين بعزلهم، للعرض أمام الكرسي الرسـولي، وبناء عليه إذا ظهر أن أي راعي دير يستحق النقـل أو العزل، هو سوف يتعـرض، إما من قبل الزوار التفقديين، أو من قبل رؤسـاء الهيئة الرهبانية العـامة، إلى التعليق ومن ثم التـوقف عن ممارسة الأعمال الادارية لمنصبـه، ويتوجب

هنا تعيين اداري مـوائم لبعض الوقـت لشغل ذلك المنصب، وبالنسبـة لأخطائهم وللأشيـاء الأخـرى التي تبدو مهمـة، وأنها ينبغي أن تعـرض على الهيئة الرهبـانية العـامة، سـوف ترسل الرئاسـة رسالة إلينا بوسـاطة رسل مستقيمين وحـذرين وعقلاء، يتم صرف نفقـات سفرهم بوسـاطة مبلغ كـاف يجري أخذه مـن الاسهام العـام، وذلك وفقـاً لإمكانات كل فئة، ويتـوجب على الزوار التفقـديين الـذين يقـدمـون فيها بعـد، القيـام بفحص آثار الزوار التفقـديين المتقـدمين بكـل دقـة، وأن يرفعـوا تقـارير حول إهمالهم وأخطائهم إلى اجتماع الهيئة الرهبـانية العامـة المقبل، حتى يتلقوا بشكل معلن عقوبات موائمة، وتتوافق مع أخطائهم، وهذا الشيء نفسه نحن نأمر بمراعاته من قبل رعاة الديرة المترئسين أثناء اجتماع الهيئة الرهبانية العـامة، ونحن نأمر أيضاً، بأنه لايجوز لرعـاة الديرة أو لرؤساء الرهبان أن يقبلوا في أي دير من الديرة كهنة علمانيين للأوقـاف الكنسية، كما أنه لايجوز للذين جـرى من قبل قبـولهم في الديرة السعـي للادعـاء لأنفسهم، والحصول على مكان، أو صـوت في الهيئة الرهبانية العـامة، أو في مهجع النوم، أو في المطعـم، أو في القـلاية، كما لا يجوز لهم ممارسـة اختـلاط غير منطقي في تجمعـات الرهبـان، بل المتـوجب أن يسلكوا بأنفسهم بشكل شريف، وأن يكونوا راضين بالمنافع الممنوحة إليهم، وأن يقـدمـوا بشكل صحيح تعبـداتهم الموسميـة في الـديرة، وعليهم أن لايطلبوا، أو أن يغتصبوا أي شيء أكثر، سواء في مجالات الأمور الروحية أو الدنيوية في الديرة، وإذا ما وجد أي من هؤلاء مذنباً أو مسيئاً من قبل الزوار التفقديين، سوف يجري حرمانهم من المنافع المذكورة،ويكون ذلك بوساطة الأسقف، في الديرة غير المعفيـة، وبوساطة الزوار التفقديون، أو بوساطة رؤساء الهيئة الرهبانية العـامة في الديرة المعفية، ونحن نأمر أيضاً بمـراعـاة جميع هذه الأحكام في الديرة التي ليس لها رعـاة ديرة خـاصين بها، بل لها رؤساء رهبان فقط، وكذلك في ديرة الراهبات، وذلك في جميع النقاط الموائمة لراعيات الديرة وللراهبات».

حول السيمونية

«وبما أن وصمة السيمونية قد لوثت بالعدوى عدداً من الرهبانيات النسائية، إلى حد أن هذه الرهبانيات نادراً ماتقبل أي راهبة من دون دفع، وسعياً منا لتلطيف هذا الشر الذي لايحتمل، والفضيحة لكل الدين، بالدعوة من أجل الفقر، نحن نمنع كلياً من عمل هذا من الآن وصاعداً، ونرسم أنه إذا ما أقدم انسان ثانية على اقتراف مثل هذه الجريمة (سواء أكان من مرتبة عليا أو دنيا) من كل من المستقبلة والراهبة المقبولة، سوف يجري طردها من الرهبانية النسائية من دون أي أمل بأن يتم قبولها ثانية، بل سوف تحتجز في مكان له أحكام أكثر دقة وأكثر قسوة، للقيام بالتوبة، أما بالنسبة للائي جرى قبولهن من قبل على هذه الصورة، قبل هذا المرسوم الصادر عن المجمع الديني، نحن نأمر بطردهن من الرهبانيات التي جرى إدخالهن بها بشكل طائش، ومن ثم قبولهن، وأن يوضعن في بيوت أخرى تابعة للطائفة نفسها، ولكن إذا حدث أنه بسبب عددهن الكبير، من غير الممكن وضعهن بشكل موائم، في مكان آخر، من الممكن استقبالهن، ومن ثم توزيعهن في الرهبانيات النسائية نفسها، لمنعهن من الجولان ثانية في العالم ومن ثم دمارهن، وبهذا تكون أماكنهن الماضية قد تبدلت، وجرى توزيعهن وتعيينهن في أماكن أدنى منزلة، وهذا نرسم بمراعاته أيضاً بالنسبة للرهبان وللتنظيمات الأخرى، ولكي لايكون بإمكانهم تسويغ أنفسهم بإدعاء السذاجة، أو الجهل، نحن نأمر أن يقوم أساقفة الأبرشيات في كل سنة بتأمين نشر هذا بشكل مخلص وأمين، كلمة كلمة».

حول قرار الحرمان الكنسي

«في أية طريقة من الطرق يقوم فيها واحد من الرهبان، أو من الكهنة النظاميين، بضرب أحدهما الآخر في الدير، ليست هناك حاجة لهذا السبب للإرسال إلى الكرسي الرسولي، بل ينبغي اخضاع المتضاربين

للنظام تحت الاشراف العقلاني المتحفظ لراعيهم، وإذا لم تكن عقلانية الراعي غير كافية لتقرير عقوبتهم، لابد له من تلقي المساعدة من حكماء أسقفيته».

بند حول الموضوع نفسه

«لقد سمعنا السؤال الذي أثير من قبل جماعتكم، حول هل الرجل العلماني الذي يقدم على مدّ يده بالضرب بطيش لرجل دين، أو لراهب، أو لمختلس، بناء على توجيه أو أمر الرجل الذي يعمل في خدمته، هل سينال عقوبة الحرمان الكنسي، لاسيما إذا لم يكن هناك من سبب لضرب المضروب، يبدو لنا أنه —مالم يكن قد وجّه الضربة أثناء القيام ببعض التدريبات الدورية النظامية— يتوجب على الراعي شخصياً، أن يتفوه بالحكم، أو في حال الضرورات المستعجلة، عليه أن يؤمن التفوه بالحكم من قبل أحد الرهبان، أو واحد من رجال الدين ذوي المرتبة الدنيا، ويتوجب عدم نجاة الذي أمر بالضرب للذين ضربوا، وكذلك الذين مارسوا عملية الضرب (حتى لو توفر سبب لفعل ذلك) من عقوبة الحرمان الكنسي مع الحرمان من شراكة المؤمنين، حتى يصلوا إلى الكرسي الرسولي نفسه».

حول الموضوع نفسه

«مع أن تحليل هؤلاء الذين مدّوا أيديهم بالعنف على رجال الدين، ونالوا مهانة عقوبة الحرمان الكنسي —باستثناء بعض القضايا من قبل أسلافنا— محفوظة للكرسي الرسولي، فإن بعض الواقعين تحت الحرمان الكنسي، يقومون من دون مبالاة بقرار الكنيسة، فلا يخافون من أخذ طوائف مقدسة، وغالباً ماجاء السؤال إلى الاستفتاء الرسولي، حول ماالذي ينبغي فعله بالنسبة إليهم، وبالنسبة إلى هؤلاء، نعتقد أن علينا القيام بعملية تمييز، لمعرفة هل مثل هؤلاء الناس يعرفون أنهم مقيدين بأغلال الحرمان الكنسي، أو أنهم لايتذكرون الحقيقة التي من أجلها

وقعـوا تحت حكم القرار الصـادر، أو أنهم على الرغم من معـرفتهم بالحقيقـة، هم يجهلون الشريعـة، ولايعـرفـون أنهم لذلك مقيـدين بها، ونحن نقـدر أنهم إذا كـانوا أولاً علمانيين، يتـوجب عـزلهم بشكل أبدي من جميع الطوائف التـي تسلمـوها، وفي الحالات الأخـرى على رؤسـاء الأساقفـة والأساقفـة أن يعرفـوا أنهم لايمتلكون السلطة بمنح التحليل من دون وصـاية الكرسي الرسـولي، وأن منح الغفـران لمثل هؤلاء الأشخاص هو مدمر كلياً إليهم، وأن المسائل الكبرى، يتوجب أن يفهم أنها محظورة على الذين محظـور عليهم بشكل واضح المسـائـل الصغـرى فقط، وقضايا من هذا النوع من المتـوجب نقلها إلى أذني الحبر الروماني، حيث منه فقط يمكن الحصـول على جـواب، وفقـاً لصرامة القضيـة، أو عـدالتها، وذلك حسبما تراه حكمتـه مناسبـاً، لكن إذا مااقترف الرهبـان جـرائم من هذا النوع، ومع أنـه قـد رسم من قبل البـابا الاسكندر، أن الرهبان والكهنة النظاميين، أينما ضرب أحـدهم الآخر في الدير، لايجوز إرسـالهم —لهذا السبب— إلى الكرسي الرسـولي، بل ينبغي اخضـاعهم للنظام، بمـوجب حكمة الراعـي وحسن تدبره، وإذا لم يكن حسن تدبر الراعي كافياً لتقرير العقوبة، يتوجب مساعدته من قبل حكمة الأسقفية، ومع أنه قد قال في مكان آخر، بأن هؤلاء الذين فرّوا من الدنيا، ولبسوا الرداء الديني في الدير، والذين اعترفوا فيما بعد، بين أشياء أخرى، بأنهم اقترفـوا مثل هذا الذنب، وأنهم نتيجـة لمواجهـة هذه الحقيقـة قـد نالوا عقـوبة الحرمـان الكنسي، ولكـن من دون اذن الحبر الرومـاني، لايمكن للراعي ولايجوز له تحليلهـم، مع أنه يستطيع معـاقبـة المذنبين بتقـويم مـوائم، ونحن في سبيل مصلحـة الديـن، ومن أجل سحب مـادة المراوغـة،نرغب في اظهـار أكبر مـراعـاة لهم، ولذلك نمنح الإذن إلى أساقفتهم، في منـح منفعة التحليل إلى مثل هؤلاء الأشخـاص، مالم تكن ذنوبهم كبيرة، وهائلة (من ذلك مثـلاً إذا أقـدموا على مـدّ أيديهم بعنف على أسقف أو على راعي ديـر، من أجل تشـويه أطرافـه، أو من أجل

سفك دمه) فوقتها لايمكنهم المرور بمثل هذه الجرائم وتجاوزها من دون فضيحة، وإذا ما مدّ أي واحد من سكان الدير، يديه بعنف ضد أي رجل دين من دير آخر، من الممكن تحليله من قبل راعيه وراعي الشخص الذي تعرض للأذى، ولكن إذا ما ضرب علماني رجل دين، هو فقط (في سبيل تجنب الفضيحة) سيحصل على نعمة التحليل من خلال الكرسي الرسولي، لكن إذا —وفقاً للتمييز الذي تقدم ذكره— حدث بأن هؤلاء الأشخاص قد جرت ترقيتهم إلى الطوائف، فإن الذي يعرف أنه نال التكريس، على الرغم من نظام الكنيسة، نحن نرسم بوجوب إستمرار تعليقهم عن ممارسة واجبات الطائفة التي تسلموها، أما بالنسبة للآخرين الذين إما أنهم لايتذكرون الحقيقة، أو أنهم جاهلين بالشريعة، وهنا مقدرين الاستعمالات التي حدثت حتى الآن للديرة، يمكن لراعيهم، بعد فرض توبة نظامية عليهم، وبعد قيامهم بتنفيذها، أن يمنحهم تحليلاً، ما لم تكن الجريمة جادة وجريمة متميزة بضخامتها، أو أن الذي اقترفها قد تقدمت به السن، وصار في عمر مميز، وأنه بالتالي عندما اقترف الذنب، اقترفه من دون نسيان أو جهل، ونحن نفرض على جميع الرعاة الالتزام بكل دقة بهذا النظام، وإلاّ إذا ما قام أي واحد منهم بإساءة استخدام السلطة الممنوحة لهم، سوف يستحق خسارة امتيازه».

بند حول الموضوع نفسه

«وبالنسبة للراهبات، فإن اخوتكم قد سألتنا، بوساطة من تضفى عليهن منفعة التحليل، إذا ماحدث، وأقدمت إحداهن بطيش بمدّ يدها بعنف ضد واحدة أخرى، أو ضد رجل مختلس، أو ضد مختلسيهن، أو حتى ضد رجال دين، وفي ردّ على سؤالكم هذا نحن نجيب، ونرسم بشكل ثابت، ونقرر، بأنه يتوجب تحليلهن من قبل الأسقف الذي يوجد ديرهن في أسقفيته. البابا انوسنت الثالث، في المجمع العام».

حول الضمانات

«إن الذي جرى تحريمه من قبل الكرسي الرسولي بالنسبة إلى بعض البيوت الدينية، نحن نرغب ونأمر بمدّه إلى الجميع، وأن تجري مراعاته من قبل كل واحد، ومن قبل الجميع، أي أنه لايجوز لأي رجل دين، من دون إذن الأكثرية من الهيئة الرهبانية، ومن راعيه، أن يصبح ضامناً لأي واحد، أو أن يستلم مالاً كقرض من أي واحد، أكبر من المبلغ المفروض من قبل المجمع العام، وإذا كان الأمر كذلك، فإن الدير لن يكون مسؤولاً بأي حال من الأحوال، أو مرغماً على التسديد عنه، مالم يكن واضحاً، أن المقصود من ذلك كان منفعة البيت نفسه ولصالحه، وكل من يحاول العمل معاكسة هذا القانون، أو أن يعمل ضده، سوف يكون خاضعاً لعقوبة نظامية قاسية».

حول المدفوعات

«إذا أي واحد، الخ: نحن نمنع بدقة أي واحد من الإقدام على تحميل الكنيسة المعهود بها إليه ديون آخرين، أو أن يعطي بذلك كتابة إلى أي واحد، أو أن يضع الأختام على أي شيء، يمكن به للكنيسة أن تثقل، ونحن نرسم بكل دقة، ونأمر، بأن أي واحد سوف يعمل العكس، سوف تكون الكنيسة غير ملزمة بدفع هذه الديون، وأي واحد، يمكن أن يقدم من الآن فصاعداً على معاكسة الأحكام المتقدم ذكرها، عليه أن يكون متأكداً من أنه سوف يعلق ويوقف عن إدارة المسائل الروحية».

قبول القوانين

بعد الفراغ من قراءة هذه القوانين، سمع رعاة الديرة ورؤساء الرهبان المجتمعين بأن الديانة المقدسة، بعد إصلاحها على هذا الشكل، سوف تتلقى زيادة سعيدة، وبناء عليه تلقوا بتشوق، وبموافقة عامة،

هذا المنهج، وكأنه منحــة أرسلت من السماء وأمـــروا بنشره في جميع هيئاتهم الرهبـانيـة، وإنزال العقـوبات النظاميـة الصـارمـة على جميع المتجـاوزين لهذا، وتـدبر كثيرون كتـابة المراسيم في كتـب الشهـداء، من أجل أن تتم تلاوتها في بيت الهيئة الرهبـانيـة، وفقـاً لأحكـام القـديس بندكت، من أن يدخلوا إلى قلوب الذين سمعوهم.

تضييق الحصار على بلنسية المدينة الإسبانية

وشنّ في هذا العام النبيل والمسيحي الممتاز، ملك أراغون مع حلفائه، الحرب، بنشاط متميـز ضد مدينة بلنسية العظيمـة، حيث جرى تضييق الحصـار عليهـا من جميع الجهـات، حـتى أنها ضعفت وقـاربت على الهلاك.

تكريس بعض الكنائس الفخمة

وجـرى في حـوالي الوقت نفســه تكـريس بعض الكنائس الـديرية الفخمـة من قبل روبرت أسقف لنكولن، في مـارش Marsh في أسقفية لنكولـن، وكان ذلك في: رامسي Ramesy وبورغ Burg [بيتر بورا Peter borough] وسـوتري Sautery وجـرى تكريس كنيسـة رامسي في ٢٢- أيلول، وكـان ذلـك يوم عيـد القـديس مـوريس ورفـاقـه، وكنيسـة بورغ في ٢٨- أيلول، وكنيسـة سـوتري في الأسبـوع نفســه، وكنائس أخـرى كثيرة في جميع أرجــاء انكلترا، وفقـاً للمـؤسســات والأحكام التي نشرت في لندن من قبل النائـب البـابوي أوتو.

بلدوين امبراطور القسطنطينية يزحف في بلاد الإغريق مع قوة مسلحة

وانطلق في هذه الآونـة الامبراطور بلدوين، امبراطور القسطنطينيـــة،

يريد المقاطعات الاغريقية مع قوة كبيرة، واستهدف اخضاع الذين ثاروا ضده شخصياً، وضد الكنيسة الرومانية، تحيط به قوة كبيرة، وذلك بقدر ما أمكن لحلفائه وأقربائه أن يمدّوه به، وفي سبيل تزويد خزينته بالمال، باع أكثر آثاره قيمة إلى الملك الفرنسي، ورهن بعض أكثر مقتنياته ثمناً، لأنه (كما تقدم الذكر أعلاه) قد جاء من النبالة الفرنسية، وقام البابا، في سبيل ازعاج منافسه واغضابه، أي الامبراطور فردريك، فقدم إليه يد المساعدة، بقدر ما أوتي من قوة.

ولادة ولد ذكر لسيمون دي مونتفورت

ومع مقدم العام الجديد، عندما كان أ. A أسقف شيستر يسير متوجهاً إلى لندن بناء على استدعاء من الملك، ولد الابن الأكبر لسيمون دي مونتفورت من إليانور زوجته في نيلوورث، وذلك ليزيد من قوة المملكة وسعادتها، لأنه كان يخشى بأن تكون الملكة عاقراً، وبناء عليه، ولكي يزيد الأسقف من مكانته شخصياً لدى الملك، أقام هناك بعض الوقت، وقام بتعميد الطفل، وحمل في اليوم نفسه إلى فراشه، لأنه هوجم من قبل مرض شديد، أوصله إلى حافة الموت.

رئيس أساقفة أنطاكية يدعي التفوق على الحبر الروماني

وفي العام نفسه، قام رئيس أساقفة أنطاكية (مع موافقة جرمان، رئيس أساقفة القسطنطينية، والمحامي عن الاغريق، ونائب البابا المضاد) فأقدم بطيش وعنف واندفع بوقاحة كبيرة، أوصلته إلى حد أنه أعلن من خلال سلطات فارغة عن الحرمان الكنسي للبابا، مع جميع الكنيسة الرومانية وبلاطها، وبشّر بوقار بالتجديف، ووضع نفسه وكنيسته أمام قداسة البابا والكنيسة الرومانية، في مجالي العمر والرتبة، أي أن كنيسته كانت متفوقة على الكنيسة الرومانية، لأن القديس بطرس قد تولى في المقام الأول حكم كنيسة أنطاكية لمدة سبعة أعوام مع التشريف الأعظم،

لأنه قد استقبل هناك بأعظم احترام ممكن، ومثل ذلك جرى تتويجه بشكل مشرف، لكنه تعرض في روما للمضايقة الشديدة، وأوذي مراراً، ووجّه إليه اللوم، وأخيراً بعدما عانى وتألم مع تابعه الرسول بولص، في أيام الامبراطور نيرون، أنهى تعذيبه بموت مرعب، وبناء عليه الاستحقاق جدير بالمدينة والمقاطعة مع أهلها وسكانها، الذين كانوا الأعز والأكثر محبة لدى القديس بطرس، وبالذين أظهروا نحوه الاحترام، وليس للذين أنزلوا به العذاب، وأهانوه، وهكذا كان من الواضح أنه أضفى بكرم منه سلطة الربط والحل على الكنيسة الاغريقية، وليس على كنيسة روما، التي تلطخت الآن بوصمة السيمونية، والربا، والشره، وذنوباً أخرى كثيرة.

وبوساطة هذه المناقشات الخرافية وسواها، أغلق البابا المضاد المذكور مواضع تشوهاته وأخفاها، من أجل دماره، وعمل تسويغاً لذنوبه، لكن عمود الكنيسة، وهو البابا الصحيح، والخليفة لبطرس الرباني (مع أنه غير مقلد له تماماً) قد بقي ثابتاً دون أن يتحرك، واحتفظ بجميع انتقاماته حتى يوم الحساب.

فيضان للأنهار غير اعتيادي وغير طبيعي

وفي العام نفسه، تدفقت الأنهار بشدة، وفاضت فوق عدد كبير من الحقول والأراضي المستوية، وجاء ذلك بشكل غير اعتيادي وغير طبيعي، وكانت الأماكن التي غمرتها ليس فيها ماء من قبل وجافة تماماً، وازدادت فجأة، وبشكل سريع مرعب، إلى حد أن الأسماك سبحت في أرجائها، وسببت قسوة الأنواء وأمراضها سريان كثير من الأوبئة المتنوعة، وبذلك كانت قسوة الأنواء أشبه بطاعون على الأرض، وشعر شعب المنطقة مع المزارعين، وكذلك الفرسان، والنبلاء، ورجال الدين بسوط عذاب الرب هذا.

كيف أودع روبرت بيغر

وهو راهب ومحقق مع الهراطقة السجن الدائم بسبب وحشيته

وكـــان هناك في هـذا الوقت نفســـه راهب من طـائفـــة المبشرين (الدومنيكان) اسمـه روبرت بيغر Bugre وكان رجل علم وأدب، وكان قـديراً وفصيحاً في عمله بـالتبشير، وقد اكتشف وجـود عدد كبير من الناس في مملكة فرنسـا، قد تلطخوا بشرور الهرطقـة، وبشكل خاص في فلاندرز، حيث بوسـاطة عادة قـديمة، كان السكان مشهـورين دوماً بشرور الربا، أكثر من أي شعـوب أخرى، ولذلك غالبـاً ماتولى تفحص هؤلاء الناس بكل دقـة بشأن إيمانهم، فـوجدهم قـد ابتعـدوا أو بالحري ضلوا عن الطريـق الصحيح، وبالتعـاون مع الســلاح المدني، مع عـون ملك فـرنسا، تدبر الراهب روبـرت المذكور احـراقهم، وقد تميـز هؤلاء جميعـاً وعرفـوا باسم عـام هو «البيغـريين»، سواء أكـانوا: بطرسيين، أو يهوبين، أو ألبينيين، أو تلوثوا بهرطقات أخرى، وكان روبرت هذا نفسه قبل أن يرتدي الرداء الرهباني من جماعة «البيغـريين»، ونتيجة لهذا عرف جميع رفـاقـه من الطائفة نفسهـا، فأصبح المتهم لهم، والمطـرقة، والعـدو الخاص، وأســاء أخيراً استخـــدام السلطة التي أسندت إليـــه، وأصبح متشامخاً، وقوياً، ومرعبـاً، مزج الصالح بالطالح، وعاقب الأبرياء وذوي العقـول السـاذجة، ولـذلك مُـنع مـن متابعـة ممارسـة غضبـه، في ذلك المنصب الرهيب، ولكـن بما أن جـرائمـه (التي أعتقـد أنه من الأفضل السكوت عنهـا بدلاً من حكـايتهـا) أصبحت فيما بعـد واضحـة أكثـر، ومشهورة، أدين وحكم عليه بسجن أبدي.

كيف بهتت شهرة الامبراطور فردريك

وفي خلال العام نفســه، أعتمت شهرة الامبراطور فردريك وتلطخت من قبل الأعداء الحسـودين والخصوم، فقـد عزي إليـه أنه كان متشككاً

بالعقيدة الكاثوليكية، أو بالحري قد ضلّ وابتعد عن الطريق القويم، وقد تفوه في بعض خطبه بمايمكن أن يستخرج منه ويشك، بأنه لم يكن فقط ضعيفاً بالإيمان الكاثوليكي، بل إن الجريمة التي كانت أعظم وأشد خطورة هي أنه كان فيه هرطقة كبيرة جداً، وتجديف مخيف وكفر مكروه من قبل المسيحيين كلهم وملفوظ، لأنه قد روي بأن الامبراطور فردريك قد قال (مع أنه ربما من غير الموائم ذكر ذلك) بأن ثلاثة مشعوذين، قد قادوا ببراعة متناهية، وضللوا معاصريهم ليحصلوا لأنفسهم على سيادة العالم، وكان هؤلاء هم:

موسى، ويسوع، ومحمد (صلى الله عليه وسلم)، وأنه قدم بشكل غير تقوي بعض الهذيان الشرير، والذي لايمكن تصديقه مع التجديف، فيما يتعلق بالقربان الأعظم قداسة، ليكن هذا بعيداً، وليكن نائياً، عن أي رجل مستقيم، على الأقل هو مسيحي، بأن يفتح فمه ويحرك لسانه للتفوه بمثل هذا الهذيان، التجديفي، ولقد قيل أيضاً من قبل منافسيه، بأن الامبراطور وافق، لابل آمن بشريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) أكثر من إيمانه بشريعة يسوع المسيح، وأنه عمل بعض العاهرات المسلمات خليلات له، وسرت اشاعة بين الناس (لاسمح الرب أن تكون صحيحة بالنسبة لمثل هذا الأمير العظيم) بأنه متحالف منذ زمن طويل مضى مع المسلمين، وأن صداقته نحوهم أعظم من صداقته مع المسيحيين، وأن خصومه الذين يسعون نحو تشويه سمعته، قد حاولوا أن يؤكدوا هذا بعدة براهين، وسواء أأذنبوا أم لا، وحده الذي هو غير جاهل بشيء يعرف.

روبرت الناسك يصبح مشهوراً

وفي العام نفسه، أصبحت أيضاً شهرة روبرت الناسك معروفة في الخارج، لأن قبره في نيربورا Knaresborough أخذ —كما قيل— يرشح زيتاً دوائياً بكميات كبيرة.

-٦٩٤٦-

نهاية السنة

كان الشطر الأخير من هذا العام كثيف الغيوم وممطراً، واستمر ذلك حتى مضي الربيع، عندما تداعت كل الثقة بالموسم، وخلال شهرين أو أكثر من أشهر الصيف، كان المناخ جافاً إلى أبعد الحدود، وبشكل غير اعتيادي، وحاراً، ومع اقتراب الخريف أصبح المناخ رطباً، وممطراً، وبذلك استرد الموسم بشكل رائع، وأينعت نباتات جديدة مكان النباتات التي ذبلت، وكانت هناك كميات وافرة من القمح، وفي نهاية الخريف، حدث على كل حال، أن الذين أخروا قطافهم قد حرموا من مواسمهم، بسبب تساقط أمطار غزيرة متواصلة، حتى أن القش والقمح قد تعفن، وتسبب هذا الخريف غير الاعتيادي، الذي عدّ بشكل عام جافاً وبارداً بسريان عدة أنواع من الأمراض الخطيرة، وما من أحد قد رأى من قبل مثل كثرة الذين أصيبوا بالحمى الربعية، ويتوجب أن نوضح أيضاً، أنه في هذا العام كان حرف يوم الأحد هو ب. B وأن يوم الاستعداد كان يوم جمعة، وقد دعي يوماً مقدساً، وأن اليوم التالي قبل عيد الفصح (عند اليهود) كان يوم بشارة مولانا، وكذلك يوم آلامه، واليوم الثالث بعد الفصح الحقيقي هو يوم قيامة ربنا، لأن ربنا قام ثانية في السادس والعشرين من نيسان وتأكد في اليوم الرابع [كذا] قبل ذلك، أي في الرابع والعشرين من نيسان، وهكذا وقع كل شيء في هذا العام في وقته الصحيح.

خلاف بين الملك وبين غيلبرت الإيرل مارشال

في سنة النعمة ١٢٣٩، التي كانت السنة الثالثة والعشرين من حكم الملك هنري الثالث، عقد الملك بلاطه في عيد الميلاد في وينكستر، مع وفرة عظيمة من التشريف الصحيح، والسخاء الكبير، لأن الكنيسة في ذلك المكان استمرت بالحصول على مايكفي وتزويد الملك به، لا بل بوافر الحاجيات من أجل جميع هذه النفقات الخاصة بالقصف والشرب،

وهذا لم يكن الملك آسفاً البتة من أجله، لأنه من أجل هذا العمل، لو كان لديه موبخ صادق، وله نفوذه، ودقيقاً، لاستحق عليه ملامة شديدة، ولولا أن أعطيات صدقاته، التي استمر يمنحها بشكل واسع وبكرم (التي كما ورد في كتاباتنا المقدسة تغطي ذنوبنا) أنقذت مثل هذه الأعمال، لسببت رعباً عظيماً له نفسه وللمملكة، وذلك بإثارة غضب الرب ضده، وعندما —على كل حال— أقيم القداس في يوم عيد الميلاد، وأكمل بشكل مهيب، و بصورة فخمة، ومن أجل أن لاتأتي بهجة هذا العالم من دون شوائب، إن عدم النظر إلى الحادثة أزعج تماماً جميع سرورهم وقصفهم وأفسده.

وعندما عمل الملك ظهوره في قصره الملكي ليتناول طعام افطاره، وصل غيلبرت، الايرل مارشال إلى الباب، مع أتباعه الفرسان، ليحصل على قبول، لكن عندما صعد نحو الباب، ورغب بالدخول، حرمه حفظة أبواب الملك والمارشالات بفجاجة من الدخول، وردوه بعصيهم مع حاشيته بمهانة وازعاج، وعندما رأى الايرل ذلك، شعر عن قناعة بأن بعض النمامين قد زرع بذور الخلاف بينه وبين الملك، وأن هذا الذي فعل لم يكن من دون تفويض الملك، وقام هو —على كل حال— فكبت مشاعره، وعاد إلى بيته في المدينة، ثم إنه في سبيل استمرار هدوء العيد، ولكي لايفسد وئامه، دعا بوساطة صوت البوق، ليس فقط أصدقائه، بل عدداً كبيراً من الآخرين، اختارهم للاجتماع على مائدته، من أجل تناول طعام الإفطار، وفي صباح اليوم التالي، أرسل —على كل حال— بعض الرجال من ذوي المراتب العليا إلى الملك، وطلب منه أن يعلم لماذا أنزل به من دون سبب مثل هذا الأذى العظيم، مع أنه الايرل الذي كان خاضعاً باخلاص له، وهو صاحب أصل نبيل، ولاسيما في مثل ذلك اليوم، وأعلن أنه على استعداد لتبرئة نفسه بالمحاكمة، حول جميع النقاط التي أثيرت ضده، وضد جميع الذين أثاروا العداوة بين مثل

هاتين الشخصيتين المشهورتين، وأجابهم الملك وهو غاضب:

«من أين حصل الايرل غيلبرت على قرنيه؟ وكيف حدث أنه يهدد برفع كعبه فوقي، ضدي أنا الذي من الصعب بالنسبة له أن يرطم؟ وأخوه ايرل رتشارد الذي كان خائناً دموياً، وقد ثار ضدي وضد مملكتي، أنا جعلته سجيناً، عندما اشتبك بصراع مميت ضدي في ايرلندا، وقد جرد من ممتلكاته، ووضع في السجن وهو جريح، حتى أنهى انتقام الرب، الذي استحقه، حياته، وإلى الايرل غيلبرت هذا منحته ميراثه، بناء على الالتماسات المستمرة لادموند رئيس أساقفة كانتربري، وقد منحته ذلك كمعروف، وليس لأنه استحق ذلك البتة، مع أنني أرغب بسحبها منه».

ولدى سماع الايرل هذا، ارتعب إلى درجة كبيرة جداً، وسحب نفسه إلى المقاطعات الشمالية، لأنه الآن بدأ يعاني من غضب الملك المعلن، كما أنه بعد هذا لم يحب الملك، هو أو أخوه وولتر بعاطفة صادقة، كما فعلا من قبل، كما أنهما لم يعودا يتمتعان بالازدهار.

موت إدموند أسقف شيستر

في يوم القديس اسطفان، أغلق ادموند، أسقف شيستر حياته.

الملك يمنح كونتية ليستر إلى سيمون دي مونتفورت

في يوم طهارة العذراء المباركة، منح الملك كونتية ليستر إلى سيمون دي مونتفورت، وكان قبل ذلك قد استدعى أخاه الأكبر ايرل ألماريك Almaric وطمأنه وأرضاه حتى لايثير في أي وقت أي خلاف حول هذه المسألة.

استدعاء الملك ستيفن سيغريف إلى مجالسه

وفي هذه الآونة، استدعى الملك، ستيفن سيغريف إلى مجالسه.

النائب البابوي يستدعي رعاة طوائف الرهبان السود للاجتماع في لندن

وفي الوقت نفسه، استدعى النائب البابوي جميع أساقفة انكلترا، للاجتماع في اليوم الذي يغنى فيه مزمور: «دعوا القدس تبتهج» في لندن، ليناقشوا هناك شؤون الكنيسة، وهناك أعطى بعد مداولات دقيقة، إلى رهبان الطائفة السوداء، بعض القوانين، القصيرة والمحكمة، حتى تنفذ من قبلهم من دون جدل، وقد لطف النظام الشديد لديهم، في عدد من النقاط.

إلغاء انتخابي الأسقفين المنتخبين لنورويك وشيستر

وفي الوقت نفسه جرى بتدخل من الملك (بسبب أن هدفه بانتخاب وليم الأسقف المنتخب لبلنسية لم ينجح) إلغاء انتخاب الأسقف المنتخب لنورويك، الذي كان رئيس رهبان البيت نفسه، وكان رجلاً جديراً بالاحترام، من جميع الجهات، ومستقيماً، وفعل الشيء نفسه بالنسبة لانتخاب أسقف شيستر، أي ر. R مستشار الملك، الذي طُلب ليكون أسقفاً لوينكستر، وكان رجلاً صادقاً، ومستقيماً، وكان وحده تقريباً ركيزة الصدق بين رجال البلاط.

انتخاب وليم دي ريل أسقفاً لشيستر

وفي هذه الآونة، رأى رهبان كوفنتري أن الملك استمر دوماً يعيق الكهنة النظاميين ويمنعهم من القيام بانتخابهم، وأنه لم يوافق على أي واحد جرى انتخابه من قبلهم، مالم ينل الحظوة الملكية والقبول، ولكي لاتعاني كنيستهم من خسائر لايمكن تعويضها، ومن الأذى من خلال التأخير والتأجيل المتواصل والتوقعات، قاموا في حوالي أيام عيد القديس متى، فانتخبوا بالاجماع وليم دي ريل، وكان كاهناً خاصاً لدى الملك، وكان رجلاً مستقيماً، وواحداً من البارعين في شريعة البلاد، ولقد

انتخبوه ليكون أسقفهم والراعي لأرواحهم، لأنه بدا أنه كان رجلاً غير ملطخ بأي سوء، يمكن أن يثير الرفض أو الاعتراض.

استدعاء النائب البابوي للعودة إلى الوطن لكنه بقي في انكلترا بناء على طلب الملك

وفي تلك الآونة كان صاحب القداسة البابا، يسمع بشكل متواصل، لابالحري يومياً، ويتلقى اتصالات، بأن الفضائح التي تسبب بها الطمع الذي لايعرف الكفاية مع شره الرومان، قد ازدادت يومياً من سيء إلى أسوأ في انكلترا، فاستدعى نائبه أوتو، وطلب منه العودة فوراً إلى روما، وبناء عليه دعا النائب البابوي أساقفة انكلترا للاجتماع في لندن، للتباحث حول عودته، وللترتيب من أجل أمان مروره، وعندما سمع الملك بهذا، بات مرعوباً كثيراً على نفسه، من الاجتماع العام الذي كان على وشك الانعقاد في ثمانية الفصح، وذلك عندما كان متوقعاً وصول أسقف بلنسية المنتخب، ووضع ثقته كلها بالنائب البابوي، لأنه كان حاضراً، ومع ذلك كان حزيناً جداً وخائفاً، خشية أن يثور النبلاء والرجال ذوي المراتب في المملكة ضده باتفاق عام، بسبب تجاوزاته المتنوعة، وأعمال خروقاته المتكررة ضد القوانين التي طالما وعد وأقسم على مراعاتها والحفاظ عليها، ولذلك تقدم بالتماسات سريعة وملحة إلى النائب البابوي، حتى يرسل أكثر الرسل مواءمة، بكل سرعة ممكنة إلى البابا، لكي يبقى في انكلترا، حتى يمكن بوسائطه قمع الاضطراب الوشيك، وبقي النائب البابوي، لأنه لم يرغب في ازعاج الملك برفض طلبه.

بطرس المسلم يقدم إلى الامبراطور مبلغاً كبيراً من المال مقابل فديته

وعرض في هذه الآونة بطرس المسلم، الذي احتجزه الامبراطور

فردريك أسيراً لديه، دفع مبلغ عشرة آلاف باوند استيرليني فدية، ولكي يحصل على حظوة الامبرطور، وبـذلك يجري اطلاق سراحـه ويتحـرر، وكان الامبراطور قـد وافق على هذا، على شرط أن يصبح صـديقه ملك انكلترا، ضامناً من أجل دفع مثل هذا المبلغ الكبير من المال، وأن لايقوم بطرس المسلم المذكـور ولا أي من أتبـاعـه، منذ ذلك الحين فصـاعـداً، بتسبب إلحاق الضرر بـالجلالة الامبراطوريـة، بأي شكل مـن الأشكال، ثم إن بطرس المذكـور كتب إلى صاحب القـداسة البـابا، وإلى أصدقـائه الآخـرين، يرجوهـم، بما أنه كان دومـاً على استعـداد، وجاهزاً وراضيـاً بانفاق أمواله في سبيل رفع شأن الرومان ومصالحهم، لحث ملك انكلترا المذكور، بوسـاطة كل من النائب البابوي، وأصـدقائه المقـربين الآخرين ليتعهد باسمه شخصياً وباسم مملكته بالقبول بالشروط المذكورة.

وعندئذ صـار النائب البابوي وسيطاً نشيطاً، ووكيـلاً في هذا العمل، وقال بإنه لايستطيع بشرف أن يرفض تقديم المسـاعدة لرسوله السجين، لكن الملك رأى أن الفخ كـان منصـوباً له، وعـرف مقـدار الخطر الذي يمكن أن يحيق بمملكتـــه، وأن ذلك ليس من شأن الرومـــان، مـادامت مقتنيـاتهم محفـوظة إليهم، وانفجر متفـوهاً بكلمات غـاضبـة، وأقسم أنه آسف لأنه تخلى عن الرجال الانكليز الأمنـاء، واستدعى النائب البابوي إلى انكلترا، وهو الذي بدد ثروات البـــلاد، ومـزج الصـواب مع الخطأ، وفي ظل مثـل هؤلاء الحكام أصبحت انكلترا آنئـذ —وبالفعل كــــانت كذلك— كرماً، كل من يمر على الطريق يلتقط منه عناقيد، لأنه ليس له سور يحميـه ويحيط به، ولاحارس يحرسه، لأن الذي حرّمـه اللاهوتيون مرة بحرارة، سمحوا به مرة أخرى.

إعطاء سردينيا إلى الامبراطور

في هذا العام، عندما كان الامبراطور يمضي الشتاء في ايطاليا، أعطيت له الجزر الغنية، الواقعـة في البحر المتوسط، والمجـاورة لمدينة بيزا، والتي

كانت أكبرها وأعظمها قوة جزيرة سردينيا، وتمّ التخلي له عنها، وقد قيل بأن امتياز هذه الجزيرة، كان يعود بشكل خاص إلى ميراث القديس بطرس ووقفه، لكن الامبراطور أكد أنها تعود منذ زمن قديم إلى الامبراطورية، إنما بسبب انشغالات الأباطرة، ولكثرة الضغوط الأخرى والضرورات الامبراطورية قد جرت خسارتها، وأنه قام الآن باستردادها إلى جسم الامبراطورية، وقال:

«لقد أقسمت، كما يعرف العالم تمام المعرفة، بأنني سوف أسترد الأجزاء المتفرقة من الامبراطورية، وهذا لن أكون متراخياً في انجازه»، وبناء عليه هو لم يعبأ بتحريم البابا، وبعث ابنه، لتسلم حصة الجزيرة المتقدم ذكرها، التي منحت إليه، وعندما سمع البابا بهذا امتلأ بأعظم الغضب، ونهض للقيام بانتقام علني، لأنه عدّ فقدانها خسارة عظيمة، لأن جزيرة سردينيا —كما قيل— كانت في الحقيقة، مكان لجوء للتجار، وموضع راحة للناس الذين جنحت سفنهم، وملاذاً للمنفيين، وقد حكمت من قبل أربعة مقدمين، هم الذين أطلقوا عليهم اسم قضاة، وكانت الخسارة ثقيلة، لكن طريقة خسارتها كانت أثقل في تحملها، وقد بدت كإيذاء كبير، وظهر أن الكراهية التي تفجرت بين الامبراطور وبين البابا، كانت أشبه بجرح قديم، أنتج قضايا قذرة.

رئيس أساقفة كانتربري يرهق الرهبان

وفي هذه الآونة ألقى ادموند رئيس أساقفة كانتربري يده بثقل أكثر على رهبانه، وجرى وضع رهبان كانتربري تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، كما أن رئيس الرهبان الجديد الذين انتخبوه، قد وضعه أيضاً تحت الحرمان الكنسي، وكذلك وضع الذين انتخبوه.

خلاف بين أسقف لنكولن وبين كهنته

وأصبح أسقف لنكولن أيضاً مطرقة ومعذباً وحشياً للرجال الدينيين

في أسقفيته، لأنه ثار بدون تردد ضد الكهنة النظاميين العـائدين لكنيسته الكاتدرائية، الذين أوجـدوه، وطالب بكل حرارة بعـزل عميد لنكولن، وأنهم ينبغي زيارتهم زيارة تفقـدية مـن قبل الأسقف نفسـه، وذلك على عكس مـا كانـت عليه عـادة الكنيسـة منذ زمن مغـرق بالقدم، وتقـدم الكهنة على كل حال بشكوى مستعجلة، وقاموا بعد أعمال تأخير واعاقة طويلة، وخلافات كبيرة، فأحالوا القضية إلى محكمين هم: وولتر أسقف ووركستر، ورئيس شمامسـة المكان نفسـه، والمعلم أ. A أوف بكل Beccles وأنهم إذا لم يقـومـوا بالاجـراءات بشكل قـانوني، جـرى السماح لكل واحد من الطرفين بالترافع ثانية إلى البابا، وفي الوقت نفسه توقفت الفئتـان عن الزيارة، وبهذه الإضـافـة، أي «توقف الفـريقـان في الوقت نفسـه عن الزيـارة» كـان معنى هذا أن فـريق الرهبـان كـان في خطر، لأن الأسقف لم يزرهم قـط، والذي لم يبـدأ قط لايمكن إيقـافـه، لأنه كما جـاء بالأمثـال، الـذي ليس لديه قـرنين، لايمكن أن يخسر أياً منهما، ومع هذا أن يتوقف العميد عن الزيارة، الأمر الذي كان في سبيله يناضل الكهنة، قـد ظهـر بذلك أنه قـد جـرد مـن ممتلكاته، ولو للوقت الحالي، وبـذلك ازداد الخلاف، ونشـأت فضيحـة كبيرة، وهكذا ثـار الخلاف والصراع فيما بينهم، ووصـل بذلك إلى حـد إثارة مشـاعـر الغضب، فلم يسمح الكهنة للأسقف بالـدخول إلى هيئة رهبـانيتهم، أو القيـام بأية زيارة تفقـدية بينهم، وأعلنوا بوضـوح أمـام الأسقف نفسـه بأنهم كـانـوا آسفين جـداً، أنهم أوجـدوا أسقفـاً مـن مثل هذا الشخص الدنيء، ونشب خلاف كبير، وبعـد قليل من الإنفاق بلا فـائدة من على الجانبين، عملت مـرافعة لتقـديمهـا إلى البابا، وجـرى تعيين المعلم أودو دي كنكلني Kinkelny محاميـاً عن الهيئة الكهنوتية، وفي أحـد الأيام وقعت واقعة مدهشة:

عندمـا كان واحـد من الكهنة المؤيدين لموقف الهيئة الكهنوتيـة، يعظ

الناس في بناء كنيسة لنكولن الفخم، قدّم إليهم جميعاً شكوى جادة ضد ظلم الأسقف، وتفوه بالكلمات التالية:

«نحن وإن كنا صامتين، فإن الحجارة سوف تصرخ رافعة صوتها عالياً»، وعندما تفوه بهذه الكلمات، تحطم جزء كبير من الكنيسة وتهاوى.

عواصف جديدة من المطر

ومع اقتراب الربيع، وفي حوالي أيام عيد الفصح، توقفت عواصف الريح، والأمطار الغزيرة، وذلك بعدما استمرت بشكل متواصل لمدة أربعة أشهر، عاملة الوحل على الأرض، إلى حد أن البحيرات والمستنقعات، كادت تخنق القمح، وتفسد الأجواء.

مقتلة المسلمين في إسبانيا

وفي العام نفسه، في يوم الثلاثاء بعد الفصح، عملت مذبحة كبيرة بين المسلمين في منطقة قرطبة، من قبل ملك قشتالة، أخو بلانشي، ملكة فرنسا، وأم الملك.

وفاة وليم دي كانتلوب

وفي تلك الآونة نفسها، وبالتحديد في السابع من نيسان، مات البارون الشهير، وليم دي كانتلوب Cantelupe والد أسقف ووركستر، عن عمر متقدم.

الملك يسعى لإعادة مستشاره

وفي هذه الآونة، وبالتحديد، في الأسبوع الذي أعقب عيد الفصح، أصبح الملك آسفاً، بسبب عمله غير النظامي وغير المستقيم، في انتزاعه ختمه، وإبعاده عن نفسه وعن بلاطه مستشاره، أسقف شيستر، الذي شغل من قبل ولمدة طويلة منصبه بأمانة، وقد سعى الآن بوساطة

مختلف وسـائل الجذب والوعـود إلى إعـادته، لكنه كـان —على كل حـال— يؤثر التقاعد والاعتزال، والهدوء للعناية بنفسه، والاستمـرار بربحه ونجاته من خطر حمل الخاتم، ولذلك رفض الوقوع ثانية بالمصائد التي نجا منها مـرة، وتذكـر كيف أنه دعي وجرت تسميته لأسقفية وينكستر، وكيف أن انتخابـه قـد ألغي من قبل الملك، الذي كـان قـد خدمه لمدة طويلة بكل اخلاص، وهـو أيضاً قد خـدم والده في منصب آخر.

ملك اسكوتلندا يتزوج من ابنة اينغلرام دي كوسي

وفي هذه الآونة اقترن الاسكنـدر، ملك اسكوتلندا بـابنة اينغلرام دي كوسي Engelram de coucy وكان بارونـاً نبيـلاً من المملكة الفـرنسية، وكـانت فتاة جميلة اسمها مريم، وجـرى الاحتفال بالعـرس بشكل مهيب في روكسبورغ Roxburgh في يوم أحد الشعانين.

عدم مغادرة النائب البابوي بناء على طلب الملك

كـان النائب البابوي، وكأنه على وشك المغـادرة، والعودة إلى البـلاط الرومـاني، ولذلك استأذن الملك بتـواضع، وكـذلك رؤسـاء الأساقفـة، والأساقفة، وسكان لندن، في قداس أعدّه خصيصاً لهذه الغاية، وقد باع الخيول الأصيلة التـي أعطيت له، بشروط جيدة، واشترى خيـولاً عادية مكانهم، وأعدّ حقـائبه، وهيأ سرج ظهور المطايا، وكـان الملك يعتقد أنه سـوف يموت بغيـابه، فبذل جميع الجهـود التي كـانت بطاقته، لاقناعـه، بالمكوث ولـو لمدة صغيرة أطول، ذلك أنه كـان قـد بعث إلى البـلاط الرومـاني واحـداً من محاميـه، الذيـن احتفظ بكثيرين منهم (مثلما يحتفظ الصيـاد بكلاب الصيـد) ليبقي منتخبي الأسـاقفة متفـرقين، وكـان هذا المحامي هو سيمون النورماني، وكانت مهمته الحصول من البابا على أمر إلى النائب البابوي ليطيل مكوثه في انكلترا، ليتحـاشى كثيراً من المخاطر

هناك، ولم يكن في هذا الرأي مخدوعاً، لأنه عندما كان جميع أثاث النائب البابوي وحقائبه قد اكتمل إعداده، رجع سيمون النورماني، جالباً معه رسائل، حصل عليها بها يتوافق مع رغبة الملك، ولدى إطاعة النائب البابوي لمحتوياتهم غلب السرور على الملك، أما النبلاء الذين كانوا يعرفون تقلبات الملك مثل مراوغة الثعلب، فقد غادروا غاضبين، دون أن يحققوا هدفهم، ومقتوا كلام الملك مثل مقتهم كلام المغالطات السوفسطائية.

انتخاب وليم دي ريل إلى أسقفية نورويك

وكان رهبان كوفنتري قد فرغوا الآن من إعداد شروط مشرفة من أجل انتخاب الأسقف مع كهنة كنيسة ليشفيلد Lichfield ووافقوا —كما ذكرنا من قبل— بالاجماع، على انتخاب وليم ريل، ليكون أسقفاً لهم، وذلك من خلال الخوف، أنهم إذا ما انتخبوا أي واحد آخر، غير محظي لدى الملك، سوف يعارضهم الملك مواجهة، وسوف يسبب لهم الاضطراب، كما هي العادة، وفي الوقت الذي بقي فيه وليم المذكور في حالة تردد، وتعليق، ومثل رجل حكيم ومجرب، يزن حوادث المستقبل بميزان العقل، رأى رهبان نورويك، أنهم قد انتظروا لوقت طويل، لأنهم لم ينتخبوا وليم المذكور، أسقفاً لأنفسهم، ذلك أنهم بهذا الانتخاب سوف لن يزعجوا الملك ولا أي واحد آخر، ولذلك اجتمعوا على الفور مع بعضهم، وانتخبوا وليم دي ريل المذكور بمثابة أسقف لأنفسهم، وعند ذلك رفض وليم المذكور الأسقفية الأخرى التي حصل عليها بالحظوة وقبل أسقفية نورويك، ذلك أنه فضّل البقاء في انكلترا مع الانكليز، على الذهاب إلى ويلز، والبقاء مع الويلزيين غير المدجنين.

تحصين برج لندن

وجرى في هذا العام تحصين برج لندن، مما جعل سكان لندن يخشون

بأن يتحول هذا لإيذائهم، ولدى تقديمهم شكوى حول هذه المسألة إلى الملك، أجابهم بأن ذلك لم يكن للإضرار بهم أو لإهانتهم، وقال:

«بل إنني سوف أسعى، من الآن فصاعداً، بإعادة بناء قلاعي، لأن أقلّد إخواني، الذين أفادت عنهم التقارير، أنهم أكثر حكمة مما أنا عليه».

تزايد العدوانية والكراهية بين الامبراطور وبين البابا

وفي أيام الصوم الكبير من العام نفسه، رأى البابا المسيرة الطائشة للامبراطور، وسمع كلامه الذي سوغ به ذنوبه، حيث أنه بتقديمه الخطوة والمساعدة لبعض نبلاء سردينيا وقضاتها، استمر حتى استولى عليها، وأدخلها في حوزته، ومازال مستولياً على أرض وقلاع أسقف سردينيا، وقد أعلن باستمرار، بأنهم حصة من الامبراطورية، وأنه بيمينه الرئيسي والأول قد أعلن أنه سوف يحافظ على حقوق الامبراطورية، بقدر ماأمكنه من قوة، وأنه سوف يجمع الأجزاء المتفرقة منها، وأنه بعمله هذا قد زاد الغضب عنفاً ضده، ورفع ضده بعض الشكاوى الثقيلة والدعاوى، وغالباً ما كتب بجرأة وبدقة إليه، وكثيراً مانصحه بوساطة عدد كبير من الرسل الخاصين، الذين كانت سلطاتهم تستوجب أن ينالوا منه، أعظم الاهتمام، وأن يقلع عن حرمان الكنيسة من ممتلكاتها، التي منحت إليها بوساطة سجلات قديمة، وتعامل معه مثل الطبيب الماهر، الذي استخدم أحياناً الكمادات، ولجأ في وقت آخر إلى استخدام أداة الكي، ومزج التهديد مع الاقناع، والرسائل الصديقة مع الانتقادات المرعبة، وبقي الامبراطور —على كل حال— عاصياً رافضاً لطلبه، وعلّل أعماله وسوغها على حجج تأسست على المنطق، وبناء عليه قام صاحب القداسة البابا في أحد السعف، بحضور عدد كبير من الكرادلة، وفي حالة كان يغلي بها من الغضب في روحه، فحرم بشكل مهيب كنسياً الامبراطور فردريك المذكور، وكأنه كان يريد أن يخلعه من

منصبه الامبراطوري على الفور، وألصق به تهماً كثيرة، وأعلن أنه سيظل مملوكاً من قبل الشيطان حتى وفاته، وفي استخدامه لهذه الكلمات، التي كان وقعها مثل صواعق غضبه، أثار الرعب في قلوب جميع الذين سمعوه.

نص قرار الحرمان الكنسي الذي أعلن ضدّ الإمبراطور فردريك

«باسم الرب القدير، الأب، والابن، والروح القدس، وبوساطة سلطتي الرسولين: بطرس، وبولص، نحن نحرم كنسياً، ونحرم من شراكة المؤمنين الامبراطور فردريك المذكور، لأنه أثار عصياناً ضد الكنيسة الرومانية في المدينة، وحيث سعى لطرد الحبر الروماني وإخوانه من كرسيهم، كما قام في معاداة للإمتيازات، وللمرتبة، وللأشخاص، فداس على حرية الكرسي الرسولي، وعلى الكنيسة أيضاً، وذلك بوساطة العنف الطائش للقسم الذي ربط به هذه المسألة بالنسبة للكنيسة الرومانية، ونحن أيضاً نحرم كنسياً، ونحرم من شراكة المؤمنين الامبراطور المذكور، لأنه أمر بعضاً من رعيته، فأقدموا على حرمان أخانا المبجل أسقف برانستي Praeneste ونائب الكرسي الرسولي، من ممارسة أعمال نيابته التي عهدنا بها إليه، في مقاطعات الألبينيين، في سبيل تثبيت الإيمان الكاثوليكي، ومجدداً إننا نحرمه كنسياً، ونحرمه من شراكة المؤمنين، بسبب أنه لم يسمح لإحدى الكاتدرائيات وكنائس أخرى شاغرة لأن تملأ، وبهذه الوسائط تعرضت حرية الكنيسة للخطر، ومات الإيمان، لأنه لم يعد هناك من أحد يعرض كلمة الرب، أو يحكم أرواحهم بغياب راعي الأرواح، وأسماء الكنائس الشاغرة هي كما يلي:

كاتانا Catana, وريغيو Reggio, وأكريفيارا Accriviara, وسكويلاتا Squilata, وريسا Resa, وبوتنزا Potenza, وأوترانتو Otranto, وبوليكاسترو Policastro,وسارتينا Saretina, وأفيرسانا Aversana, وفالفا Valva,

ومـونوبولي Monopoli, وبولوغناغنو Polognagno, وملفي Melfi, ورابيلا Rappella, وكريبـوتو Cributo, وألفانا Alifana, ومـزارا Mazara, وفيجيليرا Vigiliara, وفـــريثينا Frethina, مع الديرة في فينوسيـا Venusia, والمخلص المقدس في مسينا Messina, ومجدداً نحن نحرم كنسيـاً الامبراطور المذكور، ونحرمه من شراكـة المؤمنين، لأن الكهنة في مملكته يعتقلون، ويسجنون، ويحكم عليهم بـالموت، ويقتلون، ومن جـديد نحن نحـرمـه كنسيـاً، ونحرمـه من شراكة المؤمنين، لأن الكنائس المكرسة في مملكتـه للرب قد دمرت ودنست، ومجدداً إننا نحرمه كنسيـاً، ونحرمه من شراكة المؤمنين، لأنه لم يسمح بترميم سـورانو Sorano, ومجدداً نحن نحـرم كنسيـاً الامبراطور المذكور، ونحرمه من شراكـة المؤمنين، لأنه عندما كان حفيد ملك تونس قـادماً إلى كنيسة رومـا لتلقي قداس التعميـد، احتجزه، ولم يسمح له بالـوصـول، ومجدداً إننا نحـرم الامبراطور المذكـور كنسيـاً، ونحـرمــه من شراكــة المؤمنين، لأنه اعتقل، ووضع بـالسجن بطرس المسلم، مع واحد من نبلاء سكان رومـا، عندما كانا قادمين إلى الكرسي الرسـولي لصالح ملك انكلترا، ومجدداً إننا نحـرمه كنسيـاً، ونحرمـه من شراكة المؤمنين، لأنه استولى على أراضي الكنيسة في:

فيرارا Ferrara, وبنغنوغــومـا Pingnogoma, وبولونا Bologna, وأسقفية فيرارا، وأسقفية بولونا، وأسقفية لوكا Lucca, وكذلك مقاطعة سردينيا، بعنف طائش وخرق لليمين الذي ارتبط به إلى الكنيسـة حول هذه المسألـة، ومجدداً نحن نحرمـه كنسياً، ونحرمـه من شراكة المؤمنين لأنه استـولى على أراضي بعض نبلاء مملكته وعـاث فيها فسـاداً، وذلـك حيث الحكم للكنيسـة، ومجدداً نحـن نحـرمــه كنسيـاً، ونحـرمه من شراكـة المؤمنين، لأنه حرم بعض الكنائس الكاتدرائيـة من مقتنياتها، وهي:

كنيسة مونت رويال، وسيفيلادا Cephelada, وكـــــاتانا Catana, وسكويلاتا Squilata, وأيضاً ديرة:

ميليتـو Mileto, والقـديسـة يوفيميـا Eufemia الكبير، والقديس يوحنـا في لامنتانو Lamentano, ومجدداً نحن نحرم كنسيـاً الامبراطور المذكور، بسبب أن كثيراً من الكاتدرائيـات، وكنائس أخرى، وديرة في مملكتـه قام بموجب تفتيش غير عادل، بحرمانهم من جميع مقتنياتهم تقريباً، ومجدداً نحن نحرمه كنسياً ونحرمه من شراكة المؤمنين، لأن الداوية والاسبتارية في مملكته الذين حرموا من ممتلكاتهم المتحركـة وغير المتحركة، لم يتم تعويضهم تماماً، وفقاً لشروط السلام، ومجدداً نحن نحرمه كنسياً ونحـرمه من شراكـة المؤمنين، بسبب أن قساوسة الكنائس، ورعاة طائفة رهبان السسترشيان والطوائف الأخرى في مملكتـه، مرغمين شهريـاً على دفع مبلغ محدد من المال، في سبيل بناء قلاع جديدة، ومجدداً نحن نحرم كنسياً الامبراطور المذكور، ونحرمه من شراكـة المؤمنين، لأنه بمخالفتـه لبنود السـلام، أرغم الذين وقفوا إلى جـانب الكنيســة، على مغادرة مناطقهم، وكأنهم قـوم محكوم عليهم بالإعـدام، وذلك في الوقت الذي جرى فيه وضع زوجاتهم وأولادهم في السجن، ومجدداً إننا نحرمه كنسياً، ونحرمه من شراكة المؤمنين، لأنه بسببه تعطلت الحملة الصليبية، وكذلك استرداد الامبراطورية الرومانية، وبالنسبـة إلى جميع الـذين مرتبطين به بموجب يمينهم بـالتـابعيـة، هم محللون من مراعـاة ذلك اليمين وتطبيقه، ونمنعهم بكل دقة من مراعاة مسألة تابعيتهم إليه، وذلك مادام مغلولاً بسلسلة الحرمان الكنسي، وأما بالنسبـة لظلمـه وأعمال الإيذاء الأخرى التي أنزلها بـالنبلاء، والفقـراء، والأرامل، والأيتـام، والآخـرين في المملكة، الـذين لصـالحهم كـان الامبراطور فـردريك المذكـور، قد أقسـم على الالتزام بأوامـر الكنيسـة، نحن ننوي أن نخلعـه، وبالنسبة لهذه المسـألة، سوف نسير بعـون الرب،

وفقـاً لما توجبه العـدالة علينا أن نفعل، وإنه عـلاوة على ذلك، بالنسبـة لجميع الذنوب المتقـدم ذكرها أعـلاه، جماعياً وإفرادياً، والتـي من أجلها كان فردريك المذكور قد جرى تنبيهه من قبلنا بكل دقة، وغالباً ما جرى لومه، ومع ذلك هو لم يكلف نفسه القيام بطاعتنا، إنه من أجل هذا كله نحن نحرم كنسياً فردريك المذكـور ونحرمه من شراكة المؤمنين، ومجدداً لأن فردريك المذكـور قد سـاءت سمعته بشكل جاد بأفـاعيله هذه، فإن عـدداً كبيراً من الناس يصرخـون، في جميـع أنحـاء العـالم، بأنه لايلتـزم بالرأي الصحيح فيما يتعلق بـالإيمان الكاثوليكي، وبعـون الرب، سـوف نسير في هذه القضيــة في وقتهـا المناسب، ومكانها الموائم، وذلـك وفقـاً لأحكام الشريعة».

كيف اشتعل غضب الامبراطور ضدّ البابا

ولدى سماع الامبراطور بهذا اشتعل بغضب عنيف، وغـالبـاً مـاردد اللوم، واتهم الكنيسة وحكامهـا بعدم الوفاء له، وأنهم أعـادوا إليه الشر مقـابل الخير، وذكّـرهم، كيف أنه عـرض نفسـه وممتلكاته إلى الأمـواج العـاتيـة الكبيرة، وإلى ألف نوع مـن المخـاطر، في سبيل تقـدم الكنيسـة وازدهارهـا، ومن أجـل زيادة الإيمان الكـاثوليكـي، وأكـــد أن جميع التشريف الذي تمتلكه الكنيسـة في الأرض المقدسـة، قـد جاء الحصـول عليه بفضل جهوده وتعبه، ثم قال:

«لكن البـابا غيـور من مثل هــذه الزيادة السعيـدة، لأنه تم الحصـول عليهـا لصـالح الكنيسـة بوسـاطة رجل علماني، والذي يـرغب بالذهب والفضة أكثر من رغبته بزيادة الإيمان، كما يشهد على ذلك أعماله، والذي يستخـرج المال من جميع البلدان المسيحيـة، باسم العشـور، قـد بذل كل الإمكانيات التي توفرت له، وعمل كل مايمكنه، لأن يخلعني ويحلّ آخر محلي، وحاول حرمـاني وسعى في سبيل ذلك عندما كنتُ أقاتل في سبيل الرب، معرضاً جسـدي لأسلحة الحرب، وللأمراض، ولمصائـد أعدائه،

وبعد التصـدي للأمواج العاتيـة المدمرة، انظروا أي نوع من الحماية التي قدمهـا لنا أبونا، وأية أنواع من المساعدة وقت المصـاعب، قدمت لنا من قبل نائب يسـوع المسيح! والآن لم يقنـع غضب هذا المضطهـد، بل رأى أن عليـه أن يربكني ويدمـرني، ولهذا نصب أمامي رجـلاً معـادياً لي هو جـون دي بريين، الذي كـان من قبـل ملك القـدس، والذي عـرف أنه جـريء في الحرب، وبارع في النظام العسكـري، وحـاول أن يجعل منه أكثر الأعداء مرارة لي، وذلك في وقت لم يكن لدي أي تصور لشيء من هذا النوع، كما أنه أغنى نفسـه بمبلغ كبير من المال، استخـرج بظلم من قسـاوسـة الكنيسة الفقـراء في جميع أنحـاء العـالم، وليس من السهل أن أكشف أية نحيب، وأيـة دمـوع، أنتجـه هذا الأسـى ووضعـه في قلبي، عندمـا سمعتُ بهذه الأشيـاء مـن رعيتي، وهو لابد أنه يعـرف الذي لايجهل شيئاً، وقمتُ وقتهـا على الفور بـإخفاء هذه الآلام التي شعـرتُ بها بالقلب، وتحت ملامح هادئة، بدأت أفاوض من أجل السلام، وتمت الموافقة على هدنة، وبادرت مسرعاً بـالعودة، وذلك خشية من أن يحدث فيعلم عـدونا بهذا، فيصبح أكثر حماسـاً بنجاحـاتهم، وبذلك يغدو أكثـر عدوانيـة بالنسبة لنا، وعندمـا عدتُ إلى الوطن وجـدتُ أراضي مستولى عليـها، وهـي محتلـة من قبـل أقـربـاء البـابا وأصدقـائـه، الذين كـان قـائـدهم جون دي بريين المتقـدم الذكـر، ولقـد اعتقلت هؤلاء، ومع عـون الرب المنتقم لي، توليتُ معـاقبـة الذين أعـاقـوا شـؤون الصليب، حسب استحقـاقـاتهم، وليكـن الرب الحكـم بينـي، الـذي أنا جنديه، وبين البـابا نائبـه، والمسيح يعـرف، والعـالم يعـرف بأنني لم أبتعـد عن جادة الصـواب، وهذا هو جذر، وأصـل كراهيته، ولقـد نشب خلاف بين الناس، وانقسمـوا، لكـن بـوجـود سيـدهم الطبيعـي، أي الامبراطور، عـاودوا الاتحاد، وتم استرداد قـوة الامبرطـورية في وقت قصير».

كيف وصل رهبان مونت كازينو إلى البابا في روما

ووصل في العام نفسه رهبان مونت كازينو Monte Casino, (حيث غرس القديس بندكت ديراً) الذين بلغ تعدادهم ثلاثة عشر راهباً، إلى البابا، في ثياب عتيقة وممزقة، وبشعر أشعث، ولحى غير مهذبة، والدموع في أعينهم، ولدى إدخالهم إلى حضرة قداسته، سقطوا على قدميه، وقدموا شكواهم بأن الامبراطور قد طردهم من بيتهم في جبل كازينو، وكان هذا الجبل لايرام، وفي الحقيقة لايمكن لأي واحد الوصول إليه، إلاّ بموافقة الرهبان، وبموافقة الآخرين الذين يسكنون عليه، غير أن ر. R غويسكارد Guiscard استطاع الاستيلاء على قلعة الرهبان، بحيلة تظاهره بأنه كان ميتاً، وقد حمل إلى هناك على محفة، وبذلك استولى —كما قلنا— على القلعة، وعندما سمع البابا بهذا أخفى أساه، وسأل عن السبب، وعلى هذا أجابه الرهبان: «بسبب أننا في طاعة لك حرمنا كنسياً الامبراطور»، وعندها قال لهم البابا: «إن طاعتكم سوف تنقذكم»، وبعد هذا ذهب الرهبان دون أن يتلقوا أي شيء زيادة من البابا.

كتابة مدهشة

وظهرت في العام نفسه لواحد من الرهبان من طائفة السسترشيان، يد بيضاء مكتوب عليها جسدياً الكلمات التالية:

«سوف يقطع الأرز العالي للبنان، وسوف يسيطر المريخ على زحل والمشتري، وسوف يعمل زحل مصائد للمشتري في كل شيء، وسوف يكون هناك رب واحد، أي ملك، فقد جاء الرب الثاني، ولسوف يجري اطلاق سراح بني اسرائيل من السبي خلال أحد عشر عاماً، وشعب عدّ بلا قائد سوف يصل أثناء تجواله، واأسفاه على رجال الدين، إذا ماسقطوا، فإن طائفة جديدة سوف تزدهر، وواأسفاه على إيمان الكنيسة،

وعلى الشرائع، وعلى الممالك، التغيير سوف يقع، وسوف يجري دمار أمة الإسلام».

كسوف الشمس

كان في الثالث من حزيران، من هذا العام كسوف للشمس، في حوالي الساعة السادسة من النهار، وفي حوالي الوقت نفسه من العام، جرى استدعاء وليم، الأسقف المنتخب لبلنسية بتدخل من البابا (الذي رغب —كما قيل— بتعيينه قائداً للجيش ضد الامبراطور)، إلى الحلف الأسقفي بشأن الاحتفاظ بالحصول على الكرسي البلنسي، وكأنه غير ملطخ بتهمة القتل، ولذلك إنه لاعجب أن الناس قد اعترتهم الدهشة لدى سماع هذا، وأنه مايزال يسعى وراء كرسي وينكستر، وقد عيّن ملك انكلترا وكيلاً متحمساً لتأمين هذا الهدف، واأسفاه، واأسفاه، كيف أن كمية من المال جعلت بلاط روما يميل إلى إعطاء موافقته وإذنه.

ولادة إدوارد الأول ابن الملك هنري الثالث

في ليلة السادس عشر من حزيران، ولد صبي في ويستمنستر للملك من زوجته اليانور، وبمناسبة هذه الحادثة قدم جميع نبلاء المملكة تهانيهم ولا سيما سكان لندن، لأن الصبي قد ولد في لندن، وتجمعوا على شكل جماعات من الراقصين مع طبول ودفوف، وأضاءوا في الليل الشوارع بمصابيح كبيرة، وقام أسقف كارلآيل بطقوس تلقين الطفل، وتولى النائب البابوي تعميده مع أنه لم يكن كاهناً، لكن ادموند رئيس أساقفة كانتربري قد سانده وثبته، وبناء على رغبة من الملك أعطي له اسم ادوارد، وجرى إرسال عدد كبير من الرسل لنقل خبر هذه الحادثة، وقد عادوا وهم محملين بهدايا ثمينة، وقد بهتت الآن بعمق سمعة الملك بسلوكه، لأنه عند عودة الرسل إلى الملك، سأل كل واحد منهم عن الذي تسلمه، والذين كانوا قد تسلموا الأقل، مع أنهم جلبوا معهم

هدايا ثمينة، أمر بإعادتهم مع غضب ولم ينطفىء غضبه، حتى أعطى كل واحد هدايا مرضية بناء على طلب الرسل، وعلى هذا علق أحد النورمان الأذكياء بقوله: «الرب أعطانا هذا الطفل، لكن الملك باعه إلينا»، ولم يعف النائب البابوي أيضاً من الحصاد الذي لم يجنه، فأعطى الشخص الذي جلب له الأنباء على حساب الآخرين، وكما قلت من قبل، جرى تعميد هذا الطفل من قبل النائب البابوي في اليوم الرابع من ميلاده، ورفع من الأمام من قبل الأسقف روجر أسقف لندن، ومن قبل وولتر أسقف كارلآيل، وكذلك من قبل وليم الأسقف المنتخب لنورويك، وأيضاً من قبل رتشارد ايرل كورنوول، أخو الملك، ومن قبل الايرلات:

سيمون ايرل مونتفورت، وايرل ليستر، وهوغ دي بوهون Bohun ايرل هارتفورد واسكس، وكذلك من قبل سيمون النورماني، رئيس شمامسة نورويك، والنبيل بطرس دي مولاك Maulac وألماريك دي سينت أماند Almaric de Amand وبحضور عدد كبير من النبلاء والسيدات.

وفي هذه الآونة، قام رالف دي ثوني، وهو بارون نبيل، بتوديع أصدقائه، وغادر في سبيل الحروب الصليبية مع عدد كبير من النبلاء، وخاصة من مملكة فرنسا، وبعد استعدادات كبيرة انطلق بجرأة في رحلته إلى القدس، من أجل أن الناس عندما يجازون في اليوم الأخير من أجل أعمالهم الصالحة، يمكن أن يتوّجوا بأكاليل الغار، ويحصلوا على مكافأتهم النهائية.

انتخاب المعلم نيقولا أوف فانهارم أسقفاً لشيستر

وفي العام نفسه، بعدما جرى استدعاء وليم دي ريل، ومن ثم انتخابه ليتولى حكومة كنيسة نورويك، بموافقة من رجال الدين

والناس، قام رهبان كوفنتري على الفور، فساروا في إجراءات قضية انتخاب أسقف موائم لأنفسهم، حتى لايتعرضوا للمزيد من الغضب بالقيام بانتخاب يكون عرضة للروادع والرفض، ولذلك انتخبوا المعلم نيقولا أوف فارنهام Farnham وكان رجلاً مزيناً بكثير من الفضائل، وصاحب قامة جميلة، وفصيحاً في خطاباته، وناضجاً ومتواضعاً في سلوكه، وتصرفاته، ولذلك كان لايمكن لحديث تجريحي أن يقف في طريق مقاصدهم، ولكن بعدما قبله الملك وكذلك رجال الدين والناس، رأى المعلم نيقولا، وكان رجلاً عميق الفهم، أن المسألة عرضة لخلاف شرعي مكشوف، وأن الأسقفية موجودة على أقصى حدود انكلترا، وقدر بمثابة رجل متواضع ومستقيم، أنه غير قادر على تحمل مثل هذا العبء الثقيل، وأنه سيكون خطيراً بالنسبة له تقديم حساب عن المسؤولية عن مثل ذلك العدد من الأرواح، لذلك رفض قبول العرض ولابشكل من الأشكال، ورفض بثبات أن يتحمل ثقل هذا المنصب، واستقال من شرفه، لأنه كانت هناك قضية خلاف بين الرهبان والكهنة، لأن فريق الكهنة قد أكد أن أفراده هم الذين ينبغي أن ينتخبوا الأسقف هذه المرة، وذلك وفقاً لشروط الاتفاقية، التي بها جرت تسوية الخلاف فيما بينهما، وهي أنه بعد عمل انتخاب أول من قبل الرهبان، فإن مسؤولية الانتخاب الثاني تقع على عاتق الكهنة، لكن عندما عرض الكهنة هذا الإدعاء، ردّ عليهم الرهبان، بأن الانتخاب قد ألغي، ولم يصل إلى أية محصلة، وأنهم لم ينالوا ماأرادوه، ومردّ ذلك إلى حادثة غير متوقعة، تسببت ليس بتصميم منهم، بل بالقضاء الرباني، الذي يقضي بجميع الأشياء حسبما يشاء، وقال الكهنة في رد على هذا:

«نحن نرغب منكم أن تعرفوا، أنه ليس أسقفكم المنتخب هو الذي لايرضينا، ذلك أنه أهل تماماً لمثل هذا الانتخاب الرفيع، بل هو شكل

انتخابكم هو الذي لم يرضينا، بما أن دور الانتخاب يقع علينا، وليس عليكم، وهذا قد برهنا عليه بشكل جيد بوساطة أعمالنا، لأننا انتخبنا عميدنا بمثابة أسقف لنا، وحارساً لأرواحنا»، ثم إنه عندما ارتفع صوت الاضطراب، الذي هدّد بأن يجلب خلافاً مدمراً، قام العميد الذي كان رجلاً تقياً، برغبة منه لوضع حد لعدم الاتفاق، فقال بصوت مرتفع أمام الناس:

«ليكن معلوماً، وليكن معلوماً، أنني لاأدري على أية أسس انتخبتموني أنا الذي تماماً لستُ أهلاً لحمل أعباء منصب الأسقفية، ولذلك إنني من صميم قلبي وعقلي أعارض مثل هذا الانتخاب، وأتنازل عنه، ولنعمل على إنهاء هذا الاضطراب، ودعونا الآن جميعاً في هذا الوقت الحالي، بموافقة عامة نقف إلى جانب ذلك الرجل الجيد، الذي أفاد التقرير عنه بشكل طيب»، وفي سبيل المحافظة على حق كنيستهم من على الجانبين، قاموا جميعاً أي الرهبان وكذلك الكهنة فاتفقوا بالاجماع، فبعثوا إلى المعلم نيقولا المتقدم الذكر، وأخبروه أن جميع الذين لم يوافقوا من قبل، قد اتخذوا الآن قرارهم بالاجماع، وقد انتخبوه، وهم بتواضع يرجونه أن يتكرم بقبول هذا الشرف، مهما كان ثقيلاً، وعرضوه عليه وقدموه إليه باسم الرب ونيابة عنه، وردّ عليهم المعلم نيقولا، وأجابهم قائلاً:

«وهو يصفق بيديه، إنني أعيد إليكم شكري أضعافاً مضاعفة، ياأصدقائي ومعلميّ من كل من الكهنة والرهبان، الذين كنت بأعينهم بالنهاية مستحقاً لأن تنتخبوني لأن أكون راعياً لكم، لكن يا أصدقائي إن وضعي الحالي يكفيني، وعبء المنصب المعهود به الآن إليّ يثقلني ويضغط عليّ بشدة، وإن العناية، والمسؤولية، وكذلك الحساب الذي ينبغي تقديمه إلى الأرواح التي عهد بها إليّ يزعجني ويخيفني، ولذلك توقفوا ياإخواني الأحباء، توقفوا عن متابعة تعذيبي وإغضابي في هذه

المسألـة، وأود أن أخبركم بوضـــوح، ســـواء أوافقتـم على ذلك أم لم توافقــوا، أنا لا أوافق على هذا الانتخــاب»، ولدى سماع هذا تشــاور الآخرون، وفقـاً للشكل الذي تقـدم ذكره، وانتخبوا ليكـون أسقفاً لهم، وحارساً لأرواحهـم، المعلم هوغ دي بيتهل Pateshull (الذي كان ابناً للنبيل المشهـور سيمـون دي بيتهل، الـذي بآرائـه الحكيمـة حكمت انكلترا من قبل في بعض الوقت الماضي) وكان كـاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، ومستشـاراً للملك، وكـان هو أيضاً مثـل أبيه، ورجـلاً مستقيماً، وبعد تقليب طويل للقضيـة، وتفكير حول قـول الرسول: «كل من يريد أن يكون إدارياً جيداً، عليه أن يحصل لنفسه على مرتبة جيدة»، وقوله في مكان آخر: «إذا مارغب إنسان بمنصب الأسقف هو قد رغب بعمل جيـد»، وبعـد طويل وقت تحركت عـاطفتـه بسبب الوضع السيء للكنيســـة وبكى بـدمـــوع المتضرع، ووافق على حمل العبء، والعنـاية بنفقات المنصب، حتى يتحول أسفهـم إلى بهجة.

آلام اليهود

وفي العام نفسه، في يوم عيد القـديس ألبان، رائد الشهداء في انكلترا، وفي اليوم التالي، وقعت مذبحة كبيرة، ولحق دمار كبير باليهود، بناء على أوامر من غيوفري الداوي، الذي كان مستشاراً خاصاً للملك، فقد تولى ظلمهم، وسجنهم، واستخرج المال منهم، وأخيراً وبعد كثير من الآلام، قـام هؤلاء التعسـاء اليهـود، في سبيـل التمتع بالحيـاة والهدوء، وبسبب دمـارهم واضطـرابهم، فـدفعـوا إلى الملك ثلث جميـع أمـوالهم، وديونهم وكذلك أثاثهم، وكـان السبب الأساسي لهذه النازلة اقتراف جـريمة قتل مفضوحـة من قبل يهود المدينة، وماحدث ليس بعـد هذا بوقت طويل، وتعلق بالصبي الذي جـرى ختـانه من قبل اليهـود، ولقـد أدين نتيجـة ذلك أربعـة مـن أغنى أفـراد تلك الطائفـة بشكـل واضح، وشنقـوا في نورويك.

وقوع رالف بريتون بالأسر

في مجريات أحداث السنة التي منح الرب فيها ولداً ذكراً للملك، وذلك استجانة لشكاوى الملك، وكذلك لرغبات الكثيرين، جاء هذا الولد وسط كثير من التهليل، وبما أن كأس هذه الحياة لايحتوي شيئاً صرفاً بلا مرارة الصفراء، قد كان هناك واحداً من رسل الملك اسمه وليم، قد أدين بعدد كبير جداً من الجرائم المضاعفة، وحكم عليه بالموت، ولدى جلوسه في سجن مضيقاً عليه قذف عدداً من نبلاء انكلترا وجاهة بتهم زائفة هي تهم الخيانة، وكان بين الكثيرين الذين وجّه التهم ضدهم باقتراف الجرائم رالف بريتون Briton وكان رجل دين وكاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، وكان لبعض الوقت صديقاً مقرباً من الملك، لابل كان خازنه، ولدى سماع الملك بهذا، أمر به بوساطة رسالة إلى عمدة لندن وليم غرومير Gromer (أوجيرارد بات Gerad Batt) ليلقى القبض عليه، وليسجن في برج لندن، وفضل العمدة إطاعته على إطاعة الرب، وحمل أوامر الملك ووضعها قيد التنفيذ، وجرّ رالف المذكور بعنف من بيته، في جوار كنيسة القديس بولص، وسجنه في البرج، ووثقه بسلاسل تدعى الخواتم، وعند سماع عميد لندن، المعلم غ. G دي لوسي Lucy بهذا العمل، قام مع أتباعه من الكهنة (لأن الأسقف لم يكن حاضراً وقتذاك) فتفوه بقرار حكم عام بالحرمان الكنسي ضد جميع الذين مارسوا هذا الاضطهاد والتجاوزات، ووضع كنيسة القديس بولص تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وصحيح أن الملك جرى تحذيره من قبل الأسقف، غير أنه لم يصحح هذه الأخطاء، بل إنه تابع بالتهديد تكديس الشرور على الشرور، وبناء عليه كان الأسقف على وشك وضع لندن كلها، التي كانت خاضعة له، تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، لكن عندما كان رئيس أساقفة كانتربري، وكذلك النائب البابوي،

وأسقف لندن، وعدد كبير آخر من القساوسة قد استعدوا لإلقاء يد ثقيلة على المدينة، أمر الملك، وهو مكره، بإطلاق سراح رالف المتقدم ذكره، وسمح له بالمغادرة بسلام، وعندما كان قد رغب بإضافة شرط، بوجوب الاحتفاظ به، ليكون جاهزاً لتقديم توضيح، عندما يختار الملك توجيه الاتهام إليه، ردت الكنيسة بأنها لن تقبل بأي حال من الأحوال بإبقائه هكذا على هذه الصورة وكأنه رجل سجين، وهي تقبل فقط بتسلمه بمثابة رجل حرّ تماماً، مثلما كان حاله عندما قام أتباع الملك بانتزاعه بالقوة من بيته، وعندما جرى اطلاق سراح رالف على هذه الصورة، وهو الذي تعلم بالتجربة ماذا يمكن لتقلبات الحظ أن تلحق أتباعها، انسحب بعد هذه النازلة، من بلاط الملك، أما ستيفن سيغريف، الذي غالباً ماعانى من مثل هذا الظلم فقد مزج نفسه مع شؤون البلاط، دون أن يقيم وزناً لعمره، وأصبح هذه المرة المستشار الرئيسي للملك، وتمكن بوساطة براعته الأصيلة من ممارسة قيود أكثر مما هو معتاد على خطط الملك، وبعد ذلك بوقت قصير، جرى شنق ذلك الشرير الذي تقدم ذكره، والذي كما ذكرنا أعلاه إتهم النبلاء مع رالف المتقدم ذكره، وجاء شنقه بشكل مهين خارج مدينة لندن، ووضع معلقاً على أداة التعذيب التي اسمها المشنقة، وكان عندما رأى أن موته بات حقيقياً ومؤكداً، قام —مع أن ذلك جاء متأخراً— فاعترف بشكل مكشوف أمام الناس وأمام منفذي العقوبة به، بأنه عمل الاتهامات الزائفة المتقدم ذكرها من أجل إطالة حياته.

نشر قرار الحرمان الكنسي ضدّ الإمبراطور فردريك

وفي هذه الآونة، تمّ بناء على أوامر من البابا، إعلان قرار الحرمان الكنسي ضد الامبراطور فردريك المذكور، وجاءت إدانة الامبراطور هذه في كنيسة القديس بولص في لندن، وكذلك خلال جميع أرجاء أسقفية لندن، وبعد ذلك في جميع أرجاء المملكة كلها، ولم يتوفر هناك

ولا واحد ليرفع ترس المعارضة ضد ذلك، مع أن الملك كانت لديه أسباب وجيهة لفعل ذلك، أمام جميع أمراء العالم، وذلك بسبب قرب العلاقات القائمة بينه وبين الامبراطور.

رسائل من الإمبراطور إلى شيوخ روما وشعبها

وفي العام نفسه، عجب صاحب الجلالة الامبراطورية من الضعف الشديد لقوة الرومان، ومن تراجعهم ونكوصهم عن ثباتهم في مراعاة خضوعهم باخلاص له، حسبما كانوا قد وعدوه من قبل، وذلك بسماحهم لقرار الحرمان الكنسي بأن يجري التفوه به ضده، وهو مولاهم، في مدينتهم، فكتب إلى كرادلة بلاط روما، وكذلك إلى شيوخ المدينة، وكذلك إلى سكانها كما يلي:

«من فردريك الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى شيوخ المدينة وأتباعه الرومان، تحيات:

بما أن روما هي رأس امبراطوريتنا وسلطانتها، وأن الامبراطور عرف باسم الروماني من اسم مدينة روما، وبما أننا ندين لها بتقدم اسمنا وبسمعته، دهشنا دهشة عظيمة كيف أنه حدث، حيث من المتوجب رفع شأن شرفنا، وصدّ الإهانات الموجهة ضدنا، أن نواجه معاملة مضادة، بين الذين متوجب عليهم، والذين واجبهم، أن يعرضوا أنفسهم بمثابة سور للدفاع عن عرشنا الامبراطوري، والعجب أن يحدث هذا وهم أنفسهم يسمعون ويخفون الحقائق، وبناء عليه نحن في غاية الأسى، لأن الأسقف الروماني —كما روي لنا— قد تجرأ على أن يتصرف في المدينة، ضد الأمير الروماني، بطريقة ما كان له ليتجرأ على عملها في مكان آخر، وقام بشكل غير تقوي بتكفير الامبراطور الروماني، أساس المدينة، وجالب المنفعة للشعب الروماني، من دون أية مقاومة من قبلهم، وبناء

عليـه، يمكننا أن نقـول صـادقين بأن نبـلاء رومـا وكـذلك الشعب الرومـاني، الذي من أجلهم درسنا تقـديم مـايحتـاجـونه بكرم، وبجـود تطوعي، ومازلنا نكافح في سبيل استمـرار تقدمهم، إلى حد أننا بتنا غير مهتمين بمنافعنا، قـد لازمتهم بلادة النوم، ولذلـك لم يكن بينهم، ولا حتى رجل واحـد بين ذلك العدد الكبير من النبلاء، وذلـك الحشد كله من السادة، أو بين الآلاف المؤلفة من الشعب الروماني، قد نهض للدفاع عنا، أو تكلم بكلمة واحـدة لصالحنا، أو كان مواسياً لنـا ومتعاطفاً معنا أثناء تعـرضنا للأذى، مع أننـا نتـابع الاضـافـة إلى شرف المدينة، ونزيد شهرتها بالانتصارات القديمة والأمجاد، بوساطة انتصاراتنا المتوالية الآن، ومازلنا مستمـرين في توجيه اهتمامنا لتقـويم الاسـم الروماني، وجعله كما كـان في العصـور القـديمـة، وأن نرفع من شأن وأوضـاع الامبراطورية الرومـانيـة، وبناء عليـه لقـد دفعتنـا الضرورة لأن نطلب منكم بتحـذير وحث لكم، إذا كنتم قـد عملتم بعض التقصير من خـلال الاهمال أو البـلادة أن تظهـروا الآن أنفسكم بأنكم جـاهزين، وبالكلمـة وضرب المثل أن تقـومـوا باقناع الآخـرين بالنهـوض فـوراً، أفـراداً وجماعـات، للانتقـام للأذى الذي أنزل بنـا، وبكم بشكل عـام، لأن المسيء إلينا مـا كـان ليتجـرأ في مكان آخـر على التشهير باسمنا وتكفيرنا، ومـا كـان له ليتفـاخـر بأنه حـرض على مثل هذه الأشيـاء ضـدنا، سـواء أرغبنا أم لم نرغب، لولا أنه عـزا إليكم نكران المعروف حـول كل مافعلتمـوه، قبل حقيقـة معـارضتـه، وبعـد حقيقـة أنكم كنتم تتجنبـون الانتقـام لأذانا وأذاكم العـام، لأننـا كنا نحن وأنتم مـرتبطون مـن الجانبين، بأن نقـوم نحن بالدفاع عن الشرف الرومـاني، ويقوم الرومـان بالدفاع عن شرفنا، وإذا ماوجـدناكم ووجدناهم معكم مهملين في هذه القضيـة، كنا سنجد أنفسنا مـرغمين، على سحب إحساننا من جميـع الذين أظهرناه نحـوهم حتى الآن، لأنه ليـس الخوف من الرومـان هو الـذي أرغمنـا عـلى إضفاء المنافع عليهـم، بـل بالحـري كان لطفنا هو الذي أقنعنا أن نفعل

ذلك. صــدر في تريفيســو Treviso في اليــوم العشرين من شهـــر نيسان».

وكان الامبراطور قـد كتب أيضاً قبل وقت قصير مضى إلى الكرادلة، وسعى إلى إثارة الرومــان في تلك الجهــة، وقـد حثهم بعنف أكثــر في الرسالة التالية:

رسائل أخرى من الإمبراطور إلى الكرادلة

«من فـردريك الذي هو بنعمـة الرب أغسطس، وامبراطور الرومـان، وملك القـدس وصقلية، إلى أصـدقائـه الأحباء، جماعـة كرادلة الكنيسـة الرومانية المقدسة، تمنيات الصحة وعواطف خالصة:

بما أن المسيح هو رأس الكنيسة، وباسم بطرس قد أسس كنيسته على صخرة، وعيّـنكم بمثـابة خلفاء للرسل، هكذا عمل بطرس القداس من أجل الجميع، وأنتم الذين هم شمـوع الكنيسة، قد وضعتم فـوق رابية، وليس تحت ستارة، حتى يمكن بأعمالكم الصالحة أن: «تعطوا الضوء إلى كل البيت»، وأن لاتسعـوا بمــوافقـة عـامـة بـأن تسحبـوا أنفسكم من الصـوت العام للعـالم، بما أنه قـدر أنكم أهل لحمل حصة مسـاوية لأي واحد سـوف يترأس على كرسي بطرس، ومهما اقترح أن يعمـل، أو قرر أن يعلنه إلى العالم، مالم تكن الأوضاع المتقـدمة للكنيسة، والرغبة الجامحة بتجنب عـدوان عام، سـوف تقترح تحذيراً لكم من أجل المستقبل، لأنه من الذي لن يتسـاءل بأن الذي هو جالس على عـرش الكنيسة، والذي قــد قـوي بوســاطة الاجتماع العــام لمثل هذا العــدد الكبير من الآباء المحترمين، (والمتـوجب أن يكـون قـاضيـاً عـادلاً) ســوف يعمل هكذا بشكل غير مستقيم؟ وليس عجبـاً بأنه سـوف يتخذ مـوقفـاً —بناء على مجرد انفعــال— ضد الأمير الرومـاني، مع أنه هو المحامي عن الكنيســة، والذي واجبـه هو الحفاظ على التبشير بالانجيل، وذلك بوسـاطة تجريد

السيف الروحي بشكل غير عادل لصالح العصاة اللومبارد؟، ودون أن نعبأ بهذا، وبوساطة المعايير السلمية، فإن جميع الإساءات ضد الكنيسة التي ترافع من أجلها، مهما كانت عناوينها العامة مغيظة وتضاعفت في أعمال فردية، هي إما أنها تلقت التقويم، أو أنها بوساطة تفكيرنا جرى الإعداد لها وهي على طريق الإصلاح، لأن أوامرنا قد قضت بذلك، ولسوف يتلو ذلك تعويض كامل، لأنه بوساطة رسائل موثقة من القساوسة الذين عيّنتهم الوصاية الرسولية بمثابة مشرفين، هناك شواهد من النوع نفسه قد أعطيت، ومرسومنا الجاري فيها يتعلق بإعادة دعوة القساوسة الذين عانوا من الأذى وتقديم توزيع ثاني لهؤلاء القساوسة، يعطي برهاناً واضحاً على المصداقية وذلك بوساطة رسائل رئيس أساقفة مسينا المبجل، التي أرسلت إلى مقومنا، المعين لهذه الغاية، وبناء عليه، إنه ليس من دون سبب جيد أن نتتحب لأن الأب الرسولي يسعى بشكل جاد جداً للاعتداء علينا، وعندما ينزل مثل هذا الأذى الكبير على رجل شجاع، مع أننا نرغب بتحمل ذلك بصبر، إن ضخامة الاعتداء لا تسمح لنا بأن نفعل ذلك، لابل إن عنف الفعلة يرغمنا على الانتقام، وهو مااعتاد القياصرة أن يفعلوه ويمارسوه، لكن لدى تقديرنا لإنعدام الصبر لدى الذي يسير على هذا الطريق ويمارس هذا المنهج، والوضع الصعب للمدافع، علينا تقديرها أكثر تحملاً، لو أنه سمح لنا بحيادية أن نمارس انتقاماً خاصاً على الشخص الذي تسبب بالعدوان، وبذلك نتمكن من إنزال جزاء على الذين هم من دمه، وهذه المحاولة لإيذاء الكرسي سوف ترتد عليه وعلى آله، لكن بما أنه لا هو ولا جميع آله هم الذين سيعانون لهذا السبب، لهم أهميتهم، حتى تتشوق الكرامة الامبراطورية للانتقام منهم، ولأن سلطات الكرسي، تركت أعنة سلطاتها مرخية، وعمدت أن تظهر جماعة الرهبان المحترمة كلها وكأنها تؤثر ذلك في إصرارها، آلمنا هذا الاضطراب عقلياً، لأننا أثناء الدفاع عن أنفسنا ضد المضطهدين لنا، علينا في دفاعنا عن أنفسنا أن نكون

أكثر حدة في قتال الذين يقفون ضدنا، باستثناء قداسة الكنيسة من جميع الجوانب، التي نجلّها بتعبد مقدس وباحترام جدير بها، وبناء عليه نحن نلتمس من جماعتكم الجليلة، وصدوراً عن مداولاتكم اللطيفة أن توقفوا إجراءات الحبر الأعظم، التي من الواضح أنها كما يعرف العالم، هي غير عادلة، وبلا مسوغ، وأن تهيئوا الأوضاع من أجل تقديم سلام لعقولنا، لأننا وإن كنا مرتبطين بإيثار رفع شأن أعمالكم الصالحة جميعاً، نحن لايمكننا أن نفعل ذلك بتوازن في التفكير متمنع عن العدوان تجاه الأذى الذي يعمل ضدنا، كما أننا لن نكون قادرين على إيقاف البدايات، كما أن الأذى الذي لايمكن رده وإرجاعه، يمكن بتسويغ صده بأذى آخر. صدر في بادوا Padua في العاشر من آذار من الإحدى عشرية الأولى من الخمسعشرية.

كتابات تكهنية

وفي هذه الآونة، استدعيت بعض الكتابات التي ظهر أنها تتكهن بالمستقبل، إلى الذاكرة، وغالباً ماذكرت، وذلك بسبب المخاطر العظيمة للوقت، والخلاف الذي تفجر بين مثل هذه الشخصيات القوية، والتي لم يكن يعادلها بالقوة أي واحد، وكانت إحدى هذه الكتابات كما يلي:

«سوف تثار روما ضد الرومان، وبديل روماني سوف يفرغ روما من الرومان، وستصبح عصي الرعاة مضيئة، وسوف تكون راحتهم في اطمئنان، والحريص سوف يضطرب، وسوف يصلي، ودموع الحشود سوف ترتاح هناك، وسوف يلعب الرجل الضعيف مع المجنون، والجنون سوف يكون منطفئاً، وسوف يصبح لطيفاً، وسوف يزحف قطيع جديد إلى الرابية، والذين كانوا يستحقون منذ القدم، سوف يعلفون على طعام خفيف، والمستثنون من الثقة قد دمروا، والطمأنينة التي تنتج راحة هي مستقرة، والذين ساروا في الظلام سوف يعودون إلى الضوء، والأشياء التي كانت منفصلة وموزعة في الخارج سوف تتمتن،

وغيمة كبيرة سـوف تبدأ بالامطار، لأن مغيّـراً للعالم قـد ولد، والحمل سـوف يحل محل الأسـد، وسـوف تفترس الحمـلان الأسـود، وسيثـور الجنون ضـد ذوي العقـول السـاذجة، وسـوف تتنفس السـذاجـة وهناً، وسـوف يتحـول الشرف إلى عـار، وسرور الكثيرين سيصبح حـزناً»، وجـرى التفوه بهذه الكلمات في سنة النعمـة ١١١٩، وقـد فهمت لتعني بأن التهديدات المذكورة كانت بالفعل قد وقعت.

وهنالك كتابة أخـرى، يبدو أن الامبراطور قد حصل عليهـا، قد قيل بأنها ذكـرت الصـدق، فقد قيل بأن أبيـات الشعـر التـالية قـد وجـدت مكتـوبة في غـرفة نـوم البابا، لكـن كيف حصل هذا ومن الذي كتبهم؟ أمر غير معروف:

تقضي النجوم والمنايا وطيران الطيور

بأن عالمنا هذا سوف يضرب

روما تقاد مترنجة وسط أكوام من الآثام

وفي العالم سوف تتوقف أن تكون الرئيسة

وبما أن الامبراطور مع كثير آخـرين قد فسروا هذه الأبيـات على أنها تبشر بدمار البابا وعزلته مع البلاط الروماني، ردّ قداسته بالأبيات التالية ضد الامبراطور:

الشهر، والكتابات المقدسة، وذنوبك تخبر بصوت مرتفع

أنك بعد الموت سوف تلقى العذاب مؤبداً في جهنم

الامبراطور يبرىء نفسه بوساطة مرشدين

ولدى رؤية الامبراطـور في هذه الآونة أن سمعتـه الآن عـرضـة للخطر، وفي سبيل البرهنة على براءته، جعـل بعض الرسل الذين كـانوا

ذوي مكانة عظيمة، ولهم سلطان خاص يكتبون إلى البابا عارضين براءتهم مع براءة الامبرطور، وعدالتهم وعدله.

رسائل الرسل

«إلى الأب الأعظم قداسة في المسيح، غريغوري، الذي هو بنعمة الرب، الحبر الأعظم، يرسل إليكم عبيدكم المخلصون، أساقفة ويتزبورغ Wirtzburg ووورمز Worms وفيرسلي Vercelli وبارما Parma تحياتهم بتواضع، وبجميع احتراماتهم المخلصة:

مع جميع الاحترام المستحق والاخلاص قد تسلمنا رسائل قداستكم الرسولية، التي أرسلت لتقريع صاحب السمو الأمير الروماني حول بعض النقاط، التي ورد ذكرها في الرسائل المذكورة، وقمنا نحن كما يفرض علينا الواجب —ومع ذلك شاكين فيما إذا كان سيتلقى تحذيراتنا بصبر— وذهبنا إليه باحترام وتقوى، وبعد شرح كل نقطة وردت في هذه الفقرات، وبعدما أعطيناه نسخة عن رسائلنا، وبنعمة من الرب، الذي يحكم قلوب الملوك ويوجهها بإرادته، أظهر نفسه بتقوى رائعة، وبتواضع غير متوقع جاهزاً لأن يصغي لانتقاداتنا، ومالت أذنا سيادته الامبراطورية نحونا، وعندما مثلنا أمامه كان هناك أيضاً موجوداً رئيس أساقفة بلرم «باليرمو» ومسينا، وأساقفة:

كريمونا، ولودي Lodi ونوفارا Novara, وموودينا Modena, وراعي دير القديس فينسنت Vincentإلى جانب عدد من الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان، الذين جمعوا من قبله، وقد ردّ على اقتراحاتنا واحداً تلو آخر، حسبما هو وارد بشكل كامل ومتميز في السطور المقبلة، ووفقاً للوصاية الرسولية، نحن نخبركم في الرسائل الحالية، ونحن على استعداد للبرهنة على صحة ذلك».

«*قضية الكنيسة:* إن كنائس مونت رويال، وسيفيلدي Cephaledi,

وكاتـانيا Catania, وسكويلاتا Squillata, وأديرة مـايليتو Mileto, والقـديسـة يوفيميـا Euphemia, وتيرا— مـاجـوري Terra- Mag giore والقـديس يوحنا في لامـا Lama, قـد جـــردت من جميع مقتنياتها تقـريباً، وكذلك تقـريباً جميع الكاتدرائيـات والكنائس الأخرى والأديرة، قد حرمت بتفتيش غير عادل، من جميع متعلقاتها.

جواب الامبراطور: فيما يتعلق بالأذى الذي لحق بالكنائس، اللائي ورد ذكرهن بدون تحديد، فإن بعض ذلك قـد اقترف من خلال الجهل، وقد صدر الأمر بانقاذهن من دون تأخير، وبعضهن قد جرى إصلاحه، كما هو واضح من تقــرير رسـولنا المخلص والعـامـل وليم دي توكتـو Tocto, الذي أنيب مـن أجل الغـايـة الخاصـة، والـذي أمـر أيضـاً بالذهاب إلى البلاط الروماني، وبعدما حصل على نصيحة المحترم رئيس أساقفة مسينا، في أن يسير وفقاً لنصـائحه، في إصلاح تلك الأشياء التي من الممكن أن يجدها بشكل مكشـوف خـاطئة، وبعـد دخـوله المملكة، وجد في تلك المناطق بعض الأشياء التـي كانت بين أيدي بعض الأتباع الامبراطوريين، وإلى هؤلاء لم يظهر رحمة، بل جـردهم على الفور، وأعاد الذين قـد جردوا من قبلهم، علماً بأنه كـان قد أمربأن يأخـذ من الخزينة الامبراطورية كل الذي يجده قـد تم الحصـول عليـه بشكل غير شرعي، وهكذا عندما وصل التقـرير عما فعله إلى بلاط روما، يقال بأن البـابا قد وافق على بصيرة المرسـل، وعلى يقظة الشخـص الذي أرسـل، ولكن بما أن المملكة مقسمة إلى مقاطعات، لم يكن بـإمكانه الترحال خلالهم جميعاً لإصلاح الذي اعتقد أنه بحاجة إلى الإصلاح.

ومجدداً، في إجابة إلى التهمـة المتعلقة بكنيسـة مونت رويال، لقـد أفاد أنها لم تتلق أي ضرر على أيدي الامبراطور، مـالم يرغب بالاشـارة إلى المسلمين الذين استـولوا على مقتنيـات الكنيســة أثناء الحرب، وأنهم لم يعترفـوا لا بالامبراطور، ولا بالكنيسـة، وأنهم لم يوفـروا شيئاً وصل إلى

أيديهم ووقع تحت سلطانهم، حتى أنهم دمروا تلك الكنيسة ونهبوها إلى حد أنهم تركوها مجرد جدران عارية، وهم أيضاً لم يوفروا أحداً في صقلية، ولذلك كان الذين بقيوا من المسيحيين في تلك الجزيرة عددهم قليل، هذا إن بقي أحد.

واعترف الامبراطور بالواقع، بأنه محق هؤلاء الناس وأزالهم كلية من صقلية، وذلك بعد كثير من الاضطراب والنفقات، وإذا عدّوا ذلك إلحاق ضرر بالكنيسة، فإنه لايعرف قط أنه آذاها بأية طريقة من الطرق، كما أنه لم يرغب بإيذائها، ولقد قال الشيء نفسه فيما يتعلق بكنيسة سيفيلدي التي هي أفضل قلعة محصنة على ساحل البحر، وقائمة على حدود سردينيا، وهذه تملكها دوماً ملك صقلية، وكان البابا انوسنت —صاحب الذكرى الطيبة— قد أعطى أوامر إلى نائبه الذي كان آنذاك في صقلية، في خدمتنا، بأن يتسلمها من الأسقف، الذي وهي بين يديه أصابها الاضطراب، وليس بموجب الحق، وتدبر ذلك النائب، أثناء طفولتنا الاستحواذ عليها، والحفاظ عليها من أجلنا، وهي لم ترد إلى ذلك الأسقف، أو إلى الأسقف الحالي، كما أنه لاينبغي أن تعاد، لأنهما لا حق لهما فيها، وإلى جانب هذا، لقد أدين بوساطة بينات واضحة بأنه رجل زائف، ولوطي، وخائن، ومنشق، ولهذا إذا كان لديه أي ادعاء في القضية، (لاسمح الرب بذلك) ليس من الضروري بأن تعطى إليه، وكذلك بالنسبة لكنيسة كاتانا، لقد قال الشيء نفسه، وأنه مالم يكن رجال حاشية الملك هم المشار إليهم، هم الذين ذهبوا في أيام الحرب إلى كاتانا، بسبب حصانة المكان وخصبه، وأعلن الامبراطور بأنه قد استدعاهم إلى عزبته الخاصة، فوفقاً لبنود القانون العام للمملكة، يتوجب على الإيرلات، والبارونات وجميع رعايا المملكة، استدعاء رجال عزبهم، حيثما وجدوهم، سواء على أراضي الكنائس أو في مدن الامبراطور، ومع ذلك لقد صدرت صيغة مرسوم حول هذه القضية،

وجرى تحديد وقت وتثبيته وقبوله بناء على طلب الحبر الأعظم، كما ظهر من الرسائل الوصائية لبطريرك أنطاكية، ورئيسي أساقفة باليرمو (بلرم) ومسينا، ومجدداً إنه بالنسبة لقضية كنيستي مايليتو، والقديسة يوفيميا، مع أنه كان تغيير مواثم، وتبديل جرى تنفيذه مع رعاة ديرة ورهبان تيرا— ماجوري، وذلك بناء على رغبة القساوسة أنفسهم مع الجماعات الديرية، وفقاً لصيغة الشريعة، وهم أنفسهم حتى الآن بين أيديهم الممتلكات البديلة ومستحوذون عليها، وفيما يتعلق بقرية القديس سيفريوس Severius, التي هي ليست بشكل مطلق تابعة لراعي دير تيرا— ماجوري صاحب أنكونا Ancona, بل هناك فيها بعض الحقوق الموجودة في اقطاعية الامبراطور، وقد كانت بعد محاكمة قد دمرت لسبب صحيح، لأن سكان ذلك المكان، قد قتلوا أثناء الاضطرابات رجلاً اسمة بولص أوف لونغوثان Longothan, وكان حاملاً لعلم الامبراطور ونهبوا مواشي الامبراطور، ومع ذلك، وحسبما تقدم الذكر، أعطي بديل إلى راعي الدير والجماعة الديرية، وكان البديل لصالحهم، وهم مايزالون يحتفظون به حتى هذا اليوم، وموضع «لاما» هو مغلق وفقاً لقرار صدر عن راعي دير القديس يوحنا المستدير، وقد يكون من العدل الدعوة إلى اجتماع من أجله وفقاً للشريعة المدنية واللاهوتية، وذلك حسبما يكون من أجل ممتلكات اقطاعية جيدة، في البلاط الامبراطوري.

قضية الكنيسة: لقد حرم الداوية والاسبتارية من ممتلكاتهم المتحركة وكذلك من مقتنياتهم الثابتة، ولم يعوض عليهم بشكل كامل، وفقاً لشروط السلام.

جواب الامبراطور: صحيح أنه بموجب قرار الأنظمة القديمة لمملكة صقلية أن بعض الأراضي الاقطاعية والمدنية قد سحبت من الداوية والاسبتارية، وهي قد كانت بين أيديهم بمثابة منحة من غزاة المملكة،

الذين إليهم قدموا الخيول، والسلاح، والميرة، والخمرة، والأشياء الأخرى الضرورية بكميات وافرة، عندما كانوا يغيرون على الامبراطور، وقد رفضوا تمام الرفض تقديم جميع أنواع المساعدات إلى الامبراطور، الذي كان آنذاك مجرد ملك في أيام التلمذة والعطالة، وقد سمح لهم بالاحتفاظ ببعض الأراضي الاقطاعية والمدنية التي كانوا قد حصلوا عليها، وكانت بين أيديهم قبل وفاة الملك وليم الثاني، أو التي كانت بين أيديهم كمنحة من قبل أي واحد من أسلافه، ولكن بعض الأراضي المدنية، التي كانوا قد اشتروها، قد سحبت منهم، وفقاً للقانون القديم لمملكة صقلية، لأنه من غير الممكن عمل أية منحة أرض مدنية بين الأحياء، من دون موافقة أميرهم، كما لايمكن توريثهم بموجب وصية دائمة، دون أن يكون مشروطاً أن يباعوا أو يمنحوا إلى مدني علماني آخر، إلاّ بعد مرور سنة، وشهر، واسبوع ويوم، وهذا القانون قد عمل من قبل القدماء للسبب التالي، وهو أنه لو سمح لهم من دون قيود وبشكل دائم بشراء أو بتسلم أراضي مدنية، لأمكنهم في وقت قصير شراء مملكة صقلية كلها، التي كما يبدو هي بموجب جميع قوانين الدنيا ومفاهيمها مناسبة لهم كأحسن ما يكون، وهذا القانون نفسه قيد التنفيذ فيما وراء البحار.

قضية الكنيسة: وكذلك هو لم يسمح للكاتدرائية وللكنائس الأخرى الشاغرة بأن تملأ، وبهذا تعرضت حرية الكنيسة للخطر، ومات الإيمان، وبغياب الراعي، ليس هناك من أحد يتولى عرض كلمة الرب، ويتولى حكم أرواحهم:

جواب الامبراطور: وفي جوابه قال الامبراطور بأنه يتمنى ويرغب، بأن يجري تكريس الكاتدرائية والكنائس الأخرى، مع شرط المحافظة على الامتيازات والمراتب التي تمتع بها الملوك من أسلافه حتى وقته هذا، الأمر الذي استخدمه بكثير من الاعتدال، فاق به أسلافه، وهو لم

يعارض قط ملأ الكنائس.

قضية الكنيسة: فيما يتعلق بالضرائب والمكوس التي تستخرج من الكنائس والديرة، بشكل معاكس لما قضت به بنود السلام.

جواب الامبراطور: إن العشور والضرائب التي تجمع من الأشخاص اللاهوتيين، هي ليست مفروضة على المقتنيات الكنسية، بل على الممتلكات الاقطاعية والوقفية، وفقاً للقانون العام، وهذا مطبق في جميع أنحاء العالم.

قضية الكنيسة: لايتجرأ القساوسة على الترافع بالشكوى ضد المرابين، لوجود مرسوم امبراطوري.

جواب الامبراطور: لقد صدر مرسوم عام من قبل الامبراطور ضد المرابين، به أدينوا بشكل علني مع جميع سلعهم، وقد جرت قراءته بحضور القساوسة، وبناء عليه إنهم غير معاقين ويمكنهم الشكوى بفعالية.

قضية الكنيسة: إن رجال الدين عرضة للاعتقال، والسجن، والقضاء عليهم بالاعدام،والاعدام.

جواب الامبراطور: إنه لايعرف شيئاً عن رجال دين قد اعتقلوا، وسجنوا، ما لم يكن بعضهم قد جرى اعتقاله من قبل الموظفين الامبراطوريين، وسوف يسلمون للمحاكمة من قبل الأساقفة، وفقاً لطبيعة جرائمهم، أما بالنسبة للذين قتلوا، إنه بسبب استثناء رجال الدين والرهبان من العقوبة، فإن كنيسة فنيوسيوم Venusium, قد بكت لوفاة قسيسها، الذي قتل من قبل واحد من رهبانه، وفي كنيسة القديس فينسنت قتل راهب راهباً آخر، ولم يتبع ذلك لا إنتقام ولاعقوبة قانونية على الجريمة.

قضية الكنيسة: ما يتعلق بتدنيس الكنائس المكرسة للرب وتهديمها.

جواب الامبراطور: أوضح أنه لايعرف شيئاً مطلقاً، مالم تكن الإشارة قد عملت هنا إلى كنيسة لوسيريا Luceria, التي قال بأنها انهارت من نفسها، بسبب العمر، وهي التي لن يسمح الامبراطور فقط بإعادة عمارتها، بل كان أيضاً جاهزاً، من أجل شرف الرب، والكنيسة، شخصياً، لتقديم مساعدة مناسبة للأسقف، من أجل إعادة بنائها.

قضية الكنيسة: إنه لم يسمح بترميم كنيسة سورانو Sorano.

جواب الامبراطور: إنه قد سمح فقط لكنيسة سورانو بالترميم، وليس المدينة، وذلك على الأقل في أيامه، لأنها قد دمرت بموجب حكم قانوني.

قضية الكنيسة: إنه مراغمة لبنود السلام، جرى تجريد الذين وقفوا إلى جانب الكنيسة في أيام الخلاف، من مقتنياتهم، وطردوا إلى المنفى.

جواب الامبراطور: إن الذين وقفوا إلى جانب البابا ضد الامبراطور، أثناء الخلاف، يسكنون في المملكة بأمان، ربما باستثناء الذين كانوا متسلمين لمناصب، أو كانوا من مسؤولي القضاء، فإنهم لخوفهم من تقديم حساب، قد بقيوا خارج المملكة، أو من الآخرين الذين مكثوا في الخارج حتى لايدعون للمثول أمام القضاء من أجل أسباب إجرامية، وبالنسبة إلى هؤلاء إن الامبراطور على استعداد لقبول عودتهم آمنين، إذا ماقدموا حساباً إليه، وإلى الآخرين الذين اشتكوا ضدهم (ليس —على كل حال— لوقوفهم إلى جانب قضية الكنيسة)، وينبغي —على كل حال— التذكر، أنه عندما جرى إعداد بنود السلام، قام البابا مراغمة لهذه البنود، وفي موقف معارض لآراء جميع الرهبان تقريباً، فاحتفظ بمدينة كاستيلانا Castellana, ولاحتفاظه بها، ولإيذاء الامبراطورية، تسلم مالاً، وذلك في الوقت الذي كان فيه الامبراطور

يعمل في خدمته ضد الرومان، ففي هـذا المجال أنفق أكثر من مائة ألف مارك من الفضة، وحصلت الكنيسة على منافع كبيرة، وكذلك أيضاً من الأراضي التي أخـذت من الرومـان، أعيدت إلى الكنيسـة، وكـذلك من استرداد امتياز الكنيسـة في المدينة، على أسـاس مرافعـة الخدمة المتقـدمة الذكر.

قضية الكنيسة: فيما يتعلـق بجفيد ملك تونس، من أنه لم يسمـح لـه بالوصـول إلى الكرسي الرسولي، لحضـور قداس التعميـد، بل احتفظ به سجيناً.

جواب الامبراطور: لقد هرب حفيد ملك تونس من بلاد المغرب إلى صقلية، ليس من أجل التعميـد، بل للنجاة من الموت، الذي هدد به من قبل عمه (خاله)، وهو لم يحتفظ بـه أسيراً، بل ذهب بموجب خياره من خلال أبوليا، ولدى سؤاله عما إذا كان يرغب بالتعميد، أنكر قبول ذلك كليـاً، وإنه إذا كـان —على كل حـال— لديه رغبـة بالتعميـد، فإن الامبراطور قد سمح بذلك بكـل سرور، وهذا ماكان قـد ذكره من قبل حول هذه المسألة إلى رئيسي أساقفة باليرمو (بلرم)، ومسينا.

قضية الكنيسة: فيما يتعلق ببطـرس المسلم، الـذي هو خـادم مخلـص للكنيسـة والذي احتفظ به سجينـاً، وهو في رحلة لصـالح الكنيسـة، وكذلك فيما يتعلق بالراهب جوردان، الذي احتفظ به أيضاً سجيناً.

جواب الامبراطور: إن بطـرس المسلـم قد اتخـذ سجيناً من قبله، لأنه عدو، ومفتري ضـده في المدينة وفي كل مكان آخر، وهو لم يقـدم بمهمة عمل لصالح الملك الانكليزي، بل جلب فقط رسائل منه، يتوسل إلينا، أنه إذا ماحدث وأخـذ أسيراً، أن يبدي الرحمة نحو الأسير، لكننا لم نول الاهتمام لهما، لأن ذلك الملك لم يعـرف أية خيـانة قـد تـآمر بها بطرس المذكور ضـدي، وفيما يتعلق بالراهب جوردان، أوضح الامبراطور أنه لم

يعتقله، أو أمر باعتقاله، مع أنه قد أساء إليه في قداساته، لكن بما أنه ظهر لبعض رعيته، أن وضعه وإقامته في تخوم تريفيسو ولومبارديا سوف يكون مؤذياً للامبراطور، وبعدما قدم ضمانه بأنه لن يبقى في التخوم أو في لومبارديا، أمر هو —الامبراطور— بإطلاق سراحه، وتسليمه إلى رئيس أساقفة مسينا، إذا كان على استعداد لتسلمه، بناء على الشروط الذي ورد هنا ذكرها.

قضية الكنيسة: إنه أثار اضطراباً في المدينة ضد الكنيسة، كان بوساطته يسعى لطرد الحبر الروماني وإخوانه من كرسيهم، وحاول بشكل مضاد لامتيازات، وكرامة، وشرف الكرسي الرسولي، أن يدوس على حرية الكنيسة.

جواب الامبراطور: أنكر أن أي اضطراب قد أثير في المدينة ضد الكنيسة من قبله، ذلك أنه واحد من الرعايا الصالحين في المدينة، مثلما كان أسلافه، كل من الأمراء الرومان وملوك صقلية، ومثلما اعتادوا أن يعملوا، لأنه يحدث في بعض الأحيان أن بعض الشيوخ الذين انتخبوا من قبل أعدائهم، بذلوا جهودهم لمعاداتهم، لذلك وقف دفاعاً عنهم، كما يتوجب عليه أن يفعل في قضايا مماثلة، وذلك حسبما يكون في الغالب مناسباً، ولكن عندما ينتهي السبب، أي عندما يجري انتخاب شيخ آخر بموافقة عامة، يتوقف الاضطراب المذكور أعلاه، حسبما ظهر من القضية نفسها، وفقاً لشهادة رئيسي أساقفة باليرمو (بلرم)، ومسينا.

قضية الكنيسة: إنه أعطى أوامر إلى بعض رعيته من أجل حبس أسقف برانستي Praeneste, الذي كان نائب الكرسي الرسولي.

جواب الامبراطور: إنه بالنسبة لإعطاء أمر باعتقال أسقف برانستي، هو لم يأمر قط بذلك، ولاحتى حلم بفعل شيء من هذا القبيل، مع أنه يمتلك التسويغ لفعل مثل ذلك له، لأنه عدوه، فهو مع أنه أرسل بمثابة

رجل دين من قبل البـابا، قام على الرغم من ذلك بناء على أوامـر البابا، كما قـال، بشكل مضر، فأثار جميع لومبـارديا إلى حـد كبير ضـده —أي الامبراطور— وشجع اللومبارد على الوقـوف ضده، بقـدر ماامتلك من قوة.

قضية الكنيسـة: أعيقت الحملة الصليبيـة من قبله، بسبب الخلاف الذي وجد مع بعض اللومبـارد، مع أن الكنيسة كانت مستعـدة لتقديم عونها، وكانت تسعى بشكل فعال لإرضائه شخصياً ولكي ترضي كرامة الامبرطورية بشكل فعـال، بسبـب الاعتـداءات التي اقترفت ضـده من قبل اللومبارد، لابل حتى اللومبارد أنفسهم، كانوا مستعدين لفعل هذا، ومن المتوجب سؤاله حول هذه النقاط ومن ثم إعلامنا بجوابه.

جواب الامبراطور: قال الامبراطور: إنه بالنسبة لقضية لومبارديا، بأنه قد أحـالها مراراً إلى الكنيسـة، غير أنه لم يحصل على أية فائـدة من ذلك، اللهم مـالم يكن أنه في المناسبـة الأولى قضي على اللومبـارد، أن يقـدمـوا أربعمائة فـارس، أمر البابا بأن يـزود بهم، بطريقة أنه أرسلهم إلى المملكة ضد الامبراطور نفسه، وفي المناسبة الثانية، أغرموا بخمسمائة جندي، هو لم يأمـر بإرسـالهم إلى الامبراطور، الذي ضده اقترف العـدوان، بل أمـر بإرسالهم إلى ماوراء البحر، تحت حماية البابا والكنيسة، وبناء على أمرهما، مع أن البـابـا لم يكن معـرضـاً للعــدوان، ومع ذلك هذا لم يحدث، وفي المناسبة الثـالثة، وبناء على طلب من الكاردينـالين وهما: الأسقف المتقدم لسابينوم Sabinum, والمعلم بطرس أوف كابوا، اللذان منحهما البابا سلطات كاملة، فقد أحيل العمل المذكور إلى الكنيسة، ولم يقل بعد ذلك ولا كلمـة واحـدة حـول القضيـة، باستثناء أنه عنـدمـا علم البـابا، بأن الامبراطور —الذي غـالباً ماخـدع من قبله— كان مستعـداً للنزول مع جيشه من ألمانيا إلى ايطاليا، عندها رجـاه بحرارة بأن يعهد بالقضية ثانية إليه، ومع أن الامبراطور، غـالباً ما عـانى من جنوح السفينة، في اسناد

المسألة المذكورة إلى الشخص نفسه، كان مع ذلك على استعداد لإحالتها له في يوم محدد، على شرط أن تتثبت لصالح شرفه، ولصالح منفعة الامبراطورية،وهذا الشرط، كما ظهر من رسائل البابا، قد رفض أن يقبله، مع أنه يقول الآن في رسائله، بأن الكنيسة كانت مستعدة لتقرير القضية، أي بأن تحافظ على حق الامبراطورية وعلى شرفها، ويظهر من هذا بأن البابا ورسائله يعارض أحدهما الآخر بشكل مكشوف تماماً، ولكي لايدعى بأن الامبراطور يرغب في تجديد إدعاءاته بايطاليا، من أجل إلحاق الضرر بالأرض المقدسة، كيف إذا حمل صاحب السيادة الامبراطور الصليب، وبعد ذلك لم يهمل الذي تولاه، وهذا واضح برسائله الجوابية التي كتبت إلى مختلف الملوك في جميع أرجاء العالم، وإلى الصليبيين الذين اختاروه سيداً لهم وقائداً، وفي هذه الرسائل هو أيضاً ردّ عليهم حول المسألة المذكورة، بأنه يرغب بإدارة ذلك العمل وتدبره وفقاً لنصيحة الكنيسة، وعلاوة على هذا أضاف الامبراطور في ردّه، بأن الذي هو أكثر فوضوية، وأكثر إثارة للعجب والدهشة لكل من سمع بها، هو أنه بعد مغادرة رئيسي الأساقفة المتقدمي الذكر، أي رئيس أساقفة باليرمو (بلرم) ومسينا، اللذين إليهما كان البابا قد وعد بأن يمدّ حظوة الكنيسة لصالح الامبراطور، وأنه ذكر بأنه يرغب أن تكون له منافع مشتركة، أما الامبراطور، فمن جهته لم يقم بنشاط كبير لتنفيذ هذا، بعد إعطاء جواب فيه كفاية لرئيسي الأساقفة المذكورين فيما يتعلق ببعض النقاط التي عرضت عليه، كما هو واضح بافادتيهما، جرى إرسال هذه الرسائل وأبلغت هذه العناوين إلى القساوسة، من وراء ظهري رئيسي الأساقفة المذكورين، ولتسبيب الارباك لهما، بحكم أنهما كانا جاهلين تماماً بالذي صنع، ومع أن هذه الرسائل تحتوي نوعاً من التحذير، هي تحتوي على براهين فيها تشهير بسمعة الامبراطور، وأخيراً ادعى الامبراطور في جواب عام، بأنه وإن كان غائباً عن المملكة، وكان جاهلاً بأحوالها، هو سوف يصدر أوامر، بأن أية أضرار قد ألحقت

بالكنيسة (بقيت لكي يجري اظهـارها) يتوجب إصلاحهـا تماماً من دون أي خلاف، وعلاوة على ذلك، إنه في سبيل المنفعة العامة، التي تنتج من الاتحاد بينه وبين الكنيسة، هو على استعـداد لإعطاء الكنيسة كل الحماية، التي تجعل من الكنيســة والامبراطورية واحــداً، وذلك في سبيل شرف ورفعـة شأن الإيمان المسيحي، ولحفظ شرف الكنيســة وحريتهـا سـوف يبذل غاية جهده حتى يكون هو وهي واحداً. صدر، إلخ».

شكاوى الإمبراطور من الأضرار التي ألحقت به من الحبر الأعظم

عندمـا جلبت هذه الأجـوبـة إلى البـابا، اشتعل غضبـه، وفي تسـويغ لنفسه، عـدّ جميع المناظرات المتقدمـة عبثية، ومراوغـة عقيمة، واستخف بها ورفضها كأنها مجرد حكاية، ثم إنه كتب إلى أمراء المسيحية وإلى نبلاء العـــالم المسيحي، من علمانيين ولاهـوتيين، وحلّل جميع الـذين كـــانوا مرتبطين بالولاء مـع الامبراطور فردريك، من إطاعتـه على أنه مولاهم، كما أنه تدبر نشر القـرار الـذي صـدر ضـد الامبراطور المذكـور، بشكل مهيب في جميع البلدان التي كـــانت مطيعـة له، ولاسيما في جميع أرجـاء انكلترا، وأساء إليه وشوّه سمعتـه بشكل جاد، حيث أعلن عنه أنه عدو مكشـــوف للرب وللكنيســـة، ووصلت بـالحال أخبـــار عـن هذا إلى الامبراطور وبناء عليه حـزن كثيراً، وكتب إلى أصدقـائه كما يلي، مقـدماً شكاوى ثقيلة ضد البابا.

رسالة الامبراطور

«من فـــردريك، **إلخ، إلخ**:نحن نتحــدث من دون رغبـــة، غير أننا لانستطيع المحـافظة على سـلامنا، لأن الفأس قـد وضع الآن على جـذر الشجرة، والسيف قد خرق الروح تقريباً، ففتح شفاهنا وأطلقها، وعلينا أن نكتب كيف أن الشرور قد كسبت حق القانون، ونحن نشعر بالحزن

لأن الأناس المتمردين قد رفعوا أيديهم اليمنى ضد أحشائهم، والخطأ مفضل على الصواب، والإرادة قد انتصرت على العدالة، لأن الشعوب تسعى الآن لطرد حاكم إيطاليا، والصولجان الامبراطوري، وهم غير واعين لمنافعهم فرضوا الحرية غير المسوغة وغير المحدودة على هدوء السلام، وفضلوا ذلك على الانصاف والعدل، ولاتظنن على كل حال بأن هذا التمرد نحن من تسبب به أولاً، لأننا نحن نقوم بالانتقام للأذى الذي لحق بأجدادنا وبآبائنا، ونسعى لقمع مجمل هذه الحرية المقيتة، التي امتدت إلى مناطق أخرى، ولاتظنن، أننا تمكنا بأية وسائل حتى الآن، من اخفاء هذه الأشياء، كما أننا لم نتجاوزهم بأعين القناعة، لأننا ما ان بلغنا مبلغ الرجال، وبدأت فضائل العقل والجسد تتوهج في داخلنا، حتى جرى ترفيعنا إلى المرتبة الامبراطورية، فوق جميع آمال البشر، وبإرادة من الحكمة الربانية وحدها، ووقعت مملكة صقلية، الميراث الطيب من أمنا في حوذتنا، ووجهنا بصيرة عقلنا إلى المسائل المتقدم ذكرها، وبعد أمد، وفي سبيل تحقيق هدفنا، وبسبب المأساة المروعة بفقدان دمياط في ذلك الحين، وبعد التشاور مع الأب المبجل أونوريوس، الحبر الأعظم في فيرولي، وبموافقة عامة، رأينا أنه من الموافق من أجل رفع شأن أحوال الأرض المقدسة، وفي سبيل إصلاح الامبراطورية، أن نعقد بلاطاً خاصاً في فيرونا، على أن نكون نحن وكذلك البابا المتقدم الذكر حضوراً، وتغيرت هذه النية، نظراً لتقلبات المجلس، والحالة المستمرة لاضطراب الأوضاع في ذلك الوقت، ولكن بما أننا لم نكن نرغب في التخلي عن مثل هذه النية الطيبة، وبعد عقد اجتماع آخر مع البابا في فيرينتينو Ferentino, حددنا موعداً لعقد بلاط في كريمونا، إليه دعونا ابننا، وعدداً كبيراً من مقدمي امبراطوريتنا، مع حاشية موائمة من الفرسان، ومع ذلك فقد جلبنا معنا رتلاً كبيراً من الفرسان من المقاطعات الإيطالية، وذلك حسبما هو لائق بشرف المكانة الامبراطورية، وبمثل هذه القضية العظيمة، ومنذ ذلك الحين، بدأ

اللومبارد بالتمرد ضدنا، وضد شرفنا، بروح مضادة، وبمشاعر شاجبة، وقد تظاهروا بالخوف، لأننا كنا محاطين برجال مسلحين، وقد رفضوا طاعتنا، بحكم أننا مولاهم الشرعي، وبإغلاق الطرق أعاقوا دخولنا إلى ايطاليا، وأزاحوا ولدنا والمقدمين من أمام أنظارنا، ولزيادة شرورهم، مع أنها خفية وخيانية، أضافوا الاستهزاء، والإهانة المفتوحة، لأنهم في مؤامراتهم ضدنا وضد الامبراطورية، شكلوا —على الرغم من كوننا موجودين بينهم— مؤامرات شائنة، وهكذا أحبطت توقعاتنا في رؤية ولدنا، فعدنا في هذا الحال إلى أبوليا، لأن الوقت قد ضغط آنذاك من أجل عمل استعداداتنا للجواز عبر البحر، الأمر الذي كنا ملزمين به بعهدنا، وعهدنا بهذه القضية، استناداً إلى الترضية التي عملت لنا وإلى الامبراطورية، لأن يجري تقريرها بموجب قرار من الحبر الأعظم، الذين بقرار منه قد فرض عليهم تزويدنا على نفقتهم بخمسمائة جندي من أجل الخدمة في الأرض المقدسة، وبذروا في البداية الخلاف بين الكنيسة وبين الامبراطورية، فأرسلوهم إلى داخل أبوليا ضدنا، وهكذا بحركة ارتدادية بالترضية ضاعفوا ضررهم المتقدم، وعندما عدنا من مناطق ماوراء البحر، وبعد تسوية الخلاف بيننا وبين الكنيسة، بقينا ملتزمين بغايتنا في إصلاح أوضاع الامبراطورية، وبموجب نصيحة من أبينا الأعظم قداسة، الحبر الأعظم غريغوري، حددنا لعقد بلاط عام في رافينا، وسرنا إلى هنالك مع حاشيتنا المنزلية فقط، ومن دون سلاح، في سبيل إزالة جميع أسباب الخوف الطائشة، من وجود رجال مسلحين، وهناك لم يقتصر عمل اللومبارد المتقدم ذكرهم على عدم تقديم علامات الاخلاص والطاعة، بل ألقوا أمام أعيننا جانباً الاحترام الجدير بشخصنا، ونشروا رايتهم وسعوا بعنف لإهانة مدينة فيرونا، واكسيلينو Eccelino, اللتان انضمتا مؤخراً إلينا، خروجاً عن طاعة الرومان، ومنعوا أيضاً ولدنا من القدوم إلينا، وكذلك نحن من الذهاب إليه، وذلك خلال مناطق الامبراطورية، وبوساطة طرقها (والتي مع أنها لهم،

كـانت عامـة لاستخـدام الجميع)، وهكذا لم تتمكن عين الأب من رؤية الابن، وبتحـريض من العـاطفـة الأبوية، التي لايمكن كبحهـا، عهـدنا بأنفسنا إلى الحظوظ المريبة لعبور البحر، وذهبنا إلى أكويليا، بغرض رؤية ولدنا الحبيب والمقدمين، وباخلاص منهم قدموا إلينا، ولم نتخل حتى في ذلك الوقت عن رحمتنا الثـابتـة، بـل وضعنا جـانبـاً كل غضب، بسبب هجمات أعدائنا ومجدداً عهدنا بإقرار هذه القضية إلى الكنيسة، وقد رفعنا بينهم أبواق عدم الطاعة عوضاً عن الخطبة فيهم، كما كنا ننوي، لإعطاء مثل عن تواضعنا، ولقـد أعطونا تمرداً عوضـاً عن الطاعة المستحقـة لنا، وعـدم إخـلاص عوضـاً عن الاخـلاص، كما أن مـا من غضب حـول القضايا المتقدم ذكرها أعطاهم فهماً.

ظهور مذنب

وفي العام نفسه، وفي عشية عيد القديس جيمس، ومع حلول الظلام، وقبل ظهـور النجـوم، شـوهد في السماء الزرقـاء الصـافيـة، نجم كبير مشتعل، نهض مـن الجنوب، وطـار بشكل مستقيم، لكـن ليس نحـو الأعلى، ومر خارقاً الهواء، شـاقاً طريقه نحو الشمال، ليس بشكل سريع، بل مثلما يطير العقاب، وعندمـا وصل إلى منتصف قبة السماء، الذي هو نصفنا، اختفى، مخلفاً وراءه دخـاناً وشرراً في الهواء، وكـان هذا النجم إما مذنبـاً أو «دراغون» أكبر بالنسبة للعين من الزّهرة، وله شكل سمكة من سمك البـوري، مشع كثيراً من معظم أجـزائه الأمـاميـة، غير أنه في الجزء الخلفي دخاني وله شرر، وأصيب جميع الذين شاهدوا هذه العلامة الرائعة بالدهشـة، ولم يعرفـوا بما هي منذرة أو مبشرة، وشيء واحد هو مـؤكد، هو أن الموسـم بعدمـا كـان على وشك الاختناق بسبب الأمطار المتـواليـة، تغير هذا الموسم في هذه الساعـة بالذات إلى واحـد من أكثـر المواسم خصبـاً، وحفظ الموسم الناضـج، الذي كـان فقط ينتظر المنجل، والقيام بجني المحصول وجمعه.

-١٩٩٢-

مغادرة سيمون إيرل ليستر إنكلترا لأنه جنى غضب الملك

وفي حوالي ذلك الوقت، وبالتحديد في اليوم التاسع من آب، وصل إلى لندن بعض السيدات النبيلات لمرافقة الملكة إلى الدير من أجل طهارتها، حسبما كانت هي العادة، وعندما وصل سيمون دي مونتفورت، ايرل أوف ليستر مع زوجته، دعاه الملك باسم رجل محروم كنسياً، ومنعه وكذلك منع زوجته، التي لوثها بشكل دنيء وفاضح، قبل عقد الزواج بينهما، منعه من الحضور أثناء الاحتفالات الوقورة، وبعدما منعه من الاقتراب منه، غادر الايرل مهاناً ومعه زوجته، وبادر مسرعاً عبر الماء إلى بيته (الذي كان قصر أسقف وينكستر المتوفى، والذي بكرم أعاره الملك إياه ليعيش فيه)، وأمر الملك بطردهما على الفور بالقوة، ومع أنهما عادا إلى الملك يرجوان عفوه بدموع ونحيب، لم يتمكنا من إطفاء غضبه، لأنه قال له:

«أنت أغويت أختي قبل الزواج، وعندما اكتشفت ذلك، أعطيتها لك بالزواج، مع أن ذلك كان ضد إرادتي، حتى أتجنب الفضيحة ولكي لايعيق نذرها الزواج، ذهبت إلى روما، ورشوت البلاط الروماني بهدايا ثمينة وبوعود كبيرة، حتى يمنحك الإذن لفعل ما هو غير شرعي، ورئيس أساقفة كانتربري حاضر هنا، ويعرف هذا، وقد أبلغ بحقيقة القضية إلى البابا، ولكن الحقيقة غلبت بالرشوات المتوالية، وهزمت أمام الشره الروماني، وبسبب إخفاقك في دفع الأموال التي وعدت بها، حرمت كنسياً، ولكي تزيد حجم شرورك، قمت بوساطة بينة مزيفة، فسميتني الضامن لك، من دون استشارتي ودون أن أعرف شيئاً حول القضية»، ولدى سماع الايرل هذه الكلمات قهره الخجل، ومع نهاية النهار، ركب في قارب صغير فوق التيمس مع زوجته وحاشية صغيرة، وسار بكل سرعة إلى شاطىء البحر، وأبحر من هناك على الفور من انكلترا.

-٦٩٩٣-

عقد مؤتمر في لندن بين أساقفة انكلترا وبين النائب البابوي

وفي هذه الآونة نفسهـا، وفي التحـديد في الحادي والثـلاثين من تموز، اجتمع جميع الأسـاقفـة في لندن، للبحث في مظالم الكنيسـة، لأن النائب البـابوي بعد جبـايات يومية، كـان الآن يطالب بوكـالات، وبعد عقـد المؤتمر، أجـاب الأساقفـة برأي واحد بأن المطالب الملحّـة للرومان قـد أنهكت ممتلكات الكنيســة، ولم يعــد بإمكانهم التحمل أكثــر مثل هذه المطالب، وقالوا:

«ليقم بإمــدادك الذي دعـاك مـن دون استشـارة أي واحــد حـول القضية»، وهكذا تركوا المؤتمر، لكن ليس من دون تمتمة بعدم الرضا.

ذهاب النائب البابوي إلى سكوتلندا

وعمل في هذه الآونة النائب البابوي الاستعدادات، من أجل مغادرة سريعة إلى سكوتلندا، وبعـدما قام بالترتيبات الضرورية، وبعـدما أرسل أدلاء انكليـز، للكشف عما إذا كـانت هناك أية مـؤامـرة خيانيـة مـدبرة ضـده، شرع برحلتـه إلى هناك، مختـاراً إقـامـات منظمـة في الرعـويات الديـرية، وفي الكنـائس الكـاتدرائيـــــة، وقبل أن يـدخل إلى الأراضي السكوتلندية، قــوبل من قبل ملك تلك المنطقــة، الذي لم يكن مسروراً لدخـوله إلى مملكتـه، لأنه قـال بأن مـامن نائب بابوي قـد دخل قط إلى سكوتلندا باستثنائه هو وحده، كما أنـه أعلن، أنه ليست هناك من حاجة لفعله هكذا، لأن المسيحيــة قـد ازدهـرت هناك، وكـانت الكنيســة في أوضاع متنامية، وأخيراً وبعد تضـاعف المناقشات، وبعدما أثير الملك إلى حد منعه من الدخول إلى مملكته، تم الوصـول إلى اتفاقية مكتوبة، جرى إعدادها بوساطة بعض النبلاء بينهما من كلا المملكتين، كان فحواها بأن مثل هذه العادة لن تصبح مسألة جارية بسبب قدومه إلى هناك، وعلاوة على ذلك يتوجب عليه توقيع هذه الكتـابة عند مغادرته، وجرى ترتيب

هذا حتى لايعود إلى انكلترا بحال مضطرب، وكأنه رجل مطرود، ولم يقم —على كل حال— بعبور البحر، بل بقي في المدن الغنية على هذا الجانب من البحر، حيث رتب جميع القضايا اللاهوتية حسب رغبته، وجمع مبلغاً كبيراً من المال، وبعد ذلك، وعندما كان الملك في المنطقة الداخلية، قام بالمغادرة بشكل سري، ومن دون إذن الملك، وأخذ الاتفاقية المكتوبة، المتقدم ذكرها، معه.

قراءة قرار الحرمان الكنسي الصادر ضدّ الامبراطور في إنكلترا

وعندما كان النائب البابوي على طريقه نحو سكوتلندا، ذهب إلى بيت هيئة الرهبان في سينت ألبان، وبعدما قام أولاً بالوعظ بقداس بمناسبة صعود العذراء المباركة (لأن هذا وقع خلال ثمانية ذلك العيد)، تولى حرمان الامبراطور كنسياً، لأن الرهبان كانوا قد حصلوا على رسائل تعفيهم من أداء هذا الواجب، وجرى في الوقت نفسه حرمان الامبراطور المذكور كنسياً بشكل مهيب، ولعدة مرات في كنيسة القديس بولص في لندن، وذلك بوساطة إجازة معتمدة من البابا، جرى إرسالها إلى النائب البابوي.

رسالة حادة من البابا ضدّ الإمبراطور أرسلت إلى النائب البابوي

«من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى ولده المحبوب أوتو، الكاردينال الشماس لسينت نيقولا في كارسير Carcere, توليانو Tulliano, نائب الكرسي الرسولي، صحة ومباركات رسولية:

الكرسي الرسولي، مثله مثل بقية العالم كله تقريباً، قد علم ببينات الحقيقة، أن الكنيسة منذ أن تسلمته من رحم أمه، على ركبتيها، قد أرضعت بعواطفها الأبوية الامبراطور فردريك، وحملته بين ذراعيها، وتلقته ليتربى تحت حمايتها، وهو الذي كان من قبل بلا أمل تماماً، ومهملاً، وموكلاً إلى مستقبل مشكوك به، ووقفت بكل قدرتها ضد

جميع غزاة مملكته، الذي ألقوا بأعين الشره على أراضيه، والذين كانوا قد دخلوا إلى داخل حدود أراضيه، وكانوا يقدمون إدعاءات بها من دون معارضة، وحميناه من الذين تآمروا ضد حياته، لأنهم حسدوا خلاصه، وكانوا يسعون لوضع حدّاً لحياته، وليجتثوا ذكراه من على وجه الأرض.

وعندما وصل الامبراطور المذكور إلى عمر أكثر نضوجاً، مدافع عنه بوساطة ترس الحماية اللاهوتية لكل من شخصنه وللمملكة، وكان قد جرى ندب غ. G, دي غولغانم Gualganem, صاحب الذكرى الطيبة، والكاهن في هيئة كهنة القديس أناستاسيوس، والكاردينال، فقد بقي منابا لعدة سنوات، ليكون مسؤولاً عنه، وذلك من قبل الكرسي الرسولي، ورفع أخيراً بوساطة الكرسي المذكور إلى قمة المناصب، ولكن يبدو أنه قد فقد منافع العناية التي أضفيت على شخصه، ونسي المتاعب التي عانت منها الكنيسة لصالحه، وذلك منذ أن أصبح ناسياً لمثل تلك المنافع، وغير ممتن لمثل ذلك المعروف العظيم، وكنا نرغب أنه لم يتجاوز حدود النكران للمعروف بشكل متوازن، الذي يكون به مكتفياً بنكران أن تلقى مثل تلك المنافع جانباً، بالاضافة إلى هذا إن كل ذنب يجعل الإنسان يشعر باللدغة المريرة للأسف، وهذا —على كل حال— كيف حل النكران محل الإحسان، وعاد الشر بدلاً من الصلاح، ضارباً بسلاح ثقيل، ومع أن الكرسي الرسولي يحبه، وقد رفعه إلى قمة السلطة المدنية، مع هذا فإنه نظراً لذنوبه الملحة، التي مع أننا في الغالب، حللناه منها، قد رفض التكفير عنها، وهكذا أرغمنا، فأقدمنا ونحن غير راضين على توبيخه، لأنه مع أن الحكمة الربانية قد رفعت آدم إلى أعلى المراتب والسلطة، ووضعت جميع الأشياء المخلوقة تحت سلطانه، مع ذلك لأنه تجاوز أوامر صانعه، لم توفر خطيئته، والتعويضات التي تسلمتها الكنيسة من فردريك المتقدم الذكر على جميع

المنافع التي أضفيت عليه، لانرغب أن تكون جاهلاً بها، وسوف نعرض في هذه الرسالة أمثلة قليلة من بين الكثير.

فقد أثار في المدينة اضطراباً شديداً، وسعى بكل الوسائل التي توفرت لديه وفي قدرته، لمنعنا مع إخواننا واخراجنا من هناك، وبهذا جلب الإهانة إلى الكرسي الرسولي، وداس على حرية الكنيسة نفسها، وخرق بطيش الأيمان التي كان قد قطعها على نفسه، وقد تسبب بإعاقة أخينا المحترم أسقف برانستي، وإيقاف رحلته بوساطة بعض رعيته، وكان ذلك أثناء ارسال ذلك الأسقف إلى مناطق الألبينيين من أجل تقوية الإيمان الكاثوليكي، كما أنه لم يسمح ولا بأي شكل من الأشكال بملأ الكاتدرائيات والكنائس الشاغرة في مملكته، مسبباً بذلك الرعب والأذى الشديد لأرواح المؤمنين، ولم يكتف بهذا بل نهبهم وجردهم وجرد كنائس أخرى من جميع مقتنياتها، وفرض ضرائب واستخرج مكوساً ثقيلة من القساوسة، والرهبان، ومن رجال الدين العلمانيين الآخرين، وجرى انزال النبلاء، والقوم الفقراء، واليتامى، والأرامل إلى أقصى درجات الدمار، ولم تمنحهم قسوة وشدة جباياته ولا حتى فرصة للتنفس، وهكذا أنزل —بقدر مااستطاع— مملكته كلها إلى رماد وخبث، التي هي الوقف الروحي للقديس بطرس، والتي من أجلها هو مرتبط بيمين التابعية للكرسي الرسولي، وهو من مقطعيه، وبما أنه، بعد تلقيه التحذيرات من قبلنا، لم ير أن عليه أن يقوّم سلوكه، فإننا سوف نقوم بعون الرب، بالتعامل مع القضية، حسبما نرى ذلك مناسباً، وبالاضافة إلى هذا لقد أعاق قضية الأرض المقدسة والامبراطورية الرومانية، ومع أنه، في الأيام التي كان السلام قد أعيد تأسيسه بينه وبين الكنيسة، قد أقسم على يدي نواب الكرسي الرسولي في أن يطيع أوامر الوصاية التي تلقاها منهم، قد رفض تنفيذ الوصاية التي تسلمها منهم، ولا بأي شكل من الأشكال، أو السماح لهم بشغل الأراضي المصادرة

والتابعة للكنيسة، أو أراضيهم التي استولى عليها ووضعها بين يديه، لابل استولى عل أراضي الكنائس، وخاصة أراضي فيرارا Ferrara, وبولونا Bologna, وفوسينانو Fusignano, في لومبارديا، ومنطقة سردينيا، ومسينا، ولوكا، ولقد استولى على الأسقفيات، وخلع الأساقفة، واستبقى الكنائس لنفسه، ونهب أراضيهم وعاث فيها فساداً على الرغم من أن النواب البابويين قد تفوهوا بقرار الحرمان الكنسي ضده، وفي حضوره، وذلك إذا لم يعمل في هذه القضية وفق أوامرهم.

ومجدداً يحتجز هذا الامبراطور سجيناً لديه حفيد ملك تونس، الذي كان قادماً إلى بلاط كنيسة روما، ليتلقى طقوس التعميد، كما أنه فعل الشيء نفسه مع ابننا المحبوب، بطرس المسلم، والمواطن الروماني النبيل، اللذين قد أرسلا إلينا من قبل ولدنا المحبوب بالمسيح، الملك المشهور لانكلترا، ولقد كانا قادمين إلى الكرسي الرسولي، ومثل ذلك فعل بابن بطرس المذكور، ومع أنه تلقى التنبيه مراراً من قبلنا، لم يشعر بوجوب القيام بالإصلاح المخلص، وبما أن قروح ذنوبه أصبحت أشد قسوة، وصار يقدم يومياً على اقتراف المزيد من الجرائم الأسوأ، وبما أننا لم يعد بإمكاننا التحمل مدة أطول —دون أن نذنب بحق المسيح— ولا أن نمر مرور الكرام بهذه الأشياء ونحن صامتين، وبوساطة نصيحة إخواننا، وباسم الرب القدير (الذي نحن نائبه على الأرض)، وبوساطة سلطتي المباركين: بطرس وبولص، وبموجب سلطاتنا —ومهما كنا غير راغبين— لقد رأينا من المناسب إعلان قرار الحرمان الكنسي، وقرار الحرمان من شراكة المؤمنين والتكفير ضد الامبراطور فردريك المذكور، والعهدة به إلى الشيطان، حتى لايمكن تخليص روحه في يوم الرب، بعد وفاة جسده، وبالنسبة إلى جميع المرتبطين به بيمين الولاء، نحن نرسم بتحليلهم من مراعاة هذا اليمين، مادام مغلولاً بسلسلة الحرمان الكنسي، وطوال بقائه كذلك، وبناء عليه نحن ننذركم، ونحثكم بناء

على اخلاصكم، ونأمـركم بوساطة هذه الرسـائل الرسوليـة، أن تتدبروا نشر قرار الحرمان الكنسي والتكفير المتقـدم الذكر، بشكل مهيب، في كل يوم أحد، وفي كل يوم عيـد، والأجراس تقـرع، والشموع مشتعلة، وأن تـدبروا نشر التحليـل المذكـور مع الحظر، والتفـوه بهما في جميع أنحـاء نيابتك الرسولية، وحين تنفـذ أوامرنا وفق هده الطريقة، فإن اخلاصكم يستحق المكافأة من قبلنـا، ومجدداً بما أن فـردريك المتقـدم الذكـر أصبح مشهوراً بسبب جرائم أخرى عظيمـة وثقيلة، نحن سوف نتابع السير في هذه المسـائل، في وقتهم المحـدد ومكانهم المعين، وذلـك حسبما تتطلبـه طبيعـة القضيـة، وبما أن صـوت الرعب يصرخ دومـاً في أذني الشرير، والأشرار دومـاً يتوجسـون من الخيانـة حتى عندما يكونون في أوضـاع سـلام، لأن الضمير المضطرب يتـوقع دومـاً الشر، نجـد أن فـردريك المذكـور، حتى قبل إعلان قـرار الحرمـان الكنسي ضده، قـرر أن يرسل بعض الرسـائل إلى إخـواننا، وهي الرسـائل التي أشير جزئيـاً إليهـا من قبل، والتي وصلت إلى علمنا وإلى علمهم، بعد صـدور القرار المذكور، وبما أن الرب يتـولى دومـاً كشف الأشيـاء المخفيـة والمخبأة في الظلام، وإباحـة أسرار جميع القلوب، قد رغـب في كشف الأفكار الخفية لقلبـه، ذلك أننا استنتجنا من محتـويات تلك الرسائل أية تقـوى يشعر بها نحـو الكنيسة الرومانية التي هي أمه، وأي احترام أو تقدير متوفر لديه للحبر الأعظم ولإخوانه وللكـرسي الرسولي، الذي هو من أتبـاعه الاقطاعيين بالنسبة لمملكته، لأنـه كما يبدو قد تآمر ضدنا وضـدهم، وظهر من ذلك بما فيه الكفاية أية نوع من الجرائم، وكم هي كبيرة الجريمة التي اقترفها، وكان بين كثير من الأشياء الواردة في رسالته هذه الكلمات المقحمة:

«وبناء عليـه نحن ننتحب، ليس من دون سبب مسـوغ، لأن الأب الرسولي يسعى بشكل جاد لإلحاق الضرر بنا، لأنه عندما ينزل مثل هذا الأذى على إنســان ثـابت، ومـع أننا نـرغب بتحمـل ذلك بصبر، إن

ضخامة الذنب لاتسمح لنا بفعل ذلك، بل إن عنف الواقعة يرغمنا على أخذ الانتقام، الأمر الذي اعتاد القياصرة أن يمارسوه»، وإننا —على كل حال— عندما نقدر انعدام صبر المهاجم، والوضع الصعب للمدافع، وإذا سمح لنا بحياد، أن نضع بالممارسة الانتقام الخاص الذي يمكن أن نمارسه على الرجل الذي كان أصل هذا العدوان وحلفائه بالدم، علينا أن نعتقد أنها أكثر احتمالاً، وأن محاولة إلحاق الأذى بكرسينا سوف تطاله وتنزل به وبالذي له، لكن بما أنه لاهو ولاجميع بني قومه، هم الذين سوف يعانون من أجل هذا، سوف يكون عظيم الأهمية بأن تكون جلالة الامبراطورية متشوقة جداً من أجل معاقبتهم، وبما أن سلطات الوضع قد سحبت كل الموانع من الوقاحة، ويبدو أن وزن العدد الكبير للإخوان المحترمين يدعمه على الثبات في العناد الذي تصوره مسبباً للغضب الذي مايزال يزعج عقلنا بعمق أكبر، ذلك أننا مادمنا نسعى لحماية أنفسنا من أي مهاجم، نحن قد أرغمنا في الدفاع عن أنفسنا، بأن نعطي هجوماً أعظم بوساطة مقاومتنا. صدر في اللاتيران، في الحادي عشر من نيسان، في السنة الثالثة عشرة لحبريتنا».

الغضب العظيم للإمبراطور ضدّ البابا وشكاياته الثقيلة ضدّه

وعندما أخبر الامبراطور بهذا التشويه لأخلاقه، وفي أنه طاغية وليس ملكاً، ثار غضبه —ليس من دون سبب— أكثر فأكثر ضد الميلانيين، وضد الخونة الآخرين له، الذين ساعدهم البابا بشكل مؤثر، وشجعهم ضده، وأصبح الميلانيون أكثر جرأة، بسبب المساعدة التي قدمها لهم البابا، ووجدوا أن المسألة هي مسألة حياة أو موت، فأقلعوا بهجمات شديدة جداً، يرافقهم نائب بابوي، كان قد أرسل من قبل البابا لمساعدتهم، وعندما كان الامبراطور قد ذهب إلى مناطق نائية، استولوا بالقوة على فيرارا، ومدن أخرى، وقلاع تابعة للامبراطور، ونهبوا المناطق المجاورة ونشروا الدمار والموت، والذين تعرضوا للحصار، قوبلوا من

دون رحمة، ومع أنهم توسلوا إلى النائب البابوي بدموع، في أنهم إذا ماسلموه مدنهم ومقتنياتهم كلها، ووضعوها بين يديه، أن تستثنى أشخاصهم وحدها باسم الرب، ولم يصغ إليهم، مالم يخضعوا أنفسهم وممتلكاتهم إليه بشكل كامل ومن دون شروط، واعترت الدهشة العظيمة رجال الدين المقدسين والرهبان، الذين سكنوا في المقاطعات المسيحية تجاه انعدام الانسانية والوحشية الدموية التي توفرت في نائب بابوي للكنيسة، وتفوهوا باللعنات ضده، لأنه باستخدامه السيف المادي فقط على هذه الصورة، هو تذكّر فقط عدم إبداء الرحمة، وقد استبد الخوف والرعب بقلوبهم، خشية أن يصب المولى رب الحشود غضبه على هؤلاء المخلوقات القساة، وأن تعاني الكنيسة من سقوط كبير، خاصة وأن حزب البابا لم يهتم بالصلوات، أو بالصوم، أو بالمسيرات، كما أنه لم يفرض على الجماعة العمل على تجنب غضب الرب، بتقديم الصلوات إليه، فبوساطة الصلوات تسترد الكنيسة بالعادة أنفاسها في أوقاتها العصيبة، وغالباً ما تحصل على الانتصارات على الظالمين لها، لكن بوضعها جميع ثقتها في ثرواتها، وفي السلب جعلها تندفع بدون توقف إلى السيف ولأن تقوم بانتقامها، ومن هذا قام حزن ودمار للمسيحيين، وتهديد للنبلاء، وغضب، وحقد، وكراهية، وعداء بين الكنيسة والامبراطورية، وهددت بدايات هذه الوقائع المحزنة بنهايات أكثر حزناً، وهكذا طُعن الامبراطور بآلام حزنه، ولذلك سعى لتسويغ نفسه، ولإتهام البابا، ولهذا كتب الرسالة التالية إلى عدد من الملوك والأمراء، وخاصة إلى ملك انكلترا، وإلى أخيه رتشارد ايرل .أوف كورنوول، بحكم أنه ابن ختنه المحبوب، والذي فيه وضع ثقة خاصة:

رسالة الإمبراطور إلى رتشارد إيرل أوف كورنوول

«من فردريك الذي هو بنعمة الرب امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم وملك القدس وصقلية، إلى رتشارد ايرل كورنوول، وابن ختنه

العزيز، صحة وكل المباركات:

ألق عيناك من حولك، وانظر إلى أبناء الناس، وابك على فضائح الدنيا، والصراع بين الشعوب، والإقصاء العام للعدالة، بما أن شرور بابل قد صدرت عن شيوخ الناس، الذين ظهروا بأنهم حكامها، وفي ذلك حولوا القضاء إلى مرارة، وثمار العدل إلى دود الخشب، قف حيث أنت، أيها الأمير، ويا أيتها الشعوب افهمي قضيتك، واتركي أحكامك تصدر تحت نظر الرب، واجعلي عيونك تشاهد الانصاف لأننا نعرف، ونثق في فضيلة القاضي الأعلى، وحيث لايوجد معك أوزاناً مختلفة، ولامقاييس مختلفة أيضاً، فإنك بكل تأكيد سوف ترى تسامحنا، والبراءة الموزونة في ميزان حكمك، وكلمات الافتراء صادرة من شفاه المنتقصين لنا، واختراعاتهم السامة وزيفهم، ولكن نحن نعلم إنها ليست الآن المرة الأولى أن عدالة قضيتنا، وشرور الذي هو جالس على كرسي الرب، قد جلبت للعرض أمام معرفة العالم، وإلى جانب بدايات الشهرة السريعة التي غالباً ماتأخذ بريق الجدة من آذاننا، في جميع الحالات الهامة، ونحن أنفسنا نستطيع أن نؤكد بعروضنا التالية، أن الذي هو إشاعة، قد أعلن في الفرصة الأولى، أي كيف جرى تعيين هذا المقاتل الجديد رئيساً لكهنتنا تحت رعاية شريرة، فهو صديقنا الخاص مادام في مرتبة دنيا، لكن فور ترقيته، نسي أعمال المعروف التي أغنت بها امبراطوريتنا الكنيسة المقدسة، وغيّر الإخلاص مع تغيّر الظروف، وبدّل أخلاقه مع كرامته، وهو متأثر من بعض الجوانب برغبة شهوانية في إحداث اضطراب عام، فقد شحذ حد خبثه ضدنا، مع أنه هو رئيس الكنيسة وابنها الخاص، وقد اقتنص فرصته، عندما —حتى يتجنب فضيحة كبيرة— تفوه بالحرمان الكنسي ضدنا، وكان ذلك بعدما أخذنا يميناً، وربطنا أنفسنا بالعبور في وقت محدد إلى الأرض المقدسة، ثم إنه بسبب أننا تأخرنا لسوء الصحة (مضيفاً كثيراً من التهم الأخرى، نحن فيما يتعلق بها لم يتقدم قط بتحذيرنا أو بتذكيرنا) قام على الرغم من رغبة

الرب والعدل، فرفض كلياً تسويغنا، واتخذ ذلك سبباً للحرمان الكنسي، ولهذا خضعنا بكل تواضع وكأن الحرمان جرى التفوه به في المقام الأول بناء على رغبتنا، وصليّنا من أجل التحليل، ووعدنا أنه عندما تعود إلينا صحتنا الجسدية، سوف نستعد على الفور لعمل عبورنا، ومع أن شكوانا التي قدمناها بتواضع قد رفضت بشكل مهين، فقد عبرنا لانقاذها، بتنفيذ تقوي لتعهدنا، معتقدين أن نائب يسوع المسيح قد استهدف تنفيذ هذه المسألة، وليس زيادة كراهيته ضدنا، لكن الذي أملنا أن يكون منقذاً فقط للأشياء التي هي بالأعلى، والذي افترضنا أنه يتأمل الأشياء السماوية بعينيه، والذي يركز عليهم في تفكيره، وجدناه كلياً على الفور ليس فقط رجلاً فارغاً من الصدق، بأعماله الوحشية، لابل حتى منفصلاً عن جميع مشاعر الانسانية، لأنه إلى جانب المعيقات التي رماها في طريقنا في سورية، بوساطة رسله، ونوابه، ومثل ذلك برسائل منه —الحاملين لهم قد ألقينا القبض عليهم، ونحتفظ بالرسائل بمثابة بينات— فقد حذروا السلطان من التخلي لنا عن الأرض، التي أوقفت للعبادة اللاهوتية، ولشرائع مملكة القدس، وعمل دخولاً بالقوة إلى مملكتنا في صقلية، مقدماً سبباً مسوغاً لهذا الصنيع هو أن ر. R, ابن الدوق الماضي لسبوليتو Spoleto, كان يعدّ العدة لدخول أراضي الكنيسة، مع أن ذلك كان من دون موافقتنا، ومن دون معرفتنا، وقدمنا فيما بعد برهاناً على ذلك بمعاقبته،كما أنهم لم يزحفوا إلى هناك كما يفعل الرجال المقدسين، ومن ثم الاستيلاء على الممالك بالإيمان، بل زحفوا بالغدر والحنث باليمين للجميع، وإذا لم يكن من السهولة إيجاد أحد يمكن إغوائه بسهولة بالحنث باليمين بوساطة تأكيد بسيط، لقد كان هناك أولئك، حيث أغويوا على الفور، عندما قام قادة القوات البابوية أنفسهم، في سبيل الحصول بسهولة على أراضينا، فأكدوا باليمين، بأننا كنا أسرى في سورية، ومجدداً بعد عودتنا مما وراء البحار، قمنا ببساطة برد الخطأ الذي وضع علينا، وتمنعنا عن جميع المحاولات

للانتقام لأنفسنـا، وفقاً لعادة كـرامة وسمعـة امبراطوريتنا، ثم قمنا عن طواعية بالاصغاء إلى كلام السلام، الذي دفع به الوسطاء.

ونحن نعلم من اعترافنا بـالإيمان الكاثوليكي، أننا قـد وجـدنا أمّـاً حقيقية في الكنيسـة، لكن أبانا وجدناه دومـاً زائفاً، لأنه في اليـوم نفسه لصلحنا، اخترع خطة لتـدميرنا، حيث نصحنا بكل حـرارة بالعـودة إلى ايطاليا مع حـاشية غير مسلحـة وخاصة، محدداً سبباً لذلك الخوف من أننا قد نقدم فرصة لخوف رعيتنا المخلصة، إذا ما قدمنا وبصحبتنا —كما كان الأمـر من قبل— مـرافقة مسلحة، وبالاضـافة إلى هذا، لقـد أعلن بأنه سـوف يعمل كل شيء لتأمين الحماية لنا، وسعى في الـوقت نفسـه لفعل كل مـاهو معـاكـس لهذا، برسـائله وبرسلـه، كما هو واضح من شهـادة عـدد كبير من رعيتنا المخلصين، الذيـن كـانوا في ذلك الحين مطلعين على كل شيء، وكأنهم كـانـوا مشـاركين في هذه المؤامـرات، وكذلك من مقدمين آخرين من ذلك الحزب.

وبناء عليه، بما أن جميع الطرق العـامة كـانت مغلقة في كل مكان من قبل رعايانا المتمردين ضد ابننا وبعض مقدمينا، الذين كانوا قادمين إلينا من ألمانيا، عـلاوة على ذلك، عندما كان ابننا المذكور في أكـويليا، ويريد الذهاب من هناك إلى ألمانيا، استرد بصعوبة الحماية لسفنه، ونحن أرغمنا على العودة إلى مملكتنا، بسبب النصيحـة —أو بالحري المؤامرة الماكرة— الصـادرة عن أبينا، التي قـد جـاءت إلينا، أنه على غير استعـداد لضبط تمرد رعيتنا، وهنا مجدداً، عندما كنا إلى بعض الحدود نتنفس بحرية أكبر، وآخذين راحة بعدمـا أنهكتنا متاعبنا، هاجم أبونا المقدس راحتنا، حيث اتخذ لنفسـه سمة المستشـار، وحرضنـا بحرارة ملتهبـة بأن نزحف بكل نشـاط ضد الرومـان، الذين كـانوا مخلصين لنا، وضـد رعايا متمـردين آخـرين تابعين لنـا في توسكانيـا، كـانوا ممسكين بحقـوق الكنيسـة والامبراطورية، وكنا واثقين من ضمان معروفـه، لأنه رغب في مشاركتنا

بها لدينا وبأعباء الامبراطورية، وبناء عليه قمنا تماشياً مع نصيحته المخلصة، بها هو متوجب علينا، فأعلنا الحرب لصالح الكنيسة، ضد الرومان، الذين كانوا في ذلك الوقت يهاجمون فيتربو، وكان هو في الوقت نفسه يرسل رسائل سرية إلى المدينة، بهدف القول، بأننا كنا نعمل على هذه الصورة صدوراً عن كراهيتنا للرومان، وبناء على رغبتنا وإرادتنا، من دون معرفته أو تعليهاته، وقام في الوقت نفسه اضطراب في صقلية، وبذلك أرغمنا على زيارة مسينا، حتى نتمكن من مواجهة ذلك، في المراحل الأولى، وكان حزب يتشكل هناك، مقدماً لنا سبباً وحيداً، هو أننا كنا غير راغبين بالتخلي عن جزيرتنا الفخمة صقلية، وحدث في تلك المناسبة، من دون طلب رأينا، لابل في الحقيقة بإخفاء الحقيقة كلها وإبعادها عن معرفتنا، مع أن ذلك كان مضاداً لشريعة الشعوب، التي تقضي، بأن المتحالفين، والمتشاركين في مهمة واحدة وعمل عسكري هو نفسه، عليهم عدم التخلي أحدهم عن الآخر، حدث أنه عمل معاهدة مع الرومان، الذين أعلنا ضدهم الحرب، بناء على طلبه، كما ذكرنا أعلاه، وكان هذا أيضاً من دون الاهتمام بحقيقة، أننا بقينا ليس من دون مخاطرة، ورعب على كرامتنا، بقينا بلا دفاع بين الرعايا العصاة والمنشقين، وأننا كنا قد أرسلنا عدداً كبيراً من الجنود الأقوياء لمساعدته، مع أننا لم نكن قادرين على الحضور شخصياً.

بالاضافة إلى هذا، بما أن استقامة ضميرنا، واخلاصنا النقي الذي شعرنا به نحو الكنيسة، التي هي أمنا، لم يسمح للابن بملاحظة الحماقات غير الطبيعية لأبيه، فعزونا ما حدث إلى الحظ الذي هو عائد إلى المهارة، وكنا باستمرار على استعداد للاشارة إلى تسوية للإعادة المستحقة لنا على تحكيم زوج الأم هذا، الذي تولى في كل مناسبة خداعنا بخشونة أعظم، وسخر منا بمرارة أكبر، وفق نسبة كأن وعوده بتحكيم كامل كانت أكثر حسماً، وفي الوقت نفسه، عندما حكمنا من خلال

خلافاتنا الماضية، وجدنا أنه لم يبق أمل، أو الذي بقي هو شيء قليل لنا من أجل تسوية شؤون ايطاليا، بما يتوافق مع شرف الامبراطور، بوسائط البابا، وعندما كنا متوقعين الاضطهاد نفسه، وفي وقت كنا فيه ننتظر هكذا، اعتقد الجميع بأن الحظ قد ابتسم لنا، لأن الخصام بين الكنيسة والرومان بدأ مجدداً، وفي هذا الخصام كان تصرفنا نبيل جداً، فبإخلاص قدمنا أموالنا، وعرضنا شخصنا، لأننا اعتقدنا بأننا أزلنا تماماً صدأ المشاعر الشريرة من قلب رغباتنا السيئة، ولم نكن قانعين بهذا كله، بل رغبنا بأن نمنح الكنيسة أماناً لاجدل حوله، لأن مشاعرنا اشتعلت بأكثر العواطف حرارة نحوها مع الاخلاص، وكذلك ببواعث الاحسان بالرب، وهكذا ذهبنا شخصياً للمثول أمام هذا الحبر الأعظم، حتى من دون استدعاء، وأخذنا معنا ولدنا العزيز كونراد، المنتخب الآن ملكاً للرومان، والذي هو ولي العهد لمملكة القدس، وهو قد كان في ذلك الوقت الابن الوحيد الذي ترك لنا ليتمتع بعواطفنا الأبوية، وذلك بعد الاعتداءات الساطعة لأخيه علينا.

وبعدما قدمنا شخصنا إلى الكنيسة، لم نكن نظن أنه مخبأ لنا القيام بتقديم ولدنا هذا، ليكون رهينة كاملة إلى الحبر الأعظم، ونسأل بكل تواضع، وندعو الرب ليكون شاهداً على اخلاصنا، أننا كنا نريد اتحاداً كاملاً بيننا أنفسنا وبين الكنيسة، لأن هذا الأسقف على الكنيسة كلها، عندما كان منذ زمن طويل مضى، أسقفاً لأوستيا، قد أقنعنا بأن هذا هو واجبنا الذي علينا أن نطلب، وبناء على ذلك كله، وحيث أن العرض الذي تقدم ذكره لاقى تأييداً طيباً من جانب البلاط كله، وبما أن الخطابات الشاكرة ظهرت أنها تبدي نوايا مخلصة، وذلك من قبل الحبر الأعظم وبالقدر نفسه من الذين هم في بلاطه، وظناً منا بأننا تدبرنا كل شيء معهم بوساطة اقتراح نوايانا المخلصة، وليس أقل اعتماداً على خضوعنا، اعتقدنا أنه من الموائم، أن نشرح —بتقوى عالية— سبب

الخلافـات بيننا أنفسنا وبين اللومبـارد، الذي غـالباً مـا سبب الحشرجـة لصـدر قـاضٍ فاسـد، وتسـوية الخلاف بيننا أنفسنا وبين سكان ونبـلاء أنكونا، ونظراً لأننا كنا نشعـر بشكل أكيد بتفهم لصالحنا لكـل قضايانا، سرنا شخصياً، بنية صالحة لخدمـة الكنيسة، مع جيش كبير، كنا بوساطة انفاق ثقيل من خـزانتنا قد تدبرنا جمعـه من جميع أرجاء ألمانيـا، وكذلك من ايطاليـا، كما أننـا لم نتمنع عن مـواصلة تنفيـذ هـدفنا، قبل أن تكون قوتنا قـد أعادت إلى وضعهـا السالف والصحيح، حـرية الكنيسة، التي ديس عليهـا بالأقدام في المدينة وفي مناطقهـا، التي جرى الاستيـلاء على خارجهـا، معتقدين بدون أدنى شـك أن خضوعنا التقوي سـوف يجني لصالحنا الحظوة المستحقة لاستقامتنا، والتي لم نكن قادرين على نيلها.

لكن استمعـوا لتعـرفـوا الربح الـذي أعيـد إلينا بشكل رائع، وذلك مقابل إخـلاصنا العظيم، ومقابل المنافع الكبيرة التي أسـديناها، وتثبيتنا لمثل ذلك الإخـلاص الذي لاشك فيــه، الذي أعيـد إلينا في كل قضيـة سعيـــــاً مـن قبل نـائـب المسيح هـذا، هـذا الذي هـو راعي كنيستنـا الكاثوليكية، وهذا المبشر بالإيمان.

ولنبدأ أولاً حول مسألة ماوراء البحر:

إن جميع الذي جـرى ترتيبـه بشكل منطقي من خـلال وكـالة رئيس أساقفـة رافينا، وأميرنا المحبوب، والنائب الرسولي، وفقاً للصيغـة المعبّـر عنها التي أعطيت إليه من قبل الكنيسة بشأن إعادتنا نحن أنفسنا، وابننا كـونـراد المتقـدم ذكـره، إلى التملك الكامل، كما كـان من قبل، لجميع حقوقنا في المملكة، وفقـاً للمعاهدة، وذلك فور وصول رئيس الأسـاقفة إلى قيسـارية، من دون انتظار النائـب البـابوي المتقـدم الذكـر، أو رسلنا الذين كـانوا قادمين إلى البـلاط، ومن دون المزيد من التأخير، أكثـر من ذلك الذي يمكن أن يعتمـد فيه على وصـول البيـزنطات (نقود ذهبيـة) صار العمل كله المتعلق قد تحول إلى غير منتظم كلياً، هذا دون أن نقول

شيئاً عن ترتيب الأمور، كما كان قد وعد، لصالح كرامتنا، وكرامة الامبراطورية، أو أيضاً عن إهماله عندما رجونا وكنا ملحين معه من أجل إعادة استدعاء أعدائنا، كما أنه لم يسمح لنا بالذهاب مع الجنود، الذين —كما قلنا— كانوا معسكرين في تلك النواحي، من أجل الدفاع عن مناطق الكنيسة، كما أنه لم يرغب بإرسال أي رسول أو رسائل، مما نجم عن ذلك سقوط أعداد كبيرة من الرجال قتلى في المعارك التي وقعت، وإحراق الكنائس.

ومجدداً أيضاً، هو لم يكتف بمثل تلك الدناءة غير الاعتيادية، فعندما كنا مقيمين معه في ريت Reate, ونحن ننفق آلافاً من الماركات في سبيله، رفض أن يتنازل لنا عن مدينة كاستيلانا Castellana, التي كان قد استولى عليها في بداية خصومتنا، وذلك حسبما كان ملزماً بموجب بنود السلام، وحسبما تلقى النصيحة من إخوانه، لأنه كان قد استلم مبلغ خمسين ألف مارك من ذلك المال فقط، فانظر كيف أحبنا أبانا هذا الأعظم قداسة!

وبعد هذا، وفي منفعتنا جميعاً، ومن أجل تهدئة ايطاليا (خاصة وأننا كنا قد أجبرنا على التخلي عن جميع الآمال بإبداء نوايا طيبة نحونا من قبل أبينا، أو بالحري زوج الأم) حملنا سلاحنا وترسنا، وجمعنا قواتنا من مقاطعات ألمانيا (التي إليها كنا قد دعينا في ذلك الوقت بحكم الضرورات، نتيجة للعب القذر لولدنا)، من أجل غزو ايطاليا وتمتين قضيتنا العادلة بجنود شجعان، لأننا كنا غير قادرين على الوصول إلى غاياتنا بالالتماسات، وعندما وصل هذا إلى علم الحبر الأعظم، قام هو، بناء على التماس الهدنة التي وافق عليها جميع الناس المؤمنين وأمراء الأرض، وفي سبيل مساعدة الأرض المقدسة، قام برسائل رسولية، فمنع دخولنا إلى ايطاليا، مع قوة مسلحة، ثم إنه نسي هذا، في اليوم نفسه الذي أعلن فيه الهدنة المتقدم ذكرها، وطلب منا بحكم كوننا المدافع عن

الكنيسة والمحامي عنها، بالزحف بقوة ضد الرومان، الذين —كما قال— قد استولوا على بعض مقتنيات الكنيسة، ومع أنه عدّ أمراً ليس شرعياً بالنسبة لنا، أن نسعى لشق طريقنا بالقوة لندخل إلى بيتنا، وإلى ممتلكاتنا التي أعطيت إلينا من قبل آبائنا، والتي أغلقها دوننا بعض العصاة الحمقى من رعايانا المخلصين، مع ذلك اعتقد أنه عدل بالنسبة له أن يعمل وفق هذا المنهج مع الرومان، الذين لم يكونوا مرتبطين بأي شكل من الأشكال بأبيه، أو بجده، أو بأي واحد من أسلافه.

وأضاف أيضاً بالرسائل المتقدم ذكرها، أنه بالنسبة لمسألة لومبارديا، يتوجب علينا من دون تأخير، ومن دون شروط، ومن دون التقيد بكرامة أو إدعاء إلى الامبراطورية، عمل تسوية معه، بها يستطيع أن يمنعنا إلى الأبد من المطالبة بأي إدعاء لنا، أو أنه يستطيع، إذا ما رغب، خنق حقوق وكرامة الامبراطورية، لكن بما أنه لانصيحة مقدمينا، ولاذكرى الخسائر الماضية، أوصتنا بفعل هذا، قام آنذاك باللجوء إلى بدع أخرى، فأرسل ذئباً مفترساً، يلبس ثوب حمل لمقابلتنا، والمعني بذلك هو أسقف برانستي، وقد أوصى به إلينا برسائل رسولية واصفاً إياه كرجل صاحب حياة هي الأكثر قداسة، الذي بوسائله، سحب لصالح حزب الميلانيين الناقضين للعهد مدينة بلاسنتيا Placentia التي كانت خاضعة لنا، وصديقة، معتقداً بثبات أنه بهذه الوسائل يستطيع بث الاضطراب بشكل عام بين رعايانا المخلصين، وذلك إلى درجة يستطيع بها أن يوهن هدفنا في الزحف إلى إيطاليا، وكان —على كل حال— في هذا الأمل، بفضل الرب، الذي يحمي امبراطوريته، مخدوعاً تماماً، والنار التي انتشرت بين رعايانا المتمردين، ونقص السكان وافراغ المدن الذي تسبب به المجرمون، نادى فوق رأسه بصوت مرتفع، موجهاً اللوم إليه، لأنه بث فيهم روح الثقة في عصيانهم، ولخرقه للصدق، لأنه كان قد وعدهم بأن يساعدهم ضدنا، وضد

الامبراطورية، ولأنه لم يستطع، تجاوباً مع طلبهم، انـزال عقوبة الحرمـان الكنسي بشكل مسوغ، أثناء الفـرصة المتقـدمة الذكـر، فقام بشكل سري برمي المعيقـات في طريق زحـوفنا في جميع الاتجاهات، بارسـال رسـائل ورسلاً إلى جميع أنحاء الامبراطورية، وإلى جميع أنحاء العالم، ليضلل كل من يستطيع تضليله عن متـابعـة الاخـلاص لنا، وللتـوقف عن إعـلان الولاء لنا، لكـن بما أن الوفــاء الطيب لرعــايانا، والعــواطف الجيــدة لأصدقائنا لم تسمح ببقاء أخبار هذه الأوضاع بعيدة عن علمنا، ولأننا لم نختر أن نغلب بالشر، ولأننا رغبنا بقهـر الشر بالصـلاح، قررنا ارسـال رسل خـاصين إلى الكـرسي الرسـولي، وبناء عليــه بعثنا إلى هناك رئيس أساقفـة بلرم المحترم، وأسقفي فلورسنا وراتسبون، والمعلم ثاديوس دي سيسـا Thaddeus de Sessa, الذي هو القــاضي لمحكمتنا العليــا، والمعلم ر. R أسقف بـورتاستيـــــــلانا Portastellana, وهو واحـد من رعـايانا المقـربين لنـا والمخلصين، وبما أننا منحناهم كل الثقـة من قبلنا ولصالحنا، جـرت النقـاشات لنقض اتهام الهرطقـة الذي عمل ضدنا، وكـذلك ماتعلق بامتياز الكنيسة، وإعـادة تأسيس امتيازات الكنيسة والامبراطورية (وهـو أمر مرغـوب به منذ زمن طويل ومتطلع إليـه بيننا وبين الكنيسـة)، وكــان الحبر الأعظم آنذاك حـاضراً بناء على نصيحـة جميع إخوانـه، وقد وافق على طلب سفـارتنا، في جميع النقـاط، ومن خلالهم وبوسـاطة رئيس أساقفة مسينـا، الذي بعث به رسولاً إلينا ليحصل على سلامـه، وعدنا بأنه سـوف يأمر بإيقـاف جميع المعيقات في جميع الأنحاء، وهي المعيقـات التي ألقاها في طرق زحفنا، وذلك حسبما اعترف بشكل مكشـوف بحضـور إخوانه ورسلنا، وهـذه الأشياء كلهـا مبرهن عليها بوضوح بشهادات رسائل جميع الأساقفة المتقدم ذكرهم.

وبهذا الجواب عـاد رسلنا إلينا، لكن قبـل أن يكونوا على بعـد سفـر ثلاثة أيام مـن البـلاط، ومن دون معــرفتهم، وفي سبيل إربـاكهم، منح

منصب نائب بابوي في لومبارديا إلى غ. G دي مونت لونغو Monte Longo, الذي كان قد أرسله في المقام الأول بمثابة رسول إلينا، وجرى تعيينه فيها بعد لاخضاع مانتوا Mantua, ولتضليل رعايانا المخلصين، معتقداً أنه كلما ازدادت الصلاحيات المعطاة له، سوف يكون أكثر قدرة على رمي المعيقات في طريقنا وطريق أتباعنا، وإلى مقدمينا وإلى القساوسة في ايطاليا وألمانيا، الذين كانوا مقيمين معنا في بلاطنا، أرسل رسائل ليس فيها القليل من التشهير بسمعتنا، مع تضمين بعض الفقرات، التي تعلقت بشكل خاص بالظلم الذي قيل بأننا مارسناه ضد بعض الكنائس في مملكتنا، والتي بشأنها قد أمرنا بإزالتها بوساطة المقدمين المذكورين، وحول جميع هذه القضايا للشكوى، وردودنا حول كل منها، قد بعثنا إليكم برواية عنه، تحت التوثيق العام، من أجل تفحصكم، وجرى ايضاح هذه الأشياء كلها إلى الأمراء والقساوسة، وإلى عدد من رجال الدين من كل طائفة، واحداً بعد الآخر (مع ان الأبناء شعروا بالخجل في أنفسهم من التقلبات الكبيرة للأب، وصدوراً عن الاحترام له، غطى الخجل وجوههم) ومع ذلك أعدنا بناء على نصيحتهم الى الكرسي الرسولي رئيس أساقفة بلرم المتقدم الذكر، والمعلم ت.T, والمعلم ر. R, أوف بورتاستيلانا، الذين هم رسلنا، مع رسل مدننا المخلصة، الذين من خلالهم أعلنا أننا أنفسنا جاهزين من دون أي تأخير، أو صعوبة، لتقديم كل ترضية، لكن حتى بوساطة هذا كله، لم يمكن إزاحة غضبه عنا، لكن هذا الذي يدعى باسم نائب المسيح، والمبشر بالسلام، والذي هو بالحقيقة المحرك للانشقاقات وصديق الخلافات، قام بمعارضة من قبله لنصائح الآباء المقدسين، عندما سمع بأن رسلنا كانوا يحملون إليه عرضنا بالطاعة في جميع القضايا، وخشية منه أنهم إذا ماوصلوه سوف يحجز بحواجز العدل وسيكون ربما غير قادر على السير أكثر من دون إثارة فضيحة عامة بادر مسرعاً بشكل كبير، فأبدع خطة مجهضدة، وتصرف على

عكس العادة الخاصة للكنيسة المقدسة الأم، فقذف في أحد السعف بقرار ضدنا، نحن الأمير الأعلى للمسيحية، ثم كرر بعد ذلك القرار نفسه، في يوم عشاء ربنا بموجبه (كما سمعنا من خلال تقرير، ينبغي أن نضع قليلاً من الثقة به) قام —كما قيل— بغلنا بسلاسل الحرمان الكنسي، وذلك بناء على نصيحة بعض الكرادلة اللومبارد، مع أن الشطر الأعقل من إخوانه قد عارضوه، كما أنه قام أيضاً بوسائط محرضيه على الشر، والذين يدورون بفلكه، والذين يعيشون على أوقاف الناس الفقراء، فمنع رسلنا الذين كانوا الآن قد وصلوا، من المثول في حضرته، ومن الظهور أمام الناس، للبرهنة على عدالة قضيتنا، وعلى براءتنا، وفي الحقيقة لتقديم ترضية تصل إلى حد تقديم ضمانة، وإنه فيما يتعلق بها، كان ذلك لسببين إفرادي وخاص، ونظراً لعدالة قضيتنا، ولسوء سمعة دعواه وإجراءاته، توجب، بشكل مسوغ أن نكون فضّلنا ذلك، ومع ذلك استمر بإجراءاته بطيش وبشكل غير نظامي، لنيل مخرج لشروره، ما كان —ربما من قبل— سيصبح معروفاً، ونحن نحزن ونشعر بالأسى في قلوبنا، بسبب العار الذي تسبب للكنيسة الأم المقدسة، التي عهد بها ربنا يسوع المسيح —تحت ظهور العذراء المباركة— إلى تلاميذه، بميثاق آلامه، وعدا عن ذلك، ولولا ذلك نحن ما كان من الممكن أن نعتقد أن أي أذى كان من الممكن أن يلحق بنا من قبل هذا الرجل، الذي نعتقد —لسبب صحيح— أنه ليس قاضينا، لأنه كان قد أعلن من قبل عن نفسه أنه عدونا الرئيسي، وكذلك قاضينا، بالقول والعمل، ورعى بشكل مكشوف العصاة ضدنا وضد الامبراطورية، علاوة على ذلك لقد حوّل نفسه بجعلها غير جديرة بأن يخضع لها مثل هذا الأمير العظيم، وفي الحقيقة هو غير جدير بالسلطات الحبرية بشكل مطلق، لأنه وقف ضدنا وضد الامبراطورية، وقدم برعايته المكشوفة الحماية لمدينة ميلان، التي هي —وفقاً لشهادة عدد كبير من الناس الموثوقين من رجال الدين— مسكونة في الجزء الأكبر منها من قبل الهراطقة، وكذلك عندما

أصدر أسقف فلورنسا —وهو رجل صاحب حياة مستقيمة، وأخلاق حميدة— عدة أحكام هرطقية ضد ر. R دي مانديلو Mandello, وهو رجل من أهل ميلان، وكان من قبل عمدة ميلان وكليرنتيا Clarentia, لم يصغ إليه وذلك صدوراً عن كراهيتنا ومحاباة للميلانيين، وعلاوة على ذلك نحن نعتقد أنه غير جدير بأن يعدّ نائباً للمسيح، وخليفة لبطرس، ومحللاً لأرواح المسيحيين، ليس بسبب الأضرار التي ألحقها بكرامتنا، بل للأخطاء الشخصية، وبسبب أعمال التحليل، المتوجب عدم منحها إلاّ فقط بعد مداولات كبيرة مع إخوانه، فهو يزن بميزان المقايضة، مثله مثل تاجر، ويمنحها في غرفته، مخفياً آرائه عن إخوانه (الذين متوجب عليه التشاور معهم، وفقاً للنظام اللاهوتي) وبذلك جعل من نفسه الذي يتولى الختم لنفسه، والكاتب، وربما أيضاً المحاسب، ومثل هذا هناك مسائل لانرغب نحن بالمرور بها صامتين، مثل التحليل المدهش، الذي عمله بناء على تسلم مبلغ صغير من المال، وسمح به لسيفا Sipha, ابنة المفوض المتوفى لمملكة قبرص، بأن تصبح زوجة لبالين دي جوسلين، وذلك مراغمة لقرار التفريق الذي تفوه به أسقف نيقوسيا في تلك المسألة، واليمين الذي أقسمه في الوقت نفسه بأنه لن يراجعها ثانية، وسمح كذلك لأخت جون صاحب قيسارية بالزواج من جيمس أوف أميندوليا Amendolia, الذي كان قد تزوج أختها من قبل، وذلك لأن كلاهما خائنين لنا، والامرأتين قريبتين له من الدرجة الثالثة، وكل ماهو معيب، رتق بمبلغ المال الذي دفع إليه، لأن هذا قد عمل بموجب درجة كراهيته لنا.

ونحن أيضاً نحزن لذنبه ولمراوغته حول حقيقته أن لم يرض بإنفاق المال في سبيل كسب نبلاء ومقدمي الرومان إلى جانبه، ولأن يصبحوا أتباعه ومرتبطين به، لقد بدّد مقتنيات الكنيسة الرومانية، التي عهد إلينا بالحماية الخاصة لها، عوضاً عن أن يمنح الرومان القلاع والمقتنيات التي

أعطيت إلى الآباء المقـــــدسين من قبـل المؤمنين المسيحيين المخلصين الأتقياء، وبناء عليـه يتوجب على الكنيسة العـالمية، أو الشعب المسيحي، أن لايعجب، من أننا لانخـاف من قـرار مثل هذا القـاضي، ليس تحدياً للمنصب البـابوي، أو للمكانة الرسـولية (التي يتـوجب على جميع ذوي الإيمان المستقيم الخضـوع إليهـا، ونحـن أكثر من غيرنـا نفعل ذلك)، ونحن نلوم مراوغة هذا الشخص، الذي بـرهن عن نفسه أنه غير جدير بعرش مثل هذه الحكومـة الكبيرة، ويتوجب على جميع النبـلاء والأمراء الذين يحملون اسم مسيحيين، أن يعرفوا نيتي المقدسة، والغيرة والتقوى المخلصـة المتوفـرة فيّ، وأنه ليس من الكـراهية القـذرة، بل انطلاقـاً من سبب هو الأكثـر عـدالة، استثير الأمير الرومـاني ضـد الكاهن الأعلى الرومـاني، لأنـه يخشى أن يقـاد قطيع الرب، من قبل مثـل هذا الراعي، فيقوده خـلال ممرات مغلقة، انتبهوا، أننا ندعو برسـائلنا ورسلنا كرادلة الكنيسـة الرومـانيـة المقـدسـة، وبحق دم المسيح، وتحت شهـادة الحكم اللاهوتي، أن يقوموا بالدعوة لاجتماع مجمع مسكوني للأساقفة ولآخرين من أتباع المسيـح المخلصين، ونبعث نحن أيضاً لرسلنا، ولبقيـة الأمراء، الذين نحن على استعـداد أن نقف أمـامهم، وأن نشرح، وأن نبرهن كل الذي قلناه، لابل حتى مسـائل أسوأ منهم، ولسنا نحن الأقل انزعـاجاً، بالسبب المحتمل، لأن حاكم الكنيسـة هذا، الذي ينبغي أن يتملك جميع أنواع الفضائل، وأن يكون الأعظم مثابـرة، وأن يكون تابعاً منتخباً، من دون وصمـة الشره، خشيـة أن أخطاء الزعماء، تتـوالد وتزداد بين الذين هم رعيـة لهم، سعى لأن يدوس على حقـوق الامبراطورية، وذلك على عكس وعده الذي أعطاه بناء على نصيحة إخـوانه، وعبّـر عنه برسائله، حيث وعـــدنا بـأن لايتخلى عنا، بل أن يقـــدم لنـا النصيحـــة بـرأيه، ومساعدته، ورعايتـه، في استعادة قوة الامبراطورية المذكورة، وهو زيادة على ذلك يكدس التشهير بنا، إن لم نقل يتـولى تكفيرنا، وقذف شخصنا، ولاسيما عندمـا نوازن الأمور في ضميرنا، فـلا نجد في أنفسنا لامناسبـة

ولاسبب يدفع هذا الإنسان غير الودود، لأن يكون مشاراً إلى هذه الدرجة من الحقد المرير علينا، ما لم يكن أن جلالتنا قد رأى أنه من غير اللائق، وعدّه أنه لايناسبنا، لأن ندخل معه باتفاقية من أجل زواج حفيدته بابننا الطبيعي هنري، الذي هو الآن ملك توري Torres وغالوري Galluri.

شاركنا بالعزاء —بناء عليه— أيها الصديق العزيز، وكذلك الذين هم أحباء لديكم، ذلك أنك أمير سيفيد العالم، ليس معنا فقط، بل مع الكنيسة أيضاً، التي هي مجمع المؤمنين المسيحيين، لأن رأس الكنيسة مريض، وأميرها في الوسط مثل أسد جوال، ونبيّها مجنون، ورجل بلا إيمان، وكاهنها يتولى تلويث معبدها، ويتصرف بشكل ظالم ضد الشريعة، وهنا أن تكون ذنوب هذا الحبر موضع شجب من قبلنا أكثر من قبل بقية أمراء الدنيا، فهذا أمر مسوغ، لأننا الأقرب إليه من حيث مكان الإقامة،والأكثر تحالفاً معه في منصبنا، ولذلك كنا نزيد من تشريفنا له، ونشعر بأعبائه.

هذا وينبغي أن لاننسى أن نذكر هنا، صدوراً عن قرابتكم لنا، أننا نرجوكم أن تقدروا وأن تعدوا الازدراء التي تكدس علينا هو أذى لكم، وأن تبادر مسرعاً نحو بيتكم مع الماء، عندما تكون النيران مستعرة في بيوت الجيران، وانتبه إلى أن سبب إجراءات الحبر ضدنا، لأنه يقدم الرعاية والمحاباة للمتمردين علينا، وهذه مسألة، مع أنها غير مذكورة الآن، من الممكن أن نستنتج بسهولة، أن عليكم أن تخافوا، أن مثل هذه الإجراءات من الممكن أن تقام ضدكم في أعمالكم، لأن المعتقد أن إذلال الآخرين والأمراء سيكون أمراً هيناً، إذا ما أمكن أولاً الاطاحة بقدرة قيصر الرومان، لأن ترسه يتحمل هزات رمايات نشاب العدو، هذا وإن السبب الحقيقي الذي أثار قلب البابا وجعله يتحرق في داخله، هو مشكلة اللومبارد، وهو لم يتجرأ على جلب القضية إلى العلن، خوفاً

من إثارة فضيحة بيننا وبين جميع الذين سمعوا بها، ومن أجل هذه القضية، بعث إلينا برسول خاص موثوق من قبله (من الممكن جلب شهادة لتكون برهاناً على مصداقية هذا) قد وعد أننا إذا ما تركنا قضية اللومبارد تحل وفق إرادته، هو لن يتوقف فقط عن إلحاق الضرر بجلالتنا في أي شيء، بل إنه سوف يضع تحت استخداماتنا عشر جميع العالم، المكرس لتقديم المعونة الضرورية إلى الأرض المقدسة، ولا عجب حول هذا، لأنه كان مخروقاً بسفسطائية اللومبارد المتعجلة والحادة، وإليهم قد وعد —كما علمت من اعترافات بعض القساوسة— بأنه أعطاهم يمينه شخصياً بالعمل ضدنا وضد الامبراطورية، وعندما كنا في الحج في سورية، في خدمة يسوع المسيح، أرسلهم إلى المملكة، لكن عندما جاء وقت الوفاء بوعده المذكور أعلاه، أمكنه بشكل قانوني الحنث بوعده، وتغيير المرسوم الذي كان قد أصدره، ومحاباة منه لهم، هو لم يتردد أيضاً عن اقتراف عمل مرعب أن تسمع به، ومفرغ من كل منطق وحكمة، لأنه تولى من خلال غ. G أسقف بريشيا، وهـ. H أسقف كوما Cuma, وآخرين، تقديم النصيحة لنا: إما أن نتلقى ترضية من اللومبارد من خلاله، أو أن نعمل معهم —كما قال— هدنة لمدة أربع سنوات، في سبيل رفع شأن قضية الأرض المقدسة، علماً بأن خمس سنوات كانت قد انقضت منذ عقد الهدنة المذكورة، وأجلنا نحن —على كل حال— البت في المسألة، واحتفظنا بها للوقت الحالي، لنتداول حولها مع مستشارينا المخلصين، في حين كانت أعمال التحذير المتعلقة بموافقة النائب البابوي المتقدم ذكره غ. G دي مونت لونغو (الذي كان في الوقت ذاته مقيماً بين الميلانيين) قد وافقت على الهدنة المتقدمة الذكر، وهذه المسائل مبرهن عليها بوضوح بشهادات هؤلاء الأساقفة وقام في الوقت نفسه، من دون انتظار لقرارنا، أو لقيامنا بالتشاور مع مستشارينا، فتقيأ ولفظ ضدنا السم الذي كان محقوناً به، كما أوضح أقرباء بعض الأشخاص، وأخيراً، إنه من أجلنا ننا: ـدك

ونسأل مساعـدتك، ومساعـدة جميع آلك وذويك، وأعيان وأمـراء جميع العالم، ليس بسبب أن قوتنا غير كـافية لإبعاد هذا الضرر عن أنفسنا، بل ليعلم العالم كله بأن مكانة جميع الأمراء العلمانيين عـرضة للخطر، عندما يتعـرض أمير واحـد للخطر. صـدر في تريفيسـو في اليـوم العشرين من نيسان، في العلامة التاسعة [الثانية عشرة].

حول الفضيحة المؤسفة التي تفجرت من الأعلى

وكـان الامبراطور قـد بعث بهذه الرســالة مع شيء طفيف من تغيير العبـارات، وبعض الكلمات القليلة في النهـــاية، إلى ملك انكلترا، وإلى أمـراء آخــرين في جميع أرجـاء العـالم، من أجـل أن يبرهن على براءته، وليظهر خداع البابا، وبدأت الفضيحـة تنتشر في جميع أرجاء العالم، وقام البابا الذي عرف بالحقائق التـالية من بعض الأشخاص الموثوقين، فشهر بالامبراطور أكثـر فأكثـر، وكـدس الملامـات عليـه، وأعلن عنه مجرمـاً بهرطقة فـوضوية، وفي سبيل إدانته، وجعله سيء السمعـة في أعين العالم كله، بعث برسالة تنديدية إلى جميع أمراء وأساقفة العالم، هي كما يلي:

رسالة البابا

«من غريغوري، الأسقف وعبـد عبيد الرب، إلى أخيه المحترم، رئيس أساقفة كانتربري وإلى أساقفته المساعدين، صحة ومباركات رسولية:

لقد قـام من البحر وحش مليء بكـلام الكفر، قد صيغ بقـدمي دب، وبفم أسد هائج، وكان مثله مثل نمر في بقية أعضائه الأخرى، وقد فتح فمـه بالتجديف ضـد اسم الرب، وهو مستمـر بالمهاجمة بأسلحـة مماثلة خيمـة عهـده، والقــديسين المقيمين في السماء، ويسعى هذا الوحش إلى تمزيق كل شيء إلى قطـع بفكيـه وبأسنانه المعمــولة من حــديد، ولأن يدوس بقـدميـه على العـالم كله، حيث أعـدّ من قبل بشكل سري آلات قـذف ضـد الإيمان، وهو الآن قـد صفّ بشكل مكشـوف آلات قـذف

الاسماعيليين، صارفاً الأرواح عن الطريق المستقيم، وثائراً ضد المسيح، مخلص العالم، (الذي أفادت تقارير بأنه يسعى إلى تدمير سجلات انجيله بقلم هرطقة شريرة).

وبناء عليه توقفوا، لتعجبوا أنتم جميعاً، ولتسمعوا القذف والتجديف ضدنا، الذي صدر عن هذا الوحش، وإلى أي حد وصل ذلك، وإذا كنا نحن، الذين عبيد للرب في جميع أشكال العبودية، قد هوجمنا بنشاب مغتاب، لاعجب في ذلك، فالرب نفسه ليس بمنجاة من هذه الإهانات، وقفوا واعجبوا، إذا ما كان قد جرد سيف الأذى ضدنا، لأنه يستهدف الآن اجتثاث اسم الرب من على الأرض تماماً، هذا ويمكنكم أن تكونوا أفضل قدرة على التصدي لكذبه بصدق مكشوف، ودحض خداعه بحجج الصفاء، وقوموا بالتفحص بكل دقة، لرأس، ولوسط، وللأجزاء المنخفضة من هذا الوحش فردريك، المدعو باسم امبراطور، وبما أنكم سوف تجدون في كلامه البغضاء فقط والشرور، سلحوا قلوبكم المخلصة بترس الصدق، وقدروا كيف أن فردريك المذكور، قد سعى من خلال رسائله التي بعث بها إلى مختلف أنحاء العالم وبلدانه، أن يلطخ وأن يشوه اخلاص الكرسي الرسولي، وشخصنا بوساطة تصاريحه الملوثة، وهو الذي يعدّ مقترفاً للزيف، وجاهلاً بكل تسامح، ولايستحي من العار، قد قام بشكل زائف بالتأكيد على أننا بعدما ارتقينا إلى منصب الرسولية، قد تخلينا عنه، وهو الذي كان صديقاً لنا منذ القدم، منذ أن كنا في مرتبة أدنى، وأننا خرقنا عهودنا، وغيّرنا سلوكنا، وأنه عندما كان مقيداً بيمين، وبقرار الحرمان الكنسي الذي كان سيصدر ضده، إذا لم يسر لمساعدة الأرض المقدسة والدفاع عنها، في الوقت الذي جرى إعداده، وأنه كان غير قادر على الذهاب بسبب المرض، وأننا حاولنا أن نفرض عليه الحرمان الكنسي ونوجب تنفيذه ضده، وأننا رفضنا منحه منفعة التحليل لدى استرداده لصحته، وأنه عندما

كان متوجهاً لانقاذ الأرض المذكورة، أعقناه في أهدافه بوسائط رسلنا والنواب البابويين، وبارسالنا رسائل إلى السلطان، ليقف ضد تقدمه، حتى يمكن بذلك اعاقته في آماله التي تصورها في استرداد مملكة القدس، وعمل أيضاً شكوى زائفة، بأننا قمنا بشكل غير عادل وبالقوة فهاجمنا مملكة صقلية وغزوناها، وحرضنا الناس على اقتراف حنث اليمين بسبب أن رينالد ابن الدوق السالف لسبوليتو قد غزا أراضي الكنيسة، وأن ذلك عمل من دون علمه، وتفاخر بأنه عندما عاد من سورية إلى أبوليا، قد تمنع عن الانتقام للأذى الذي ألحق به، وقبل بعرضنا بالسلام والنوايا الطيبة، وعاد إلى الكنيسة الأم، لكن مع أن المعرفة العامة بالحقائق ترفض هذا الزيف وتنقضه، نجد في بعض الأحيان أن الكذب الخفي يستولي على مقعد الصدق في أذن الاخلاص، وذلك عندما لايجد الصدق محامياً عنه هناك، ولكي لايتسلل الزيف، ويجد سبيله بوسائل الغش إلى قلوبكم، من المتوجب عدم ترككم جاهلين لخواصنا ولطريقة سلوكنا، وكنا قبل، وبعد أن حملنا على أكتافنا أعباء المنصب الرسولي قد حبينا هذا المذكور فردريك بعناية خاصة، الذي هو مثل ذئب، في ثياب شاة، حتى تدمرت فينا جميع الآمال التي يتصورها ويتأملها أب في ابنه، لأن فردريك المذكور يتبجح بعظمته، وثمل سكران بالسلطة التي حصل عليها، وقد أعاد الشر مقابل الخير إلى أمه الكنيسة، وبدأ مثل ثعبان، واللدغة في ذيله، بنشر السم فيها، في الوقت الذي كان فيه يسعى إلى تخديرها بكلامه الملوث بالزيف، فهو كان منذ بعض الوقت الذي مضى، عندما استدعت ضرورات الأرض المقدسة، والقرار المتقدم الذكر، ويمينه، والوقت الذي جرى تحديده من أجل مغادرته حيث تطلب ذلك اقلاعه، فقد كانت هناك عدة آلاف من الصليبيين تنتظره في برنديزي، وقد طالبته بإلحاح أن يفعل ذلك، وقد حبس الصليبيين المذكورين هناك، حتى ولت مواسم أنواء كانوا غير معتادين عليها، فهلكوا بشكل مؤسف وتعيس بسبب مختلف الأمراض،

وبذلك نال متطوعاً تهمة الحنث باليمين، وقرار الحرمان الكنسي، فقد أهمل هذا الرجل صاحب الإيمان غير السليم، لكن السليم بالجسد، العبور الذي كان قد وعد به، حتى يتمكن، وهو آمن، من نشر الأكاذيب ضد الرب، وخداع الكنيسة، وقد تمدد، لبضعة أيام، على فراش المرض، متظاهراً بالضعف، ولم يتردد في ترك الأرض المقدسة معرضة لغارات أعداء المسيح، كما أنه لم يحزن البتة لموت النبيل لانغريف أوف ثورنجيا، صاحب الذكرى الطيبة، الذي واجه الموت هناك، ولا سمح الرب بأن كان ذلك قد تسبب بوساطة السم، حسبما راجت الأخبار في الدنيا، وعندما أخبرنا برسائل من الأساقفة الساكنين هناك، بمرضه الذي تظاهر به، وبالمسائل الأخرى المتقدم ذكرها، وخفنا نحن مع أسفنا، وخشينا من أن نصبح مع الكرسي الرسولي مفضوحين بسبب الاخفاق في استخدام عصا النظام ضد مثل هذه الجريمة الثقيلة، ولقد أسفنا لموت الصليبيين، والمخاطر التي تعرضت لها الأرض المقدسة، ورغبنا على الأقل في مسألة واحدة، هي أن نمسح دموع أسف الكنيسة باليد اليمنى بوساطة مواساة صحيحة، ولذلك قررنا بأنه خاضع لقرار الحرمان الكنسي، الذي صدر ضده وأجيز من قبله وبموافقته، بوساطة سلطات سلفنا، صاحب الذكرى الطيبة، البابا أونوريوس، ورعينا باخلاص فكرة إمكانية أن نسمع بأنه قوّم طرائقه، مع الاعتراف بأخطائه الكبيرة، وأن ذلك سوف يعطينا أملاً لتقديم العون، فعرضنا عليه برسائلنا بأننا سوف نمنحه منفعة التحليل بصيغة صحيحة، فور قيامه بالانطلاق للمشاركة بالصليبية المتقدمة الذكر، لكنه وهو الذي كان في صدره قليلاً من الاهتمام حول هذه المسائل، قدم قليلاً من الاهتمام لمفاتيح الكنيسة، وعبر إلى سورية دون الحصول على التحليل، ودخل هناك بمعاهدة لمدة ست سنوات مع السلطان، على شرط واحد هو فقط أن تعاد إليه أسوار القدس، وقد أرسل إليه عدداً كبيراً من الخيول والرجال المسلحين لمهاجمة المسيحيين، وترك هيكل الرب لجماعة

المسلمين، الذين أنشدوا هناك مدائح محمد (ﷺ) وقد تحوّل إلى مدافع عن العدو، وهاجم بكل امكاناته أخانا المحترم بطريرك القدس والداوية، وينبغي على كل حال أن لايعتقد من قبل أي إنسان صاحب عقل سليم، أننا نحن، أو نوابنا قد سعينا إلى إعاقته ومنعه من استرداد مملكة القدس، لأن الكنيسة قد حثت نفسها كثيراً لتحقيق هذا الهدف، وقد تحملت كثيراً من أعباء النفقات العظيمة، إنما من المعروف بشكل جيد بالنسبة للعالم أجمع، بأن فردريك المذكور، كان بالطريق نفسه مضطهداً لكنيسة الرب في سورية، وكذلك فعل من خلال وكالة رينالد المذكور، الذي —على الرغم من نصيحتنا— تركه بمثابة وكيله في مملكته، فقام بالتضييق على الكنيسة على هذا الجانب من البحر، لأن رينالد المذكور غزا أراضي الكنيسة، محمياً برسائل مختومة بالختم الذهبي، ومدعوماً بالمال، ومحاطاً بإقطاعي فردريك المذكور، وأقدم على تعليق، وتشويه وقتل بعض الكهنة ورجال الدين، وسعى أيضاً —بحكم أننا كنا في وضع مضطرب— إلى الاستيلاء على مقاطعة بيريوسيوم Perusium, العائدة إلى أراضي الكنيسة المذكورة، ومع أن رعايانا الأوفياء والمخلصين، الذين لم يعد بإمكانهم تحمل مثل هذا الزحف، قد طردوه من ذلك الجزء من البلاد، فإن المسيح قد أعطى النصر إلى قرينته، ومع ذلك وبسبب أن رينالد المذكور لم يكن ليقلع عن اضطهاده ولا بوسيلة من الوسائل، رأوا أنه من الحكمة قطع عروق أصل الشر، بدلاً من انتظار عنف السيل الذي قام بالازعاج، والذي كان يزداد ضخامة بوساطة بعض الجداول الجديدة، ولذلك دخلوا إلى مملكة صقلية، التي هي الوقف الروحي للكنيسة، حتى لايطلبوا منا نشاباً من تلك الجهة، التي منها ينبغي توقع وصول المساعدة، ومع أن كثيراً من سكان تلك المملكة صاروا مطيعين للكرسي الرسولي، ينبغي عدم عدّهم —لهذا السبب— من أي جانب من الجوانب مجرمين بالحنث باليمين، لأنهم قد حرروا من يمين الولاء الذي كانوا قد أعطوه إلى فردريك

المذكور بوساطة قرار الحرمان الكنسي الذي كان قد صدر ضده.

وعندما عاد فردريك المذكور من مناطق ماوراء البحر، ورجع إلى صدر الكنيسة الأم، فتحنا له صدر العاطفة الرسولية، وأعرناه أذناً صاغية، واستجبنا لطلبه بالسلم، ومنحناه منفعة التحليل، وبالاضافة إلى هذه الأشياء، فإن ابن الكذب هذا، تولى تكديس الزيف فوق الزيف، من أجل أنه كلما زاد تعثره في شباك الزيف، كلما كان الرعب الذي نصبه أعظم، هذا الرجل أعلن الآن بكتابة كاذبة، أننا في سبيل تدميره، وعدناه أنه إن كان سيذهب إلى لومبارديا بسلام، ومن دون جيش سوف نلطف جميع الصعوبات، وأننا من خلال المعارضة التي عملت برسائلنا وبمراسلينا أعقناه ومنعناه من الوصول إلى هدف نواياه، وأنه بسبب أنه لم يكن مدعوماً بالسلاح، قد أرغم على العودة إلى مملكته، وقد أكد بشكل زائف أنه بموجب مبادرتنا قد تحدى الرومان الذين كانوا آنذاك يهاجمون فيتربو، وأرسل كتلة كبيرة من الرجال لمساعدة شعب تلك البلدة، وقد اشتكى بأننا قد كتبنا إلى الرومان، قائلين بأن هذا قد عمل من دون معرفتنا، ومن دون استشارته، عُمل سلام معهم مرة ثانية، مطرياً نفسه بزيف جديد، بأن الرومان قد أبعدوا ثانية عن سلام الكنيسة، وجاء هذا الرجل نفسه، من دون دعوة، مع ابنه كونراد، الذي منحه لنا ليكون رهينة، ومثل أمامنا، وأخضع لتحكيمنا مسألة الخلاف الذي نشب بينه وبين اللومبارد، وأعاد إلى امتيازات الكرسي الرسولي، الأرض التي جرى احتلالها، وأعاد حرية الكنيسة إلى وضعها السالف والصحيح، فهل من الممكن أن يكون هذا الرجل الذي يتكلم الزيف، رجلاً يمتلك روحاً؟، وهل من الممكن أن يتملك رجل الدولة هذا نتيجة صحيحة؟ وبالنسبة لقضية الإعادة إليه وإلى كونراد المذكور امتيازاتهما في مدينة القدس، التي حرما منها، وهي القضية التي جرى ترتيبها من قبل أخينا المحترم أسقف رافينا، اشتكى، من دون تقدير

للصدق، بأنه ما أن جُـلب المال ودفع، حتى قمنا بتوزيعه بين المسيحيين (الذين كانوا متضررين بهجمات معاديـة، مترافقة باحراق الكنائس وقتل الرجـال) وأننا حـرمنا جميع المسـاعـدات عنـه، وأنه لهذا السبب لم يقم بإرسال رسول أو رسائل، وكذلك هو لم يستح أن يكتب بقلمه الكاذب رسـائل ذكـر فيهـا، أنه على الرغم من شروط السـلام، ومن نصيحـة إخـواننا، جـرى الاحتفـاظ بمـدينة كـاستيـلانا من قبلنا، لإلحاق الأذى بحقوقه، هذا ومع أنه لاتوجد حتـى ذرة واحدة من الصدق ممزوجة مع هذا الزيف، على الأقـل لإعطائهم شيئاً من التلويـن، من أجل أن تكون أكثـر قـدرة على الفهم بوضـوح أنه ولا نقطة من الـزيف لم تلون هذه الافادات كلهـا، نحن نرغب منكم أن تعرفوا بشكل مـؤكد، أنه كما هو معلوم من خـلال مجرى الأحـداث، يبـدو مـن الموائم لعقل مستقيم أنه كـان يمكنه بشكل أفضل الحصول على غـاياته بالنسبة للومبـارد، لو أنه أظهر نفسه أباً عاطفياً، وسيـداً رحيماً لهم، بحكم أنهم كانوا أقوياء بعدد شعبهم، وبسماكـة شرافـات أسـوارهم، وبعظم جيشهم وسعتـه، وبعلو أسوارهم، وذلك بدلاً من إقـدامه على تجريد سيف الانتقام ضـد رعيته، التي كانت ترتجف، بسبب الذنـب المعزو إليهم، وأن يبث الرعب بينهم بالزحف ضدهم مع فيالق جنوده، أما نحن الذين كنا ملزمين برفع شأن منافع السـلام، فقـد نصحنـاه بكل اخـلاص، بـأن يتخلى عن فكرة الاستحواذ عليهم بوسـاطة عساكـره، وأن يعيدهم إلى جـادة الاخلاص المتوجب للامبراطورية بإلغـاء التهديدات بالعقوبة، وبأن يظهـر نحوهم العطف، ومع أنه سـار إلى لومبارديا، محاطاً بحـاشية غير مسلحـة، ومع ذلك لتخليه عن نصيحتنا الودية، شارك في مـذبحة الكريمونيين، وصار وكيلاً للانشقاق، وسعى للتسبب في فتق أوسع في لومبارديا، التي كانت ممزقة بالخلافـات، وقام بوسـاطة الرعب والتهديد بابعـاد الميلانيين عنه، وذلك على عكس مـا كان عليـه أن يفعل بجذبهم إليـه برباط العاطفـة، ونحن، في براءتنا، ينبغي أن لانلام لأنه عـاد إلى أبوليـا، محبطاً في آمـاله،

ذلك أنه هو شخصياً جلب الموت وأنزله على آماله.

وبعد هذا، إنـه بالنسبة لقضية حمايـة حرية الكنيسة، ولمحـق الهرطقة، هو أعلن عن نفسه بأنه مستعـد لإطاعة رغباتنا، وفي رد على ذلك أجبنا برسالة جاء فيها، بأنه طالما أن الوضع في مملكته هو أن ما من أحد حرك يداً أو قدمـاً من دون أوامره، وبناء عليه تنشر الهرطقة سمـومها بالطول وبالعرض فـوق الإيمان الكاثوليكي، وحيث أن حرية الكنيسـة قد ديس عليهـا تمامـاً تحت الأقـدام حيث كـانت، ولذلك مـن المعتقـد أنه ليس مناسبـاً استخـدام الدواء للرأس حيث أن القـدم نقلت المرض بوسـاطة الاتصـال، وخلال مـدة قصيرة من الزمن تبرهنت صحـة هذا الجواب، لأنه لدى سماعــه بـأن بعض الأشخــاص، الذين ضللـوا من قبل رأي شرير، كانوا يرغبـون بدخول أراضي الكنيسـة، فما كان منه إلاّ أن ذهب بعيــداً إلى صقليـة، وكأنـه منهـزم، وذلك بغيــة أن لايسبب له وعــده المخروق تهمة الزيف، وهو لم يسر ضـدهم بأية طريقة من الطرق، سواء بالقول أو بالعمل، موجهاً الملامة إلينا، بسبب أننا برعاية أبوية سعينا إلى أن نعيد إلى إخلاصهم ونرجع إلى الكنيسة الرومانية الأم، الابن الخاص بالكنيسـة، الذي عـاد إلى المدينة، وقد فهم أيضـاً أن بعض أبناء الفسـاد كانوا يبـذلون جهودهم في سبيل إبعـادهم عن التعاطف نحـو الكنيسة، والاعتقـاد أنه بسهـولة أكبر يستطيع أن يقمعهـا ويقمعهم، إذا تمكن، بوسـاطة خداعـه المعتاد، وأن يؤذي مشـاعرهم وعـواطفهم بعمق أكبر، فأسرع —مع أنه لم يكن مدعواً— إلى الكرسي الرسولي، حيث كنا آنذاك في رياتي Riati, وهناك وعد —مع كثير من التـواضع— بأنه سوف يعيـد المناطق المفقـودة من الكنيسـة إلى أحوالها الماضيـة، وسـوف يدافع عنهـا بأقصى مـا يمتلك من قـوة، ومع ذلك فإنه أعــاق في توسكانيـا —التي قدّم إليهـا مساعدته— ووقف ضد استرداد إحـدى القلاع التي كان من السهـل إعادتها إلى حكم الكنيسة بقليل من الجهـد، وفي الوقت

الذي كانت فيه يد الخائن معنا على المنضدة، كان نائبه —بناء على إشارة معطاة منه، حسبما تبرهن ذلك بشكل مكشوف ضده، من خلال نتائج عمله، وبوساطة رسائله، التي احتفظ بها بمثابة برهان على خيانته الكبرى— قد عقد اجتماعاً مع أعداء الكنيسة، حول موضوع تلك القلعة، التي كان من المتوجب تسليمها في يوم محدد، وبذلك أعطاهم مسوغاً للبقاء تحت السلاح، فانظر أية خدمة قدمها هذا العدو السري، إلى الكنيسة، الذي لم يستح من تحويل نفسه إلى خادم لها نفسها، من أجل أن يمتلك وسائل أكثر تأثيراً في سبيل إلحاق الأضرار بنا، وعلى كل حال، نحن نرغب أن تكون متأكداً أننا مررنا بهذه القضايا المتعلقة به، صامتين، ولم نسمح للصفاء الرسولي أن يتعرض لأي تغيير، بل أمرنا بإعادة الحقوق، التي انتزعت منه ومن كونراد المتقدم الذكر، في مملكة القدس، إليهما بوساطة رئيس الأساقفة المذكور، الذي إليه كانت واجبات النيابة البابوية قد أسندت، والذي فعل ذلك، ومع ذلك تجاوز الترخيص الذي أعطي له، بسبب التماس رفع إلينا من قبله، وبعد التماس رفع ضد هذا القرار، وضعت الأرض المقدسة تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وهو إجراء لم يسمع بمثيل له من قبل في أي وقت مضى، وبناء عليه، وتقديراً منا أنه نتيجة لهذا الإجراء، وبسبب الخطر العظيم الذي تعرضت له الأرض المذكورة، وكذلك الحجاج الذين كانوا يرغبون بمغادرتها، وكذلك أن الآخرين سوف يؤجلون عبورهم إليها، وبعدما تسلمنا ضماناً من البارونات، والنبلاء، ومن مناطق المملكة المذكورة، رأينا بكل اخلاص، وبناء على نصيحة إخواننا، أنه من الموائم سحب القرار المذكور، الذي جرى التفوه به بعد عمل التماس قانوني صار Ipso Jure, وملغياً وفارغاً، وجرى اتخاذ عناية خاصة بعدم خرق إجراءات رئيس الأساقفة المذكور في جميع النقاط الأخرى، وبناء عليه يتوجب أن لاينزعج تفكيركم، لأنه بسبب هذا، قد انتقدنا بشفتيه الملوثتين، لأنه مع أن الإناء مليء بخبث الشر، يظن بأن

لدغات الجريمة التي أصابت عقله، قد انتشرت إلى الآخرين، وبناء عليه بما أن التجريح الصادر عن الرجال الأشرار يتردد صداه ويعود مديحاً، ومديحهم تجريح، نحن نفضل كثيراً، أن نهاجم بافتراءات هذا الرجل، الذي كل كلمة من كلامه تعج بسوء السمعة، على المديح من قبله، ولعله يظن أنه يستطيع أن يغسل دنس آرائه بوساطة هذه الانتقادات، لأنه عندما كان مقيماً في فيتربو، ملوثاً ذلك المكان ومفسداً إياه، هرب بشكل مشين من أمام أعداء الكنيسة، وجاد بشرف الامبراطورية، وتراجع ووقف حيث هو خائفاً، ولم يذهب للدفاع عن رعاياه المخلصين، الذين كان أعداؤه يحاصرونهم أمام ناظريه، والذين لم يجدوا أحداً يمنعهم من العيث فساداً في المنطقة، وقد ادعى وأعلن أن زحفه لمساعدتهم قد منع من قبلنا، واتهمنا —ونحن أبرياء— لعدم إرسالنا رسولاً alatere لمنع الخسائر التي جنيت بوساطة هذه الحرب، وينبغي عدم التعجب تجاه هذا، لأن الكنيسة كانت آنذاك مرهقة بضغوط شديدة من قبل مضطهديها، ووصلنا إلى مدينة كاستيلانا، التي خرق سكانها يمينهم بالتابعية، وخانوا تلك الكنيسة من دون معرفة الكنيسة، وتخلوا عن أنفسهم واستسلموا إليه، لكنهم لم يتمكنوا بوساطة هذا الإجراء من نيل أي حق لأنفسهم، كما أنهم لم يستطيعوا إلحاق أي ضرر بنا، سواء بالنسبة لامتلاك المدينة، وكذلك بالقدر نفسه لما تعلق بامتلاكنا الإشراف القضائي، سواء ماتعلق بالمدينة وبسكانها، لأن الناس إذا ما تملكوا لمنفعة الآخرين، وليس لمنفعة أنفسهم، إنه من العبث أن نعمل مطالبات منهم، فبداية التملك لايمكن أن تدمر شرائع التملك، أو أن تضفي على غرباء حقوق المتملكين الحقيقيين، وكذلك أيضاً، بما أنه غالباً ما أعطى يمينه بأن يسترد الممتلكات العائدة إليه وبالنسبة للكنيسة، لقد بدا أنه يعمل بشكل غير حكيم في طلبه منا الذي لم يستطع الاحتفاظ بتملكه من دون أن يكون مداناً بالحنث باليمين، هذا ولايجوز أن يعتقد في هذا المقام وبالنسبة لهذه القضية أننا نزدري مشورة

إخواننا، لأننا على استعداد لأن نقدم له كل نوع من أنواع العدالة وفقاً لقرار محكمين، أو وفق أية طريقة أخرى، ولكن بما أن رسله رفضوا متابعة إجراءات المحاكمة، التي كانت قد بدأت، وهي لم تطلب منا، بل كان بالحري تصميمه متابعة السير بإجراءات تلك الشكوى، فقط في سبيل مقصد مخادع، بأنه بذلك قد نال فرصة لإلحاق الشرور بالكنيسة وشتمها، ولتدمير السلام الذي كان قد عمل بيننا وبينه.

والأوضاع التي أشارت إليها رسالته المقوتة، فيما يتعلق بمصير الامبراطورية، وذلك بين أشياء أخرى، قد تولى قلمنا وصفها في هذه الرسالة الحالية، من أجل أنها كلما صارت معروفة أكثر لدى الناس، الأكثر يمكن أن يضع الاضطراب فيما قاله، وقد اشتكى منا، بأننا عندما سمعنا بأنه كان زاحفاً في لومبارديا مع آلاف كثيرة من الجنود، لاسترداد حقوق الامبراطورية، قد أمرناه بوساطة كتابة رسولية، بعدم الدخول إلى ايطاليا بقوة السلاح، وأن يوسطنا في قضية اللومبارد من أجل أن نتمكن من تعليق ذلك فوقه أبدياً، أو خنق الحق الامبراطوري من دون إعاقة، وإرسالنا ضده، أخانا المحترم أسقف برانستي، الذي يمكننا من خلال نيابته، إلغاء نواياه، وأن نثير ضده عدداً غير محدود من المعيقات السرية، بوساطة نوابنا، والرسائل من كل جهة من جهات العالم، وهذا الذي حرم —ربما— بإرادة ربانية، القدرة على الاعتراف بالصدق، أو التفوه بالعدل، ولذلك هو لم يخجل —على أسس زائفة— من النيل من شخصنا، ومثل ذلك هو لم يخش من عمل اعتذاره وتسويغه وفق تأكيد مماثل، وأعلن من خلال رسله الذين هم أخونا المحترم رئيس أساقفة بلرم، وبعض الآخرين، الذين كانوا قد أرسلوا إلى المقام الرسولي، بأنه قد عرض إظهار إخلاصه في جميع القضايا المتعلقة بإعادة تأسيس الكنيسة، واسترداد حقوقها وحقوق الامبراطورية، وقد أكد، أنه عندما كان رسله عائدين إليه، قمنا نحن —مع أننا كنا قد وعدناه بأن نسعى

لأن نبتعد عن إعـاقته بأي طريق من الطرق— فعهدنا بواجبـات النيابة البـابوية، إلى ولدنا المحبـوب كثيراً غ. G دي مـونت لونغـــو، الموثق لدينا، من أجل تـدمير رعيتـه، وختم بأن أفـاد بشكل زائـف بأنه لم يعبأ بهذا ولم يقف عنده، فأرجع رئيس الأساقفة المذكور مع رسله الآخرين، إلى المقـام الرسـولي، وأنه عـرض من خـلالهم تقـديم كل نوع من أنواع الترضيـات، وأننا قمنا على الـرغم من الوصـايا التي ورثنـاها عن الآباء المقـدسين، ومن العـادة الخاصـة للكنيسـة، فحـرمناه كنسيـاً بشكل غير عادل، مع أننا كنا معارضين من قبل الشطر الأكبر من إخواننا، وأضاف لعـــاره، بأننـا نحن، النائب للقـــديس بطرس ليس لدينا سلطـة الربط والحل، وكأنه أراد أن يعلن بـأننا قـد كنـا من دون سلطة المفـــاتيح التي أعطيت إلى رئيس الرسل، واحمل بناء عليـه —نحن نرجـوكم— ميـزان العقل، وزن به فـردريك المتقـدم الذكـر، مقابل الكنيسـة، وزن أخطائـه مقـابل المنافع التي تسلمها منهـا، ولسوف ترى بوضـوح، أن هذا التنين وإن كان قد صيغ لخداعنا، وأنه قد أعطي بمثابة طعام للشعب الاثيوبي، قـد لفظ من فمه ميـاه الاضطهـاد مثل نهر، في سبيل اخضاع الكنيسـة، ومع ذلك تغلـب المقـــام الرســـولي على دناءاته، بالـرحمة التي لايمكن تقديرها لمنافعـه، لأنه منذ أن كان في سنين الضعـف، عندما كان معـرضاً —بشكل كامل ويعيش في بحيرة من الفوضى— لهجمات الذين تشوقوا بنهم للاستيلاء على أرضـه، والذين استهدفوا حياته، وذلك عندمـا كان محروماً كلياً من مواسـاة أقربائه وأصدقائه، وعـرياناً تقريباً، ووقتها رأت الكنيسة الأم أحواله هذه، فرعته واحتضنتـه، وقامت بواجباتها كحاضنة وغطته برداء المقام الرسولي، وانتزعته من شباك الصيادين، ومع كثير من الجهـد والنفقات رفعتـه إلى عـرش الامبراطورية وتاجها، وعـلاوة على ذلك، إنها تقـدر أنها بعملها هذا قـد قدمت إليـه القليل فقط، ذلك أنها ضمنت له حكومـــة مملكة القـــدس، ورفعت من شأنه في جميع أنحـــاء العالم، ومع ذلـك ولحزنها، ومع شعورها بنفسها أنها جـرحت من قبله،

وتأذت أضعافاً مضاعفة بطرق مختلفة، قامت قبل وقت قصير مضى بمساعدته بقوة ضد ابنه هنري، الذي أغوى شطراً كبيراً من ألمانيا، حيث تم التخلي عن الولاء له، ونسيت الجراحات التي لحقت بها من قبله، فرفعته مجدداً إلى المقام الامبراطوري، كما أنها قامت بناء على طلبه، باصلاح ألمانيا، بوساطة رسائل رسولية، وبهذا وبمنافع أخرى، نحن لايمكننا تذكرها، نهضت بالدفاع عن شرفه، ولكن عصا عدم التقوى هذا، وهذا الذي هو مطرقة الأرض، لديه رغبة في خلق الاضطراب في جميع العالم، وأن يسحق الممالك، وأن يجعل العالم صحراء، وأن ينزل حرية الكنيسة في مملكة صقلية المذكورة إلى حالة من المهانة هي حالة أخفض أحوال العبودية، وأن يقهرها بالقذارة، والأعباء، والمظالم الأخرى، والكنائس التي أراد أن يملأ كرشه من وهنها، قد جردها تماماً حتى العظم، وكما كانت، جردها من مقتنياتها المقدسة، التي عينت لاستخدامات الرجال المقدسين، وقضى بوضع اللاهوتيين بالسجن، وأرغمهم على التعرض للاتهامات، وأن يدفعوا الضرائب والمكوس، وأن ينهكوا ممتلكات الكنيسة، حتى يتمكنوا من انقاذ أنفسهم وتخليصها من مظالمه، وقام أخيراً بطردهم، وأبعدهم إلى المنفى، فقد حرمت الكنائس الأرامل من رعاتها، ولم يسمح لها بأن تتولى كل منها اختيار قرين لها، وأن تلقي جانباً ملابس الترمل، حتى تدع نفسها مرغمة بأن ترتمي بالزنا في حضن أي واحد، وقد بنى خارج أماكن سكنى المسيحيين أسوار بابل، ونقل الأبنية التي يعبد فيها اسم الرب إلى ذلك المكان الذي فيه محمد (ﷺ) محل تبجيل، ومنع التبشير المعلن بعقيدة واسم الذي صلب، في مملكته المذكورة، وذلك إلى الحشود التي اجتمعت من جميع الجهات، وقد أحبط استرداد الأرض المقدسة، وأحبط الحملة الصليبية، بمنعه إعطاء أي من ممتلكات رعيته في سبيل انجاز هذا الهدف، ومراغمة ليمينه الذي تعهد به، ولبنود السلام الذي أقيم بينه وبين الكنيسة، جرد النبلاء من قلاعهم، ومن ممتلكاتهم

الأخرى، وسجن أزواجهم وأطفالهم، وأرغمهم على مغادرة أماكنهم الخاصة، وعلى نقل أماكن سكناهم إلى أماكن سكنى الآخرين، وقد أرغم الذين نشأوا في الأجواء الأرجوانية على التمدد فوق الوحل، وأنزلهم إلى أدنى درجات الشقاء، وكما أنه قام في الوقت نفسه بظلم الفقراء بوسائل أذى مماثلة، ونحن نعتقد أنه كلما زاد أكثر فأكثر من عدم إرضاء الرب، كلما زاد اعتقادنا أنهم أبرياء، وماذا يمكن أن أقول أكثر؟ فقد قام بوحشية لم يشهد بمثلها بانزال بارونات، وفرسان، وأناس آخرين من مملكة صقلية المذكورة، إلى أوضاع العبودية، والآن لايمتلك معظم سكان تلك المملكة، إمكانات الاستراحة على فراش هو ملكهم، وكم هو شرير أنهم يغطون عوراتهم بمسوح خشنة، ويستطيعون بصعوبة ملء أمعائهم بخبز جاف، وبما أن بكاء وشكاوى الكنائس المذكورة والناس قد أقلقت مسامع الكنيسة بشكل مستمر، وذلك منذ أيام سلفنا أونوريوس المذكور، وبما أنه كان من الصعب المرور بهم صامتين من دون التألم في ضميرنا، قمنا بوساطة الرسل والرسائل، ليس مرة واحدة، بل عدة مرات، بانذاره بوجوب تصحيح أخطائه، وانتظرنا بصبر عظيم لبعض الوقت الذي مضى، لنرى أنه ربما سيصدف أن يرفع عينيه نحو السماء، وأن يخلع إنسانه القديم وأن يرتدي إنساناً جديداً، وأن يوقف يديه عن اقتراف مثل هذه الجرائم الكبرى، وعلاوة على ذلك مع أننا ظللنا شاكين حول الإصلاح المطلوب، لقد رغبنا بتقديم التهنئة إليه على تقدمه في إصلاح وضعه، وعندما دخل إلى لومبارديا بقوة السلاح، بعثنا أوامر، أنه في الأماكن الواقعة تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، ومهما كان سبب ذلك، ينبغي التوقف عن مراعاة الحرمان من شراكة المؤمنين، حيثما كان موجوداً، وحذرنا برسائلنا فردريك المذكور، بأن يعطينا وعداً دقيقاً، بعدم إعاقة قضية الصليب، التي تولاها في سبيل منفعة الكنيسة، والامبراطورية وجميع الجماعة المسيحية، وأن لايزحف بقوة السلاح ضد اللومبارد، حتى لايضرب

مثلاً فاسداً، سوف يعطي سبباً إلى كثير من الناس ليفترضوا بأن الكنيسة سوف تخدع البقية، ومجدداً إنه كما هو مفروض علينا في منصبنا، وهو منصب عبد عبيد الرب، في أن نرمم الرتوق التي تسببت بالانشقاق وفي سبيل أن ننهي جميع الخلافات القائمة بين الامبراطورية واللومبارد، رأينا من الموائم إرسال أسقف برانستي، المكلف بمنصب النيابة البابوية، ليعمل في سبيل اللومبارد وجميع المتخاصمين الآخرين، ولأن يكون في وضع غير مرتاب به في ا لتوزيع والانصاف وكذلك في أعماله، وأن لايتسبب حتى ولو قليلاً في الكراهية والمحاباة، لأنه هو الذي انسحب من العالم ومن الجسد، في سبيل العمل للدين المقدس، وارتقى إلى أعالي الحب اللاهوتي، ودعوا المنتقص يجيب نفسه، أية تهم يمكنه أن يجلب ضدنا على هذه الأرضيات، وضد الأسقف نفسه، لو أن الوئام تحقق في بليسنتيا بين الآباء والأبناء، وذوي القربى والأعمام، وهو نفسه حاضراً، ومحتجاً بأن هذا قد أنجز دون إلحاق أذى بمراتب الامبراطور وامتيازاته، وبالامبراطورية، وأية آخرين من الممكن أن تكون لهم علاقة، وعلاوة على ذلك، على هذا المجدف المذكور أن يفهم، أنه بالفعل يعد أمراً مهيناً بالنسبة له، أننا وإن قمنا بناء على طلبه وعلى طلب رسله، فبعثنا بأخينا المحترم أسقف أوستيا، وبولدنا ت. T الكاهن الكاردينال للقديسة سابينا، إلى تلك المناطق، لهدف إعادة تأسيس السلام بين الامبراطورية واللومبارد، وفقاً للبنود التي قدمت من رسله المذكورين، ومع أن النائب البابوي المذكور كان مستعداً لتنفيذ البنود المطلوبة، لابل حتى لمنح المزيد، قد وجدنا أنفسنا قد خدعنا، عندما رفض الموافقة على إعادة تأسيس السلام بناء على البنود الممنوحة من قبلهم.

وافهم الآن كيف أننا دسنا على امتيازات الامبراطورية، وافهم من المسائل المتقدمة كيف أنه كان معاقاً من قبلنا، لأنه قد قرر وجوب كدم

كتفيه، وأكتاف أولئك الذين هم أتباعه بوساطة جهد طويل وبلا فائدة، بدلاً من السماح لأن يعـاد تأسيس امتيـازات الامبراطوريـة من قبلنا، فضلاً عن هذا، لم يكن الرجل نفسه قانعاً ولامكتفياً بالأذى الذي ألحقه بالكنيسـة، وذلك بوسائط مبلـغ كبير من المال لبعض المتمردين ضـدنا، وسعى مـراراً لإثارة عصيان ضـدنا في المدينة، من أجل أنه بطردنا نحن مع اخواننا من مقامنا، وأنه بعدما يجري ترنح الرأس الذي وضعه الرب فوق الإيمان، البناء نفسه يصبح من السهل تدبر انهيـاره بأقل جهد يبذل من جهته، كما أنه جاء، وهو خـارق لقسمه، إلى لومبارديا، واستولى على فيرارا مع أراضي أخرى من أراضي الكنيسـة، وفيما يتعلق بهذا الإجراء، وكذلك بـأمور أخرى، أرسل إلينا أسقـف بلرم المتقدم ذكره مـع رسالة اعتماد، ظاناً أنه يمكنه خـداعنا بخطابات فارغـة، وبينما كانوا يعـرضون علينا تقديـم ترضية محترمة، ويحاولـون إصلاح الأخطاء المتقدم ذكـرها، قام قبل مغـادرتهم من بلاطنا، وبعد مغادرتهم، فشغل نفسـه بالاستيلاء على بلاد سردينيـــا، وعلى أسقفيـــة مسينا لـــونينسيس Lunensis وكلاهما عـائدتين إلى الكنيسـة الرومانيـة، وقد علمنـا بهذا الإجراء، أن لانتـوقع منه أبداً أي إصـلاح، وبرهن ببينة أعماله، أنه لايجوز وضع أية ثقة به أو برسله، وبناء عليه ومع هذا المقصد في فكره، كـان قلبه موجهاً نحـو تـدمير الكنائس والإيمان الكاثوليكي، ولذلـك لسبب صحيح هو مشكوك بـه من قبلنـا، من قبلنا نحـن الذين لايمكـن له الاستمــــرار بالتخفي أمـامهم تحت رداء الزيف، لأننا نحن قـد صرنا شاكين بقـوته، وذلك صـدوراً عن التقـدير للعـدل، ولأنه من الأفضل منـع الإصـابة بالجراح على إيجاد العـلاج بعد الاصـابات بهم، عهـدنا بمنصب النائب البابوي إلى الموثق المذكور، من أجل ايقـاف تقدمه، الأمر الذي لم نعمله إلاّ بوسـائل الشك به، وكنا نأمل بوسـائل النائب البـابوي المذكـور، أن نكون قادرين على منع مذابـح الحرب، وعلى تفادي الرعب الذي أحاق بالأرواح والأجســـاد، وبحكم أننا كنا غير قـــادرين، بناء عليـــه على

الانطلاق من الظروف المتقدم ذكرها، ومن ظروف أخرى إلى جانبها، رعاية لآمال تقويمه، وحزناً منا أننا غالباً ماجرى تضليلنا بوعوده التي غالباً ما عملها، قمنا بناء على نصيحة إخواننا، فتفوهنا بقرار الحرمان الكنسي ضد فردريك المتقدم ذكره، ومع أنه وفقاً لهذا، كان عليه أن يسترد مداركه الضائعة، وأن يتواضع بنفسه أكثر أمام الرب، كان الذي عمله هو فقط الهذيان أكثر بغضب، وبناء عليه لأنه اكتشف اضطرابه، ولأنه خاف بشدة، من أن ذنب الأفعى لن يفتح بوساطة اليد الوسيطة للكنيسة، أعلن أننا غير جديرين بفضائلنا الشخصية بتسلم سلطات المنصب البابوي، وأعلن برسائله أنه لايمكنه أن يرتبط بالقرار المتقدم الذكر، الصادر عنا، وكذلك نحن الذين ضاعفنا في أيامنا —بنعمة من الرب— أوقاف الكنيسة بدرجة كبيرة، نحن متهمون من قبله بتبديد ممتلكات الكنيسة، وبالقيام بأعمال توزيع وتحليل، وبتسلم هدايا، ووسمنا بجريمة الشره الشريرة، وأكد أيضاً بشكل زائف، بأننا ثائرين ضده، لأنه رفض منح موافقته على عقد زواج بين حفيدة لنا وبين ابنه الطبيعي، وأعلن بشكل مكشوف بأننا أعطينا يميننا الشخصي إلى اللومبارد للعمل ضده وضد الامبراطورية، وأننا قد وعدنا بأن نحول لاستخدامه عشر جميع العالم، الذي كان محفوظاً لمنفعة الأرض المقدسة، إذا ما أخضع شؤون اللومبارد إلى قرارنا، ونحن نعترف بأننا مفتقرين إلى الفضيلة حتى نكون نائب المسيح، وأعترف أيضاً أنه ليس فينا كفاية لمثل هذا العبء الثقيل، الذي لايمكن لأي إنسان حي، مهما كان حاله، أن يتحمله من دون عون الرب، ومع هذا إننا نمارس واجبات المنصب الذي عهد به إلينا بشكل جيد، وبقدر ما يسمح لنا ضعفنا، ونسعى إلى تقرير الأمور، حسبما تتطلب طبيعة المكان، والوقت، والأشخاص والظروف، وعندما تتطلب الضرورات، نحن نمنح التحليل إلى أقصى درجات قدرتنا، بشكل حر، ووفقاً لواجبنا نحو الرب، وذلك إلى الذين يستحقونه، ومع هذا، إنه ليس سبباً للأسف أنه جرح الكنيسة بمثل هذا

العمق، مثلما أنه أيضاً لدى تجاوزه حدود المنصب الملكي، كان غير قادر على الإغارة على واجبات الكهنة، وبحكم الظروف، فإن هذا الرجل لتعطشه للذهب، قد أنزل مملكة صقلية المذكورة إلى درجة الرماد، وهو الذي لم يقدم طوال حياته شيئاً من العدالة النقية إلاّ لقليلين، وفي الوقت الذي باعها فيه بشكل فاسد إلى كثيرين، أحيا في شخصه سيمون الكبير، وقد يكون قادراً على تلويث الكنيسة بتهمة الربح الدنيوي، إنه يفعل ذلك حتى يُسمح له بالاغارة على المسائل الروحية، ولكي يبقى في دنسه الخاص، قد حاول بشتى السبل، بأن يخرق ويمر من خلال سور نقاء الكنيسة، وخاصة بمنح القلاع، وبرعاية مشاعر القرابة بين شعبه وشعبنا، وهو غالباً ما طلبه منا من خلال بعض كبار الأساقفة وبوساطة رسله كذلك، ولكن بما أنه لم يستطع الحصول على ذلك بوساطة أية التماسات، أو بوساطة أية نصيحة (كما هو معروف بشكل جيد في بلاطنا) ووجد نفسه ومعه أعوانه قد تركوا الآن إلى خداع نصائحهم، ويظل الأسوأ، هو أنه، طالما لم يعد يعرف الذي يمكن أن يفعله أكثر، أهان نفسه بالحط من شأن الآخرين بأقواله الزائفة، مثل العاهرة المصرية التي دعت يوسف لينام معها، ولأنه رفض ذلك، اتهمته، أمام زوجها وشكته إليه، وهناك شيء واحد، مع أننا ينبغي أن ننتحب من أجل رجل ضائع، عليكم الابتهاج كثيراً، لابل عليكم أن ترجعوا الشكر إلى الرب وتعيدوه، لأن هذا الرجل الذي يعتليه السرور لدعوته باسم الممهد للمسيح الدجال، إنه بإرادة الرب، لم يكن بإمكانه تحمل الاستتار بالظلام، وهو غير متوقع بأن إهانته ومحاكمته صارت قريبة، فهو بيديه ذاته، قد لغم سور بغضائه، وقد قام برسائله بجلب أعماله الظلامية إلى النور، حيث ذكر بهم بكل وقاحة أنه لايمكن حرمانه كنسياً من قبلنا، مع أنني نائب المسيح، وبذلك أكد بأن الكنيسة لاتمتلك سلطة الربط والحل، التي أعطيت إلى مولانا القديس بطرس، وإلى خلفائه،وبهذا أكد الهرطقة، وختم بمناقشة ناسبته، حيث برهن بأنه ينظر نظرة سيئة إلى

بقية بنـود الإيمان المستقيم، وذلك بقدر مـا يسعى إليه لحرمـان الكنيسة، التي عليهـا تأسس الإيمان ودعم، هذا وليس من السهل الاعتقـاد من قبل بعض الناس، بأنـه ألقى بنفسـه بالشراك بكلام فمـه، الـذي برهانه جاهز لنصرة الإيمان، لأن ملك الوباء هذا قـد أكد بشكل مكشوف بأن العالم كله قـد خدع من قبل ثلاثـة، هم يسوع المسيح، ومـوسى، ومحمد (صلى الله عليه وسلم) وأن اثنين منهما قـد ماتا بشكل مجيد، أمـا يسوع المذكـور فجـرى تعليقـه على الصليب، كما أنه أقـدم على التأكيـد (أو بالحري على الكذب) بـأن الحمقى هم الذيـن يؤمنون، بأن الـرب الذي خلق الطبيعـة، ويمكنه أن يفعل كل شيء، قـد ولد من العـذراء، وأكـد هذه الهرطقـة بعقيـدة زائفـة بأن مـا من واحـد يمكن أن يلد مـالم يكن الحمل به قد جرى من خلال الاتصـال بين رجل وامرأة، وما من انسان ينبغي أن يعتقـد بأي شيء لايمكن البرهنة عليـه بقـوة ومنطق الطبيعـة، وهذه الأشيـاء وكـلام كثير آخـر، وكـذلك أفعـال، التي بمـوجبهـا قـد هاجم، ومازال يهاجم الإيمان الكاثوليكي، يمكن بوضـوح البرهنة عليه في الوقت المناسب وكـذلك في الـوقت الموائم، وذلك حسبما نراه لائقـاً ومـوافقـاً، وبناء عليـه نحن نسأل، ونحـذر، وبإلحاح نحث جماعتكم، ونأمركم بكل دقـة بوساطة هذه الرسائل الرسـولية، وبفضيلة طاعتكم، أن لاتسمحـوا لفـردريك المذكـور بأية وسيلة من الوسـائل بلغم قلوب المسيحيين المؤمنين بوسـاطة كـلامـه المخـادع، أو أن يلوث قطيع الرب بعـدواه، وأن تقومـوا أيضاً بنشر المسـائل المذكـورة أعلاه بشكل كـامل ومخلص إلى رجال الدين والناس الخاضعين لكم. صدر في اللاتيران، في الحادي والعشرين من أيار، في السنة الثالثة عشرة من حبريتنا».

وقـد أرسلت الفقـرة الأخيرة المدونة أعـلاه إلى سيـد المملكة، مع الرسالة المتقدمة، على هذا الشكل:

«ولهذا رأينا أنـه من المنـاسب أن ننصحكـم، وأن نحث سمـوكم

الملكي، بأن تتسبـوا بشرح الذي تقدم بكـل يقظة، حتى لايتعرض نقـاء البراءة الملكية إلى التلوث بكـلامه المخادع. صـدر في اللاتيران، إلخ، كما تقدم أعلاه».

نهم الرومان يرفع ثقتهم

وجرى نشر هذه الرسالة وإرسالها إلى عدد كبير من الملوك، والأمراء، والنبـلاء في جميع أرجـاء العـالم، مـع تغيير فقط بالعنوان، وقـد ألقت بالخوف والرعـب، وكـذلك بالدهشـة في قلوب الذيـن يمتلكون إيماناً صحيحـاً، وحـولت رسـالة الامبراطـور لتكون مـوضع الشك، مع أنها تحتوي على حقـائق ممكنة، وأعادت أيضاً تثبيت عقـول كثيرين ممن كانوا من قبل في حـالة شك وعـدم يقين، ولولا أن شره الرومـان قـد أبعـد اخـلاص الناس عن البابـا، أكثر مما هو مـوائم، ومما ينبغي، لكان العـالم أجمع قد سخط بهذه الرسـالة، ولكان ثار بالاجماع ضد الامبراطور، على أسـاس أنه عدو مكشـوف للمسيح وللكنيسـة، ولكن ياللأسف، الذي حـدث هو أن كثيراً مـن الأبناء صـاروا غـرباء عـن أبيهم، ووقفـوا إلى جانب قضية الامبراطور، وأكـدوا أن الكراهية التي لم يمكن اخمادها قد صـارت الآن أشـد فيها بينهم، وأثارت الصراع المتقـدم ذكـره، وأعمال التشهير، فقـد ذكـر البـابا بشكل غير صحيح بأنه قـد أحب فـردريك المذكـور، وارتقى بمصالحه في بداية ارتقـائه، لأن هذا كله فعل صـدوراً عن الكراهية لأوثو، الذي قـامت الكنيسة، بمساعدة فـردريك، بتعذيبه حتى الموت، وكان ذلك بسبب أنه سعـى —تماشياً مع يمينه— أن يجمع بالقوة الأجزاء المتفـرقة من الامبراطورية، مثلما يسعى الامبراطور الحالي فـردريك، وأيضـاً يفعل، وبناء عليـه، إنه بفعله هذا، نجـد أن فـردريك قاتل من أجل الكنيسة، وأن كنيسة روما كـانت ملزمة أكثر بربط الطاعة إليه أكثـر مما كانـه الامبراطور للكنيسة الرومـانية، وشعـرت الكنيسة في الغـرب، وبشكل خاص طوائف الرهبـان، وكنيسة انكلترا، التي كـانت

من بين الكنائس الأخرى الأكثر اخلاصاً وتقوى للرب، يومياً بمظالم الرومان، ولكنها لم تشعر بأي شيء من هذا القبيل بعد من قبل الامبراطور، وأضاف الشعب أيضاً قائلاً:

«ماهو معنى هذا، في الماضي اتهم البابا الامبراطور أنه يؤمن بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وبالشريعة الاسلامية، أكثر من إيمانه بالمسيح وبالعقيدة المسيحية، لكنه الآن في رسالة التجريح هذه اتهمه (بما هو مرعب أن تذكره) بأنه سمى محمداً (ﷺ) وكذلك عيسى وموسى بأنهم أدعياء، وفي رسائله هذه، كتب الامبراطور بتواضع، وبطريقة كاثوليكية عن الرب، باستثناء أنه في رسالته الأخيرة هذه حطّ من شأن شخص البابا، وليس من المنصب، كما أنه لم يتفوه بأي شيء هرطقي أو مدنث أو أيده، والذي نعرفه أنه لم يرسل مرابين أو نهابين لمواردنا إلى بيننا»، وبهذه الطريقة ازداد التمزق وصار أكثر رعباً في نشوبه بين الناس.

ذهاب الفارس روبرت دي توينغ إلى روما

وفي هذه الآونة رفض فارس من أهالي المقاطعات الشمالية في انكلترا، باذلاً جهوده لعدم ربط رقبته إلى نير هؤلاء الرومان، وذهب إلى روما، بشأن وقف إحدى الكنائس الذي كان عائداً إليه، وعليه وضع الرومان أيدي الشره من خلال رئيس أساقفة يورك، وقد تقدم بشكوى ثقيلة أمام البابا، حول هذه القضية، وحصل على رسائل، وبهذا يمكن أن نستخلص أية تقوى أمسكت بها الكنيسة الرومانية، وكيف أنها كانت دوماً ملحاحة، وكيف أنها أحبت اللاهوتيين، الذين منهم أخذت دوماً ممتلكاتهم الكنسية، التي تقدم أن أضفيت عليهم من قبل الآباء بنوايا تقوية، وفي سبيل دعم الفقير.

غضب نبلاء انكلترا لحرمانهم من حق رعاية الكنائس

وأصبح في هذه الآونة، إيرلات، وبارونات وباقي نبلاء انكلترا،

الذين إليهم كـان معروفـاً منذ قديم الزمـان يعود حق رعـاية الكنائس، أصبحوا غاضبين لأنهم جردوا من حريتهم ومن حق الكنائس المطعمة، وذلك بوساطـة شره الكنيسة الرومانيـة، وذلك في الوقت الذي استغنى الأجـــانب بهم بناء على أوامـــر البـــابـا، وكتب هؤلاء الناس الـذين شخصياتهم غير معروفة ولا أوضاعهم، وكـانوا مجهولين تماماً، إلى البابا مـؤخـراً، وبعثـوا برســالتهم بوسـاطــة روبرت دي توينغ Twenge المذكور، الذي كـان قد جرد بوسائل العنف ذاتها من حق رعـاية كنيسة لوتون Lutton في أسقفيــة يورك، وعمل شكوى ثقيلة إلى نبـــلاء المملكة، وبما أن رئيس الأساقفـة قد أكـد له أنه ليس لديه سلطة، أو أنه لايرغب بالتحـرك ضد الكنيسة الـرومانية، ذهب روبـرت المذكور بكل سرعة ممكنة إلى البـلاط الروماني، وقـدم الرسالة التـالية نيابـة عن نبلاء انكلترا.

رسالة النبلاء الانكليز إلى البابا

«إلى الأب الأكثـر سمـواً، اللورد غ. G, الذي هو بنعمـــة الرب، الحبر الأعظم، من عبيده المخلصين في شيستر ووينكستر، تمنيات الصحة، والاحترام، وإذا كان يرتضي، اخلاص جاهز:

بما أن سفينة حـريتنا آخـذة بالغرق، وهي التي حصلنـا عليها بدمـاء أجدادنا، وبسبب عـواصف أعدائنا التي ثارت ضـدنا واندفعت أكثر مما هو معتـــاد، نحن أرغمنا على ايقـــاظ مـولانا، الذي هـو نائم في سفينة بطرس، ونحن نصرخ بدون توقف، وبصـوت واحد: «أنقذنا يـامولانا، أو أننا سنهلك»، وبما أن الحكـم والعـدل هما وسيلـة الاصـــلاح لذلك المقام، من الممكن أن تسمح لكل واحـد منا بحقوقه، وأن تحفظه له غير فاسـد، خشية أنه إذا حدث غير ذلك، فإن الإحسان سـوف يتساقط إلى قطع، وسـوف يجري دمـار التقوى والاخـلاص، ومن الممكن أن يثـور الأبناء ضد أحشاء الأب، وأن تتلاشى مشـاعر العواطف المتبادلة، وبناء

عليه أيها الأب الأعظم قداسة، اعلم أن أجـدادنا قاموا منذ أول تأسيس للمسيحية في انكلترا حتى الآن، بالتمتع بامتيـاز، أن يكونوا بمثابة رعاة للكنائس، وبتعيين أشخـاص منـاسبين لهن، ولدى وفـاة قسـاوستهن المتقـدمين، وبتقـديمهم إلى الأسـاقفـة حتى يجرى من قبلهم تثبيتهم في حكومـة تلك الكنائس، ولكن في أيامكـم، سـواء برضـاكم وبناء على رغباتكم، نحن لانعـرف، فإن معارضة قد كسبت أرضيـة ضدنا، حيث أنه عندمـا يموت قسـاوسـة الكنائس، يجري تعيين بعضاً من وكـلائكم لهذا الغـرض، وهم يقومـون في كل مكان بمنح الكنائس التي هي تحت رعـايتنا من أجل الاضرار بامتيـازنا، ولإلحاق خطر كبير بحق الرعـاية، مع أنكم أعطيتمـونا منذ زمـن طويل مضى، وعـداً حـول هذه القضيـة بضمانة رسـائل رسـوليـة، تحتـوي أنه عند وفـاة لاهوتيين سـواء أكـانوا رومـاناً أو طليـانـاً، كـانت قـد جـرت ترقيتهم إلى الكنائـس، بوسـاطة سلطات حكمتكـم، من الممكن أن نمتلـك الحق القـانوني لتقـديم أشخـاص مناسبين لخلافتهم، ولكن الذي هو عكس هذا مـانراه يوميـاً يجري الإصرار عليـه، الأمـر الذي أدهشنا كثيراً، لأن الماء العـذب والماء المالح لايمكن أن ينبعـا من نبـع واحـد هو النبع نفســه، وبما أن هذا الازعاج يمارس ضدنا جميعاً بشكل عـام، ومنه قد يتفجر جدال، ونزاع، وغضب، وصراع، وكـذلك مـذابـح بشرية، قـررنا أن نعـرض القضيـة أمامكم، وفي سبيل تقديم مثل، نعرض الأذى الذي أنزل على واحد من رفـاقنا، وهو الذي عمل بشكل غير حكيم ضده، والخطر الذي تعـرض له حقـه بالرعاية، وفي سبيل أن تتفضلوا بسلطاتكم، إذا رغبتم بإزالتـه، وهو أن روبرت دي توينغ، راعي كنيسـة لوتون، قام إثر وفـاة ن. N, الذي كان قسيسـاً لتلك الكنيسة، فقدم شخصـاً مناسباً لها، لكن بسبب أمر معاكس صادر عنكم، رفض رئيس أساقفة يورك أن يقبله، مع أنه لم يكتشف شيئاً ضـد الشخص المقـدم، بل عـرض فقط تحريمكم، ومثلما عندمـا «يكون البيت المجـاور يحترق، بيتنا عرضـة لخطر قـريب»، نحن

نرجـوكم بحكم كـونكم أبانا، بأن تسمحوا لـروبرت المذكور، وكـذلك لكل واحـد منا، ولنا جميعاً، بأن نتمتع بـالامتياز المتقـدم الذكر، بتقـديم كهنتنا إلى كنائسنا الشـاغـرة، وأن لايجري تطبيـق أمـركم المتقـدم، بأمـر رئيس الأساقفة المتقدم ذكره، بقبول ج. J كلارك Clerk الذي من أجله صببنا صلواتـاً تقيـة، وهو الذي جـرى تقـديمـه إلى الكنيسـة المتقدمة الذكر، من قبل روبـرت المذكور، خاصة وأنه ضروري من أجل تدبير أعمال الملك، وكـذلك أعمال مملكتنا، مـا لم يكن هناك أي اعتراض قانوني عليـه، وإنكم بفعلكم هكذا، ترفعوننا إلى اخلاص موجـود أكثر، وإلى خدمة الكنيسة، خشيـة، بما أن امتياز ابن الواقف المتقدم الذكر، هو واحد من الاقطاعيين، الذي من أجله نحن نخـدم مولانا، سوف نكون مـرغمين على طلب المسـاعـدة منه الذي هو ملزم بحماية الامتيـازات ورعايتها، وكذلك امتيازت الرجال العلمانيين».

رسالة البابا الجوابية إلى نبلاء انكلترا

«من غـريغـوري الأسقف، وعبد عبيـد الرب، إلى أولاده المحبـوبين، والنبلاء، ورتشارد ايرل أوف كورنوول، وبارونات انكلترا، الذين سوف إليهم تصل هذه التقدمات، الصحة والمباركات الرسولية:

بما أنه واضح من أعمالنا التي توفر برهان كامل على صدقها، أننا، من بين جميع الملـوك الأرثوذكس، والأمـــراء، والممالـك التي فيهـــا اسم المسيحيين موضع احترام، نحمل احتراماً خاصاً في أعماق العواطف، إلى شخص ولدنا المحبوب كثيراً في المسيح الملك المشهور لانكلترا، وملكته، وأعظم الرغبـــات اخـــلاصـاً تتمنى ســلامهم وهـدوئهم، ولايمكن الافتراض، كما لاينبغي الاعتقـــاد، أننا بقـدر مـــانستطيع بعـون الرب، منعها، أو أن نرغب، أن نعمل، أو أن نسمح بأي شيء يمكن مع العدل أن يضر بكرامة جلالته الصافية، أو يتسبب بفضيحة في المملكة، بما أنه لم يكن بنيتنا، ولن يكـون، السماح بتدبير قـواعـد ادارة المنافع في انكلترا،

والمتعلقة بتقديم الرعايات المدنيـة، ولا الرضا بأن تضفى على أي واحد، بموجب سلطاتنـا، لأنه قد فهم بشكل واضح بموجب بعـض الرسائل التي أرسلت مـن قبل إلى انكلترا، والتي رأينا أنـه من المفيـد إرسـال محتواها إلى جلالته تحت ختمنا، ولقد اكتشفنا من رسائل الملك المذكور، وكـذلك من رسـائلك، بأن أحد الفـرسـان من المملكة المتقـدمة الذكـر مستحوذ على رعـاية كنيسة لوتون، في أسقفيـة يورك، التي قيل من قبل بأننا منحناها لواحد من بلادنا، حيث كنا جاهلين آنذاك بأن التقديم هو عـائـد إلى رجل علماني، واستجابة منـا لإلتماسات الملك المتقـدم الذكـر، ولالتماسـاتكم، فإننا نقـوم بمـوجب السلطات الرسـولية بإلغـاء المنحـة نفسهـا، ولقد أمـرنا برسـائلنا أخانـا المحترم، رئيس أساقفـة يورك، بأن يقبل الكنيسة المتقدمة الذكر، وأن يضع فيها الشخص الذي رآه الفارس المذكـور مناسباً بأن يقـدم إليهـا، بحكم أنها عائـدة للفـارس المذكـور، وبالنسبـة لمرور الوقت، لاقيمـة لـه، بما أنه لم ينشأ عن أي خطأ صـادر عنه، على شرط واحـد فقط هو أن لاتكون هناك أيـة أرضيـة معقـولة معـارضة لـه، وبموجب هذه التقـدمـات نحن نعلن أنه غير قـانوني من الآن فصاعداً، بمـوجب سلطات المقام الرسولي، منح كنائس في المملكة المتقـدم ذكرها، التـي فيها الرجـال العلمانيين رعـاة، وذلك من دون نيل موافقة الرعاة المذكورين. صدر، إلخ، إلخ».

رسالة أخرى منه هو نفسه إلى النائب البابوي

«**من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى النائب البابوي، تحيات:**

نحن نرغب أن تنتبهوا أنه لم يكن بنيتنا ولن يدور بخلدنا منح المنافع الموجودة في مملكة انكلترا العائدة إلى تقدمـات رعاة مدنيين، أو إضفائها على أي واحـد بمـوجب سلطاتنا، فلقد اكتشفنـا حديثـاً من معلومـات ولدنـا المحبـوب كثيراً في المسيح، ملـك انكلترا اللامع، ومـن إيرلات وبارونات المملكة، بأن واحـداً من فـرسـان انكلترا مستحـوذ على حق

الرعاية في كنيسة لوتون، في أسقفية يورك، التي قيل بأننا كنا قد منحاه من قبل وأضفيناه على واحد من الكهنة من بلادنا، ذلك أننا كنا جاهلين بأن حق التقديم عائد إلى رجل علماني، ولقد أصغينا إلى توسلات الملك والنبلاء المذكورين، وبموجب السلطات الرسولية قد ألغينا المنحة المذكورة، وقمنا برسائلنا، فأمرنا أخانا المحترم رئيس أساقفة يورك، بأن يقبل، وبأن يقيم في الكنيسة المذكورة، الشخص الذي رأى الفارس المذكور أنه مناسب لتقديمه لها، لأنها عائدة إليه، وبالنسبة للوقت الذي انقضى، بما أنه غير ناجم عن غلطته، لايقام له تقدير، شرط أن لايكون هناك اعتراض آخر معقول على الشخص المقدم، ونحن نعلم بكل دقة، أنه غير قانوني من الآن فصاعداً، منح كنائس —بموجب سلطات المقام الرسولي— في المملكة المذكورة، التي الرعاة فيها رجال علمانيين، من دون موافقة هؤلاء الرعا ة المذكورين. صدر، إلخ، إلخ».

ومن هذه الأمثلة وأمثالها، من الممكن بوضوح أن نزن بميزان المنطق، كيف كانت شدة القانون في ذلك الحين مسترخية نائمة، وكذلك احترام الكنيسة، والتقوى الدينية، لأن ممتلكات اللاهوتيين والرهبان المسالمين قد أعطيت لتكون فقط نهباً وأسلاباً، والعالم الآن مهدد بالسقوط في حالة الفوضى القديمة.

اجتماع الصليبيين في ليون

وفي هذه الآونة اجتمع النبلاء الذين حملوا لصليب في فرنسا وفي المناطق المجاورة، في مدينة مشهورة واقعة على الرون اسمها أغانو Agauno أو لوغدونوم Lugdunum أو بشكل عام ليون، وجاء احتشادهم هناك لعمل الترتيبات من أجل الانطلاق برحلتهم، وأثناء عقدهم لمؤتمر للتداول، وصل رسول قدم بكل سرعة من عند البابا، الذي كان قد حثهم من قبل بشدة وأقنعهم بالانطلاق في حملتهم، لكنه أراد الآن أن يثنيهم عن الانطلاق وحثهم بحرارة بعدم الاقلاع في

رحلتهم، وقام الرسل باسم المولى البابا بأمر كل واحد منهم بالعودة إلى موطنه على الفور، وعرض عليهم جميع المذكرات البابوية من أجل هذا العمل، وعلى هذا ردوا بالاجماع قائلين:

«من أين انبعث هذا التقلب في البلاط الروماني ولدى البابا؟ أوليس هذا هو الزمان والمكان اللذين جرى ترتيبهما منذ زمن طويل من قبل النواب البابويين والمبشرين المرسلين من قبل البابا، من أجل جوازنا عبر البحر؟ فوفقاً لكلام المبشرين ووعودهم، اشترينا المؤن، والسلاح، وجميع الأشياء الضرورية من أجل الانطلاق، فلقد رهنّا أو بعنا أراضينا مع بيوتنا وجميع أثاثنا، وقمنا بوداع أصدقائنا، ولقد أرسلنا جميع أموالنا قبلنا إلى الأرض المقدسة، وأرسلنا رسالة عن موعد وصولنا، وقدمنا إلى الميناء، والآن تعاق الحملة الصليبية وتمنع من الذهاب والمتابعة، فلقد غير رعاتنا لهجتهم ووقفوا ضدنا»، وقد غضبوا غضباً عظيماً وكادوا أن يقاتلوا رسل البابا، وأرادوا فعل ذلك، لولا أن حكمة الأساقفة ضبطت غضب الناس.

ووصل فوراً بعد هذا، رسل من عند الامبراطور، ونصحوهم بعدم الاقلاع من دون تروي، وأن لايتسرعوا، من دون توجيه الامبراطور نفسه وحضوره شخصياً، وقد جلبوا معهم رسائل منه لهذه الغاية، فيها قدم ببراعة، مايكفي من معاذير لاخفاقه في القيام بالجواز، وبناء على هذا أصبحت أوضاع الصليبيين بالفعل محزنة، لأن مؤتمرهم ارفض، وهم أصبحوا مثل رمل من دون ممسك، أو مثل جدار بلا ملاط، وعاد كثيرون إلى مواطنهم وهم يبكون، وقد أعطوا أنفسهم متنفساً للنقد ولمقت وازدراء التأكيدات الزائفة لبعض القساوسة، وذهب بعضهم إلى ميناء مرسيليا، وعهدوا بأنفسهم لحظوظ البحر، وأبحروا وهم يائسين نحو الأرض المقدسة، وانتظر عدد كبير منهم في صقلية حتى الربيع، متوقعين وصول مقدميهم، في حين سار بعضهم، من خلال نوع من

الاذن من الامبراطور، على شاطىء البحر، وتركوا الخليج الايطالي على اليسار، ومضوا إلى أحواز برنديزي.

اجتماع الأساقفة في لندن

اجتمع جميع الأساقفة في الحادي والثلاثين من تموز، في لندن، مفكرين بعمل بعض الترتيبات مع النائب البابوي، حول مايتعلق بمظالم الكنيسة الانكليزية، لكنه لم يكن مهتماً حول هذه القضية، فقد حصل منهم على بعض الوكالات، وبعدما عقد الأساقفة مؤتمراً أخبروه في إجابة، بأن القبضات الملحة لرومان، بمختلف أنواع الحجج قد أنهكت هكذا بالغالب ممتلكات الكنيسة، إلى حد أن جميع ثرواتهم قد ابتلعت تقريباً، وهم يستطيعون بصعوبة بالغة التنفس لبعض الوقت،وهم ماعادوا يحتملون هذه الجبايات أي وقت أطول، وأضافوا قائلين:

«أية منفعة قد أضفيت على المملكة حتى الآن، أو على الكنيسة بوساطة سلطته الأسطورية، الذي هو الشريك الوحيد للملك، والذي ظلم الكنائس بمختلف أنواع الجبايات، التي منها نأمل الآن ببعض الراحة والمواساة؟ دعوا الملك، الذي استدعاه إلى المملكة من دون نصيحة رعاياه الطبيعيين يزوده»، وعندما رأى النائب البابوي هذا الثبات بين الشطر الرئيسي منهم، توجه بخطابه إلى الفئات الدينية الأكثر تواضعاً، واستخرج منها مبلغاً كبيراً من المال، تحت اسم الوكالات، وارفض الاجتماع وسط الشكاوى، وتمتمة وانزعاج الأساقفة.

وصول كونت فلاندرز إلى انكلترا

وفي حوالي عيد صعود مريم المباركة، وصل توماس كونت فلاندرز —عم الملكة— إلى انكلترا، ونزل في دوفر، وعندما أخبر الملك بوصوله، قام بطريقة غير معتادة من قبله، فذهب وهو مسرور إلى

استقباله، وأمر سكان لندن، عند اقتراب وصوله، بإزالة جميع الأعشاب، والأوساخ، والأوحال، وكل شيء معيق من الشوارع، وأن يقوم هؤلاء السكان أنفسهم بالخروج إلى استقباله وهم يرتدون ثياب الأفراح، ومعهم خيولهم وقد أعدت بشكل جميل، وبعمل الملك هكذا، أثار ضحك كثير من الناس وسخريتهم، وبعد مضي عدة أيام، غادر الكونت انكلترا، لأن إذنه بالغياب من ملك فرنسا، لم يكن لمدة طويلة، وقد حمل —على كل حال— معه خمسمائة مارك، كان قد تسلمها من الملك، وهذا هو المورد نفسه، الذي قال بأنه عائد إليه بموجب حق قديم، وكان يتسلمه سنوياً من الخزانة الملكية، وذلك مقابل ولائه، من دون أية مصاعب أو تأخير.

البابا يمنع الصليبيين من الاقلاع

وفي هذه الآونة أعطى البابا أوامر إلى النائب البابوي بمنع الصليبيين من الاقلاع بحملتهم إلى الأرض المقدسة حتى الربيع المقبل، وذلك دون أن يعبأ بحلول الموعد الذي كان قد تقرر من قبل بوساطة المبشرين، وعلى عكس نواياهم، والآمال التي تصوروها بناء على وعود المبشرين المذكورين، وقضى البابا بأن يكون الجواز في آذار، وأنهم إذا مافعلوا غير ذلك سوف لن يتمتعوا بالتحليل من ذنوبهم الذي سلف أن منح إليهم.

تكريس وليم دي ريل أسقفاً لنورويك

تسلم في هذا العام، وليم دي ريل، الأسقف المنتخب لنورويك شرف التكريس أسقفاً لذلك المقام من إدموند رئيس أساقفة كانتربري، وكان ذلك في كنيسة القديس بولص في لندن، بحضور عدد كبير جداً من الأساقفة والنبلاء، وبما أن البشارة التكهنية لهذا الرجل قد كانت: «وكان هناك سرور بين ملائكة الرب من أجل توبة مذنب من ذنوبه»،

إلخ، فقد تصور الجميع آمالاً جيدة منه، بأن يكون مثل متّى آخر، الذي ارتفع من كونه متسلماً للعشور إلى مقام الرسالة، وسلطة الانجيل، وأنه هو سوف ينهض من العمل في البلاط إلى سمو القداسة نفسها.

إدعاءات الملك ضدّ هـ إيرل كنت

وشاهد الملك في هذه الآونة أن الايرل المحترم لكنت قد صار الآن عجوزاً وضعيفاً، فوجّه ضده شكاوى جدية، واستخرج منه مبلغاً كبيراً من المال، واتهمه بشكواه بعدة جرائم عظيمة، مع نية ماكرة استهدفت أنه إذا ما مات الايرل أثناء قيام هذه الشكايات، وتعليقها فوقه، يستطيع الملك وقتها مصادرة جميع ممتلكاته ومقتنياته، وقد اتهمه أنه قام في زمن الملك —والده— فأغوى بشكل خياني، فتاة نبيلة، كانت ابنة ملك سكوتلندا، التي إليه عهد بأمر العناية بها، كما أنه أكد بأنه أضاع روشيل، وبواتو كلها، كما أنه قام بشكل دنيء، وسري، بمنع المال الذي أرسل لمساعدة المدينة والمنطقة، وأرسل سلالاً مليئة بالرمل إلى المحاصرين، وأعاق جنود الملك الذين كانوا ينتظرون مساعدة فقط من انكلترا، وكذلك أنه من خلال خيانته، جرى تدمير قلعة بدفورد، وخسرها —أي الملك— وأنه أيضاً عندما كان —أي الملك— تحت وصايته، قام بشكل خياني بتدبير أموره، وتبديد أمواله، وحوّلها لاستخداماته الشخصية، وقد حصل لنفسه على موارد، وأراض شاسعة وغنية، وحول أمواله —أي الملك— طالب الآن بتقديم حساب إليه، كما أنه أثناء الحرب في بريتاني ضد ملك فرنسا، قد خسر، بشكل لايعوض، شرفاً كبيراً، وشطراً كبيراً من الجيش، كما يشهد على ذلك كونت بريتاني، كما أنه اخترع خيانة كبيرة ضد الملك الذي هو مولاه، فيما يتعلق بالزواج السري الذي عقد، أو كان سيعقد، بين رتشارد كلير، وم. M, ابنته، ومجدداً لقد أعاق بدنائة زواج الملك بسيدة نبيلة، بإخبار السيدة المذكورة، وإخبار أسرتها، بشكل سري، بأن الملك كان

أحـولاً، وسخيفـاً، وعاجـزاً، وأن فيـه نوع من أنواع الجذام، وأنه كـان مخادعاً، حـانثاً باليمين، وضعيفاً، وهو امـرأة أكثر مما هو رجل، وأنه يجد متنفسـاً لغضبه فقط في صبـه على أتباعـه، وأنه كـان غير قادر تمامـاً على التمتع باحتضـان أي امـرأة نبيلة، ومجدداً اتهمـه بأنه قطع الأحـراش الملكية، والغابات التي عهد إليـه بأمور العناية بها، وبناء عليه هو يطالبه بتقديم حسـاباً جديداً عن المال الـذي تسلمه منهم، وكذلك، أنـه عندما كانوا مقيمين في وودستـوك، منذ بعض الوقت الذي مضى، وصدف أن كـان هو —الملك— وحـده في حجـرة، فـاندفع —الايرل المذكـور— بعنف، وانقض عليه مغضباً، وسعى بدنـاءة وخيانة إلى قطع عنقه، وهو سيـده ومولاه، بسكين مجردة، وكـان أنه لولا أن رفع صـوته بصعـوبة، وصرخ طالباً المسـاعدة، لما كان قـد تخلص من بين يديه، ولهذه الجريمة، هو أعلن أنه لم يستحق فقط تعليقه بحبل المشنقة، بل أن يمزق إلى قطع، وعند نهاية هذا الخطاب، الـذي آلمه كثيراً وأحـزنه، رد الايرل هيـوبرت بتواضع، وتذلـل بنفسه إلى الملك، وقال: «إنني لم أكن قـط خائناً لك أو لأبيك، وبفضل الرب، هذه هي بينة بك» وكأنه أراد أن يقول: «لو أنني رغبت أن أعمل خـائناً لك، لما كنت قـد تمكنت من الاستحـواذ على المملكة»، وبالنسبة إلى جميع التهم المذكـورة، أعلاه، ردّ بوسائل صـادقة، وبتمثيل صحيح، بوساطة واحـد اسمه لورانس، وكان كـاهناً من كنيسة القديس ألبـان، وكان قد بقي مـرتبطاً دونها انفصال بالايرل طوال جميع اضطرابه، وقـد نقض جميع التهم وردها، وعـرض براهين كـافيـة على براءته، ممـا أرضى جميع الذيـن احتشـدوا هناك، مع أن الملـك حـاول بوساطة الادعاء من وراء منصة القضاء أن يبرهن العكس.

وفي سبيل اطفـاء حنق الملك وغضبه، تقـرر أنه على الايرل، في سبيل استرداد المشاعـر الطيبة السـالفة والسـلام، أن يتخلى للملك عن الأربع قلاع التي كانت غالية جداً لديه، وهي قلاع:

بلانش Blanch, وغـروسمـوند Grosmond في ويلز، وسكنفريث Skenefrith, وهاتفيلد Hatfield, وتحمل الايرل الذي بسنه، وطول تجربته الاقطاعية، تـمّ بالغالب الاحتفاظ بانكلترا إلى الانكليز، كل جحود الملك، ولومه، وإهاناته، وجميع حملات سوء الحظ، بهدوء وصبر، وإذا مـارغب أحـد في أن يعـرف بشكل كـامل أخبـار الخلاف الذي وقع بين الذيـن اتهمـوا هيـوبرت المذكـور، ايرل كنت، والمعلم لـورانس من سينت ألبـان، يمكـن أن يجدوا ذلك في كتـاب Additamenta.

الإيرل رتشارد وعدد من نبلاء انكلترا يقسمون على الشروع معاً بحملتهم المقترحة

وفي حـوالي الوقـت نفسـه، وفي التحـديد في اليـوم التـالي لعيـد القـديس مـارتن، التقى النبـلاء الصليبيـون الانكليـز في نورث أمبتـون لإعـداد خطط للشروع بحملتهم إلى الأرض المقـدسـة، وفي سبيل أن لايعـاق يمينهـم الشريف بوسـاطـة الاعتراضـات التـافهـة للكنيسـة الرومـانيـة، ولا أن تصرف جهـودهم جـانبـاً —في سبيل سفك دمـاء المسيحيين— إلى بلاد اليـونان أو إلى إيطاليـا، حسبما ألمح إليهم بأن ذلك كـان منوياً، أقسمـوا جميعـاً على الانطلاق في ذلك العـام إلى الأرض المقـدسـة، لتحـرير الكنيسـة المقـدسة لـلرب، وكـان الأول الـذي أقسـم بينهم جميعـاً الايـرل رتشـارد، الذي أدى القسـم على المذبـح الكبـير في كنيسـة جميـع القديسـين، في وسـط المدينـة وردد بعـده الايرل غ. G مـارشـال القسم نفسـه، عـلى شرط أن يصبـح متصالحاً أولاً مع الملك، ولكن الايرل رتشارد قال له: «لاتخفق في سبيل تلك المسألـة يابن ختني العـزيز، لأن ثقل ذلـك العمل أنا آخـذه على نفسي»، وجـاء بعـد ذلك رتشـارد سيـوورد Seward,ومن بعـده هنري تربلفيل Trubeville, وعـدد كبير من النبلاء، كثير عـددهم

حتى نذكرهم، هم جميعاً بإرادة واحدة، وفكر واحد، أعدوا أنفسهم لخدمة الصليب.

الامبراطور والبابا يرهق أحدهما الآخر بشكل متبادل

وعندما رأى البابا في هذه الآونة، أن قوة الامبراطور وجرأته لم تضعف كما أنه لم يرضخ لإرادته أو لإرادة الكنيسة الرومانية، أرسل رسائل تحذير إلى جميع القساوسة والنبلاء المقيمين في ألمانيا والأجزاء الأخرى من الامبراطورية، وأمرهم بشكل بات بالثورة ضد امبراطورهم الذي كان عاصياً ضد الرب، وضد الكنيسة الرومانية، وأساء إلى سمعته بوساطة الكثير من التهم الجادة الأخرى، كما أنه حلل الذين كانوا مرتبطين بيمين الولاء إليه، وأقنعهم أنهم كانوا مخلصين في عدم اخلاص، ومطيعين في عدم طاعة، ولكن وضاعة الكنيسة الرومانية كانت مشجوبة من قبل الجميع إلى أبعد الحدود، حتى وصل الحد أن سلطات البابا كانت محترمة من قبل قلة، هذا إن احترمت من قبل أحد.

خذلان البولونيين والمشايعين الآخرين للبابا

في صيف هذا العام، وقبل وقت قصير من بداية الخريف، رغب الامبراطور منع البولونيين من تقديم المساعدة إلى رعاياه الخونة من الميلانيين، وقام بهجوم مرعب عليهم، لأنهم كانوا يسعون، محاباة منهم للبابا ولجيرانهم الميلانيين، أن يزحفوا ومن ثم ينقضوا بهجوم على جيش الامبراطور لكن في أثناء زحفهم، انقض الامبراطور بشكل مفاجىء عليهم، ووضع عساكره بين المدينة وبين سكانها، ومزق فيالقهم، وأوقعهم في حالة من الفوضى مرعبة، وحاول الفارون التراجع عبر الطرق الجانبية، وعرضوا أنفسهم لجروف النهر الذي كان من الضروري عبوره للوصول إلى المدينة، وبناء عليه كان الذين هلكوا منهم

بالموت بتعاسة غرقاً، أكثر من الذين هلكوا بالسيف.

ثم إن الامبراطور، بعدما قدم البولونيون إليه أيديهم اليمنى كعلامة على الصداقة، قاد جيشه ضد ميلان، ولأنه كان قد بنى آلاته، وشيد الجسور، تمكن في وقت قصير، مع جيشه الكبير، من عبور الخنادق، التي كان الميلانيون قد أحاطوا بها أنفسهم من جميع الجهات، ثم استولى الخوف والارتجاف على سكان المدينة، لدى وصول أخبار ما نزل بالبولونيين من مصائب، وتكدس الويل على الويل، وكان هذا العمل سينتهي في وقت قصير، ما لم يتفجر اضطراب خطير، أثاره البابا، واستدعى الامبراطور إلى أماكن نائية، ولدى معرفة سكان المدينة بهذه الظروف المستجدة، أصبحوا أكثر جرأة، ورفعوا رؤوسهم من جديد، فعاثوا فساداً في المناطق المجاورة، وألقوا الحصار على قلاع الامبراطور، ولكونهم أيضاً تقووا وتشجعوا بالنائب البابوي الذي أرسله البابا إلى هناك لطمأنتهم ولمواساتهم، طوقوا فيرارا، وألقوا الحصار عليها وبنصيحة النائب البابوي، الذي كان بلا رحمة، أرغموهم على الاستسلام، ذلك أنهم رفضوا جميع العروض لرفع الحصار، ما لم يستسلموا من دون شرط.

وفي هذه الآونة تم العثور أيضاً على واحد من رفاق القديس أوسوين Oswin.

الملك يفرض بريتانيا ليكون رئيساً للرهبان في دير وينكستر

وفي هذه الآونة مارس الملك ظلماً كبيراً على كنيسة وينكستر، فعلى الرغم من رغبات المجمع الديري، فرض بالقوة رجلاً أجنبياً وأدخله إلى الدير، ليتسلم إدارة الدير، وكان رجلاً صرف نفسه إلى السلوك الشائن، حيث ألقى جانباً الخوف من الرب، فاستولى على الأشياء كلها، وأضلّ عقول جميع الرهبان، وبدّد أموال الكنيسة، وكان كل ماسعى إليه هو أن

يرضي الملك، وتمكن رئيس الرهبان هذا الزائف نفسه، على الرغم من حق حرية الانتخاب الممنوح إلى الرهبان، من جر قرابة نصف النجوم إلى قطاره، وأفسد قلوب العديد منهم، وجعلهم يميلون إلى انتخاب وليم، عم الملكة، لأن الملك كان منصرفاً كلياً من أجل تمرير هذه المسألة.

موت وليم الأسقف المنتخب لليبج

مع اقتراب حلول عيد جميع القديسين، ختم وليم، الأسقف المنتخب لبلنسية، الذي أتينا على ذكره أعلاه، وأنه حصل على إذن من البابا حتى ينتخب أسقفاً لليبج Liege، وأن يستلم أسقفية وينكستر، ختم حياته في فيتربو، حيث قيل بأن السم قد دس له بإيعاز من المعلم لورانس، الذي كان رجلاً انكليزياً، وقد تمكن فيما بعد من تبرئة نفسه تماماً من التهمة، وعندما سمع البابا بهذه الحادثة، حزن كثيراً، لأنه كان بنيته أن يجعل منه قائداً لجيشه في حربه ضد الامبراطور، وبذلك صنع منه تنيناً ووحشاً بعدة رؤوس، لأنه عرف بأنه كان متحمساً في القتل، نزاعاً إلى سفك الدماء، ومتشوقاً إلى الإحراق، كما أنه كان سيداً للملك الانكليزي وصديقاً للملك الفرنسي، وابن ختن لكل منهما، وعمّاً لملكتيهما، وأخاً لكونت سافوي، وحليفاً لكثيرين آخرين بالقرابة أو بالدم، وجاء موته غير المتوقع محبطاً لخطته كلها.

حزن الملك لموت وليم المتقدم الذكر

وعندما سمع الملك بهذه الأخبار المبكية، لم يستطع منع نفسه عن الحزن، فقد مزق ثيابه وألقى بهم بالنار، وأفسح المجال للبكاء بصوت مرتفع، ورفض قبول المواساة من أي واحد كان، والملكة أيضاً، التي استثيرت، انخرطت في حزن أكبر من المعتاد، وقد بكت موته لمدة طويلة.

وفي هذه الآونة أيضاً ماتت ايفيلين كـونتسـه ألبمارل، وكانت سيـدة ذات جمال عظيم، ومـات أيضاً في الحادي والعشرين من كـانون الأول، هنري دي تربلفيل، وكـان فـارساً شجـاعـاً جداً، وكـان صـاحب خبرة كبيرة في الحملات الحربية.

البابا وبلاط روما ينتخبان روبرت أخا الملك الفرنسي امبراطوراً لهما لكنه رفض على الفور قبول هذا المنصب.

وفي هذه الآونة كتب البـابا إلى الملك الفرنسي، وبعث رسـلاً خاصين إليـه مع رسـالة أمر بـأن تقرأ بكل وقـار ودقـة بحضـوره هو، مع جميع بارونات فرنسا وكان موضوع هذه الرسالة ومحتواها كما يلي:

«ليكن معلومـاً من الولد المحبـوب للكنيسة الـروحية الملك المشهـور لفرنسـا، وكذلك من قبل جميع جماعة بارونـات تلك المملكة، بأننا، بعد مناقشة دقيقـة، ومداولات مع اخواننا، قررنا، وفصلنا، الذي هو مـدعو باسم الامبراطـور فـردريك، عن المنصب الامبراطـوري، وقـد انتخبنا الكونت روبرت، أخـا الملك الفـرنسي عـوضـاً عنـه، الذي، ليس فقط كنيسـة روما، بل الكنيسـة العـالمية، رأته مناسبـاً ومتـوافقاً مع جهـودها القصـوى في السعي لمسـاعـدة ذلك المقـام ورفعـه، ولاتكـن بناء عليـه متبـاطئاً، ولابأي شكل من الأشكال، في استـلام مثل هذا المقـام العـالي بذراعين مفتـوحين، الذي جـاء منحـه بشكل تطوعي، ولكي يستحـوذ عليـه، سـوف نمنح المسـاعـدات بكرم، في كل من الجهـد والمال، فقـد جـرت إدانة فردريـك المتقدم الذكـر إدانة قطعيـة، وذلك بسبب الجرائم المضاعفة التي اقترفها، والتي العالم كله على دراية تامة بها».

ورداً على هذه المنحـة اقترح الملـك الفـرنسي، العظيم الحذر، الجواب التالي: «بأية روح أو بأي طيش أقـدم البابا على حـرمان مثل هذا الأمير العظيم، وطرده من مقـامـه الامبراطـوري، ذلك أن هذا الأمير العظيم

لايوجد نظير له، لابل إن المثيل له ليس موجوداً بين المسيحيين، وكيف يتم هذا وهو لم يُدن بعد، كما أنه لم يعترف بالتهم التي أثيرت ضده؟ وهو إذا ما كان قد استحق العزل، بسبب ذنوبه الكبيرة، لايجوز حرمانه من تاجه، مالم يكن ذلك بموجب قرار من مجمع عام، وبالنسبة لتهم تجاوزاته، لايجوز لنا أن نضع ثقة بأعدائنا، الذين من المعروف بشكل جيد أن البابا هو الرئيس، وهو بالنسبة لنا مايزال بريئاً، لابل أكثر من هذا، هو جار جيد، ثم إننا لم نشهد أي شيء شائن في سلوكه العلماني، أو في إيمانه الكاثوليكي، والذي نعرفه هو أنه قاتل باخلاص من أجل مولانا يسوع، وعرض نفسه إلى مخاطر البحر، والحرب لصالحه، ومثل هذا التدين لم نكتشفه لدى البابا، وهو الشخص المتوجب عليه رفع شؤونه ومصالحه، وأن يحميه أثناء قتاله في سبيل الرب، لا أن يسعى إلى تدميره، واستبداله، ونحن لانرغب في أن نلقي بأنفسنا في مثل هذه المخاطر العظيمة، من أمثال الاقدام على قتال أمير عظيم وقوي مثل فردريك هذا المذكور، الذي هناك ممالك كثيرة سوف تساعده ضدنا، ممن يرغبون في تقديم تأييدهم لقضية عادلة، وهل سوف يكون الجود بسفك دمائنا، مسألة لها أهميتها لدى الرومان، طالما أرضينا غضبهم؟ وإذا ما كان البابا سيقوم بالتغلب عليه بوسائلنا، أو بمساعدة الآخرين، فإنه سوف يدوس على جميع أمراء الدنيا، مدعياً لنفسه التبجح والفخار، بما أنه قهر أميراً عظيماً مثل فردريك، ولكي لانبدو بأننا تلقينا الوصاية البابوية، بمثابة رسالة فارغة، مع أن هذا واضح أنه صادر عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بسبب كراهية الامبراطور، وليس بسبب محبتنا، إننا سوف نرسل رسلاً حكماء من عندنا إلى الامبراطور، للقيام بعمل بحث دقيق، حول مواقفه من العقيدة الكاثوليكية، ومن ثم لنحصل على المعلومات من قبلهم، وإذا لم يكتشفوا شيئاً غير صحيح، لماذا بناء عليه تعريضه للانتقاص؟ لكن إذا ما اكتشفوا غير ذلك، إننا سوف نطارده ونعذبه ونعاديه حتى الموت، لابل إننا نفعل هذا مع البابا نفسه، أو مع

أي مخلوق يفكر بشكل شرير نحـو الرب»، ولدى سماع رسل البـابا هذا الجواب غـادروا باضطراب، وعند ذلـك جـرى ارسـال رسل فـرنسيين خـاصين إلى الامبراطور ليخبروه بشـذوذ الرسـالة التي تسلمـوها من البابا، وعندمـا سمعهم الامبراطور، اعترته الدهشة تماماً نحو ضخـامة كراهيـة البابـا له، وأجاب بأنه كـاثوليكي، ومسيحي، ويرعى مواقـف وآراء صحيحـة نحـو جميـع أركـان الإيمان القـويـم، وأضـاف قائـلاً:

«إنه مما يرضي الـرب أنني لـن أتخلى عن خطـوات آبائي النبـلاء وأسلافي، ولن أتبع خطوات هؤلاء المحكوم عليهم بالدمار، ليقم الرب بالحكم بيني وبينه الذي نـال مني بدناءة وشـوّه سمعتي في جميع أنحـاء العالم»، ثم إنه رفع يديه نحو السماء، وهو يتنهد ويبكي ودموعه تتساقط وهو يدعو قـائلاً: «لينتقم المولى، رب الانتقـام، منه، انتقامـاً عادلاً»، ثم إنه التفت نحو الرسل قائلاً:

«أصدقائي، وجيراني الأحباء، إنه مهما قال عدوي هذا، هذا المتعطش السـاعي وراء دمي، إنني أعتقـد الشيء نفسـه الذي يعتقـده المسيحيـون الآخـرون، وإذا مـاأردتم شن الحرب ضـدي، لاتندهشـوا بأنني سـوف أقـاتل ضـد الذيـن يهاجمونني، لأنني واثق من أن الـرب، الذي يحمي البريء سوف يحررني بقدرته من أعـدائي، لأنه يعرف أن البابا في وضع المحاباة لأعدائي المتمردين، وبشكـل خاص الميلانيين الهراطقة، ذلك أنه رفع، في غضبـه، كعبـه ضـدي، وحـاربني، وبـالنسبة لكـم أنا أدين بالامتنان، لأنكم قررتم قبل الاستجابـة لطلبه، أن تتأكدوا بأنفسكم من حقـائق القضيـة الحاليـة بوسـاطة أجـوبتي، وعلى هذا أجـاب الرسل: «ليمنحنا الرب أن لايدخل إلى قلوبنا قط التفكير بقتال أي مسيحي، من دون سبب واضح، وأن لاتثيرنا المطـامح، لأننا نؤمن بأن مـولانا ملك فرنسا الذي خـط نسبه الملكي قد دفعه لتسلم صـولجان فرنسا، هو أعلى

من أي امبراطور، لأنه الامبراطور يرفعـه إلى منصب الامبراطورية مجرد انتخـاب حر، وأنه يكفي الكونت روبرت أن يكون أخـاً لمثل هذا الملك العظيم»، وبهذه الكلمات غـادر الرسـل، مع تمنيـات طيبـة، وشكر للامبراطور، وهكذا أخفق البـابا الذي حـاول أن يدفع بقضيتـه اخفاقـاً كلياً.

البابا يستخدم كلّ مساعيه لجمع مال للدفاع عن نفسه

وسعى البـابا بـوسـائل الاكـراه والإثارة للناس بـوسـاطة حجج مضـاعفة، وعن طريق الـدومينيكان والفرنسيسكان، الحصـول على المال لنفسـه، من أي مكان كـان من الممكن الحصـول عليـه، وذلك في سبيل الحاق الأضرار بالامبراطور، وكـان الدومينيكان والفـرنسيسكان قـد أصبحوا في هذه الآونة المستشارين الخاصين ومراسلي الملوك، فمثلما كان الذين يرتدون الثيـاب الناعمـة من قبل في بيـوت الملوك، هكذا صـار هؤلاء الذين كـانوا حينذاك يرتدون ثيـاباً خسيسـة، في بيـوت الأمـراء، وغـرفهم، وقصورهم، واستـدعى الملك في هذا الوقت أخاه جـون دي سينت جـايلز (صنجيل) للاجتماع به للتشـاور معـه، واعترت الدهشـة كثيراً من الناس، لأن البـابا لم يحضر صلوات عيـد الميـلاد، حسبما قـرأنا عن القديس بطرس عندما كان مودعاً في السجن.

الامبراطور يثني الصليبيين عن الإقلاع

وقـام الامبراطور الآن، بوسـاطة رسـالة، بنصيحـة جماعـة الصليبيين كلهم —مع أنهم كـانوا مستعـدين ووضح أنه تسبب بغضب شـديد لهم— بأن ينتظروا بصبر، وأن لايقـومـوا بالمغادرة نحـو القـدس، حتى يكون انفجار غضـب البابا قد سكـن، فوقتها سـوف يتمكن بسرور من مـرافقتهم، لأن هناك حشداً لايحصى من الشعـوب الشرقية، مستعـدين بالسـلاح لـلاصطدام بهم، وقـد رفض البقيـة على كل حـال الاصغـاء

لنصيحتـه، فقام بناء على ذلـك، الامبراطور، وهو مغضب، فمنع تزويد أية مواد غذائية، أو إيصـالها إلى الجيش الفرنسي، مهما كـانت الشروط، وذلك من مناطقـه الحدودية المثمـرة، أي من أبوليـا وقبرص، وعندمـا سمع المسلمـون بهذا، رفعـوا رؤوسهم، و أصبحوا أكثـر جـرأة وأنزلوا أذى كبيراً بالصليبين، بكل من أشخـاصهم وممتلكاتهم، وبجـرأة نشروا بينهم النار والقتل، وبالاضافة إلى رماياتهم الكثيفة، أقام الاغريق باباهم المضـاد، في وجه الكنيسـة الرومانيـة، وأقـام الامبراطور أيضاً، في وجـه البـابا وضـده، الراهب اليـاس، الذي كـان لبعض الوقت رئيس رجـال الدين، وواعظـاً مشهـوراً لدى طائفـة الفـرنسيسكـان، وهكذا بدأت الشرور تتضـاعف على وجـه الأرض، لأنه حلل جميع الذيـن حـرمهم البابا، وأثارت الكنيسة فضيحـة كبيرة، لأنه بدسائس هذا الوكيل، باتت كنيسة رومـا مشهورة بتهم: الربا، والسيمونيـة، والسرقة، وتحول الأبناء ضد أزواج أمهـاتهم، وأكد الراهب الياس المتقـدم الذكر بأن البـابا كان يصب غضبـه ضـد حقـوق الامبراطورية، وأنه كـان متعطشـاً من أجل المال، وكـان يستخـرج المال بمختلف الحجـج، وأنه كـان لايحضر الصلوات، والقـداسات، والمسيرات، والصيـام، التي من خلالها يتحـرر المظلومـون من مضطهـديهم»، كما كتب: «حفظ، بناء عليـه بطرس في السجن، لكـن صلواتـاً عملت من قبـل الكنيسـة من أجلـه من دون توقف، إلى الرب»، وأنه كـان يمارس الغش بالنسبـة للمال الذي جمع من أجل مساعـدة الأرض المقدسة، وأنه كان يقـوم بشكل سري بختم مواد مكتوبة في غرفته، من دون الحصول على موافقة اخوانه، حتى أنه أعطى إلى رسله كثيراً جداً من البرامج الفـارغة، وهي مختومـة بختمه، أعطاها لهم على هذه الصـورة، ليكتبوا عليهـا مـايرضي رغباتهم، وهي رغبـات كـانت مـرعبـة، وقـد وجهت إلى البـابا وعملت ضـده كثيراً من التهم الأخـرى، رفعـت صـوته إلى السماء، ولذلك قـام البـابا بانزال عقـوبة الحرمان الكنسي بالياس المذكور.

صرف سيمون النورماني والراهب غيوفري من مجلس الملك

وفي العـام نفســه، وفي أثناء الاحتفـال بعيــد الفصح وسط كثير من البهجة، تحول غناء المعلـم سيمون النورماندي إلى نحيـب، واحتفاله إلى بكاء، لأن هذا الرجل قد كان قبل وقت طويل مضى، سيداً، ليس فقط للمملكة، وللختم الملكي، بـل أيضـاً الحاكم على الملك نفســه، ومـدبر الشؤون في البلاط، حيث كانت جميع القضايا تدار حسب ارادته، وكان رجــلاً صــارمـاً، يحصــد حيث لم يزرع، ولم يحصـل على حظوة بسبب فضائله، بل كان يحمل نفسه فـوق نفسه، وكان يوماً إثر يوم يثير غضب وكراهية النبلاء ضده، وعندما لم يعد الملك قادراً على تحمل خساسته أي وقت أطول وعجـرفتـه، أمـر به بأن يطرد من بلاطه، وأن يلقى بأمتعتـه وخزائن ثيابه، وكتبه، وأرديتـه الثمينة، خارج بيت الملك، وبالاضافة إلى هذا، انتـزع منـه ختم الملك، وعهـد به إلى رتشـارد، راعـي دير ايفهـام Evesham, وكان رجلاً مستقيماً وبـارعاً، وحذراً في ادارة الأعمال، وعندما كان الملك مثاراً بروح مشـابهة، أمر بالراهب غيوفري، الداوي، بأن يصرف من بلاطه، وهي حادثة، كان كثيرون متشوقين إليها، وأصل غضـب المـلك هـذا وسببـه الرئيسي هـو أن سيمـون المذكور قد رفض التصديق على إجـازة بغيضة، مضـادة لكرامة تاج الملك، وكـان القصـد من الاجـازة، هـو أن تومــاس كـونـت أوف فلاندرز ينبغـي أن يتسلم ضريبة عشر، قدرها أربعة بنسـات مقابل كل جوالق من الصوف يجري حملـه من انكلـترا، خــلال مناطقــه، ولم يـرض غيــوفــري الداوي بالموافقة عليها، مع أن الملـك رغب بها وتشـوق إليها.

رهبان وينكستر يحصلون على انتخاب حر من البابا

وفي هذا الوقت نفسـه، حصل رهبـان وينكستر، لدى رجـوعهم من البـلاط الروماني، من البـابا، على أمر، بعـدم انتخاب أي واحـد أجنبي ليكون وصيــاً على أرواحهم، أو أي واحـد يكون ممقــوتاً من جماعــة

المملكة، وذلك بناء على مبـادرة قـاسيـة من الملك، أو بناء على التماس ملكي، بل وفقـاً لما هو عـادل، وقـانوني، وأن يعملوا انتخـاباً —من دن فـرض— لأي واحـد يرونه مناسبـاً لأن يكون أسقفهم وراعيهم، وبناء على هذا اشتعل غضب الملـك ثانيـة إلى درجـة عـاليـة، وكـأنه لم يكن بإمكانه أن يعثر على أي واحد انكليزي مناسب لتلـك الأسقفية، ومنذ ذلك الحين سعى رئيس الـرهبـان، الذي فـرضـه الملك عليهـم، وشغل نفسـه بكـل يقظة لاضعـاف ثبـات الرهبـان وليمـزق الاتحاد السلمي لأولئك الذين وقفـوا برجـولة منذ ذلك الحين، إلى جـانب مصلحـة الكنيسة.

الامبراطور يوجّه زحفه نحو المدينة

وعندمـا وجـد الامبراطور في هـذه الآونة أن البـابـا ليس فقـط متعطشـاً كثـيراً يريـد سفـك دمـه، بـل يقـف مـوقف المحـاباة تجاه العصـاة الميـلانيـين الهراطقـة، لأنـه كـان متشـوقاً لتنفيـذ اسقـاطـه المهـين، لذلـك أجّل لبعـض الوقـت خطتـه المرسومة للحرب، وبجرأة اقترب من المدينة حتى يمكن أن يظهـر بشكل مرعب أكثر، إلى رعيته، ولدى وصوله، خرج سكان فيتربو مع النبلاء ومع سكان المدن الأخرى المتميـزة، ومع عـدد كبير من الرومـان، خـرجـوا إلى استقبـاله، مع كل احترام وتشـريف، بحكـم أنه مـولاهم، ومن الممكن البرهنة على هـذه الحقيقـة مـن خـلال رسـالـة بعث بها الامبراطور إلى ملك انكلترا.

رسالة الامبراطور إلى ملك انكلترا

«من فـردريك، الذي هـو بفضل الرب، أغسطس دائـم، وامبراطور الرومان، وملـك القدس وصقلية، إلى الملك المشهـور لانكلترا، ابن ختنه المحبوب، تحيات وعواطف مخلصة:

إن اللدغـات المضـاعفـة ثلاث مـرات مـن الحزن التي تخرق قلوبنا

وتثيره، لاتسمح لنا الآن بالبكاء أكثر من دون انفجار حزننا الداخلي، على شكل آهات، وبعد ذلك انفجار آهاتنا على شكل عويل، وبالقدر نفسه بوساطة مواد خلافات جديدة، التي إليها دفعنا البابا حاكم الكنيسة العالمية، بوساطة بعض وسائل الارغام العنيفة، ولقد اكتشفنا المضار التي لحقت بالإيمان الكاثوليكي، ذلك أننا شاهدنا بوضوح ونحن نتألم الظلال التي سوف تلقى على عدالتنا، وتألمنا وأسفنا للخسارة التي سوف تعاني منها الأرض المقدسة، لكن نحن لسنا أقل تأثراً وتضرراً بهذا الحزن، حتى أن عيني الراهب ايلي صارتا لاتبصران، ولم يعد يعي أياً من هذه المخاطر، لأنه أثير بغضب شديد نحونا، وصار مربوطاً بمشاعر كبيرة من التعاطف مع الميلانيين ومع محرضيهم، الذين ثاروا ضد الامبراطور، ذلك أنه مع أن العالم كله بات عرضة لوقائع متوالية مشكوك بها، أو بالحري إلى مخاوف الحظ، نهض ليدوس على عدالة الامبراطورية المقدسة، وليقدم المساعدة إلى رعايانا الميلانيين المتمردين، غير أننا لم نطعن بلدغة صاحب ضمير مجرم في هذه القضية، كما أننا لانتوقع الحكم المضر لسمعتنا، لأننا منذ وقت طويل تمكنا بوساطة الالهام الرباني لضغوط هذه المخاطر، وبشكل دائم، من تجنب السبب الحالي للفضيحة، وقد سعينا بوساطة جميع الامكانات التي توفرت لقدرتنا، أن نحصل على حظوة هذا الحبر الأعظم، لكن عبثاً كان ذلك، حتى أنه لم يوفر تعبنا الشخصي، ولم يهتم بخسائرنا لممتلكاتنا، وغالباً كثيراً ما عرضنا حياة رعايانا المخلصين، بحرية، في سبيل مساعدته، ومساعدة الكنيسة الرومانية، لكن [ونحن نحكي هذا بأسى] أثناء الوقت كله لصراعاتنا، لم نتلق أي شيء منه، ولاحتى علامة من علامات العاطفة، قد دفعت لنا من أجل طاعتنا، بل إنه عارض دوماً بنفسه تقدم الامبراطورية المقدسة، وأعاقها، هذا والذي ينبغي ويتوجب عدّه أكثر وحشية لكل واحد، هو أننا عندما كنا مشغولين بخدمة الكنيسة المقدسة، كما هو مبرهن بوضوح من خلال

رسائله، قام بانتـزاع مدينة كاستيلانا وسلبهـا من الامبراطورية، وكانت كاستيلانا هذه قد حـولت إلينا مؤخراً، ولم نتمكن في ذلك الحين —على الرغم مـن جميع شكاياتنا— مـن الحصـول على أي شيء لصـالحنا، أو لصـالح الامبراطورية، وقام بعـد ذلك بوساطة رسـائل سرية معارضـة بتجريد النائب البابوي من جميع الصـلاحيات، وهو النائب، الذي قال، بإنه أرسله إلى سورية، للحصول على ترضية تجاه المضار التي أنزلت بنا، وبابننا، من قبـل سكان عكا، ومن قبل بعض نبـلاء مملكة القـدس، كما أننا لم نستطع في الوقت نفسه بالذات، الحصـول على أية رسائل منه لمنع الميـلانيين، من مهـاجمة سكان كـريمـونـا، الذين كـانوا مخلصين للامبراطورية، ولامنـع الفلورنسيين من إلحاق الأذى برعـايانـا البنادقـة المخلصين، علماً بأنه لم يمنحنا الإذن بالذهاب لمسـاعـدتهم، الأمـر الذي رغبنا به، وكان ذلك حتى لانترك الكنيسة من دون دفاع، ومجدداً عندما كنا سائـرين نحو ألمانيـا، لضبط شرور ابننا الكبير، وعدنا بشكل مـؤكد بأن يقـدم لنا المحـاباة في كل مجال، ومع ذلك قـام بوسـاطة رسـول من لدنه، يحمل رسـائل اعتماد، بالفـرض —بوسـاطة كل وسيلـة وقـدرة امتلكها— على المقدمين الذين كانوا موجودين معنا في البلاط في مينسي Mayence, بأن لايوافقوا ولابأي شكل من الأشكال، على انتخاب ولدنا الأصغـر، أو أي واحـد مـن بيتنا ودمنا، ثم بذل بعـد ذلك كل براعتـه وقـدرته، في سبيل إعـاقـة تقـدمنا في إيطاليـا، من أجل اصـلاح أوضـاع الامبراطـورية وكـان ذلك بوسـاطة رسـائله ورسله، وبشكل خاص بـوساطة أسقف برانستي، الذي تمكن بكل براعـة ومكر، من أن يكسب إلى جـانبـه بيـاسينزا Pierenza, ومـانتـوا Mantua, وأخيراً عندمـا تمكنا بفضـل نعمـة الرب من الحصـول على نصر على الميـلانيين، بوسـاطة قتلهم، ولدى رؤيتـه أن رسـائلـه السرية، مع نوابه البابويين، كـانوا بلا فائدة بالنسبة له، وذلك بعـد أن حقق سيف عدالتنا النصر على شروره المخادعـة، بدأ بشكل أكثر علانية، بإلقـاء المعيقات في

طريق تقـــدمنا، ومنع بوضـــوح مكشـــوف سكان ونبــلاء تخوم أنكونا Ancona, ووادي سبـوليتـو Spoleto من مسـاعـــدتنا، مع أن واجبهم كان مساعدة الامبراطورية وليس إلحاق الأذى بها، وأن يحاولوا القـدوم إلى لومبـارديا، أو أن يرسلوا عسـاكرهم إليهـا، كما أنه قـام على الرغـم من أمـــرنا وتحريمنـا، ففـــرض على سكان أنكونـا، والبلدات الساحليـة الأخرى، وذلك تحت تهديد عقـوبة الحرمان الكنسي وغـرامة عشرة آلاف مـارك، بأن يقدمـوا كل الأشيـاء اللازمة إلى البنادقـة الذين كانوا ثائرين ضد جلالتنا، وهذا كله مبرهن عليه بوضوح برسائله، وإلى بعض نبـلاء تخوم تـريفيسـو Treviso, الذي حـوّلهم إلى ضعفـــاء ومتقلبين بولائهم إلينا، فبعث برسائل، وأمرهم بشكل مكشوف بالتخلي عن ولائهم، معطيـاً إليهم فهماً، أننا إذا لم نختر اسناد شـؤون لومبـارديا تماماً إليه، ووضعها تحت تصرفه، وسلطته، سوف يتفوه بشكل عاصف، بقرار حرمان كنسي ضدنا.

وبعد عقدنا مؤتمراً للتداول حـول هذه القضايا مع مقدمينا المحبوبين تمامـاً لدينا، ومع آخـرين كـانوا آنذاك يسـاعـدوننا أثناء حصـار بريشيـا Brescia, ورغبـة منا (كما ذكرنا مـن قبل) بعدم قيـام أية أسباب للخـلاف بيننا وبين الكنيسة، أرسلنا سفـراء خاصين من قبلنا إلى المقـام الرسـولي، وعرضنا من خـلالهم تقـديم ترضيات أيضـاً من أجل بعض الذنوب التـافهـة، التي كما قـال، قد اقترفـت في مملكة صقلية مـراغمـة لحقـوق ولامتيـاز الكنيسة، وطـالبنا مجدداً بوسـاطة الرسل أنفسهـم، بأن يتم الاتحاد المرغـوب بيننا وبين الكنيسـة، وهـو الاتحاد الذي غـالبـاً مـا حـاولنا إقامتـه بوسـاطة عدد لايحصى من الرسـل، وقد طالبنا بتأكيـده بوساطة الرسل، وبوسـاطة ضمانات متبادلة، وقد قـال بأنه على استعداد للموافقة على هذا، وعهد بشكل الضمانات وصياغتها إلى حكمنا، ولكن عندما كان رسلنا ورسله، قد وثقوا تماماً بأن السلام والاتحاد قد تأسسا،

وكـانوا عـائـدين بنشـاط وبهجـة، إلينا، وصـاروا جميعـاً بعيـدين عن مشاهدته، عهـد بمنصب النيابة البـابوية في لومبارديا إلى غـريغوري دي مـونت لونغـو، الذي كان من قبل مـوضع ريبـة لدينا ولدى أصحـابنا، عندمـا تلقيناه بمثـابة مجرد سفير بابوي بسيط في تلك المقـاطعـة، وهو —أي البابا— قد وعد باستـدعائه من هناك، ولكي يضيف إلى شروره، أقـدم عندمـا اكتشف أننا كنا بلا حـرس، بحكم وثوقنا بوعـود الاتحاد، فأمـر باهـلاكنا، من قبل بعض مقـدمينا ورعـايـانا، وذلك بسبب بعض الذنوب، التـي قـال بأنها اقترفت مـن قبل مـوظفينـا ورسلنا في مملكة صقلية، ومدينة روما، ضده وضد الكنيسة.

وبعـــدمـــا أرسلنا إلى سيـــد هؤلاء المشرفين، بدلاً من أجـل حكم أشخاص دينيين آخرين، جواباً كـاملاً عن جميع هذه الأشياء، وحيث أننا كنا غير راضين بكل جواب من أجـوبتنا عن كل عنوان، أضفنا ملاحظة عـامة، بـأننا نترك رغباتنا والجواب في كل شيء إلى حكمـه، حسبما تأكـد وأجيز بوساطة الرسائل والبراهين العائدة إلى القساوسة، الذين هم جميعاً أهلاً للثقة، وعندما أرسلنا رسلنا حول جميع هذه النقاط، لحمل أجوبتنا، وللقيام بترضيـة كاملة، مدعمين بسلطاتنا، لوضع حد لإجـراءاته الماكرة ضـدنـا، قـام في يوم أحـد السعـف، وهو يوم ليس بالعـادة كليـاً اتخاذه لإجراءات العقوبات، وعلى الرغم من ممارسـات الكنيسة، قام بإجراءات حملة ضـدنا ولإلحاق الأذى بنا، وبما أننا عـددنا مثل هذا الإجـراء مليئاً بالطيش، وليس فيــه عــدالة، بعثنا برســائل إلى إخــوانه، وإلى النواب البـابويين، نطالب بعقـد مجمع عام، نشترك فيـه للبرهنة، بوسـاطة حجج واضحة وضوح النور، على انحطاط وفسـاد القاضي، وعلى براءتنا، وبناء عليـه لن نقـول فقط كيف ازدريت براهين بـراءتنا، بل سنذكـر كيف أنه مراغمـة لشريعة الشعـوب، التي لاتسمح بإهانة السفراء أو الـرسل، قام هذا الرجل، الذي يقـدم نفسـه على أنه «عبـد عبيـد الرب» فأمـر برسلنا

المتقدم ذكرهم، الذين هم أساقفتنا، بإلقائهم بالسجن بشكل مهين جداً.

ثم، ليكن موضع انتباهك، فيما إذا كانت هذه الإجراءات جديرة ببابا، وفيما إذا كانت أعمالاً موائمة وفيما إذا كان يليق بواعظ أن يجر العدالة نحو الدمار، وأن يدوس عليها بقدمه، وأن يتجاهل حكم جميع العيون المؤمنة، حكماً لصالح شعب ميلان غير المخلص، لكن ومع جميع هذه الأضرار وعلى الرغم من أنه كان يتحرك ضدنا بطيش، في ظل روحه الغاضبة، لم نتعرض للإثارة حتى نتولى زيارته بالانتقام الامبراطوري، حتى أظهر نفسه، أنه كان مندفعاً نحو الأمام في سبيل تدميرنا دماراً كلياً وتجريدنا من ميراثنا الامبراطوري، ومثل هذا، وبالقدر نفسه، عندما كنا مقيمين في تخوم تريفيسو، من أجل تهدئة تلك المنطقة (التي وجدناها بسبب تمزقات قديمة مستمرة، ملطخة في كل مكان بالدم والقتل) قام بوساطة تقديم مبلغ كبير من المال، بإثارة مركيز دي ايستي Este وكونت أوف سينت بونيفاسيو Bonifacio (الذي قام بالتآمر ضد حياتنا بناء على اقتراح الحبر الأعظم) وكذلك مدينة تريفيسو، للثورة ضدنا وضد الامبراطورية، كما أنه قام بوسائط بولص ترافيرساري Traversari —الذي كان من قبل واحداً من أكثر رعايانا اخلاصاً لنا، ولكنه فسد فيما بعد بوساطة البابا— وعن طريق وكالة الكاردينال النائب البابوي، فانتزع منا مدينة رافينا، وأخذها من التخوم، ومن الامبراطورية، ومع أن أميراً وحبراً، قد تسلم منهم يمينهم بالولاء له وللكنيسة، أمر أيضاً بالطرق العامة التي تمر خلال التخوم والدوقية، التي استولى عليها وانتزعها من الامبراطورية، بأن تغلق ضد الرسل الذين كانوا قادمين إلينا، وجالبين الأشياء الضرورية إلينا وإلى جيشنا، وقام بعضهم بممارسة أعمال اللصوص وقطاع الطرق، فانتزعوا منهم جميع مقتنياتهم، وبإلقائهم بالسجن فيما بعد، وقد فعل هذه الأشياء كلها، إما ليجيعنا ويجيع جنودنا، من الايطاليين والألمان، أو

ليرغمنا على رفع حصـــارنا عن ميـــلان، وعن نهب منطقـــة رعـــايانا المتمردين، ولم يكتف بهذا كله، بل أعلن صراحة عن نفسه قائداً للحرب ومقدمها ضدنا وضـد الامبراطورية، متخذاً قضية الميلانيين والخونة غير المخلصين، قضيته، وحوّل بشكل مكشوف شـؤونهم نحو مايتناسب مع فـوائـده، وعلاوة على ذلـك عيّـن قـائـداً على الميـلانيين أو بالحري على الجيش البـابوي، رجله المتقـدم الذكـر، غـريغـوري دي مـونت لونغـو، والراهب ليـو، الذي هو كـاهن طائفـة الفـرنسيسكان، اللذان لم يكتفيا بتقلد السيـوف، وإلبـاس نفسيهما السـوابغ والدروع، واظهـار نفسيهما، وكأنهما جنديـان مـزيفين، بل استمـــرا في ممارســـة وظيفـــة منصبيهما في الوعظ، وفي تحليل الميـلانيين وسواهـم من ذنوبهم، أثناء قيـامهما بتوجيـه الاهانات إلى شخصنا، أو الذين هم أتباعنا، وفي هذا الوقت أيضـاً، قام النائب البــابوي، والـراهب الفــرنسيسكاني المتقــدم الذكــر، بتنصيب نفسيهما، حكاماً وسـادة، ضدنا وضد الامبراطـورية، وقد فهمنا من هذا بشكل واضح، بأن البـابا ليس فقط صـديقاً للكفـار، الذين أعلن عنهم صـوت العـالم أنهم هراطقـة، بـل أيضـاً المؤذي للامبراطورية، والهادف لحرمـاننا من ميراثنا، والرجـل الذي اغتصب الحكم الدنيـوي والسيـادة على ميلان، وبناء عليـه، لقد أثرنا إلى أبعد الحدود بهذه الخسـائر الهائلة، وكنا مـزعـــوجين جـداً من هذا الأذى الكبير، ولذلك لم يعـــد بإمكاننا حبس أيـدينا، بـل حملنا السيـف والترس بشكل معلـن، في سبيل دعـم قضيتنا وقضية الامبراطـورية، ضد عدونـا المعلن، مواجهين قوة دنيـوية بقـوة دنيوية، كما أنه لم يعـد بإمكاننا الاستمـرار بإبداء العاطفـة البنوية نحوه، لأنـه ليس فقط لم يبد نحـونا العاطفـة الأبوية، بل سعى لإيذائنا، ولحرماننا من ميراثنا، وهو متعطش بشكل وحشي يريد حياتنا ودمنا.

وبعـدما أخضعنا بمسـاعدة الفـرسـان، ورماة القسي العقـارة، جميع مقـاطعـــة ليغـوريا Liguria التي استسلمت لنا، وقمنـا أيضـــــاً أثناء

زحفنا خلال توسكانيا، بإصـلاح الكثير من قوانين الامبراطورية، وبعثنا بولدنا المحبـوب هـ. .H الذي هو الملك اللامع لتـوري Torrees وغالبـوري، سفيراً للامبراطورية المقدسـة في ايطاليا، ليعيـد تخوم أنكونا إلى ولائـه، وقمنا نحـن أنفسنا برفع نسـورنـا المنتصرة، ووجهنا زحفنا شخصياً نحو دوقية سبوليتو، والمناطق الملاصقة للمدينة، وباستثناء مدن قليلة، أعـدنا المنطقـة كلهـا التـي عبرناها أثناء تقـدمنا، والممتـدة حتى فيتربو، إلى طاعتهـا الصحيحـة للامبراطوريـة، وقـد استقبلنـا من قبل سكان فيتربو، ومن قبل سكان المدن والمناطق التي من حولها، والقـائمة في أحوازها بـأعظم اخلاص، وبذلك عندمـا أرينا عدونا قـوتنا، استولى عليـه الرعب، وخـاف كثيراً من اقترابنا منه، ولم يصـدق أنه يستطيع أن يخلص نفسـه بوساطة توبة متأخـرة، ووقع في أعماق اليأس، وفقد الثقـة بقوته، عندما كان الشعب الروماني يصرخ فرحاً أثناء اقترابنا من المدينة، وقـد تمكن بوسـاطة دمـوع حقيقيـة غـزيرة جـداً بشكل غير اعتيـادي بالسيطرة على بعض الصبيان والنسـاء العجائـز، ومعهم عدد صغير من الجنود المرتزقـة، فحمل الصليب ضدنا، مـؤكداً كذباً بمـواعظه لهم بأننا كنا نسعى للقيـام باجتثـاث الكنيسـة الرومـانية، وخـرق حـرمـة الآثار المقدسة لكل من الرسولين المباركين جداً: بطرس، وبولص.

وبناء عليـه، فإن جـلالتك، سـوف —بفضل تقـديركم الصحيح— تتفهمون زحفنا وتعذروننا، فالذي دفعنا إليه هو القذف الخبيث لعدونا، والذي حثنا عليه العـدل وعلى تبنيه من أجل شرفنا وشرف الامبراطور، وبالقـدر نفسه شرف ومكانـة ملوك وأمراء الأرض، وأنت فـوق غيرك من الملوك الآخـرين، ينبغي أن تقـف إلى جـانب قضيتنا بمحـاباة أكبر، وأن تحافظ عليهـا بثقـة أعظم، ولكونـك شريكاً لنا في العـبء كله والمكانة، قـد جـرى بثقـة منـا اختيـارك —إذا كنت تتـذكـر، بشكل صحيح— لتكون حكماً في هذه القضايا، ولأنك أبعدت من قبل الحزب

المعـادي، وذلك حتى تتمكن من حماية بـراءتنا، وعـدالتنا الامبراطورية، بغيرة صافية، وبضمير أكثر اخلاصاً. صدر في فيتربو».

ذعر العالم وتكريس بعض الكنائس

ولدى تداول أخبار هذه الأشياء، وانتشارها ومعرفتها في جميع أرجاء العـالم تلقت سمعـة البـابا وسلطتـه صـدمـة، وتناقصت كثيراً، ونشأت فضيحـة كبيرة، وبدأ رجال حكماء ومقـدسـون يشعرون بذعـر كبير من أجل شرف الكنيسة، والبـابا، ورجال الدين كلهم، وصـاروا يخافون أن ينزل الرب في حالة غضبه العظيم بالناس جرحاً لايمكن شفائه.

وفي هذه الآونة، في التـاسع من آب، الـذي كـان يوم عيـد القـديس رومـــانوس، جـرى تكريـس كنيسـة ديرية في أبنغـــدون Abingdon, من قبل روبرت أسقف أوف سالسبري، أسقف ذلك المكان، وجرى في حوالي الوقت نفسه أيضاً، تكريس كنيسة في ويلز، وجرى في العام نفسه تكـريس كنـائس: ايفهـــــــام، وغلوستر، وتـــويكبري Tewkebury, وويكمبري Wicumbery, . وبيرشـور Pershore, وألدكستر، ومعهن جرى تكريس كنائس أخرى في جميع أنحاء انكلترا.

وفي حوالي أيام عيد القديس ميكائيل من العام نفسه، مات في البحر، روبرت دي ثوني، وكان رجلاً من أسرة نبيلـة، وفي حوالي الوقت نفسه، عندمـا كان أسقف لنكولن يتـولى تعـذيب كهنته، اشتكى واحـد منهم، أثناء وعظه بقداس إلى الناس، من الأسقف المذكور، وقال:

«ومع أننا يتوجـب علينا التمسك بسلامنا، فإن الحجـارة سوف ترفع صـوتها صـارخـة من أجلنـا»، وحـدث وقتهـا أن البناء الحجـري لبرج الكنيسـة الجديدة في لنكولن قد انهار، وسحق النـاس الذين كانوا تحتـه، وبسقوطه اهتزت الكنيسة كلها، وتضررت، ونظر إلى هذا، على أنه نذير سوء، ومع ذلك شرعوا بإعادة بنائه بشكل أفضل.

مذبحة التتار

وفي هذه الآونة، تعرض التتار، الذين هم عرق همجي من الناس، والذين هاجموا البلدان المسيحية، واقترفوا مذابح كبيرة، وكانوا يتجولون هنا وهناك في هنغاريا العظمى، للهزيمة، وأرغموا على التراجع، وقد قتل الشطر الأكبر من هؤلاء بحد السيف، وسقطوا أمام يد القدرة، لأنهم هوجموا من قبل خمسة ملوك مسيحيين ومسلمين اتحدوا لهذا الغرض، بفضل نعمة الروح القدس للرب، وبعد مقتل هؤلاء الهمج، أرسل ملكا داشيا Dacia, وهنغاريا بعض المسيحيين لسكنى البلدان، التي كانت قد تحولت إلى صحراء، من قبل التتار المذكورين، وذهب من داشيا وحدها أكثر من أربعين سفينة مليئة بهم.

وفي هذا العام نفسه، جرى الاستيلاء على مونت كازينو، وكان مكاناً لايرام، من قبل جيش الامبراطور، كما روينا بشكل أوفى من قبل.

خسارة ملك قشتالة الكبيرة

وجرى في العام نفسه، الاستيلاء على مدينة بلنسية، التي هي مدينة كبيرة في اسبانيا، من قبل ملك قشتالة، وبعد ذلك تابع الملك المذكور تقدمه ليلقي الحصار على اشبيلية، بحكم أنه حصل على ثقة كبيرة بنجاح مستقبلي من النصر الماضي، وبناء عليه ألقى الحصار على تلك المدينة، وهاجم سكانها بشدة، وفي أحد الأيام، بعدما رتب صفوف سراياه، وقام ببعض الحملات المميتة على سكان المدينة، خرج إليه مقدم المدينة، وكأنه يحمل نوايا مسالمة، ووعد بتسليم المدينة إلى الملك، على شرط توفير حياة السكان، لكن هذا كله عمل عن طريق الخيانة، ذلك أنه ألح على الملك وحثه على دخول المدينة شخصياً، لتسلم الولاء من الذين قرر سموه الملكي توفير حياتهم، ووضع الملك الثقة بكلامه وتنهداته، ودخل المدينة، لكنه ما ان أصبح داخل المدينة حتى أغلق

سكانها الأبواب، ورفعــوا الجسـور، وأحـاطوا بـالملك بسيـوف مجردة، بالملك الذي كان محاطاً بعدد قليـل فقط من الأتباع، حيث كان لايخشى شيئاً من هــذا القبيل، وعندمــا رأى الملك نفســه وأصحـــابه أنفسهم مطوقين من قبل الأعداء، وعرفوا أن القضية باتت قضية حياة أو موت، أوقعـوا قتلاً كثيراً، وبقـدر مااستطاعـوا، رداً على أعـدائهم المتفاخـرين، وبعد بعض الوقت ولأن أعداد أعدائهم تزايدت، لم يعودوا قادرين على متــابعــة تحمل ثقل القتــال، وركـزوا تفكيرهــم فقط على كلمات النبي وصلواته: «يارب أنقذ الملك»، فقامـوا بإبعاد ملكهم، وتمكنوا بشيء من الصعوبة من اخـراجه من إحدى البوابات الخلفيـة، وبعد صعوبات جمة نجا هـو وعاد إلى جيشه، الذي وجـده ممزقاً إلى أبعـد الحدود على أيدي الأعداء الذين هاجموه، وذلك وفق ماكان قد جرى إعداده من قبل، من قبل هؤلاء الخونة، وعلى كل حـال، لدى رؤيتهم للملك، وهو سليم في بدنه، استردوا شجاعتهم، وهزموا أعـداءهم، أما الذين كانوا محاصرين، وهم ملطخين بدمـاء أعـدائهـم، فقتلوا واتخذوا أسرى، وعـاد الملك مع الذي بقي لـه من جيشــه بشكـل مضطرب إلى بلاده، وظل في الـوقت نفسه أكثر استنفاراً وعزيمة في سبيل الصراع.

الملك يمنح نطاق الفروسية لبلدوين دي رايفر ويعطيه مرتبة الإيزلية على جزيرة وايت

سنة ١٢٤٠، وهي السنـة الثـالثـة والعشرين من سني حكم الملك هنري الثـالث، وفيهـا عقد بلاطه في عيـد الميـلاد في ويستمنستر، حيث منح في يوم الميــلاد نطاق الفـروسيـة إلى بلـدوين دي رايفــر Rivers وكـان شاباً لامعـاً، وأعطاه مرتبـة الايرلية على جــزيرة وايت Wight, وكـان ذلك بحضور الايـرل رتشارد وبمبـادرة منه، حيث كـان بلدوين المذكـور تحت عهـــدته منذ سنوات طـوال، وكـان قــد تزوج من أليس Alice ابنة زوجته ايزابيلا، التي كانت كونتسة غلوستر من قبل.

انتخاب هيوج دي بيتهل أسقفاً لكوفنتري

وتأكـد في هذه الآونة انتخـاب هيـوج دي بيتهل Pateshull, الأسقف المنتخب لكوفنتري، وقـد كـان في بعض السنين الماضية خـازناً للملك، وقـد سلك في عمله بشكل غير قابل للنقـد، وكان عندمـا اتخذ كـرسيـه وجلس في الخزينة الملكيـة، قـد ذهب إلى جميـع بارونات ذلك المكتب، بطريقتـه المعتـادة، ولدى قيـام الجميع كي يدفعـوا له الماركـات المعتادة للتشريف، كان قد قال لهم:

«أصـدقـائي الأعـزاء ورفـاقي، وداعـاً، إنني لن أتخلى عنكم قط، بل تخليت عن الخزينة فقط، فلقـد استـدعـاني الرب، مع أنني غير جـدير، لأتولى حكم الأرواح»، وقـد خـرقت كلماته تنهـداتهم، فقـام بتقبيلهم واحـداً واحـداً، حيث كانـوا في الوقت نفسه يبكـون بانفعال وعـاطفـة بسبب مغادرته.

موت إيزابيلا زوجة الإيرل رتشارد

وفي هذه الآونة حملـت السيـدة النبيلة ايزابيـلا كـونتسـة غلوستر وكـورنوول مـريضـة بشكل خطير لاصـابتهـا باليرقـان الأصفـر، وقـد وصلت إلى حافة الموت، ولدى اقتراب وقت تمددها (لأنها كانت حاملاً وقـريبة الولادة) أصبحت بلاشعـور، وبعـدما عـانت من ضغط شـديد جرى قص شعرها، وقـامت باعتراف كامل بذنوبها، وغادرت إلى الرب مع ولدها الذي ولدته، فهـو عندما وضح أنه لن يعيش، جـرى تعميده ومنحـه اسم نيقـولا، وكان الايرل رتشـارد قـد ذهب في ذلك الحين إلى كورنوول، وعندما سمع بهذه الحادثة، شرع يبكي وينتحب بمرارة، وقد حزن عليهـا حزناً عظيماً، وعاد بكل سرعـة، وتدبر دفن جسدها المحترم بكل تشريف في بيوليو Beaulieu, وهو بيت كان الملك جـون قد أسسه وبناه، ومنحه إلى طائفة رهبان السسترشيان.

سماع صراخ مدهش في كثير من أجزاء انكلترا

وسمع في هذه الآونة، صوتاً مخيفاً، وكأن جبلاً ضخماً قد رمي بعنف عظيم وسقط وفي وسط البحر، وقد سمع هذا في أماكن كثيرة، كل واحد منها بعيد عن الآخر، مما أرعب كثيراً الحشود التي سمعته.

شكاوى الأساقفة حول الظلم الذي لحق بالكنيسة

في ثمانية عيد الغطاس، اجتمع في لندن رؤساء الأساقفة، والأساقفة مع عدد كبير آخر من النبلاء، وكان النائب البابوي أيضاً حاضراً، وقد قدموا للملك شكاوى جادة عرضوها في بلاطه، حول المضار والمظالم، والأذى اليومي الذي ينزل بالكنيسة ويمارس ضدها، بوساطة آراء الملك غير العادلة، وأن ذلك جاء بمثابة معارضة طائشة لصكوك امتيازاته ويمينه، وأنه لم يسمح للكنائس المحرومة من رعاتها باستردادهم، وباستعادة أنفاسها، وسبب ذلك هو استخراج مقتنيات الكنائس منهم، حيث أنه احتفظ بهم بين يديه لعدة سنوات، مستخدماً حججاً متنوعة، وهو لم يسمح بإجراء انتخابات قانونية، وقد أعلنوا جميعاً أنهم مندهشين كثيراً تجاه هذه الأضرار، التي تتضاعف يومياً، وقد نزل ذلك بهم عندما —الملك— أقسم مراراً على المحافظة على امتيازات الكنائس من دون خرق، وقد فعل ذلك، أثناء السماع، عندما كان شخصياً يحمل شمعداناً، فوقتها تفوه جميع الأساقفة بقرار الحرمان الكنسي ضد الذي يخرق الامتيازات اللاهوتية، وفي أثناء إكمال إلقاء ذلك القرار، قام الملك مثل الآخرين فأدار الشمعدان نحو الأسفل وأطفأه، وكان هناك ثلاثين عنواناً في شكاوى الأساقفة ضد الملك، وذهبوا بعيداً إلى حد إعلان القرار المرعب والتفوه به ضد جميع مستشاري الملك، الذين كانوا يسعون إلى تحويل عقل الملك وإدارته نحو التجاوزات المتقدمة الذكر.

الحزن المضاعف لـ غ. G الإيرل مارشال

وجّه الملك في هذه الآونة اتهاماً إجرامياً ضد الايرل مارشال، حول بعض الأمور الشاذة التي أعتقد أنه من الأفضل السكوت عنها، وعدم ذكرها، وبسبب هذه التهم أثير حزن المارشال إلى درجة مضاعفة، لأنه من الجانب الأول حزن لإعادة ذكرى وفاة أخته اللامعة، أي إيزابيلا المتقدم ذكرها، والآن بسبب إحياء اضطهاد الملك ضده، وجرى على كل حال تعيين يوم يقوم فيه بالإجابة على بنود الاتهام ضده، وكان ذلك في ثمانية الفصح، التي تدعى عادة بشكل عام باسم Pasucha. Clausum

مذنب

وأثناء هذه الأيام، وبشكل محدد، خلال شهر شباط كله، ظهر نوع من النجوم كان مظلماً، في المساء، في الجزء الغربي من السماء، وكان يرسل أشعة نحو الشرق، وقد أعلن كثيرون بدون تردد أنه مذنب.

الامبراطور ينتقد الملك لسماحه بنقل مال من أراضيه من أجل إلحاق الأذى بهما معاً

وقبل انتهاء أعمال المؤتمرالمتقدم الذكر، قدم رسولان من عند الامبراطور إلى الملك، أرسل الامبراطور بوساطتهما رسالة إلى الملك مكتوبة، بأنه مندهش جداً لأنه سمح هكذا بشكل مهين للامبراطور للتعرض بصورة غير معقولة لعقوبة الحرمان الكنسي، في بلد هو أكثر البلدان تمسكاً بالمسيحية، وأن ذلك تمّ من دون أية معارضة من جانبه، ودون أن يتذكر المعاهدة والتحالف الذي دخلا به أثناء زواج ايزابيلا، التي هي الآن امبراطورة، وبذلك سمح لوضعه ولاسمه الجيد، كأمير أعلى، بالتعرض للذم، وبناء عليه طالب بطرد الذي ساعد على هذا العمل، أي النائب البابوي، الذي استدعاه الملك بشكل غير حكيم إلى

مكلتـه، بطرده من المناطق الانكليـزية لأنه أعلن عنه عـدواً له وكـذلك لملكة انكلترا، ذلك أنه جـرف بشكل وقح جميع الأمـوال التي وصل إليها ومن كل واحد وصل إليه، وذلك من أجل إشباع نهم البابا، ولكي يلحق الأذى بالمقام الامبراطوري.

وإلى هذين الرسولين أجاب الملك، بأن واجبه كان إطاعة أوامر البابا والكنيسـة، وأن يبادر إلى ذلك ويفعله، أكثـر من طاعة أي أمير آخـر في العـالم، وبـذلك يستطيع أن يبرهن بأنه تابـع اقطاعي للبـابا يـؤدي إليـه الجزية بموجب الامتيـاز، وهكذا بقيامه بهذا الاعتـذار، قد جلب الاتهام ضـد نفســه، وأمل بأن يحصل على رضـا الامبراطور، فكتـب إلى البـابا يرجوه بحـرارة، بسبب عواطف الامبراطور نحـوه وقرابتـه، أن يتعامل معه باللطف، وعنـدما وصل هذا إلى البابا، انفجـر غاضبـاً بعنف وتفوه بكلمات الملامة التالية:

«في الحقيقـة لايمكـن العثـور على رجل صــادق واحـد في انكلترا»، وكـان رجـلاً واقفـاً هناك، فعقب على كـلامـه وكأنـه يدافع عن الملك، حيث قال:

«أيها الأب المقــدس، حـول هذا لاتعجـب، إذا لم يضع ملك انكلترا الثقـة في رعـاياه الانكليـز، بل وضعهـا في الأجـانب، لأنه لايوجـد بين الانكليز واحد أهل للثقة»، ويقال بأن الرجل الذي تفوه بهذه الكلمات، هو سيمـون النورماني، واستثير المعلـم روبرت دي سمركـوت Smer Cote وغضب غضبـاً عظيماً بسبب الكلمات التي جـرى تبـادلها من على الطرفين، لكنه —بحكم كـونه رجـلاً حكيماً— ضبط نفسه، خشيـة أن يتـولى النقد، لأنه كـان رجلاً انكليـزياً من حيث المولد، لكنه مـرتبط باخــلاص إلى البـابا، الذي عمـل منه كـاردينالاً، على الـرغم من جميع الاعتراضات عليه.

النائب البابوي يرفض العودة إلى وطنه على الرغم من انذاره بفعل ذلك

وصار الملك، يتوقع، نتيجة لما حصل، وقوع شيء في المستقبل له، لأنه اتخذ صديقاً مقرباً إليه من مثل هذا العدو السري للمملكة، أي النائب البابوي، لذلك نصحه بإخلاص، بعدم إثارة غضب الجلالة الامبراطورية بالاقامة مدة أطول في المملكة، بل عليه عبور الألب في أقصى سرعة ممكنة وفي أقرب وقت، والقيام بالتشاور مع البابا، وعلى هذا ردّ عليه النائب البابوي قائلاً:

«إنك أنت الذي دعوتني من بلاطي، وأنا أطالبك بأمان، حتى أتمكن من العودة سالماً»، أما بالنسبة لرسولي الامبراطور، اللذين أشرنا إليهما من قبل، فإنهما عندما علما بجميع هذه الأشياء، عادا إلى مولاهما لإخباره، بجميع مارأياه وماسمعاه، لأنهما كانا أشبه بجاسوسين عاقلين.

النائب البابوي يظهر نفسه جامعاً للمال لايتعب

ولم ينس النائب البابوي، في الوقت نفسه، عمله الخاص، بالاستيلاء على الأموال وعلى الموارد لصالحه الشخصي، مرغماً الناس على أن يدفعوا ضرائبه الاضطهادية، وفي حوالي أيام عيد بشارة القديسة مريم، أرسل أوامر دقيقة إلى الأساقفة، ورؤساء الشمامسة، كان نصها هو التالي:

رسالة النائب البابوي

«من أوتو، الذي هو برحمة الرب، إلخ، إلخ، إلى الرجل المستقيم، كذا وكذا أسقف، أو رئيس شمامسة، تحيات:

تقديراً لحكم الضرورات، ولرسالة أرسلت من الحبر الأعظم، نحن سنطيل إقامتنا هنا، وبما أننا لانستطيع القتال على نفقتنا الذاتية، نحن نأمركم ونطلب منكم، بموجب سلطات المنصب الذي نشغله،

وباسمنا، أن تتدبروا جمع أموال الوكالات التي هي حق لنا في أسقفيتك، أو رئاسة أسقفيتك، وأن ترسل إلينا بأسرع وقت ممكن، وضبط جميع المعترضين بوساطة الروادع الكنسية، شريطة أن لاتتجاوز كل وكالة، في أي حال من الأحوال، مبلغ أربعة ماركات، وإذا لم تتمكن كنيسة واحدة من تقديم مبلغ وكالة، يتوجب اتحاد كنيستين مع بعضهما بوكالة واحدة.

صدر في لندن، في هذا اليوم الخامس عشر من شباط، في العام الثالث عشر من حبرية صاحب القداسة، البابا غريغوري».

في سبيل استخراج المال الرومان يعفون الصليبيين من عهدهم

تلقى في هذه الآونة، النائب البابوي أوامر من البابا، بموجب خطة ماكرة أخرى، لاستخراج المال من أتباع الكنيسة، وهذا ماتوضحه محتويات الرسالة التالية، إلى القارىء الحريص:

«إلى الأسقف كذا وكذا، وإلى جميع أولاده المحبوبين، وإلى رؤساء الشمامسة في أسقفيته، تحيات:

لقد تلقينا رسالة من صاحب السمو النائب البابوي، مقصدها ومحتواها هو مايلي: من أوتو، إلخ: لقد عرفنا بأن بعض الصليبيين من مملكة انكلترا، الذين هم غير لائقين للقتال، قد ساروا إلى المقام الرسولي، حتى يجري هناك تحليلهم من عهدهم للصليب، وبما أننا تلقينا مؤخراً رسالة من البابا، بأنه يتوجب علينا ليس فقط تحليل هؤلاء الأشخاص، بل أن نرغمهم على انقاذ عهودهم، ونحن نرغب أن نوفر عليهم الاضطراب والنفقات، بموجب فضيلة المنصب الذي نشغله، ولذلك نطلب منكم، ونأمركم أيها الأب المقدس، بأن تتولوا الإعلان عن السلطة التي منحت إلينا من قبل الحبر الأعظم، من دون تأثير في أسقفيتكم، حتى يتمكن الصليبيون المتقدم ذكرهم من نيل

الفرصة المتوفرة، وأن يقدموا إلينا لتسلم المنفعة في هذه القضية، وفقاً للصيغة التي أرسلت إلينا. صدر في لندن في الخامس عشر من شباط، في العام الثالث عشر من حبرية صاحب القداسة البابا غريغوري».

الإيرل سيمون يحضر نفسه من أجل رحلته إلى القدس

في الأول من نيسان لهذا العام، وصل سيمون دي مونت فورت، إيرل ليستر، واستقبل بتشريف كبير من قبل الملك، ومن قبل بلاطه، ثم إنه ذهب نحو ممتلكاته، وباع غاباته وأراضيه، وجمع المال لشراء الضروريات من أجل رحلته، لأنه كان على وشك المغادرة إلى القدس، في العبور المقبل، أما زوجته التي كانت حاملاً، فقد بقيت في القارة، ثم باع الايرل الغابات الفخمة العائدة لليستر إلى الاسبتارية، وإلى كهنة ذلك المكان، وتسلم حوالي الألف باوند من أجلهم.

خلاف بين سكان أوكسفورد والباحثين فيها

وفي تلك الآونة نفسها، نشب خلاف جاد بين الباحثين في أكسفورد وبين سكان المدينة، وبناء عليه، غادر عدد كبير من الباحثين تلك المدينة وذهبوا إلى كليات كمبردج، حيث حصلوا على منحة بعض الامتيازات ضد البورجوازية، وحصلوا على صك الملك من أجلهم.

منع بعض القرصان من الدخول إلى انكلترا

وفي هذه الآونة أيضاً، كان الملك متيقظاً، فقد فتح عينيه، ومنع القرصان من الدخول ثانية إلى ممتلكاته، وبشكل خاص شعب السين Sens, الذين لوثوا بلاده الجميلة، بوساطة مصادراتهم غير العادلة، ورباهم السري، ولقد غضبوا وحزنوا لمجرد التفكير بفقدان مثل هذه البلاد المغذية الجيدة فقاموا عن طريق تقديم الأموال، الأمر الذي يرضي بالعادة الرجال الأشرار وغير العادلين، فبقيوا هناك بشكل سري،

وبأعداد كبيرة.

وفاة للويلين ونشوب خلاف بين أولاده

في الحادي عشر من نيسان من هذا العام، الذي وافق عيد القديس غوثلاك Guthlac, غادر الجسد للويلين، أمير شمالي ويلز، وكان ذلك بعدما أخضع غريفين Griffin, الذي رفع كعبة وشن الحرب ضده، وبعدما نشر السلام في المناطق الويلزية العائدة له، وإثر وفاته، قام ابنه داوود الذي إليه عيّن والده امتلاك ويلز، ولتكون ميراثه، وذلك مع موافقة أخيه الأسن غريفين، قام بنوايا خيانية، فاستدعى أخاه —غريفين المذكور— للاجتماع به، وبناء عليه، قدم بشكل مسالم، تحت جوار أسقف بنغور Bangor وبعض النبلاء الآخرين، ولكن داوود على الرغم من علاقة الأخوة، ومن الثقة الحسنة، أمر به فاعتقل، وأودعه السجن على الرغم من اعتراضات الذين منحوه الجوار.

الملك يتدبر تدشين ولاية ابنه ادوارد

وفي هذه الآونة جعل الملك سكان لندن، والمتولين للموانىء الخمسة، مع عدد كبير آخر، يقسمون يمين الولاء إلى ابنه الأسن ادوارد، وكانت في هذه الآونة أيضاً قد راجت تقارير أفادت بأن الداشيين Dacians يعدّون العدة لغزو انكلترا، لكن هذه الأخبار صدرت عن شيء لم يتجاوز أنهم كانوا، يستعدون في سفن محملة بالناس من كلا الجنسين، لسكنى المنطقة التي تعرضت للدمار على أيدي التتار، وزراعتها، وإعادتها للاستخدام من قبل المخلوقات البشرية.

تحليل بعض الصليبيين من عهودهم بدفع مبلغ من المال

بدأ الآن رهبان ووعاظ الفرنسيسكان، ورجال دين آخرون، ولاسيما اللاهوتيون، بتحليل الصليبيين من عهودهم، مقابل تسلم مبلغ من المال

من كل واحد منهم، بدا أنه كان معادلاً لما كان سينفقه الصليبي لشراء الحاجات الضرورية لرحلته، ونتج عن ذلك قيام فضائح كبيرة وانشقاقات كثيرة بين الناس، لأنه بدا أنه من غير المعقول، حتى بالنسبة لأبسط الناس عقولاً، المصائد المتنوعة التي سعى البلاط الروماني بوساطتها لتجريد شعب الرب الساذج من حاجاته الأساسية، حيث كان يسعى وراء شيء واحد فقط هو الذهب والفضة.

البابا يستخرج جزء الخمس من ممتلكات المنتفعين الأجانب في انكلترا

واقترح البابا الآن، وقرر استخراج جزء الخمس من ممتلكات وموارد منافع الأجانب ورجال الدين في انكلترا، في سبيل اغضاب الامبراطور، الذي كان محاطاً بالمخاطر من جميع الجهات من قبل أعدائه، الذين دعمهم البابا بالمال الذي جمعه عن طريق الاستخراج في انكلترا، كما أنه تابع العمل في تحليلهم جميعاً من التابعية التي كانوا مربوطين بها بالولاء للامبراطور المذكور، وبذلك ثبتت هذه العداوة المرعبة، وازدادت يوماً إثر يوم، وأيضاً قال المستشارون المخلصون للملك:

«مولانا الأكثر شهرة وسيدنا، لماذا سمحت لانكلترا لأن تكون مسلوبة ومنهوبة من قبل هؤلاء الذين قدموا إلى هنا، وجعلتها مثل كرم بلا سور، نهباً لكل عابر، وأن يتعرض للاجتثاث من قبل الأرانب البرية، مع أنك تمتلك امتيازاً فعالاً بمنع مثل هذه الاستخراجات في هذه المملكة، والذي هو غير جدير بذلك الامتياز، هو الذي يسيء استخدامه، بعدما منح إليه»، وعلى هؤلاء الذين نصحوه هكذا ردّ الملك قائلاً: «إنني لاأرغب كما أنني لاأتجرأ على معارضة البابا في أي شيء»، وبذلك استولى على الناس يأس محزن جداً.

قسوة الأنواء

في اليــوم الذي أعقـب عيــد القــديسين بيربتــوا Perpetua وفيليسيتاس Felicitas (٧- آذار) هبت عواصف من الـريح قوية إلى أبعد الحدود وعنيفـة، أحدثت الاضطـراب في الأجواء كلهـا، وكان من بين نوادر عجـائب الوقـائع، أنها حملت حجـرة، من الصعب على رجل قوي رفعها من على الأرض، حملتهـا من رأس الكنيسة إلى مسافة بعيدة جداً عنها.

النائب البابوي يسعى إلى إرغام الأساقفة على دفع جزء الخمس من مقتنياتهم

اجتمع في هذا العـام رؤساء الأسـاقفـة، والأساقفـة، ورؤساء رعـاة الديرة مع بعض نبلاء المملكة، في ردنغ، لسماع رسـالة من البابا، أعلنها النائب البابوي، وعندما اجتمعوا كلهم هناك، قام النائب البابوي بعمل قـداس طويل، حـاول فيه استمالة قلـوب الذين استمعوا إليـه، ثم قـام أخيراً فبين لهم جميع أنواع المصـاعب التـي يعـاني منهـا البـابا، في سبيل الحصول على العـدالة للكنيسة، فطالبهم بإلحاح بدفع جـزء الخمس من جميع مقتنياتهم، فبـذلك يستطيع أن يصدّ الأذى الصـادر عن مثل ذلك العدو القوي، وعلى هذا ردّ الأساقفة —بعـد عقدهم مؤتمراً للتشاور— بأنهم لن يستطيعــوا مطلقـاً تحمل مثل هذا العبء الثقيـل جـداً، الذي يتعلق بالكنيســة كلهـا أيضـاً، من دون حـوار دقيـق، وتقليب لأوجـه الأمور طويل، وبناء عليه جـرى تحديد يوم لهم، في تاريخ بعيد، للحوار حول هذه الرسالة الهامة.

قيام الإيرل رتشارد بوداع الأساقفة الذين اجتمعوا في ردنغ

وقام الايرل رتشـارد، والفرسـان الصليبيون الآخرون، الـذين كانوا حضوراً في هذا المكان، فقالوا وداعاً لجميع الذين اجتمعوا هناك، لأنهم

كـانوا جـاهزين للشروع برحلتهم إلى القـدس، وعندما رأى الأسـاقفـة هذا، انفجروا كلهم يبكون، وقالوا للايرل رتشارد:

«لمـاذا أيهـا الايـرل، ياأملنـا الوحيـد تتخـلى عنا؟ أو بسبب من أنت تهجـرنا؟ سـوف نكون معـزولين من دونك، ففي أثناء غيـابك سـوف يغـزونا الأجـانب الطامعـين»، ثم إن الايـرل، ردّ وهو يبكـي عـلى واحد منهـم، وهـو رئـيس أساقفـة كانتربري ممثـلاً للجميع قائلاً:

«أبانا ومولانا، تريد الصـدق، إنني حتى وإن لم أحمل الصليب سوف أذهـب، وأغيـب نفسي، حتى لاأرى الشرور التـي لحقـت بشعبنـا، ولا الدمار الذي ألمّ بالمملكة، الذي من المعتقـد أنني قادر على منعه، مع أنني في الحقيقة، أنا غير قادر على فعل ذلك».

تكريس الهيكل الجديد

وجرى في هذه الآونة تكريس كنيسة الهيكل الجديد في لندن، وكانت مبنى مشيداً بطريقة رشيقة، وجرى التكريس بحضور الملك مع كثير من نبلاء المملكة، وفي اليوم نفسه، الذي كان يوم الصعود، وبعد الفراغ من الأعمال الوقـورة للتكـريس، جـرت حفلة ووليمـة كبيرة على نفقـة الاسبتارية.

إعدام عدد من قطاع الطرق

وفي اليـوم الذي أعقب هذا الاحتفـال المهيب، جلبت رؤوس عشرة من قطاع الطرق، كـانوا قد اعـدموا في المناطق الشمالية من انكلترا، إلى لندن، وكان واحـد منهم اسمه جـون أوف أكتون Acton, قد قيل بأنه كان مقدمهم وقائدهم.

وفاة إيرل وارني

ووقع في هذا العـام وليم ايرل وارني Warrenne مـريضـاً في

لندن، وقد مات في السابع والعشرين من أيار.

جواب المحكمة حول الميراث الذي ينتقل إلى الأخوات

أرسل في هذا العام موريس فتزجيرالد، المسؤول عن العدالة في ايرلندا، أربعة فرسان إلى بلاط الملك وطالب بمعلومات حول القضية المذكورة أعلاه [فتلقى الجواب التالي]:

«من هـ . H بفضل نعمة الرب، إلخ، إلى المسؤول عن العدالة في ايرلندا، تحيات:

قدم إلينا مؤخراً بعض الفرسان من مقاطعة ايرلندا، وأوضحوا لنا بأن رجال عدالتنا، الذين يتجولون في تلك المناطق، هم غير متأكدين في القضية المتعلقة بالميراث الذي ينتقل إلى الأخوات في مملكتنا في ايرلندا، حيث توجب على الأخوات الأصغر أن يستحوذن على ممتلكاتهن من الأخت الأسن، وأن يقدمن الولاء من أجل حصصهن، أو من سيدهن الرئيسي، وأن يقدمن الولاء له، وبما أن الفرسان المتقدم ذكرهم قد سألوا عن العادة الجارية في مملكتنا في انكلترا في القضايا المماثلة، رأينا —بناء على طلبهم— أن نخبركم، بأن القانون في مملكتنا هو كما يلي:

إنه إذا ما كان هناك مستحوذ منا بشكل رئيس وكانت له بنات ورثة، سوف تكون إجراءاتنا عند وفاة الأب، هو أننا سوف نتسلم بشكل دائم الولاء من جميع البنات، وهن في هذه الحالة إفرادياً وجماعياً يستحوذن منا بشكل رئيسي، وإذا ما كن تحت السن، علينا تقع المسؤولية عنهن وكذلك تزويجهن، وإذا ما كن مستحوذات من أي شخص غيرنا، وكانت الأخوات تحت السن، فإن مولاهن يمتلك الوصاية وتزويج كل واحدة منهن، وسوف تقدم الأخت الكبرى فقط الولاء لمولاهن عنهن جميعاً وبالنسبة للأخريات، فعندما يبلغن السن، فسوف يقدمن خدماتهن إلى السادة أصحاب الاقطاع، بوساطة يد أختهن الكبرى، وسوف لهذا

السبب لن تفرض الابنة الكبرى الولاء، أو الوصاية، أو أي نوع من أنواع الطاعة الأخرى، على الأخوات الأصغر، لأن جميع الأخوات هن ورثة متحدين لملكية واحدة، وإنه إذا ماسمح للأخوات الكبار بتسلم الولاء، أو الوصاية من الأخوات الأخريات، فإن الملكية نفسها سوف تتقسم، وبناء عليه فإن الأخت الكبرى سوف تكون فوراً وبالوقت نفسه السيدة والوارثة لإقطاعية واحدة، أو على الأقل الوارثة لحصتنا وسيدة لأخواتها، وهذا أمر في هذه الحالة لايمكن أن يكون، لأن الأخت الكبرى لايمكن أن تطالب بأي شيء أكثر من الأخت الصغرى، ما لم تكن الدار الكبرى تحت عنوان الأسن، وإلى جانب هذا، إذا كانت الأخت الكبرى ستكون الوارثة لجميع الأخوات الأخريات، إذا ما متن من دون ورثة خاصين بهن، وإذا كانت تمتلك الوصاية على أخواتها، أو على أولادهن، فإن ذلك سوف يكون مثل إعطاء حمل ليجري افتراسه من قبل الذئب، وبناء عليه إننا نأمرك في هذه الحالة، بأن تأمر بمراعاة هذه العادة المتقدم ذكرها كما نراعيها نحن في مملكتنا في انكلترا، وأن يجري الإعلان عنها، وتطبيقها بدقة، كما ذكرنا أعلاه، في مملكتنا في ايرلندا. شهدت بنفسي في نورويك، في هذا اليوم الثالث عشر من آب، في السنة الرابعة والعشرين من حكمنا».

إلغاء إدعاءات رئيس الأساقفة من قبل الملك

كان في هذه الآونة، إدموند رئيس أساقفة كانتربري آملاً، ومتوقعاً بثقة، أن ينال المساعدة نفسها أو مايماثلها، كما نالها الشهيد المبارك توماس —الذي هو سلف رئيس الأساقفة المذكور— من البابا الاسكندر، صاحب الذكرى الطيبة، فقد بدأ برسائل حزينة، وبرسل خاصين، بعمل شكاوى محزنة، بها كان واثقاً من التمكن من تحويل القلب الحجري للبابا إلى قلب حي، وقد رجاه وحثه على إلغاء تلك العادة المرفوضة والمدمرة للكنيسة، التي بوساطتها يقوم الملوك، لابل

الطغـاة، ومن خلال أعـداء الكنيسـة والمتمرديـن ضدها، بعـدم السماح للكنائس الكاتدرائيـة والديرية، المحـرومة من رعـاتها، بالتنفس، ولا أن تزود أنفسهـا بشكل حـر وقـانوني برعـاة مـوائمين، وأن لايقـوم الملك، بإتباعـه لرغباته بدلاً من إتباع عقله، بإعـاقة انتخابهن، بوساطة وكـلائه الماكرين الذيـن احتفظ بهم من أجل هذه الغاية، وأنه إذا مـا كانت هناك أية كنيسة بين الكنائـس قد حرمت من راعيهـا وبقيت شاغـرة لمدة ستة أشهـر، يتوجب تزويدها براعي صـاحب كفـاءة من قبل رئيس أساقفـة المكان، ولكن عندما كـان إدموند المذكور كبير التـوقع والثقة بأن يصبح —من خلال الوعود المخادعة للبـلاط الروماني— توماساً جديداً، ومن خلال جهـوده المجيدة، سـوف يجري تدمير العادات الشريرة في انكلترا، وأن البـابا غـــريغـوري سـوف يتقمص شخصيـة الاسكنـدر، بالنسبـة لتوماس المبـارك، الذي كان رفيقه بالمنفى ومساعـده، فلقد تبين أن البابا غـريغوري المذكـور هو رجل جبـان، فبناء على رسالة وصلتـه من ملك انكلترا، أعلن فيهـا أن هذا كان معـارضاً لكرامتـه الملكية، وقـام بنقض جميع المقـاصـد التقوية لذلك الـرجل وألغاها، وهو المقصـد الذي كـان رئيس الأساقفة المذكور، قد حصل من أجله على رسائل من البابا مقابل انفـاق كبير من المال، ولدى اكتشاف الملك لهذا، أصبـح طاغية أكثـر مما هو معتاد، ففرض انتخاب بونيفيس Boniface, وذلك على الرغم من امتيـازات كنيســة وستمنستر، وأعـاق الانتخـابـات الأخـرى التي عملت بشكل محق وبتقوى مهيبة.

رئيس الأساقفة يمنح جزء الخمس من جميع الموارد إلى البابا

وعندمــا كـان في هـذه الآونة عقل رئيس أسـاقفة كـانتربري، الذي هو رئيس جميع الأسـاقفة، في حـالـة شـك وأمــل، بالنسبـة للحصـول على غـاياتـه، أي الحصـول على النصر في قضيتـه ضـد الـرهبـان، وافق —وإن كــان بغير رضـاه — على طلــب منـح جزء الخمـــس مـــن

مــوارده، وقام بمبـادرة طيبـة، فـدفع إلى وكلاء الجبـاية البـابوية، مبلغ ثـمانمائـــة مـارك، قبـــل استخـــراجهـــم منه بالقـــوة، وعنـدما رأى الأســاقفـة الآخـرون لانكلترا هذا، كـانوا مرغمين على تحمل خســارة مماثلة.

غاسكوني في خطر

وفي هذه الآونة، بعـدمـا جرى طرد كـافل المملكة في غـاسكوني من تلك المقـاطعـة، قـدم وهو يبكي ويشتكي إلى الملك، مخبراً إياه أنه مـا لم يتخذ إجراءات فعالة سريعة، في سبيل الحفاظ على تلك المنطقة، وإبقائها بين يديه، إنه بـلا شك سـوف يخسر جميع ممتلكـاته هناك في وقت قصير جداً.

الامبراطور يستولي أثناء زحفه إلى المدينة على عدة مدن أخرى

وكـان الامبراطور قد عمل في هذه الآونة هدنة، أو على الأقل نوعـاً من أنواع إيقـاف القتـال، مـع الميـلانيين والبـولونيين، فعـاث فسـاداً في المقـاطعـات الواقعـة في أحـواز المدينة، وكـان محاطاً بجيش كبير، وأنزل المدن والبلدات إلى طاعته، وأخذ السكـان مثلاً لهم بسكان فيتربو، وفقد البابا آنذاك كل أمل ووقع في متاهة اليأس، وكثير من الكرادلة تخلوا عنه وهجروه، وفي الحقيقة لم يبق بينهم ولا واحد تابع اتباعه، باستثناء المعلم روبرت سمـركـوت Summercote, الذي لم يكن بإمكانه التخلي عنه خجـلاً، لأنه هو الذي صنعـه كـاردينالاً، وجـاء تخلي الكرادلة عنه، لأنه كـان قـد تطرف كثيراً بعنفـه لوحـده، بدلاً من ضبط نفســه بالعقل والحكمة.

الامبراطور يوجّه اللوم إلى ملك إنكلترا لأنه سمح بنشر القرار ضده وبجمع الأموال في أراضيه

وفي هذه الآونة نفسها، أرسل الامبراطور رسالة إلى ملك انكلترا بأنه

مندهش إلى أبعد الحدود، لأنه قام هكـذا بشكل غير حكيم فوزع أمواله بين الأجـانب، لإلحاق الأذى به، وهو الامبراطـور، وكتب إليـه رسـالة جاء محتواها كما يلي:

«**من فردريك، الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى الـلامع ملك انكلترا، تمنيات الصحة وعواطف صادقة:**

بما أن التحـالف والزواج يعقد التحـالفـات أحياناً بين ملوك وأمـراء العـالم، فإن العـواطف، أو الاتحاد، بناء عليـه، ينبغي أن يكون قـائماً فيما بينهم، وذلك بنسبـة تصـاعـدية، بما أنهم أعظم من الآخـرين، وكلما ازدادت علواً المكانة التي وضعـوا فيهـا، كلما توجب عليهم أن يضربوا مثلاً بالفضـائل للذين هم دونهم، وعندما يشـاهدون إجماعهم وإرادتهم الطيبة، فإن السـلام والوئام يزداد قـوة بين الناس، وبذلك يزداد الحفاظ على مكانتهم المحترمـة وتزداد حقـوق ممـالكهم قـوة من أجل المستقبل، ونحن نعتقد حتى الآن، أنه من خلال قرابتنا سوف تقوم المنافع من هذا النوع لكل منا ولكم، (ولاسيما وأن الأطفـال، وهم الروابط المقـدسـة، سـوف يرعون ويجري بهم تثبيت رباط قـرابتنا) غير أننا وجـدنا العكس تمامـاً لنوايانا، ولذلك إننـا نكتب إليكم مكرهين، ونحن آسفين، عـلاوة على ذلك لقد وجدنا بأنكم عبرتم بعين الرضا واجتزتم بالأذى الواضح الذي أنزل بنا من قبـل الحبر الرومـاني، والذي اعتقـدناه أنـه غير مـؤيد تمامـاً، بالنسبـة لنا نحن الذين فـوق جميع أمـراء الأرض الآخـرين، هو أنكم سمحتم لقـراره غير العادل والكريـه ضدنا، أن يجري بمعـرفتكم، وعلى مسمع منكـم، نشره في جميع أرجـــاء مملكتكم، ممـا سبب ضرراً كبيراً، وإهانة، وحطـاً من شأن الامبراطورية، والآن قـــد علمنا مــاهو حقيقة مؤكدة، أنك في طاعتك المفتونة، لهذا العدو المميت لنا، والمتشوق لتـدمير شرفنا، والمتعطش لدمنا، قـد سمحت بمـوارد المال، من مكوس

وتبرعــات، أن يزود بها، في سبيــل القتــال ضــدنا، وذلك مــن كنائس مملكتك، ومن أسلافـك (الذين تجبرنا مصاهرتنا على عـدّهم أسلاف لنا أيضــاً) التي أصبحت غنيــة من عطايـاهم التقــوية، وبناء عليــه، دع حكمتك الملكية، عندما لاتكون منحرفة بـوساطة النصائح الماكرة، تقدر فيما إذا كـان لائقاً بكم تعـريض ابن ختن لكم، وأخ لكم، أو على الأقل حليف، أو في جميـع الأحــوال ملـك أو أمير، ضـــده لم تعلن الحرب، تعريضه للهجوم، والحرب ضده بوساطة المساعدة بمالك، علماً بأن ذلك مخالف لشريعة وعادات الممالك، ومـاهي الفوارق فيما إذا كنت قد متنت دفاعـات عدونا بالذهب والفضـة أو بالسلاح من خـلال وساطتك، أو أنك توليت الاضرار بنا؟ وخــاصــة كما نعلم من خـلال التجــربة أنك لاتستطيع ايقافَ يد المساعـدة له بشكل فعال عن طريق السماح بتزويده بالمال من مملكتك، الذي وعـد بأن يجند به مرتزقـة للميلانيين وللخـونة الآخرين ضــدنا، والذين يسعى بوساطتهم لاغـواء أعواننا المخلصين لنا بالتخلي عن ولائهم لنا، وهكذا تمكن بالبرطلة والرشوى من شراء ولاء بعض ضعفاء الرجال، مما سبب الحطّ من سمعتهم واظهار ذلك، وليس أقل من هذا هلاكهم الأبدي.

وباسم الرب، لاتدع أيها الأخ العزيـز، أن يتأسس بوساطتك —على أقل ليس ضدنا— قيام الملوك بشكل جائر بالقتال من قبل الملوك، كما عليك أن لاتدع نير الحكم البابوي يضغـط بمثل هذه الشدة على عنقك لملكي، إلى حـــد يجعلك ترى أنـه مما يبعث السرور العظيـم في نفسك لاسـاءة إلى عقائـد الانجيل، وقـوانين الطبيعة، وإلحاق الأذى بجـارك، بابن ختنك، لابل بأخيك، وبشكل خاص في الحالة الحاضرة، فأنت إذا اقمـت بتقـدير المسألة بشكـل حكيم وعن قـرب، فإنـك سـوف تجد قضـة ليست لصـالحنا وليست لصـالحكم أنتم أنفسكم، ولا لصـالح ـك والأمراء الآخرين العرضة للخطر نفسه.

وبناء عليه، إننا بهذا الغرض، نسألك بعاطفة صادقة، ونرجو جلالتك المخلصة، بحكم تقديرك لعواطفنا ولشرفنا، أن تقوم بشجاعة وبثبات، بأن تعارض ببراعتك وقوتك، تلك الإجراءات التي نخشى أنها سوف تلحق ضرراً كبيراً بقضيتنا، وأن لاتسمح بحمل أية أموال إلى البلاط الروماني، جبيت من الموارد، والضرائب، والتقدمات، أو من المصادر الأخرى لمملكتك، وإنك لست أنت ولا هو لائق بك، أن تتغاضى أو أن تخدع، أو أن تمر عبر هذا دونما اهتمام، مثلما هو غير لائق بنا أن نقبل تقديم أية مساعدة يمكن أن تطلب منا، أو بوساطتنا لتستخدم ضدك، أو أن نسمح بتقديمها بأية طريقة من الطرق، وغير هذا، من الممكن في حالة مشابهة أو قضية أكثر عدلاً، أن نحتذي بمثلكم، فنقدم المساعدة ضدكم وضد مملكتكم، وهو مارفضناه حتى الآن، وتمنعنا عن تقديمه للذين لهم مشاكل معكم، وإلى الذين هم مرتبطين معنا بروابط عاطفية قديمة، وانظر إلى البابا، في متابعة الدفاع عن قضيتنا العادلة، قد وجد الحظوة لنفسه لديكم، في حين هو لم يقدم إليكم شيئاً ولاعلاقة له البتة معكم، سوى أنه يتبجح —وهذا مانقوله ونحن نشعر بالخجل— بأن له سلطة السيد الاقطاعي عليكم.

وفيما يتعلق بجميع القضايا التي جرى ذكرها أعلاه، وكذلك في سبيل تأدية خدمات أخرى لنا في أراضيك، قد أرسلنا هـ . H شالبوست Chalbost, وهو فارس، وتابع مخلص لنا، فهو الحامل لهذه العروض إليكم، ونحن نرجوكم بكل اخلاص، ونسأل عاطفتكم، أن تصدقوا من دون تردد كل مايمكن أن يقوله لكم باسمنا وبالنيابة عنا، كما لو كنا نحن أنفسنا موجودين، وأن تنفذوا مطالبنا، وأن تعطوه جواباً دقيقاً، ونهائياً، حول الذي قررتموه، وجرى ترتيبه من قبلكم بشأن القضايا المتقدم ذكرها، لأننا نرغب في حالات الطوارىء أن نكون على

دراية، وأن نعرف من الذي يمكن أن نتوقع منه النصيحة، ومن الذي ينبغي أن نكون حذرين منه».

وعلى كل حال جرى تشويه الرسالة الشفوية التي عهد بها الامبراطور إلى الرسول المذكور هـ . شالبوست، مع الرسالة ذات اللهجة الصديقة، التي أوردناها أعلاه، وكثير من الأشياء حذفت ولم تذكر من قبله، ومهما يكن من أمر، كتب الملك له جواباً، بيّن فيه أنه لايتجرأ على معارضة البابا، وأنه مندهش إلى أبعد الحدود، أن أخته الامبراطورة، لم يجر تتويجها بعد بأبهة في الأماكن والمدن المعتادة للامبراطورية.

وصول كونت فلاندرز إلى انكلترا

قدم في خلال هذا العام، توماس كونت فلاندرز، الذي هو عم الملكة، إلى انكلترا بأبهة عظيمة، وكان ذلك بعد حصوله على إذن من الملك الفرنسي، ولدى وصوله، استقبل ليس فقط من قبل الملك ورجال بلاطه، بل من قبل حشد كبير جداً من سكان لندن، وهم على ظهور خيول مزينة بشكل فخم، مع الأبواق وكل مظاهر السرور والبهجة، وقد استقبل في لندن بكثير من التشريف، وأثقل بالهدايا، وأعطاه الملك على الفور خمسمائة (أو كما قال بعضهم ثلاثمائة) مارك من الأموال الاستيرلينية الجديدة، وعمل له منحة بالمبلغ نفسه سنوياً للعشرين سنة المقبلة، وذلك تقديراً للولاء الذي قدمه له الكونت المذكور، وبعد الفراغ من تسوية هذه القضية، توجه الكونت إلى ويندسور، ليزور حفيده الطفل ادوارد، ابن الملك، وعاد بعد هذا على الفور إلى فلاندرز، لأن الإذن بغيابه كان محدوداً بوقت قصير من قبل الملك الفرنسي، وعيّن قبل مغادرته المعلم هنري الفلاندري، وكيلاً له ليتسلم الهدايا التي منحت إليه، وقام الملك على الفور بمنح بعض الموارد اللاهوتية، فصارت فجأة من نصيب الكاهن هنري المذكور، ولدى تحميل الكونت

المذكور بالهدايا الثمينة من الملك، بدأ بإثارة الحرب في مقاطعاته، وحشد بعض الجنود المرتزقة والأتباع التي استأجرهم مقابل أجرة، وبعد حشده هكذا لجيش كبير، في وقت قصير من الزمن، هاجم الأسقف المنتخب لليبج، الذي كان من حزب الامبراطور، ومن أقربائه، وهاجم أيضاً بعض الآخرين التابعين للامبراطورية، الذين كانوا —بناء على أوامر الامبراطور— قد بقيوا مع الأسقف المنتخب المذكور.

كونت فلاندرز يشنّ الحرب على الامبراطور

وعندما سمع صاحب الجلالة الامبراطور بإجراءات الكونت، أرسل إلى المذكور رسالة تهديدات مرعبة، ليتوقف عن إجراءاته الطائشة والجريئة، وإذا لم يتوقف —وذلك على عكس ما يستحقه الامبراطور منه— وتابع مضايقته، وهو المنزعج بسبب كثير من القضايا القاسية، وباغضاب البابا له، وكذلك إذا لم يتوقف عن مضايقة حلفائه، وبشكل خاص الأسقف المنتخب لليبج، الذي هو صديقه وقريبه، والذي دعي إلى مقامه بشكل محق، وإذا لم يتوقف عن إثارة الاضطراب للامبراطورية، هو قد أمر أيضاً دوقي لوفيان Louvain وبرابانت وآخرين من الجيران الأقوياء، بالقيام بالتصدي لحملات كونت فلاندرز واضعافها، ثم إنه كتب أيضاً إلى كونت بروفانس، الذي كان من المعروف أنه من حزب الامبراطور، يأمره بحكم كونه حليفه المخلص بأن يتصدى لخطط كونت فلاندرز وأن يحبط محاولاته، وهي الخطط والمحاولات التي حرض عليها الكونت المذكور برعونة،ولكن بما أن هذين النبيلين: كونت بروفانس وكونت فلاندرز رفضا إطاعة أوامره، كتب الامبراطور إلى كونت طولوز، يأمره تحت طائلة آلام العقوبة المحقة، بأن يشن الحرب ضد كونت بروفانس، الذي تاه عجباً وصار عاصياً بسبب ابنتيه الملكتين، ورفض معاقبة كونت فلاندرز، وقام الامبراطور نفسه بإرسال مساعدة مؤثرة إلى كونت طولوز، من أجل

مضايقة كونت بروفانس، وقام النبيل المتقدم ذكره على الفور بإطاعة أوامره.

إخفاق محاولات كونت فلاندرز

ثم وجد كونت فلاندرز أن حملاته الطائشة والجريئة قد أخفقت في تحقيق الآمال الفعالة التي بنيت عليها، وأن قوة الامبراطور كانت أكثر ثباتاً ضده، وأصبح أكثر خوفاً من تهديداته، وقد أخبر بطرق عديدة بوفاة أخيه وليم، الذي جرى انتخابه من قبل حزب البابا، فأوقف بمهانة الحرب التي دخلها بشكل غير حكيم، وذلك بعد انفاقه مبلغاً كبيراً جداً، وبعدما أثار كثيراً من الأعداء ضده نفسه، ولأن الكونت المذكور كان عائداً لمملكة فرنسا، التي تدخلت وقدمت الحماية له، فقد أخفى مشاعره بالانتقام لبعض الوقت، مقرراً —على كل حال— أن يسدد له في بعض الوقت المستقبلي.

الحرب بين كونتي طولوز وبروفانس

وكان كونت طولوز على استعداد أكبر لإطاعة أوامر الامبراطور، ومرد ذلك إلى الأذى الذي غالباً مالحق به على أيدي الفرنسيين، وقد نهض وانبعث شخصياً بناء على استدعاء الامبراطور وزحف برغبة ونشاط ضد كونت بروفانس، الذي أنزل به أضراراً لاتعوض، وقام كونت بروفانس على كل حال بالفرار، ووضع نفسه تحت حماية الملك الفرنسي، ورجاه بتواضع، بسبب مكانة واحترام الملكة الفرنسية التي هي ابنته، بأن يعطيه مساعدة فعالة، لأنه يوجد في أفينون وبشكل خاص في المقاطعات الواقعة على الرون، بعض النبلاء الفرنسيين، الذين قدموا إلى هناك مع لويس الملك الفرنسي، والذين كانوا قد استولوا بالقوة، على بعض القلاع، والبلدات، والمدن، وانتزعوها من لويس المذكور، وذلك بناء على تحريض من البابا وبمساعدة منه، ومايزالون يحتفظون بهم بالقوة، وهم منتزعين منه، وعندما سمع هؤلاء الرجال

بأن أبا الملكة قـد نال السـوء في الصراع، وأنه كـان يستجدي المسـاعـدة بسبب محبة الملكة، ولكي يتمكن من استرداد أنفـاسه احتشدوا، وطاروا إلى السلاح، لمسـاعدة كـونت فلاندرز، وكان كـونت طولوز —على كل حال— على دراية بخططهم، فنصب كميناً لهم، وواجههم بقوة عظيمة، وقتل عـدداً منهم بحـد السيف، وصـدّ محاولاتهم حسبما رغب وأراد، ونجحت الحملة على يديه نجاحـاً كبيراً، حيث تمكن في وقت قصير من الاستيلاء على حوالي عشرين قلعة، وانتزاعها من الفرنسيين ومن كونت بروفـانس، وبعـد طـرده للعصـاة المتملكين لهم، أعـادهم إلى حكمهم السالف.

ملك انكلترا يكتب إلى الامبراطور لصالح كونت بروفانس

وعندما سمع ملك انكلترا بأن كونت بروفـانس قد عانى من خسارة كبيرة في هذا الصراع المدمـر، قـام بناء على ضغط ومبـادرة من الملكة، فكتب إلى الامبراطور، بطريقة صـديقة، ورجاه من أجل خـاطر القرابة، التي هي بالعـادة توحد الأمـراء، وبحكم رحمته الامبراطورية، أن يقـوم بتوفير كونت بروفانس والحفاظ عليه، لأنه والد زوجته.

الملك الفرنسي يشنّ الحرب على كونت طولوز

وعندمـا سمع الملك الفـرنسي، القـوي جـداً، بالأضرار الكبيرة التي أنزلت برعيتـه، ولأنه اعتقـد بأن هذه الأضرار قـد نزلت به ولحقت من قبل الامبراطور، انفجـر غاضباً بعنـف، ضد الامبراطور، وكذلـك ضد كـونت طولوز، ورغـب باستخـدام كل الوسـائل لترميم خسـائـره وأضراره، وأن يعـاقب هذه الأعمال الطائشـة، فقـام بوسـاطة تراخيص ملكية، وبسرعة رهيبة، بحشد جيش كبير مـن نبلاء فرنسا، وذلك بقدر مـاستطاع، ولكي لايندفع هؤلاء النبـلاء، وينزلقـوا في صراع طائش متسرع، قاموا بتـواضع مناسب، فسألوا الامبراطور نفسه، عما إذا كانت

الحرب قد تأصلت من قبله، وفي الوقت نفسه، وبسبب خسائر جيش الملك في الأرض المقدسة، ولكي لايخسر البقية بالتعرض للجراحة، أرسل ملك فرنسا سبعمائة من الفرسان مع عدد أكبر من الأتباع لصدّ حملات الأعداء في بروفانس.

تبرئة الامبراطور

وهكذا وجّهت الملامة إلى الامبراطور، ووصل الأمر إلى حد اتهامه بالاجرام، فأنكر ذلك كله بشدة، وقال بأنه لم يخطر بذهنه قط، تعريض أي واحد من المملكة الفرنسية للأذى من قبله، لابل كان هو بالحري على استعداد للوقوف ضد أعداء تلك المملكة، وعن طواعية وبرجولة للقتال ضدهم، لأنه يعرف أنهم لايستحقون شيئاً آخر منه، وقال بأنه «بعيد عن تعويض الخير بالشر، لكن إذا كان هناك بعض الأشخاص الفرنسيين المجاورين لأراضي كونت طولوز، قد قاموا إرضاء منهم للملكة بمهاجمة عدو أبيها، وذلك بشكل متسرع وبلا حكمة، وأقدموا من دون أمر من مولاهم الملك بشن الحرب علينا، فقام شعبنا الذي تعرض للأذى، بصدّ هذه الحملات، وانتقم للأضرار التي كانت غير متوقعة، فلا عجب في ذلك، يضاف إلى هذا أنه ليس هناك من شك، بأن الذين عملوا الشر أولاً قد أثاروا المخاطر الأولى، والأضرار الأولى،وبناء عليه يتوجب عليهم بقدر ماتوفر لديهم من قدرة، إعادة الممتلكات التي جرى الاستيلاء عليها من الجانبين، وعمل ترضية من أجل جميع الأضرار، حتى لاتتمكن بذور الخلاف التي زرعها عدو الجنس البشري من النمو والتكاثر بين مثل هذه الشخصيات المتميزة، ولكي لايمتلك أعداؤنا المسوغ لتهنئة أنفسهم بسبب خلافاتنا»، وعلاوة على ذلك صرح كونت طولوز إلى ملك فرنسا، بأن الامبراطور كان على غير دراية بما حدث، وبذلك برأه.

-٧٠٩١-

ولادة ابنة إلى الملك الفرنسي

ومنح الرب في هذه الآونة ابنة إلى الملك الفرنسي، من زوجته م. M, ليزيد من قوة مملكته وهنائها.

مذبحة مريعة للصليبيين في منطقة دمشق

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الأحداث في فرنسا، عانى قومنا —تحت طالع غير سعيد— من خسارة محزنة لجيشهم في دمشق، وشملت الخسارة الرجال، والخيول، والسلاح، والكرامة، وهو ماسنرويه بأسف، وكنا قد علمنا به من رسالة هي التالية:

«من الصديق كذا إلى الصديق كذا، تحيات: ليكن معلوماً من قبلكم بأن كونت بريتاني قد قام بغارة بوساطة الفرسان، أمام دمشق، وحصل على أسلاب كثيرة، جلبها سليمة إلى الجيش، وغار منه ايرلا: بار، ومونتفورت، ودوق بيرغندي، فقاموا بعد مضي ثمانية أيام بغارة أخرى، مراغمة لنصيحة كونت بريتاني، وفي هذه الغارة تعرض للقتل ايرل بار، واللورد سيمون دي كليرمونت، واللورد جون دي باري Barre, وروبرت ماليت، ورتشارد دي بيومونت Beaumont, وعدد كبير آخر، ووقع ايرل أماريك دي مونتفورت بالأسر، واقتيد بعيداً، وحمل إلى القاهرة، كما حدث أيضاً بالنسبة لدوق بيرغندي».

وفي الوقت نفسه، وصلت الرسالة التالية من ايرل أوف مونتفورت إلى زوجته الكونتسة وقامت هي بتحويلها إلى الايرل رتشارد:

«ليكن معلوماً لديكم، أن دمشق لم يتم الاستيلاء عليها، كما ذكر من قبل، بل عاد الجميع إلى عكا، وإلى جانب هذا عليّ إخباركم بأن الملك الفرنسي قد نقل جميع أمواله من الهيكل، لأن الداوية والاسبتارية قد رفضوا مساعدة الفرنسيين في هذه الأزمة، وينبغي أيضاً أن تعلموا بأن

ستين قد أسروا وهم أحياء، ثم بعد ذلك أثناء عودتهم، وقع عشرة نبلاء وفرسان واعدين في الأسر.

الامبراطور يحزن لسوء حظ الصليبيين

وعندما سمع الامبراطور بهذا، حزن كثيراً من أجل الصليبيين، مع أنهم رفضوا نصيحته الصحيحة بعدم الابحار من دونه، وكتب على الفور رسائل تهديد مرعبة إلى المسلمين في دمشق وكذلك في القاهرة، يمنعهم —إذا كانوا يقدرون حياتهم— من الإقدام على إساءة معاملة النبلاء الصليبيين، العبيد المحبوبين من الرب، الذين يحتفظون بهم أسرى، خشية أنه عندما سينقض عليهم ويهاجمهم بقواته المرعبة، وبنسوره المخيفة والمنتصرة، وقتها سوف يشعرون بالانتقام الامبراطوري، وبغضب الرومان وامبراطورهم، الذي غالباً ماتلطخت سيوفه بالدماء الشرقية.

رسالة الامبراطور حول القضية المذكورة

«من فردريك الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى هنري اللامع، ملك انكلترا، وابن ختنه المحبوب، تمنيات الصحة والعواطف الصادقة:

إن الكارثة العامة، وسوء الحظ المبكي للصليبيين، في مقتل الجيش النبيل للصليبيين، الذي وقع مؤخراً في بلدان ماوراء البحر، بانقلاب للحظ غير متوقع، نحن نبكي بحزن داخلي، وبإخلاص وباستحقاق أعظم، لأننا كنا نرى ذلك ونخشاه قبل مغادرتهم، وكان عقلنا يتوجس من المخاطر التي كانوا سيواجهونها، وكان حدسنا القائم على المواسم والأحداث، يقودنا، حتى عندما كانت أحوالهم متقدمة، لأن نرى سلفاً بمشاعر قلقة مصيرهم الحالي، ونحن نعتقد أنه ليس سراً بالنسبة لسموكم المخلص، كيف أننا حصلنا على خبرة حول مكر المسلمين، في

تلك البلدان في هـذه الأيام، وكنا نرغـب بتـوقعـات قلقـة أن نكون مستعـدين للمستقبل، خشيـة أن يكـون الحظ قـد أعـدّ لهم شيئاً ليس لصـالحهم، وهـم الذين كـانوا جـاهلين بالأعمال، ويقـومـون بـالوفـاء بعهـودهم من دون التقصي المستحق والمتـوجب، ولـذلك قمنا بوسـاطة رسائل متـوالية، ومبعوثين خـاصين من قبلنا، فحثثنا مقدمي الصليبيين، وبعد ذلك جماعتهم كلهـا، ليقوموا بتأخير مـوعد جـوازهم، لأنه عندما تتهيأ الفـرصة المناسبـة وتقـوم، إما أن نكـون نحن شخصياً، مستعـدين لمرافقتهـم وقيادتهم، أو اننا كنا سنرسل ولدنا معهم للانقـاذ، وذلك فور تمكننا بأية طريقـة من الطـرق من تسـوية الأعمال الصعبـة، التي كـانت آنذاك تتطلب اهتمامنـا الطارىء في ايطاليـا، لأنـه ليس بإمكاننـا توريط أنفسنا بشكل مفيد باهتمامـات أخرى، حتى نتمكن من تحرير أنفسنا من الأعمال التي كنا متـولين القيـام بها، لأننا عندمـا نكون متحـررين من المسألة الأولى، يمكننا بسهولة معالجة الثانية.

ومع أن الصليبيين أفـراداً وجميعـاً، قـد قبلوا بنصـائحنا الصحيحـة، والتـزمـوا بخطتنا، التي لم يكن لها غـايات مـاكـرة أو سرية، حمّـل الحبر الرومـاني الحالي كلامنا وأعمالنا تفسيراً شريراً، وكأن الخطر سـوف يحيق بديانتنا وبالإيمان الكاثوليكي، بتأخير القضية حتى وقت موائم، فحرض الصليبيين وحثهم بوسـاطة إنذارات متـواليـة، وأوامـر وتهديدات حتى يقومـوا بالعبور، وذلـك وفقاً لكلمات الكتابـات المقدسة: «وضـع أعباء ثقيلة على الآخرين، وهي التي لايمكنه أن يحركها باصبعه».

وعندما علمنـا بهذا وعرفناه، قمنا بالتماسـات متوالية، ورجـونا الحبر المذكور أن لايثق بالتقلبات وأن لايعهد لمخاطرات الحظ مثل هذه المهمة العظيمة، التـي تتطلب آراء محكمة، ووقتـاً موائماً، واستعـدادات عظيمة بالرجـال والأشياء، وليس تسرعـاً ليس حميـداً، بتعريض خـدمة يسـوع المسيح للخطر، وكـذلك مساعـدة الأرض المقدسـة، التي ألهبت قلوبنا،

وكـــذلك قلوب كثيريـن، ومثل هذا العـــدد العظيم مـن الناس، ولفتنا انتباهه وذكرناه أن ترميم مثل تلك الخسـارة الكبيرة وتداركها ليس أمراً هيناً، ورجوناه أيضـاً أن لاينظر إلى وعدنا بتقديم مسـاعدة كبيرة في هذه المسألة، على أنه كـلام عابث، لأننا أملنا، بوسـاطة شخص ولدنا، الذي هو رعيـة لنا أن نتابع بكل جهـودنا خدمـة يسوع المسيح، والدفـاع عن الأرض المقـــدســـة، وتولينا تذكيره بحقيقـــة أن السفـك الهائل لدمـــاء الصليبيين، في كثير من المعارك المتعـاقبة في الماضي، قـد حقق قليلاً —أو لم يحقق شيئاً— من المنـافع في هذه القضـــايا، لأنها غـالبـــاً مـــا أعيقت بوساطة نقص الرجـال والأشياء، وكانت الحشـود في بعض الأحيان من دون قـائد حـريص وصـاحب نفـوذ، فبـوساطتـه من الممكن أثناء قيـام الخلافات بين عـدة مقدمين، أو أن تقـاعس واحد منهم قـد يمنعهم من اغتنام منفعة الفرص الموائمة، أو توفر الحاجة لضبط سفاهة كثيرين، هو يمكنه أن يخدم مصـالح كل من الحملة والأفـراد، إذا مـا احتفظ بالآراء الصحيحـــة من أجل لحظة منـاسبـــة أكثـــر، ووقتهـا مـن الممكن عمل استعدادات وافرة، وتحت قيادة قائد واحد شديد، هو ضروري للحشد، يمكن وقتها للـديانة المسيحية أن تتقدم أولاً بـالوقت نفسه، نحـو الغاية المرجوة، وأن تستقر واثقة بنصر مضمون.

وقد عدّ هذا الحبر الروماني جميع هذه الأشياء، بلا قيمة كبيرة، ونظراً لكراهيتـــــه لنا، ولكي يتمكـن من تـدمير العمل كلـه، أصر بعناد على الصليبيين بوجـوب الاقلاع، من دون أن يعطي تقـدير إلى ان الصليبيين الذين بقيوا في المناطق الأجنبيـة، كانوا مع أعـداء الصليب المانح للحياة مستقرين بسلام تبعاً لشروط الهدنة التي عملت معنا، وأنه إذا ما خرقت المعاهدة بوسـاطة أية حركـة من قبل الصليبيين، فإنهم سوف يتعـرضون لمخـاطر السيف والجوع، لأنه من غير الممكن ارسـال مسـاعـدة سريعـة إليهم، أو تأمين المؤن إليهم.

وعلمنا أخيراً بأن البابا قد بعث ثانية رسائل إلى الصليبيين، يأمرهم بالقيام بالعبور، فكتبنا رسالة إليهم، بأن يقوموا بالزحف خلال مملكتنا إلى مكان ابحارهم، وأننا كنا مستعدين بسرور وبكرم لمساعدتهم إلى أقصى مانمتلكه من قدرة، وقد عبر بعضهم من خلال مملكتنا في صقلية، ومن هناك أبحروا، بينما اختار آخرون العبور بوساطة طريق مرسيليا، ولهذا انتصرت الآن يد عدونا العام على مثل تلك الآلاف المؤلفة من الفرسان، الذين كرسوا أنفسهم لخدمة الأرض المقدسة، مع أننا ينبغي أن نبكي في مقتلهم من الإهانة التي أنزلت بيسوع المسيح شفيع البشرية، وأن نبكي على المسيحية كلها، ونحن نشعر في قرارة أنفسنا ونتعاطف مع ما عانوا منه، وللأذى الذي لحقهم، وبشكل خاص بسبب خسارة أولئك الجنود الشجعان من مملكة فرنسا، فهذه المملكة قد عانت من خسائر قاسية أكثر من البلدان الأخرى.

ونحن على كل حال لانسمح للخسارة أن تكون بلا وسائل تعويض، ولا للحزن أن يكون بلا مواساة، لأننا سوف نسهم بسرور وبكرم من أجل مساعدة الأرض المقدسة، وسنقدم كل ماتسمح به عظمة الامبراطورية، وبقدر ما تأذن لنا الحالة العاصفة للأحوال في الوقت الحالي، التي تسببت بالنصيحة الفاسدة للحبر الروماني، وكذلك غضبه، ونحن نعتقد، لو أن سلطان مصر، والد السلطان الحالي، مازال حياً، لقام إنطلاقاً من عواطفه الطيبة التي اعتاد أن يبديها نحو شخصنا الملكي، فتولى تلبية طلبنا بالنسبة لمسألة الفرسان النبلاء، الذي وقعوا أسرى أثناء الحروب، ونحن على كل حال سوف نستخدم اهتمامنا الخاص ووسائلنا مع السلطان الحالي، في سبيل اطلاق سراح هؤلاء الأسرى النبلاء، علاوة على ذلك نحن نرغب إليكم أن تضعوا ثقتكم الدقيقة وأن تعتمدوا على كل ما سوف يخبركم به عنا وليم دي كومبيسا Compesa, وهو فارس، ومن رعيتنا المخلصين لنا، حيث أننا

اعتدنا أن نرسله في خدمتنا بمثابة رسول إليكم. صدر في فوجيا Foggia, في هذا اليوم الخامس والعشرين من نيسان، في العلامة الثالثة عشرة».

الامبراطور يسترد عواطف كثير من الناس وعقد مجمع عام

وعندما باتت محتويات هذه الرسالة معروفة، استرد الامبراطور قلوب كثير من الناس، مع أعداد كانوا من قبل متقلبين بعواطفهم واحترامهم له، وقد بدأوا بالوقوف إلى جانبه، وبدأ رجال الشعب الروماني —على الرغم من وعود البابا— يقفون بثبات إلى جانب جلالته الامبراطورية، وأعطاه الشيوخ ذوي الأصول النبيلة المشهورة عهودهم، واجتمع بناء على ذلك شيخ كان قد أوجده الامبراطور في روما في السنة الثالثة قبل هذه، والكرادلة، وأعلنوا أنهم ما عاد بإمكانهم تحمل عنف البابا، مما ألحق الخطر بالمسيحية كلها، ولذلك بيّنوا إلى البابا، بناء على طلب الامبراطور، وموافقته، أنهم استجابة لطلبه، يرغبون بعقد مجمع عام بشكل موائم في أسرع وقت ممكن، وتقرر أن يكون يوم الفصح المقبل الموعد لعقد المجمع، حيث بها أن الرب قد قام ثانية في ذلك اليوم، يمكن للكنيسة أيضاً أن تقوم ثانية في ذلك اليوم، وتتنفس بحرية، وبسعادة.

ختان صبي في نورويك من قبل اليهود

وفي هذه الآونة ختن اليهود طفلاً مسيحياً في نورويك، وبعدما ختنوه أطلقوا عليه اسم يورنين Jurnin, ثم إنهم احتفظوا به ليصلبوه، في محاكاة تأملية لصلب يسوع المسيح، وتمكن والد الطفل —على كل حال— الذي منه سرق اليهود الطفل، بعد بحث متواصل، وبعد طويل وقت من اكتشافه، حيث كان مسجوناً لدى اليهود، فصرخ بصوت مرتفع وأشار إلى ابنه، الذي اعتقد بأنه قد ضاع، لكنه كان محبوساً في

غرفة واحـد من بيوت اليهود، وعندما وصلت أخبـار هذه الجريمة غير الاعتيادية إلى علم وليم دي ريلي Rele, وكان أسقفـاً، ورجل دين حكيم ويقظ، وإلى مسـامع بعض النبـلاء الآخـرين، قـام باعتقـال جميع اليهـود في تلك المدينة وسجنهم، حتى لايتم اهمال هذه الإهانة الموجهـة إلى المسيح من دون عقـوبة مـن خـلال اهمال المسيحيين، وعندمـا رغب اليهـود في وضـع أنفسهم تحت حماية السلطات الملكيـة قـال الأسقف: «هذه قضـايا عـائـدة إلى الكنيسة، وعنـدما تقـوم قضيـة تتعلق بالختـان وبإهانة الـدين، فهي لاتقـرر من قبل بلاط الملـك»، وبناء عليـه تبين أن أربعة من اليهـود كانوا مجرمين باقتراف الجريمـة المتقدم ذكـرها، فجرى أولاً سحلهم بعـد ربطهم إلى ذيـول الخيـول، ثم جـرى تعليقهم على المشانق، حيث لفظوا مابقي من حياتهم التعيسة.

تكريس هـ . H بيتهول واستخراج الموارد

في الأول من تموز في هذا العـام جـرى تكريس هيـوج دي بيتهـول Pateshull, الأسقـف المنتخـب لكـوفنتري وليشفيلـد، وتـولى التكريس إدموند، رئيس أسـاقفة كانتربري، في رئاسة الـرهبانية الجديدة قـرب غـولدفـورد Guildford, وجـرى تعيين وليم دي هيفـرهل Haverhull, وكـان كـاهناً في كنيسـة القـديس بـولـص في لنـدن، خـازناً في محل هيوج المذكـور، وفي هذه الآونة أيضـاً جـرى عقد أكثـر الاتفاقيـات ظلماً بين البابا وبين الـرومان (كما روي) وكان الإتفـاق، أنه حيثما كـانت هـناك منافـع في انكلـترا، يمكـن للبـابا أن يوزعهـا، ولاسيما منافـع رجـال الدين، ينبغـي توزيعهـا بين أبنـاء الرومـان وأقـربـائهم، وفق رغبـاتهم، على شرط أن يقـومـوا برأي واحـد ضـد الامبراطور، وأن يسعـوا لخلعـه من العـرش الامبراطوري، وهكذا استحـوذوا لأنفسهم، السمعـة المحترمة لجرأتهم القـديمـة، وبناء عليـه، أرسل البـابا، بعد مضي عـدة أيام، تراخيصه المقـدسة إلى إدمـوند رئيس

أساقفة كانتربري، وإلى أسقفي لنكولن وسالسبري، يأمرهم الإعداد لثلاثمائة روماني لشغل المنافع الأولى التي سوف تشغر، وجعلهم يفهمون أنهم معطلون عن إعطاء أية منفعة حتى يتم الإعداد بشكل موائم للعدد المطلوب، وتجاه هذا الأمر تملكت الدهشة قلوب الجميع، وخافوا من أن الذي تجرأ على فعل مثل هذه الأشياء، سوف يغرق في أعماق اليأس.

رئيس أساقفة كانتربري ينفي نفسه

ورأى إدموند رئيس أساقفة كانتربري، الذي كان قد خضع —بإرادة أو بدون إرادة— إلى الاستخراجات البغيضة، المتقدم ذكرها، ودفع ثمانمائة مارك إلى البابا، رأى الآن أن الكنيسة الانكليزية يداس عليها كل يوم أكثر فأكثر، وأنها كانت تحرم من ممتلكاتها، وتجرد من امتيازاتها، لهذا بات قلقاً من أن يعيش ليرى مثل هذه الشرور على الأرض، ولذلك بعدما طلب الإذن من الملك، وبعدما حصل على أجوبة غامضة، غادر البلاد، محرضاً من قبل هذه الأضرار المتنوعة، وأبحر إلى فرنسا، حيث اتخذ مقراً له مع حاشية صغيرة في بونتني Pontigny, وهو مكان كان سلفه القديس توماس قد عاش به في منفاه، وشغل نفسه في الصلاة والصوم.

إصرار أحد الهراطقة

وفي هذه الآونة كان هناك رجل، قد تظاهر بأنه رجل شريف وصاحب حياة متشددة، وكان يرتدي ثياب طائفة رهبان الكارثوشيين Carthusian, وقد جرى اعتقاله في كمبردج، لرفضه دخول أية كنيسة، وعندما سئل عن هذا الجنون، أجاب بطريقة ملتوية، فجرى حبسه والتضييق عليه، وبعد مضي عدة أيام أرسل إلى النائب البابوي، من أجل سجنه في برج لندن، لأنه أعلن صراحة التصريح

التالي:

«غريغوري ليس هو البـابا، وهو ليس رأس الكنيسة، بل هناك رأس آخـر للكنيسة، والكنيسـة قد تـدنست، والخدمات اللاهوتيـة لايجوز أن تعمل بها، مـالم يتم تكريسهـا من جـديد، وكـذلك أوعيتها ومـلابسهـا يتـوجب إعادة تكريسهـا، فالشيطان قـد أطلق سراحه، والبـابا هرطقي، لابل إن غريغـوري هذا الذي يدعى البـابا، قد دنس الكنيسـة والعالم»، وسمع النائب البـابوي هذا، وكـان ذلك بحضـور ر. R راعي دير إيفهـام، والمعلم ن. N دي فينهـام Finham, مع المعلمين ب. P أوف بوردو، وهـ . H أوف سوسـا Susa, وعدد كبير آخـر، وقـد قالـوا لهذا الرجل المجنون: «أولم تمنح السلطة من عليين إلى البابا بـربط الأرواح وحلها، وأيضاً بشغل منصب القـديس بطرس على الأرض»؟ وبينما كان الحضور ينتظرون جـوابه، معتقدين أن الحكم عليه يتـوقف على جـوابه لهذا السـؤال، عمـل تأكيـداً لكن على شكل سـؤال حيث قال:

«كيف يمكنني أن أعتقـد هذا برجل هو مجرم بالسيمـونيـة، والربا، وربما متورط بجرائم أكبر، وقـد منحت السلطة نفسها عندما منحت إلى القـديس بطرس، عندمـا أصبـح رسـولاً للرب، وتبعــه، ليس فقط في رحـلاته وأسفاره، بل أيضـاً في اشراقه وفضـائله»؟، ولدى سماع النائب البـابوي لهذه الكلمات أظهر عـلامات الخجل، وعمل واحـد من الذين كانوا جالسين من حوله التعليق التالي:

الذي يتصارع مع الحمقى هو مطلقاً غير حكيم

فهو مثل الذي ينظر في الفرن حيث يجرح عينيه

وفتح هذا الرجل شفتيه الملـوثتين بتجديفات أخـرى، لأنه قال للذين استجوبوه:

«إنني أقر بجميع مبادىء الإيمان، ومع هذا أؤكد بأن المسيح أخذ شكل الجسد في العذراء»، وعندما سألوه عما إذا كان يعتقد أنه اتخذ شكل الجسد من العذراء، أجاب بعد بعض التردد: «هذا مالا أقوله»، ذلك أنه لو عمل ذلك التأكيد، لبرهن بشكل واضح على أنه هرطقي، وذلك كما قال الرسول: «ابنه عمل من امرأة»، وحول هذا النص قال الكاهن بيد المبجل:

«عليهم عدم الاصغاء إلى الذي يعد التفسير هو أنه: ولد من امرأة عملت في ظل الشريعة، بل عمل من امرأة، وهو الذي استمد الجسد في رحم عذراء، ليس من لاشيء، وليس من مصدر آخر، إلاّ من جسد أمه، وإذا كان الأمر غير ذلك لما كان قد دعي باسم ابن الانسان، بكل صدق، وذلك إذا لم يكن قد استقى أصله من انسان، وبناء عليه إننا نقف ضد ماقاله يوتيخيا Eutyches, وجميع الأشخاص المفتونين على هذه الشاكلة، الذين أكدوا أنه لم يأخذ الجسد فقط في امرأة، بل من امرأة، هي العذراء مريم، ولو كان الأمر غير ذلك لما كان رحمها قد بورك، ولاثدييها اللذين رضع منهما».

موت ج إيرل لنكولن

وفي الثاني والعشرين من تموز لهذا العام، الذي وافق عيد القديسة مريم المجدلية، غادر ج. J ايرل لنكولن طريق الجسد، بعدما عانى من مرض طويل.

الملك يرسل قضاة ليقوموا بجولة في إنكلترا

وفي هذه الآونة، أرسل الملك قضاة ليقوموا بجولة في جميع انكلترا، وقد ارتحلوا وسافروا في جميع المناطق العائدة إلى الملك، مصححين تجاوزات الكثيرين، وتحت حجة إدارة العدالة، جمعوا مبالغ ضخمة من المال، من أجل استخدام الملك، الذي بدّد كل شيء، وقد عهد بالأجزاء

الشمالية من انكلترا إلى كفالة وليم أوف يورك، رئيس كنيسة بيفيرلي Beverley وأتباعه، كما أنه عهد بالمقاطعات الشمالية إلى روبرت أوف ليكسينغتون Lexington وزملائه، وفي هذه الآونة أيضاً، أرسل النائب البابوي مبلغاً كبيراً من المال مع كاهن من عنده اسمه مومل Mumel, إلى البابا، الذي تسلمه بسرور، ثم أعاد الرسول ليتسلم المزيد.

استخراج بغيض للمال من قبل البابا

انبعثت الآن في انكلترا طرائق جديدة، ولم يسمع بمثلها حتى الآن، لاستخراج المال، لأن أبانا المقدس البابا أرسل مستخرجاً للمال اسمه بطرس لي روج Rouge, إلى انكلترا، وكان بارعاً في استخراج المال، بطرائق لايمكن تصورها، من الانكليز التعساء، فقد ذهب إلى مقار هيئات رجال الدين، وأرغمهم أو أكرههم على الوعد بالمال، وعلى دفع المال عندما وعدوا، وذلك مثل بقية القساوسة، حيث أكد كاذباً بأنهم دفعوا المال برضاهم، ذلك أنه قال:

«إن الأسقف كذا والأسقف كذا، وكذلك راعي الدير كذا وكذا، قد لبوا طلباتي بإرادتهم، فلماذا أنتم هكذا متقاعسين كسالى، وكأنكم تريدون فقدان شكركم ومثوبتكم»؟ وجعلهم هذا الأفّاق أيضاً يقسمون أنهم سوف لن يعلموا أي شخص خلال مدة نصف عام، بطرائق استخراج المال التي مارسها، وبتصرفه هكذا تبع خطة لصوص البيوت الذين يستخرجون الوعود من الفئة المنهوبة، بعدم الكشف عن أسماء الذين سرقوهم إلى أي واحد، لكن صحيح أن الرجال سوف يلتزمون بالصمت، إن حجارة الكنائس سوف تصرخ عالياً ضد الذين يسرقونها، كما أنه من غير الممكن ابقاء هذا العمل الشرير في الظلام، لأنه إلى متى يستطيع القساوسة استخراج المال من الذين هم رعية لهم، مالم يخبروهم بأسباب المطالبات؟

-٧١٠٢-

شكوى رعاة الديرة إلى الملك
حول عملية الاستخراج المتقدمة الذكر

وبناء عليه ذهب رعـاة الديرة إلى الملك وهم يتشكون بوجوه عـابسة قائلين:

«ياصاحب الجلالة لقد ضربنا ولم يسمح لنا بالتشكي ضد ذلك، وقد قطعت أعناقنـا، فنحن لانستطيع أن نصرخ، وعـدم الامكان والعجـز فرض علينا من قبل البابا، وجرت ممارسة عمليات الاستخراج البغيضة في جميع أجـزاء العـالم، وبـارونيـاتنا التي بين أيدينا هـي منك، ونحن لايمكننا افقـارهن من دون إلحاق الأذى بك،وبالتالي لايمكننا اجـابتك بالنسبة للعجز الذي لحقنا بهن، وفي الوقت نفسه ارضاء الاستخراج غير المتـوقف للبابا، لأنه بهذه الوسيلة جـرى اختراع أساليب جـديدة للظلم من قبل الرومان، وهذه الأسـاليب تقوم دوماً بشكل غير متـوقع ضدنا، وبذلك لاتسمـح لنا بالتنفس بحـرية، ولاحتى لوقـت قصير، ولذلك ركضنا للالتجاء إلى مشـورتك، وإلى صدرك الواقي، ونطلب نصيحتك ومسـاعـدتك في حالة الـدمار هذه»، وكـان الذين خـاطبـوا الملك بهذه الكلمات: راعي دير القـديس إدمونـد، وراعي دير بيوليـو Beaulieu, وعندمـا سمع الملك شكاويهما، نظر إليهما نظرةعـابسـة، ولإرعابهما دعـا بصـوت مـرتفع النائب البـابوي، الذي صـدف أن كان حـاضراً، وقـال مخاطباً له:

«انظر يامولاي النائب البابوي إلى هذين المغويين، إنهما يتوليان كشف أسرار البابا، مقدمين منفذاً للنقد واللوم، وليسا مذعنين لرغباتك، افعل معهما الذي يرضيك، ولقـد منحتك واحدة من أحسن قـلاعي لسجنهما فيها»، وعندما سمع الراعيان هذه الكلمات أصيبا بقرف لايمكن وصفه وبرعب، وقـد غادرا بعدمـا وعدا بإرضـاء النائب البابوي وبتلبيـة جميع

رغباته، وبعض رجال الدين —على كل حال— مع أنهم كانوا قلة رفضوا الاستمرار بالتردد، ورفضوا حني رقابهم لعبودية مثل هذه الحالة المزرية، ووقفوا صامدين في رفضهم الذي كان مطلوباً منهم، وبصعوبة جنبوا أنفسهم الخضوع بذريعة طلب وقت حتى يمنح لهم.

اجتماع للأساقفة في نورثأمبتون حول القضية نفسها

عندما فكر النائب البابوي، مع حليفة بطرس لي روج، بالتصرف وفق الطريقة نفسها مع الأساقفة الذين استدعيوا للاجتماع في نورثأمبتون لهذه الغاية، وجدوا هؤلاء قد تعلموا من قضية الراعيين فأجاباهما قائلين:

«لدينا رؤساء شمامسة خاضعين لنا، وهم الذين على دراية بمنافع رجال الدين الخاضعين إليهم، الأمر الذي نحن جاهلين به، وهذه القضية تخص جميع الفرقاء، ولذلك يتوجب اجتماعهم جميعاً مع بعضهم، وإنه ليس لائقاً ولا موائماً إعطاء جواب من دونهم»، وبناء عليه جرى تعيين يوم من أجلهم لإعطاء جوابهم، وأن يكون يوم عيد القديس يوحنا المعمدان، أي أن يكون ذلك في يوم عيد ميلاده، وبناء عليه، اجتمعوا كلهم بحضور النائب البابوي وأصحابه، وكانوا على غير استعداد للاستجابة للاستخراجات المتقدم ذكرها، وكانوا متصلبين وبدون خجل، ومصرين على رفضها وعلى عدم الموافقة عليها، ومع ذلك عارضوهم بطريقة لطيفة وحذرة، وترافعوا في ردهم بالاعتراضات المنطقية التالية:

اعتراضات الأساقفة على مطالب النائب البابوي

«لقد أفادوا أن عليهم عدم الاسهام، لسببين، أولها لأن الاسهام سوف يكون ضد واحد قد عمل تحالفاً مع أميرهم، ولأن هذا الاسهام قد عمل من أجل سفك الدم المسيحي، الأمر الذي هو واضح من كلام

مذكرات التراخيص الرسـولية التي ورد فيها كلمات: «لشن الحرب على الامبراطور»، وكذلك لأن الاسهام سـوف يكون مضاداً لحرية الكنيسة، وهذا أيضاً واضح من مغزى المذكرة نفسها، التي جاء فيها قوله: «ضبط جميع المعترضين بمــوجب الروادع الكنسيـــة»، وهذه عبـودية وإكــراه، وعلاوة على ذلك، لأنهم كـانوا قد أعطوا في وقـت آخر عشر ممتلكاتهم إلى البابا، مع اعتراض ضـد استخراج مماثل قـد عمل فيها بعد، وبمنطق أدنى عمـل الآن طلب أوجب دفع الخمـس، وأيضـــاً لوجـــود سبب للخوف من أن يصبـح ذلك عادة لأن العمل إذا ما عمـل مرتين يصبح عادة كما جاء في القانون قوله: «فيما يتعلق بالاجتماعات الأسقفية: ما من رجل بالقــانون، إلخ، إلخ»، وكـذلـك بسبب أنهم يرون من الضروري تســوية الأعمال في البـلاط الـرومـاني، الذي لايمكـن الوصـول إليــه، ولايوجد ممر مفتوح إليه إلاّ من خلال الأراضي الامبراطورية، وهم على هذا يخشـون من اعتقـال الامبراطور لهم، وايداعهم في السجن، ووقتهـا هم متأكدون من توفر عقوبة شديدة.

ومرة أخـرى، بسبب أن الملك له أعداء كثيرون، يتـوجب عليه تحمل أعباء الحرب ضـدهم، وخشية من وقوع الأسـوأ، لن يكون عملاً سليماً متـابعـة افقار البـلاد، خـاصـة وأنها الآن قد أفـرغت إلى حـد كبير من ثرواتها، وذلك لأن النبلاء قد انطلقـوا في حملة صليبية، وقد حملوا معهم كميات ضخمة من المال، من أجل الانفاق على رحلتهم.

ومجدداً إن هذا سـوف يتحـول إلى ضرر رعـاة الكنائس، ولاسيما أنه ليس من الواضح أنهم قـد وافقوا على التقـديمات المتقـدم ذكرها، ومـرة أخرى بسبب أن أوضـاع الكنيسة بشكل عام كـانت خطيرة، وبناء عليه ينبغي عقـد مشاورات عـامة، حتى يمكن عمل تقـدمة عـامة، إذا كـان ضرورياً في تلـك الحالة، وهي ليسـت الحالة الآن، لأن الأخبـــار قـــد تأكدت بأن مجمعاً عـاماً سوف يجري عقده، فيـه سوف يجري تقرير مثل

هذه القضايا، وإنه لمن الضروري أن يتقرر إزالة السبب العام للعدوان».

وعندما سمع النائب البابوي ورفاقه هذه الاعتراضات، أخفوا بصمت اضطرابهم، لكنهم قرروا أنه عندما تتوفر الفرصة، سيعيدون محاولة هذا ثانية، أو تدبر استخراجات أخرى من نوع مماثل.

النائب البابوي يجمع القساوسة في بيركشاير

وكان قد بقي لدى النائب البابوي وأصحابه بعض الأمل في تطويع آخرين للاستجابة لإرادتهم، ومن ثم اقناعهم بالمساهمة، فجمعوا قساوسة الكنائس في بيركشاير Berkshire وجمعوا آخرين، حثوهم بكثير من الحجج، وأضافوا التهديدات إلى التهديدات، والوعود إلى الوعود، وقد أجاب هؤلاء أيضاً بثبات، أنهم سوف لن يتخلون عن بنود جوابهم، واعتماداً على حججهم، التي مع أنها كافية، سوف نضيف هنا أجوبة أخرى.

أجوبة القساوسة المتقدم ذكرهم فيما يتعلق بالتقديمات

قال كل واحد من القساوسة، وقال جميع قساوسة الكنائس في بيركشاير، بأن عليهم عدم الاسهام ضد الامبراطور مثل اسهامهم ضد هرطقي، لأنه لم يدن بوساطة قضاء الكنيسة، ولم يتبين أنه مجرم، مع أنه محروم كنسياً، ولكن ليس بسبب قيامه بالاستيلاء على ممتلكات الكنيسة، أو أنه هاجم ميراث الكنيسة الرومانية، لأن الكنيسة لاتستخدم السلاح الدنيوي ضد الهرطقة.

وبجدداً، وفي الطريقة نفسها للكنيسة الرومانية ميراثها الخاص، الذي إدارته عائدة إلى البابا، وللكنائس الأخرى أيضاً مواريثها، التي منحت إليها وأعطيت من قبل الملوك والأمراء، والنبلاء المسيحيين الآخرين، والتي هي غير خاضعة لفرض الضرائب عليها، ولا بأي شكل من الأشكال، ولادفع الجزية إلى الكنيسة الرومانية، ولذلك لايجوز ارغام

القساوسة على المساهمة من ميراث كنائسهم.

ومن جديد، ومع أنه بحرفية الشريعة، قد قيل بأن كل شيء هو عائد إلى الأمير، لكن ليس بالتملك والتسلط والتصرف بالتوزيع، بل الأمور متعلقة بعنايته وحمايته، ومثل هذا، إن الكنائس عائدة إلى البابا، فقط فيما يتعلق بالعناية والحماية، وليس فيما يتعلق بالتملك والسيادة، وبناء عليه، قالوا ينبغي عدم ارغامهم على الاسهام.

ومجدداً كما تقول الحقيقة: «أنت بطرس (الصخرة) وعلى هذه الصخرة سوف أنا أبني كنيستي»، فهو بهذا قد احتفظ لنفسه بالتملك، وعهد إلى بطرس بالعناية، كما هو ظاهر من كلام الانجيل الذي تبع ذلك في قوله: «وإن كل ماسوف تربطه على الأرض سوف يربط في السماء»، إلخ، إلخ، وهو لم يقل: «وإن كل ما سوف تفرضه على الأرض سوف أيضاً يفرض في السماء»، وبناء عليه لقد قالوا بأنهم لايستطيعون، ولاينبغي لهم، تماشياً مع كلام الرب والعدل، أن يرغموا على الاسهام.

ومرة أخرى، إنه اعتماداً على سلطات الآباء المقدسين، نجد أن منتجات الكنيسة مكرسة لبعض الاستخدامات المحددة، وهي استعمالات الكنيسة، ورجال الدين العاملين بها، والفقراء، ولايجوز تحويلها إلى استخدامات أخرى، مالم يكن ذلك بوساطة الكنيسة الأممية، وبناء عليه، ينبغي عدم إعطاء أية مساهمات من مقتنيات الكنيسة، من أجل شن الحرب، مالم يكن ذلك ضد المسيحيين.

ومجدداً، بما أن موارد كنائسهم هي بالكاد كافية لتأمين الطعام اليومي لرجال الدين، بسبب نقص حجمها وصغره، وبسبب أن المجاعة تهاجم في بعض الأحيان البلاد لدى سوء مواسم الحبوب، وأيضاً بسبب وجود عدد كبير من فقراء الناس والفقراء الذين يأتون إليهم، والذين رأينا بعضهم يموتون بسبب الحاجة إلى التغذية، ولأنه ما من أحد يمكنه أن

يستحوذ أكثر من منفعة واحدة، وبسبب ذلك هم الأفقر، وبصعوبة بالغة يمكنهم تزويد أنفسهم وتزويد الفقراء، ولذلك ينبغي عدم ارغامهم على الاسهام في مثل هذه الحالة.

ومن جديد، إنه مهما كان مفيداً بالنسبة لهم أن يسهموا، ومع ذلك يتوجب، لابل سوف يكون مفيداً أن ندع القضية تسقط، بسبب الفضائح التي قامت، وانتشرت في الخارج في جميع أرجاء العالم ضد الكنيسة الرومانية، فلقد جرى الاعلان على الملأ بأن الاستخراجات من هذا النوع قد عملت في أوقات مضت، وأفقرت رجال الدين بطريقة غير صحيحة البتة، وما أن جرى استخراج المال منهم، حتى توصل الامبراطور والبابا إلى التصالح، ومن ثم لم تجر إعادة ولافلس واحد، لابل أكثر من هذا، لو أن أية بقية كانت قد تركت من دون جباية، لقد جرى استخراجها بخشونة، حتى بعد ابرام الاتفاق بين الاثنين.

وتقول الأحكام القانونية، إنه مع أن الذنب العظيم لايجوز قبوله في سبيل تجنب فضيحة، وإنه بناء على ذلك، ولهذه الغاية يتوجب أحياناً اسقاط ماهو صالح وحذفه، وعلى هذا الأساس يتوجب علينا عدم الاسهام.

ومجدداً، إنهم إذا ما توجب اسهامهم ضد الامبراطور، فإن المقام الرسولي سوف يحيق به خطر الموت، في سبيل احراز العدل، وكذلك سوف يحيق خطر الموت بالذين يقومون بالحج إلى الأرض المقدسة، ومن أجل تحرير تلك البلاد، وبناء عليه، إلخ، إلخ.

ومن جديد، ينجم عن العمل المزدوج عادة، لأنه بما أن اسهاماً من هذا النوع قد عمل في وقت آخر، إنه إذا ما عمل الآن سوف يصبح عادة، وبناء عليه، إلخ، إلخ.

ومجدداً، إنه من اسهام من هذا النوع، مقدرين قدرة الامبراطور،

وضعف مملكة انكلترا وفقـرها، مـن الواضح أن ملك انكلترا ونبـلاء البـلاد سوف يكونون عـرضـة لخطر عظيم بفقدان ميراثهـم، وبناء عليـه ليس من الموائم الاسهام، كما أنه لايجوز.

ومجدداً، إنه بالنسبـة لملك انكلترا والنبـلاء يمتلكون بمـوجب حق الوراثة، وكـذلك بمـوجب العـادات الصالحة المصـدق عليهـا، الحق في تقـديم الاعطيـات إلى كنائس انكلترا، والقسـاوسـة، المعينين بناء على أعطيـاتهم، لايرغبـون، كما أنه لايجوز لهم، ولايستطيعـون، الموافقـة على تقديـم أية منحة من دون التشـاور مع رعاتهم، لأنهم إذا مـا وافقوا على المنح من الممكن أن ينالوا الضرر من كنائسهم الخاصة، وبما أن الكنائس المذكـورة، قـد أعطيت وأغنيت من قبـل رعـاتها المذكـورين، بالأراضي والموارد، في سبيل مقاصد خاصة، هي أن يتمكن قساوستها من استقبال الضيوف سواء منهـم الأغنياء وكذلك الفقراء، وأن يظهـروا الضيافة إلى العلمانيين وكـذلك إلى رجـال الدين، وذلك وفقـاً لإمكاناتهم، وكـذلك حسبما تتطلب عـادة المكان، وإنه إذا ما تـم استخراج مثل هذه المسـاهمة منهم، فـذلك يوجب عدم استمـرارها، لأنه بهذه الطريقة سـوف يجري خداع الرعـاة وغشهم، في امتيازاتهم وفي نواياهم التي من أجلهـا منحوا الأعطيات، ولسوف يعيدون النظـر في أعطياتهم، أو أنهم سوف يبحثون ويفتشون عن أسـى آخر، ولن يؤسسـوا كنائس مرة أخـرى، أو يضفون عليهن منافع من ممتلكاتهم.

ومجدداً، بما أن هذا الطلب قد عمل ضد واحد هو داخل بتحالف مع أميرنا، خاصة بالزواج، لايجوز لنا الاسهام ضده من دون التشاور معه.

ومن جديد، بسبب أن العلمانيين، لدى اسهامهم فيما مضى، في قضية مماثلة، قد نالوا وعداً من الذين أعطوهم، بناء على تفويض من هذا البابا الحالي نفسـه، أنه لن تكون هناك عمليـة استخـراج ثانيـة من هذا النوع، ولأنهم أنفسهم مايزالون يشعـرون بالظلم بسبب العبء المذكور، ينبغي

أن لايسهموا، لأنهم يخافون من أنهم بمساهمات متوالية سوف يجرّون إلى العبودية وإلى عادات غير اعتيادية. ولاسيما أن كثيراً من البلدان، من بينهم فرنسا لم يوافق سكانها على هذا الاسهام، كما أنه واضح ومعروف بشكل جيد، أنه ما من مربح قد حصلت عليه الكنيسة من أي استخراج من هذا النوع، ليوفق الرب أن لاتكون لاعاقتها، ولقد قوي أعداء الكنيسة وأصبحوا أغنياء بوساطة ذلك، ومن كونهم أقوياء صاروا أقوى، وإنه لمن الصعب علينا أن نموت بأسلحتنا، ولذلك يتوجب علينا عدم الاسهام.

ومجدداً، بما أن الجميع، أو لنقل تقريباً الجميع، قد ارتبطوا بعهد خدمة الصليب، ولكي يفوا بأنفسهم، أو بوساطة أشخاص آخرين أكفاء، تسلموا أوامر من البابا، وإنهم لايمكنهم في آن، هو الوقت نفسه تلبية وتنفيذ هذا الواجب الصعب والمفيد، وأن يدفعوا أيضاً هذا الاسهام.

ومن جديد، بما أنهم محميين بامتياز أولئك الذين حملوا الصليب، والذين إليهم جرى منح إنتاج ودخول مواردهم جميعاً لمدة ثلاث سنوات، لايتوجب عليهم لهذا الاسهام في هذه القضية.

ومجدداً، بما أن كثيرين مرتبطين برسائل البابا، لأن يدفعوا إلى رهبان كلوني Clugny, في يوم محدد، من عشور كنائسهم، الذي من المعروف أن الرهبان المذكورين لهم حق الرعاية، أو التي ليس لهم فيها أي ادعاء دنيوي أو روحي، ولهذا ينبغي أن لايدفعوا.

ومن جديد، بما أن مولانا ملك انكلترا، له اعداء ألداء من جميع الجوانب، والذين هم مستعدون —كما أفيد— لإلحاق الأذى به، وبحكم أن المملكة محرومة من نصيحة ومن عون الرجال الشرفاء الذين يقومون باعداد الترتيبات للانطلاق إلى المناطق الأجنبية، والذين بذلك

سوف يأخذون معهم مبلغـاً كبيراً من المال، سوف لن يكون سليماً إفقار الكنائس والمملكة إلى درجــة لايمتلكون فيهــا امكانات كـافيــة لحماية الدولة، ولســوف يكون هناك بلا شـك سبب لدمــار المملكة لايمكن اصلاحه.

علاوة على ذلك، بما أن رجال دين الشعب الانكليزي، كانوا من قبل أغنى منهم الآن، أي عنـدمـا استحـــوذوا جميعـــاً، أو على الأقل الشطر الأعظم منهم، عدة منافع من دون توزيع، ومن دون عمل أي استخراج من هذا النوع، مع أنه جـرى في ذلك الـوقت إرسـال عـــدد من الآباء المقدسين إلى المنفى من قبل الأباطرة الطغاة، وعانوا في أنفسهم كثيراً من المصـــاعب في أشخـــاصهم وفي ممتلكـات الكنيســة، لايتــوجب علينا —لذلك السبب— أن نسهم.

وأخيراً، جـرى منح كثير من العشـور مـن قبل الآباء الرسـوليين إلى فـرسان المملكة الفـرنسية، لحماية الكنيسـة الرومانيـة، وبما أنه واضح أن مساعـدتهم المتوجبـة لم ترفض من قبلهم، كما أنها لم تقدم بعـد، يتوجب علينا —بناء عليه— أن لانسهم.

النائب البابوي يثير خلافات بين القساوسة المتقدم ذكرهم

وعندمـا وجد النائب البـابوي وأعوانه أن ثبـاتهم مدعـوم بمثل هذه الحجج الصحيحة، وأنهم لايستطيعون تحطيمهم مـاداموا هكذا متحدين مع بعضهم، لذلك قـرروا إحـداث شقـاق وخـلاف فيما بينهم، ولذلك ذهب النـائب البـــابوي إلى الملـك، وكسب على الفـــور ذلك الـرجل الضعيف إلى جانبـه لتلبية رغباته، ومضـى معاونوه أيضاً إلى الأسـاقفة، وكـذلك إلى رؤساء شمامستهم، وبشكل خـاص المعلم آلان أوف بيكلي Beccles, رئيس شمامسة سـدبري Sudbury, الذي كان من قبل أكثـر اصراراً من جميع البقيـــة، وإلى بعض الأشخـاص الآخـــرين

الطموحين الذين كانوا يتطلعون إلى مناصب أعلى، ووعدوهم بمساعدة فعالة إذا لم يوافقوا على اصرار جماعة القساوسة المذكورة وقرارها، وبذلك أغووا بعضهم، لمعارضة الفئة المسيطرة.

إقلاع الإيرل رتشارد مع النبلاء الآخرين

بعدما أكمل في هذا العام، الايرل رتشارد، جميع الاستعدادات الضرورية من أجل رحلته إلى القدس، ذهب إلى دير القديس ألبان، ودخل إلى بيت هيئة الرهبان، ورجاهم تقديم المساعدة بصلوات الرهبان، وذهب من هنا إلى لندن، وكان ذلك فيما بين يوم الصعود، وأحد الشعانين، وقال وداعاً لأخيه الملك، وإلى النائب البابوي، وإلى بقية النبلاء، وأسرع بعد ذلك الخطى نحو دوفر، ووضع الملك تحت رعايته هنري ابن الايرل وكذلك ممتلكاته، ورافقه النائب البابوي مع عدد كبير من النبلاء، والأساقفة ورجال الدين في رحلته إلى شاطىء البحر، حيث عهدوا به بتقوى إلى التوجيه اللاهوتي، وبقي الراهب ثيودوريك، رئيس الاسبتارية ملازماً له، وكأنه مرافقه غير المفصول عنه، ودليله، وأقلع في الوقت نفسه عدد كبير من نبلاء انكلترا وكان من بينهم وليم لونغيوسبي Longuespee, ايرل أوف سالسبري، وعدد كبير من البارونات والفرسان، الذين ارتبطوا بهم بحكم أنهم قادتهم ومقدميهم.

ملك فرنسا يستقبل الايرل رتشارد بتشريف عظيم

ووصل الايرل رتشارد إلى شواطىء القارة، فدخل إلى الأراضي الفرنسية، وأخذ طريقه نحو الملك، وعندما بات قريباً، وصل الملك مع أمه ب. B, وكثير من نبلائه لاستقباله بسرور وبهجة، واستضافه في قصره، واحتفل معه، وكأنه قريب محبوب له، وأثقله بالهدايا الملكية، كما أنه، لدى مغادرة الايرل أرسل رئيس خيالته ليكون حامياً له ودليلاً،

خـــلال أراضيـــه كلهـــا، وقـــد زوده بشكـــل وافـــر، وبتشريف بجميع الضروريات للرحلة، وقدم له المأوى ولأتباعه حتى عبر الرون بسلام.

وخـــرج سكان أفينون أيضـــاً إلى استقبـــاله، بمسيرات سرور كبيرة، وبكرم ودون مقابل عـرضوا عليه تقديم الضيافـة له في مدينتهم، وذلك على نفقتهم، ثم أخـذ بعـد ذلك مـراكب في فيين Vienne, مقـــــرراً الابحـار نزولاً على الـرون إلى مـدينة آرل Arles, لكن سكان فيين والمدن الأخـرى المجاورة، طلبـوا من الايرل رتشارد أن يبيعهم قـوارب عبـوره، وأنهم سـوف يدفعـون له ثلاثة أضعـاف قيمتهم، ولدى رفض الايرل أن يفعل ذلك، أعلنوا أنه ليس تاجـراً، فاستـولوا على القوارب، واحتفظوا بهم بالقوة، وغضب الايرل لذلك كثيراً ومع ذلك تابع رحلته بقدر ما أمكنه ووصل إلى مـدينة آرل، وندم سكان فيين فيها بعد —مع أن ذلك جاء متأخـراً —لذنبهم العظيم الذي اقترفوه، وأرسلوا المراكب التي انتـزعـــوها من الايرل، وأعـادوها إليـــه في بيـوكير Beawaire, لكن الايرل، قام وهو مغضب فـدمرهم جميعـاً، وغضب كونت طولوز كثيراً لإلحاق هذا الأذى بالايرل رتشارد، في ممتلكاته، لأنهما كانا أقرباء.

كونت بروفانس يستقبل الإيرل رتشارد

وعندمـا علم كونت بروفـانس، والد ملكة انكلترا، باقتراب وصـول الايرل رتشـــارد، خـــرج مـن تاراسكون Tarasconلاستقبـــــــاله بسرور وبهجة، وكان مستعداً لخدمتـه، وليقدم له كل لطف ممكن، وكان يأمل أن يتلقى مساعـدة منه ضد كـونت طولوز، الذي كان معـه بحالة حرب، ولأنه تعرض بسببه إلى مخاطر كثيرة.

زيارة الإيرل رتشارد لسينت جايل

وبعدما قطع الايـرل رتشارد هذه المسافات، وعرف أنـه لم يعد بعيداً عن مدينة سينت جايل (صنجيل)، بادر مسرعاً إلى هناك ليقدم تعبداته،

ووفق الطريقــة نفسهـا، عندمــا وجـد نفســه لديه وقت قصير، حضر الاجتماع العام للرهبان السسترشيـان، وصرف نفسه بكل تواضع لسماع صلواتهم وحضـورها، ولتقـواه وتعاطفـه منحهم دخـلاً سنوياً مقـداره عشرين مـاركـاً لتحسين أوضـاع الطائفـة، وذلـك حتى يتمكن بفضل القديس جايل أن يعبر بسلام ويمر خلال مخاطر البحر.

البابا يمنع الإيرل رتشارد من الإقلاع

عندما وصل الايـرل رتشارد إلى سينت جايل، تقـابل مع ناب بابوي ورئيس أساقفـة آرل، اللذان منعاه بموجب سلطات البـابا من الاقلاع، وأصيب الايرل تجاه ذلك بدهشـة عظيمـة، وأجـابهما أنه فيما مضى آمن بوجود صـدق في كلام المقام الرسـولي، وبالمبشرين الذين أرسلهم، وهو الآن غاضب كثيراً تجاه هذا المنع وقـال: «لقد عملت جميع الاستعدادات الضرورية من أجل عبـوري، ولقد ودعت أصـدقائي، وأرسلت أمـوالي وأسلحتي أمـامي، وجعلت سفني جـاهزة ومحملة بالمؤن، والآن تغيرت اللهجة، حيث مـا أن وصلت إلى شاطىء وأنا على وشك الاقـلاع، قام البابا، الـذي يدعى خليفة يسـوع المسيح ونائبه، فخـرق وعده، ومنعني من الاستمــرار في خــدمـــة المسيح، مـع أنني الآن مستعـــد لجميع الطوارىء».

وعندمـا رأى النواب البابويون أنهم لايستطيعـون منعه من الاقـلاع، نصحوه بأن يترك ميناء مرسيليا، وأن يقلع بحـرياً من ميناء أيغيو مورتي Aigues Mortes, وكـان هذا المكان الأخير ممقـوتاً من الجيش كله، بسبب قــذارته وأحــوالـه غير الصحيـة، ولذلك أقنعـوا الايرل بالاقلاع عن فعـل ذلك، وبناء عليه، قام على الرغم مـن الحجج الزائفة والمتناقضـة للنواب البابـويين، وبمقت منه وازدراء لازدواجية الكنيسـة الرومانيـة، بالتمسك بروح متألمة كثيراً بنيـة الابحار من مرسيليا، وبناء عليه ذهـب في المقام الأول إلى روشي Roche, حيث استعد وحمّل

سفنه، كما أنه أرسل رسـالة إلى الامبراطور بوساطة رسل خـاصين، هم الفـارس روبرت دي تويني Twenge, وآخـــرين، حيث أخبره عن أحـواله، وعن بدع البـابا الماكـرة، وفي الأسبـوع الذي تقـدم على ثمانيـة ميلاد القديسة مريم، ركب متن البحر مقلعاً.

حرب بين ولدي للويلين

في يوم عيـد القديس غـوثلاك Guthlac, [١١- نيسان] في هذا العام، تفجـرت حرب في ويلز بين ولدي للويليين، واستمـرت من دون توقف، من اليوم المتقدم ذكره أعـلاه، الذي قيل فيه غادر الأمير المذكور الحيـاة، حتى نهاية يوم عيـد القـديس ميكائيل، أي حتى تمّ أخيراً وضع واحـد من الأخـــوين في السجن، وعند ذلك أوقف الـويلزيون عنفهم، لأن داوود، الذي كـان حفيد الملك، استـدعى خيـانياً أخـاه الأسن منه للتشـاور معـه، من أجل التـوصل إلى بعض الشروط المناسبـة للسـلام، ولدى قدومـه للتفاوض تحت كفالة أسقف بانغور، أمـر به أخوه داوود فاعتقل وسجن.

انتخاب بطرس دي ايغيو بلانشي أسقفاً لهيرفورد

وفي يوم عيد القديس بارثولوميـو جرى انتخاب المعلم بطرس دي ايغيو بلانشي Aigueblanche, أسقفاً لهيرفـورد Hereford, وكان من بروفانس من حيث المولد، وكاهناً مقرباً من وليم الأسقف المنتخب لبلنسية وقهـرمـاناً لديه، وبعـد مضي بعض الوقـت استقبل بتشريف عظيم من قبل الملك، وجرى تثبيته في كرسيه من دون أية مشاكل أو معارضة، وكان هناك كاهن من ليشفيلد Lichfield, وكان رجـلاً جديراً بالثناء، وقـــد جرى انتخـــابه من قبل، وقـــد رأى بأن الأوقـــات السيئة هـي المقبلة، وأن الملك لايقدر أحـداً سوى الأجانب، لذلك تخلى عن دعواه، وعهـد بإدارة كنيسته إلى الرب، وإلى إخوانه الرهبان.

ولادة ابنة الملك

بعد انتهاء أيام الاحتفال المهيبة بعيد الملائكة المقدسين [٢- تشرين أول] ولدت الملكة إليانور ابنة إلى الملك، أعطيت اسم مرغريت، الذي كان اسم خالتها، ملكة فرنسا، ولأن الملكة دعت أثناء آلام الولادة القديسة مرغريت.

تكريس آندلم رئيساً لأساقفة أرماغ

وفي العام نفسه، وفي يوم عيد القديس جيروم [٣٠- أيلول] جرى تكريس المعلم آندلم Andelm, وكان من أهل كولون، وكان أيضاً رجلاً متميزاً بأخلاقه وثقافته، تكريسه في ويستمنستر، بشكل مهيب رئيساً لأساقفة أرماغ Armagh, (الكنيسة المطرانية لايرلندا كلها)، وكان ذلك بحضور الملك، والنائب البابوي، وعدة أساقفة، وكان أسقف ووركستر متولياً للأعمال الرسمية.

تكريس معبد القديس بولص في لندن

وجرى في يوم عيد القديس ريميغوس [١٢- أيار] تكريس كنيسة القديس بولص في لندن من قبل روجر أسقف المدينة، وكان ذلك بحضور الملك، وغدد كبير من الأساقفة والنبلاء الذين شاركوا جميعاً في ذلك اليوم بمأدبة احتفالية مع الأسقف والكهنة، وجرى منح جميع الذين قدموا وصلّوا بتقوى غفراناً لمدة أربعة عشر عاماً، وجرى تأكيد هذه الأشياء كلها وتثبيتها من قبل النائب البابوي، والأساقفة الذين كانوا حضوراً.

وفاة توماس دي ميولتون

وفي صيف هذا العام، غادر توماس دي ميولتون Muleton هذه الحياة، وكان فارساً مجرباً في البراعة الحربية، عندما ابتسم له سن

الشباب، وعندما صار متقدماً أكثر بالعمر، بات رجلاً لديه وفرة كبيرة من الممتلكات، وبارعاً كثيراً في القانون المدني، وأثناء رغبة هذا الفارس في توسيع أراضيه، غالباً ما تسبب بأضرار كبيرة، وخسائر لدير القديس ألبان، الذي جاورت مزارعه مزراعه.

نشوب خلاف بين دير القديس ألبان وبعض الفرسان

وكان في هذا العام هناك بعض الفرسان مع آخرين، كان دير القديس ألبان بلطف منه قد منحهم الإذن للصيد لبعض الوقت في مطردة حرة تابعة للقديس ألبان، وكانت قد منحت إلى الكنيسة منذ وقت طويل مضى، وجرى تثبيت ذلك من قبل الملوك، ومن قبل مؤسسيها، وذلك كما تبرهن على ذلك الكتابات النبيلة للكنيسة، ولقد أساء هؤلاء استخدام المعروف الذي منح إليهم، وقاموا وهم مصابون بعدوى الشر ونكران المعروف، فادعوا بأن هذا المعروف صار عادة، وحقاً دائماً، وسعوا لحرمان الكنيسة من حقوقها، أو بالحري لحرمانها من ميراثها، وقام الراعي جون، الذي كان آنذاك متسلماً للدير، والذي كان ملتزماً بموجب حق التكريس باسترداد الامتيازات المتضررة، والممتلكات الموزعة للكنيسة، بتقديم شكوى جادة حول هذه القضية إلى الملك، وحصل منه على المصدقة التالية ضدهم.

إجراءات محاكمة مطردة القديس ألبان

«من هنري، بنعمة الرب، إلخ، إلى عمدة هارتفورد Hertford، تحيات:

إذا قام راعي دير القديس ألبان فعهد إليك بمتابعة دعواه، قم عندئذ باستدعاء، بوساطة استدعاء صالح وقانوني غيوفري دي تشايلدويك Childwick، وأولاده: وليم، وجون، ورتشارد، ووليم دي غورهام Gorham، وولديه: وولتر، وتوماس دي ووز Wauz،

وهنري، وآدم دي سـومـري Sumery, وداوود دي غـــريبنفيل Grapenville, للظهـور أمام رجـال عدالتنا، في أول تبليغ، عندمـا يأتون إلى هذه المناطق، ليظهـروا السبب لماذا اصطادوا، وأمسكوا أرانب من دون إذنه (الراعي المذكور) في المطردة الحرة التابعـة لكنيسة القديس ألبان، ولتكن معك هذه الاستدعـاءات وهذه المذكرة. شهدت بنفسي في ويستمنستر، في هذا اليـوم السـادس والعشرين من حـزيران، في السنة الرابعة والعشرين مـن حكمنا. عمل في هارتفورد، أثناء شهـر واحد من عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، أمام وليم أوف يورك، عمدة بيفرلي وهنـري أوف باث، وروجـــر دي تيركبـي Turkby, وغيلبيرت بريستون Preston, مسؤول عدالتنا، في دائـرة تلك الكونتيـــة، في السنة الرابعة والعشرين من حكم الملك هنري، ابن الملك جون».

دعوة للمثول أمام العدالة

جرى استدعاء غيـوفري دي تشايلدويك، وأولاده: وليم، ورتشارد، وغيـوفـري، ووليم دي غـورهـام، وتومـاس دي ووز، وولديه: وولتر، وهنري، وآدم دي سـومـري، وداوود دي غريبنفيـل، بموجب مـذكـرة مـولانا الملك، للاجـابة على شكوى راعي دير القـديس ألبان، لقيـامهـم بالصيد، وإمساك أرانب في مطردته الحرة التابعـة لدير القديس ألبان من دون إذنه، وكـانت شكوى راعي الـدير هي، أنه في يوم الأربعـاء التـالي قبل عيـد القديس تـوماس الرسـول، لقـد جاءوا مع كـلاب، وأمسكوا أرانب في مطرده، ومثل هذا لقد اصطادوا في الحقول الوارد ذكرها أدناه التابعـة له، في المطردة وهي: في حقل القديـس ألبان، وفي حقل كنغبري Kingsbury, وفي حقـــل بـــارك Park, ولانغلي Langley, وكـاشيـوبري Cashiobury, وركمانوورث Rickmansworth, وكـــوديكوت Cuddicote, ووولدن Waldon, وســـاندردج Sandridge, وبـــارنـــت Barnet وردبـــــــورن Redburn,

وأراضي ممتلكاته وممتلكات أتباعـه، وذلك على الرغم من امتيازه، الذي تمتع به من أيام الملـك هنري الأكبر، والذي من أجله قـد دفع غـرامـة قـدرها أربعين مـاركـاً، وجـاء غيوفـري وأولاده، وآدم دي سـومـري، ودافعوا عن هذا الاعتداء والأذى، وقـالوا بأنهم هم وأسلافهم منذ أيام الاستيلاء قـد اصطادوا في الأماكن المتقـدم ذكرها بمـوجب امتياز، وفي أيام الملك هنري، جد الملك الحالي، وفي أيـام الملك جون وفي أيام الملك الحالي هنري، وهـم مستحـوذون على هذا الصيـد كـامتيـاز لهم، وأنهم يقدمون خمسة مـاركات إلى مولاهم الملك، هنا، حتى يمكن عمل إجراء بحث فيها إذا كـان غيوفـري المتقدم ذكره، وأسـلافه وتـوماس دي ووز وأسلافه، وآدم دي سـومري وأسلافه، قـد استحوذوا على هذه المصيدة كامتياز في أيام الملك هنري، جد الملك الحالي، ومنذ ذلك الحين، أو أنهم استحـوذوا على امتيـاز الصيـد هذا بالقـوة، أو بإذن من أسـلاف راعي الدير المقـدم ذكـره، أو بوسـاطـة البحث، وقـد جـرى تسلم ادعـائهم، وأعطى راعي الدير المذكـور خمسـة مـاركـات أيضـاً، للقيـام بالبحث المذكـور، وجـرى تعيين يـوم هو في ثمانيـة عيـد القـديس ميكائيل، من أجلهم للظهور أمام مسؤولي العدالة المذكورين في كمبردج.

الإجراءات في كمبردج في ثمانية عيد القديس ميكائيل أمام مسؤولي العدالة المتقدم ذكرهم

وكان المحلفون الذين جلسوا للبت في القضيـة، بموافقة الفرقاء هم: بطـرس دي ثـالي Thaly, ووليـم ريفيـل Revel,ووليـــم دي ثورليغ Thorleigh, وسيمـون دي فـورنل Fornell, وهنري دي هولول Holwell, ورالف فتزفـولك Fitzfulk, ووليم دي سينت ليغـــر Leger, وبطرس دي ول Wells,ورتشـــــارد موسكت Muschet, ووليم دي هولول، ولمعرفــة فيها إذا غيوفري دي تشايلدويك، وأولاده غيوفري، ووليم، ورتشارد وتوماس دي ووز

مع ولديه: وولتر، وهنري، وآدم دي سـومري، وأسلافهـم، قد امتلكوا امتيـاز الصيد منذ أيام الملك هنري، جـد الملك الحالي، ومنذ ذلك الحين فصـاعـداً، في بلدة القـديس ألبـان، وكنغبري، وسـاندردج، وتايدنهنغـر Tidenhanger, وبارك، وكـاشيـوبري، ولانغلي، وركمانوورث، وكـوديكوت، وولدن، وبـارنت، وردبورن، وهـل ذلك بمـوجب امتيازهم، كما ذكر غيوفـري المذكور مع البقية، أو هل هم يمتلكون حق الصيـد هذا بالقـوة، أو بمـوجب إذن مـن أسـلاف راعي دير القـديس ألبان، أو بموجب حق التوريث كما أفاد الراعي المذكور.

ولقـد قـالـوا —بناء على يمينهم— بأنهم قـد فهمـوا بـأن رعـاة دير القديس ألبـان قد احتفظوا بمطردهم حـراً في المدينة المتقدمـة الذكر، في أيام الملك هنري، جد الملك الحالي، بسبب أنهم —كما قـالوا— قد تولوا فحص أحد الصكوك، كـان قد منحـه الملك هنري المذكور، جـد مولانا الملك الحالي إلى بيت رهبان القديس ألبان، والذي ذكر فيه الملك المذكور امتلاك المطردة المذكـورة في البلدة المتقدمة الذكر، والتي استحـوذ عليها رعاة البيت المذكور في أيام الملك هنري الأكبر، جد الملك الحالي.

وقـالوا أيضاً بأن غيـوفري المذكـور، أو الآخـرين، أو أسلافهم، قـد قاموا بأعمال مطاردة في البلدات المتقدم ذكـرها، وكان ذلك يجري أحياناً ولبعض الوقت بمـوجب اذن من الرعـاة، وأحيـانـاً على الرغـم منهم، ولذلك كان الرعـاة المذكورون يقومون أحياناً، وبشكل مـؤقت باعتقال كلابهم وخـدمهم، ولقد ضربوا وأسـاءوا معاملة أتبـاعهم، مما تسبب في بعض الأحيان بنشوب معارك ووقوعها في تلك الكونتية، ثم كان يجري استرداد الكلاب المحجوزة، ويعاد السلام فيما بينهم بعد ذلك.

ولقد قالوا بشكل واضح بأنهم —الفرقاء المتقدم ذكرهـم— لم يقوموا قط بأعمال مطاردة في المطردة المتقدم ذكـرها، بموجب أي حق امتلكوه، أو يمكن أن يمتلكوه، ولذلك تقـرر بـأن راعي الدير وخلفـائـه سـوف

يتملكون من الآن فصاعداً المطردة في القرى المتقدمة الذكر، بلا نزاع وإلى الأبد، وهي متحررة من أي ادعاء من غيوفري المذكور مع الآخرين، أو ورثتهم، إلى الأبد.

وسوف يقوم غيوفري وجميع الآخرين بالتعويض بشكل خلقي على الراعي المذكور مقابل خسائره وذلك بدفع مبلغ أربعين ماركاً، ويتوجب على عمدة هارتفورد، بموجب مذكرة مولانا الملك أن يتدبر جباية المال المذكور من أراضيهم وقطعانهم، ومن ثم أن يجري دفعه من دون تأخير إلى الراعي المتقدم الذكر.

انتخاب فرسان محلفين

جرى انتخاب اثني عشر فارساً بحزام، لدى اجتماع الهيئة القضائية، وبموافقة الفرقاء، ووافق الفرقاء على الالتزام بقرار عشرة منهم، لأن اثنين لم يظهرا، وهما رتشارد بوكس Box, ورتشارد بوتيل Butell صاحب مالدون Maldon في اسكس.

مذكرة المطردة

«من جون أوف وادنغتون Waddington عمدة هارتفورد واسكس إلى المحبوب منه جون دي بيفوري Beyforey, نائبه، تحيات: لقد تلقيت الترخيص التالي من مولانا الملك، ومحتواه، ومقاصده هي كما يلي:

من هنري، الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا، إلى عمدة هارتفورد واسكس، تحيات: نحن نأمركم أن تتدبروا تحصيل مبلغ أربعين مارك من أراضي وقطعان غيوفري دي تشايلدويك، وأولاده: وليم، وغيوفري، ورتشارد، وتوماس دي ووز، وولديه: وولتر، وهنري، وآدم دي سومري، وداوود دي كاربنفيل، في نيابتك، ومن ثم دفع ذلك —من دون تأخير— إلى راعي دير القديس ألبان، مقابل الخسائر التي

عــاني منهــا الراعي المذكــور بسبب الخلاف الـذي نشب بينه، أي بين الراعي المذكور، وبين غيـوفري المتقـدم الذكر، ومعـه: وليم، ورتشارد، وتومـاس، وهنري، وآدم، وداوود، فيما يتعلق بمطردة الراعي المذكـور. شهــدت بنفسي، إلخ. وإنني بناء عليــه آمـرك بتنفيـذ أوامـر مــولانا الملك»إلخ، وجرى التفـوه بالحكم في يوم عيد القـديس ديونيسيوس، في حوالي الساعة التاسعة.

وضع امبراطور القسطنطينية

أرسل في هـذا العــام امبراطور القسطنطينيــــة رســالـة إلى الملك الانكليزي، بحكم أنه صديقه الخاص، وقـريبه، بأنه وصل بنجاح وبقوة كبيرة إلى المناطق الاغـريقيـة، يحيط به جيش قـوي من الفـرنسيين، وان اسمه، أي اسم بلـدوين، أصبح مرعبـاً إلى جميع أعدائه، وذكـر أنه ألقى الحصار على مدينة كبيرة جداً، ليست بعيدة عن القسطنطينية، وأنه إذا ما تمكن من اخضـاعهـا لحكمه، فإن جميع المنطقـة المحيطة لسفـر ثلاثة أيام ســوف تسقط بين يـديه، وأن طريق الوصـول إلى القسطنطينيــة ســوف يصبح مفتوحاً وخالياً من الخطر، وأن الحرب تتقدم بين يديه.

استدعاء النائب البابوي إلى البلاط الروماني

وفي هذه الآونة، جرى استدعاء النائب البـابوي، بوساطة مذكرة من البـابا، بأن يأخذ الطريق إلى بلاط رومـا، حالما يتمكن من انجـاز العمل الذي هو بين يديه، لأن ذلك البـلاط كـان ينتظر عقـد مجمع عـام، وأن عليه الاسراع بقـدومه بقـدر ما يستطيع، لعقد مبـاحثات حـول القضـايا الصعبـة، مع إخـوانه، الذي يحتـاجـون كثيراً لرأيه الحكيم، ولأن يكون بينهم، مظهـراً نفسـه في وسطهم قبل وصـــول الآخـرين، وقـام النائب البـابوي، بناء على ذلك، وفي إطاعـة منه لهذا الاستـدعـاء، بدون توقف فجمع كميـات كبيرة مـن القش، وأكـوام من الحطب، وأشيــاء أخـرى

ضرورية من أجل تمضيــة الشتـاء، ولم يتــوقف عن استخــراج أمـوال الوكالات من كثيرين، الذين كـانت مقتنياتهم قد أنهكت تقـريباً، مما زاد أحزانهم ودهشتهم.

وصول بطرس لى روج من سكوتلندا

في حـــوالي يوم عيـــد جميع القـــديسين، قـدم مـن سكوتلندا لي روج Rouge, وروفينوس Ruffinus, جالبين معهما ثلاثة آلاف باوند من أجل استخـــدام البــابا، وقـــدم من جهـــة أخـــرى مـــوميلينوس Mumelinus, جالباً معه أربعــة وعشرين رومانياً ليتسلموا منافع في انكلترا، وبهذه الحوادث صـــار الانكليـــز في أســـوأ وضع، وتـورطوا وسحقـوا، وباتـوا كأنهم بين حجـري طاحـــون من الجهــة الأولى، وبين حجرين آخرين من الجهة الأخرى، لأن من الجهة الأولى كان بطرس لى روج، وكان مـن الجهة الآخرى مـوميلينوس، ومن جهة أخـرى الملك، ومن جهـة آخرى النائب البـابوي الذي استمر في مضـايقة القسـاوسة، ورجال الذين، والرهبان، وقد سمح ملك سكوتلندا لهذه المضار بالجواز بصمت، مع أن ما من واحد من أسلافه قد تحملها قط.

الإيرل غ. G يتصالح مع الملك

في صيف هذا العـــام، عندمـا كـان الأيرل رتشـــارد في لندن، وكـان يتبـاحث مع أخيـه الملك، حـــول هل عليـه أن يسـافـر عبر ايطاليـا، أو مرسيليا، وتمّ أخيراً بناء على ترتيبـات الراهب ثيودوريك، رئيس رهبان اسبتـارية القـديس يوحنا، وتقـرر القيـام بالعبـور، مع الراهب المذكـور كدليل له، وأن يقلع على ظهـر سفينة، لعبور البحر المتـوسط، وبينما كان هذا يدور بذهنه، قدم غ. G مارشـال إلى الايرل المذكـــور، وعرض أن يقوم بحضـور الايرل بتبرئة نفسه من جميـع التهم التي عملت ضده، من قبل أي كان، وأن يقدم ترضية للملك قانونية أمام البلاط كله، وفقاً

لقراره، حـول القضية التي اشتكى منهـا، وبناء على ذلك، توسط الايرل رتشارد من أجلـه لدى الملك، الذي وضع جانبـاً حقده وغضبـه ضده، وإنه على كل حال من المعتقـد أن الايرل مارشـال، قد نال هذه الحظوة، بوسـاطة الهدايا، إلى كل من الملـك، والايرل رتشـارد، وفقـاً لما قـاله الشاعر:

«إن أفضل الطرق، عليك أن تؤمن

لنيل الحظوة، هي أن تدفع»

موريس مسؤول العدالة يتدبر مصالحة مع الإيرل غ مارشال

وعلم مـوريس، مسـؤول العـدالـة في ايرلندا، بشكل صـادق بجميع هذا، فقدم بكـل سرعة إلى الملك، الذي كان مقيماً آنـذاك في لندن، وكان راغبـاً في تهدئة مشـاعر الايرل غ مـارشـال، الذي كان يعلم بأنها مثـارة ضده، بسبب مـوت أخية الايرل ر. R, الذي قتل في ايرلندا، وقبل كل شيء جـاء مستعداً لتبرئة نفسـه بكل طريقة بـالمحاكمة أمـام الملك، وأمـام بلاطه، من قتل الايرل المذكـور، وذلك وفقـاً لقرار النبـلاء، وأن يقـوم بشكل قانوني بنفي ذلك العـار عن نفسـه، لأنه يعرف نفسـه غير ملطخ بها، وإلى جانـب هذا، ومع أنه يعلم بأن ضميره كان نقيـاً، وعد، أنه في سبيل السلام، ومن أجل إعادة تأسيس صـداقتهم الماضية، سوف يؤسس ديراً فخماً، لصـالح روح الايرل المذكـور، من دون أية اضـاعـة للوقت، وأنه بكرم سوف يضفي عليه ممتلكات ثمينة، ويجهزه بجمع من الرهبان.

وعندمـا وجـد الملك الثبات في كـلامـه، وعلم بنواياه التقية، أرسل خلف الايرل غ. مـــارشـــال، وتعهـــد أن يتـــولى بنفســـه أعمال الشفيع والوسيط مـن أجل إقـــامـــة الســـلام، وادعى بـأن النص الذي ورد في الانجيل، حيث أعطي قرار مولانا في قضيـة الخادم وأتباعه الخدام، كان

صحيحاً تماماً، وينطبق على هذه الحالة، وأعلن بإصرار —وفقاً للقرار اللاهوتي— بأنه هو —أي المارشال— كان غير جدير بعفوه، مالم يقم بمنح الشيء نفسه، بمشاعر طيبة، إلى جاره، عندما يطلب ذلك منه كتوسل، وهو الذي كان راغباً في تبرئة نفسه من الجريمة التي ألصقت به، لأنه أكد أمام الرب، بأنه لم يكن ملطخاً بذلك القتل الذي اتهم بأنه اقترفه، فبتلك الفرية قد أسيء إلى سمعته بدرجة كبيرة، وهكذا أمكن بوساطة الملك والنبلاء، بأن مال الايرل غ إلى الاصغاء إلى التوسلات وإلى صوت العقل، وبحكم أن موريس، تواضع بحكمة بنفسه، تمت إعادة تأسيس السلام والوئام بين الاثنين.

أمير كونوت يشتكي إلى الملك

وفي هذه الآونة نفسها، قدم أمير صغير من منطقة ايرلندا التي اسمها كونوت Connaught, إلى الملك في لندن، وتقدم بشكوى ثقيلة أمام الملك وأمام بلاطه، حول الأضرار الذي أنزلت به من قبل جون دي بورغ Bourg, الذي عاث بدون توقف فساداً بأراضيه بالنار والسيف، ومن أجل جميع هذه الأضرار، طالب الآن بتقديم العدل، وذلك بضبط العدوان الجريء لذلك النبيل، بواسطة السلطات الامبراطورية، والتمس من الملك أن لايسمح لرجل من رعيته المخلصين، الذي تولى دفع جزية سنوية مقدارها خمسة آلاف مارك إلى مملكته، وذلك منذ أن سمح له بالاستحواذ على أراضيه بسلام، وتثبيت ذلك من قبل الملك جون، الذي أخضعه بالقوة هو ومملكته، وجعله من رعاياه، أن يسمح بشكل غير عادل بأن يحرم من ميراثه بوساطة (حسبما دعاه) مغامر وضيع.

وأصغى الملك باهتمام إلى مطالبه العادلة، وأمر موريس المذكور، الذي كان آنذاك بحضرته، باقتلاع نباتات شجر الجميز غير المثمرة، التي زرعها هيوبرت، ايرل كنت —في الاستخدام المفرط لقوته— في تلك

المناطق، وأن لايسمح لهم بمتابعة النمو، كما أنه كتب أوامر إلى نبلاء ايرلندا، بطرد جون دي بورغ من أراضيهم، وأن يعينوا ملكاً، ويقيموه في مملكتهم على أسس من السلام، وبهذه الطريقة، وبوساطة آراء الملك، ارتفعت آمال الأمير المتقدم الذكر، وقد عاد إلى ممتلكاته.

البابا يسعى للانسحاب من هدنته مع الامبراطور

علم في نهاية هذا الصيف النائب البابوي، بأن البابا قد وافق على هدنة مع الامبراطور تستمر حتى المجمع العام، الذي كان سينعقد في الفصح المقبل، فغضب غضباً كبيراً، وأرسل رسالة إلى قداسته، بأنه قد بات مشوشاً في تفكيره، وجباناً، حتى أن معنوياته قد تحطمت، وأنه غرق في حالة من اليأس، ولم يكن هذا من دون سبب، لأنه قد جمع الآن من فرنسا وحدها من المال مايكفيه ويمكنه من دون خوف أن يتابع الحرب ضد الامبراطور لمدة سنة كاملة، ولدى سماع البابا هذا ندم، وبات آسفاً لأنه وافق على الهدنة، واستدعى المعلم جون دي كولونا Colonna, والمعلم ريموند، رئيس كرادلته، الذي كان الوسيط في ترتيب الهدنة، وهو الذي تدخل مع الامبراطور، وخاطب الأول بينهما، وهو جون وقال:

«إنني خجل من نفسي لأنني منحت هدنة إلى عدو الكنيسة هذا، فردريك، وبناء عليه، بما أنك كنت المترجم بيننا في هذه القضية، عليك الذهاب بكل سرعة إليه، وأخبره، بأنني لم أختر الموافقة على الهدنة، وتحداه بجرأة، وأعلن بأنني سوف أكون عدوه من الآن فصاعداً، كما أنا الآن، وكما كنت من قبل»، وعلى هذا ردّ جون قائلاً:

«بعيداً عن التصديق سماع مثل هذا الكلام المتقلب من فم رجل عظيم مثلك، وأن يرسل هذا إلى مثل ذلك الأمير العظيم، خاصة من قبلنا نحن الذين لانعد أشخاصاً عاديين، وعلى هذا التقلب، وهذه

الخطة الخيانية أنا لن أقدم موافقتي بأية طريقة من الطرق، بل إنني أعارضها بثبات»، وعند ذلك قال له البابا: «إنني لاأعدك بعد الآن بمثابة كردينال لدي»، وعلى هذا رد جون قائلاً: «وأنا لن أستمر بالنظر إليك على أنك بابا»، وبهذه الصورة غادر وذهب بعيداً، وتحول من صديق إلى عدو، وعلى هذه الصورة نفسها حدث عندما قال أحد الأباطرة غير العادلين إلى واحد من شيوخه: «اخرج، إنك لم تعد شيخاً لدي» وعلى هذا رد الشيخ بجرأة: «وأنت أيضاً لم تعد امبراطوري»، لأنه كما أن عضو الرعية مرتبط بمولاه، كذلك المولى مرتبط بالرعية.

كيف جمع النائب البابوي مبلغاً كبيراً من المال في فرنسا

وعندما بات هذا معروفاً من قبل الملك الفرنسي، أمر بجميع المال الذي كان النائب البابوي قد جمعه من أراضيه، بناء على إذن منه، واستخرجه من جماعة رجال الدين، بكلمات معسولة، وبتهديدات قاسية، أمر بالاحتفاظ به، حتى يرى نتيجة الأحداث، ولكي يقوم البابا، الذي كان يدعى بنائب المسيح على الأرض، على الأقل بالبرهنة بالصدق في كلامه بهذه القضية، ولذلك استمرت الهدنة غير مخروقة بينهم، باستثناء ماتعلق بأعداء الامبراطور، أي الميلانيين، وبعض الناس من الايطاليين الآخرين، الذين حولهم لم يكن من شأن البابا أن يقلق، لأن شؤونهم كانت قد سويت في البداية، لدى كتابة المعاهدة.

براعة البابا ومكره في جباية المال في انكلترا

وكان البابا يرقب بدقة كل فرصة من أجل جمع المال، ولأنه كان يتوقع غنيمة كبيرة من انكلترا، وكان ينتظر ذلك، أرسل رسالة إلى النائب البابوي، بأن لايحاول حشد جميع كل رجال الدين مع بعضهم، كما فعل من قبل، فبذلك لن يتمكنوا من تشجيع أحدهم الآخر، أو

الاعتماد على أسبابهم المتقدمة واعتراضاتهم، ومحاولة ذلك ثانية لمعارضة خططه، بل الذي عليه جمع كل منهم واحداً واحداً والسعي هكذا لتطويعهم للقبول بإرادته، والقيام أولاً بإضعاف ثبات الملك، ذلك لأنه هو الذي وقف من قبل إلى جانب رجال الدين وأعطاهم الدعم، وبذلك يصبح ضعيفاً إلى درجة الدمار.

يقظة النائب البابوي في جمع المال

ولدى تسلم النائب البابوي لهذه الرسالة، تحول من بارع بالأذى إلى أكثر براعة، وقام بموجب سلطات البابا، فجمع كتلة رجال الدين كلهم، الذين بانكلترا، وأمرهم بالظهور أمامه في لندن، في يوم عيد جميع القديسين، وبناء عليه، اجتمع في اليوم المحدد جميع رجال الدين والرهبان، ووقتها وجدوا الملك مضاداً لهم، وظهر بمظهر عدو مكشوف بالنسبة إليهم، ذلك أنه أصبح بالنسبة لهم —وهذا كان حاله— ساق قصبة، من يتكيء عليها وهو واثق، يتعرض للجراحة من شظاياها، وبناء عليه، فإن الرهبان، وكذلك رؤساء الشمامسة، ورجال الدين الذين لديهم منافع، الذين جاءوا إلى هناك للوقوف في وجه النائب البابوي ومعارضته، والذين كانوا معادين له بروح عالية على أساس الترافع إلى المجمع القريب الانعقاد، عندما رأوا أنهم أصبحوا بمثابة شياه سوف يلقى بها بين الأنياب الدموية للذئاب، تنازلوا وقدموا موافقاتهم للكلام المعسول والمغوي للنائب البابوي، الذي حوله فيما بعد إلى رماح عدوانية.

موت رهبان درم في روما

وحدث في تلك الآونة، أن رهبان درم، الذين كانوا مقيمين في روما، للحصول على تثبيت لانتخابهم، قد عانوا كثيراً من الأذى، وذلك بسبب المعيقات التي ألقيت في سبيل اكمال أعمالهم من قبل الملك،

وبذلك باتوا مرهقين من التأخير، حيث كانوا ينصرفون وقد تملكهم الأسى، لذلك سقطوا مرضى، والتزموا بمضاجعهم، حيث انطبق عليهم كلام سليمان في قوله: «الروح المحطمة تجفف العظام»، ولذلك مات أربعة من الذين كانوا مقيمين هناك، وهم كان قد جرى اختيارهم من قبل اخوانهم، لأنهم كانوا يعدون أكثر حكمة من البقية، ولحق الموت أيضاً بعض رجال الدين والمرافقين الذين كانوا بارعين في القانون، والذين أنيبوا لمساعدتهم وخدمتهم ومواساتهم، وهكذا هلك الفريق الأكثر نفوذاً في الدير، وكان ذلك لاصابتهم بمرض عادي أو لحزنهم وأساهم الروحي، أو لاصابتهم بوباء، أو أنهم سمموا، فهذا كله غير معروف.

وعندما سمع رئيس رهبان درم بهذه الحالة وكذلك الأسقف المنتخب، قهرهما الحزن، وأصيبا بالرعب، بسبب أن الملك المسبب الرئيسي لها، لأنه لم يسمح للكنائس الشاغرة بالتكريس ومع أنه فعل ذلك، يبدو أنه كان وراء هذه المأساة الكبيرة ومدبرها، لذلك تخلى الأسقف المنتخب على الفور، واستقال عن طواعية من منصبه، وأعلن أنه لن يعرف السرور ثانية ولا البهجة، وهكذا عندما وجد الرهبان أنفسهم يمتلكون الحرية لانتخاب أسقف آخر، ذهبوا إلى الملك بالطريقة المعتادة، ورجوه أن يزودهم بالوسائل المناسبة، لانتخاب أسقف، ومنحهم الملك هذا المطلب، لكن في الوقت نفسه كما قال الشاعر:

بأوامر مزيجة، ووعود، وصلوات،

على الفور سوف يظهر المولى وتظهر الابتهالات.

ذلك أنه رجاهم بحرارة كبيرة وتوسل إليهم بتسمية، وانتخاب المعلم بطرس دي أيغيوبلانشي الذي هو الأسقف المنتخب لهارتفورد، والذي كان من مقاطعة بروفنسال من حيث المولد، أو انتخاب بونيفيشس

Bonifacius خـال (عم) الملكة، وهم لم يكونوا يعرفـون شيئاً عن أخلاق ومعارف الرجلين، حيث كانا مجهـولين بالنسبة لهم تماماً، والذين عـرفـوه أنهما كـانا من طينة أجنبيـة، وليس لديهما كفـاءة لتبـوأ مثل هذا المنصب، ولم تكن هناك حـاجـة لهما في انكلترا، لأن انكلترا غـالبـاً مـا قدمت رجالاً أكفاء ومناسبين لإدارة الكنائس حتى في البلدان الأخرى، ولم تكن بحاجة لاستجـداء مثل هؤلاء الناس من خارج حدودها، ومن بلدان نائية.

المسلمون يستطلعون الغيب عن طريق القرعة

وفي العـام نفسـه، وفي وقت مناسب لممارسـة العقـائـد المدنسـة لعلم تحضير الأرواح، أو فن الحسـاب، كـان المسلمـون في الشرق يـرغبـون بالحصـول على معلومـات تتعلق بالأحـداث المستقبليـة المرتبطة بالجيش الصليبي، الذي كان يزحف ضدهم في ذلك الحين، وقد اقترب وصوله، فعملوا تضحية، ووجهوا دعوة مرعبة إلى الشياطين، وألقوا قرعة، وبعد اكمال هذا العمل الواهم، قـام كـاهنهم الأعلى، بنظرة كئيبـة، وبصـوت حزين متهـدج، فخاطب مقدميهم هكـذا: «ليكن معلوماً من قبلكم أيها السادة الأقوياء، أن الأقدار معاكسة لنا»، ثم إنه بعدما قام بحركة رمزية وطلب الالهام من الروح القذرة، تابع الحديث الذي كان قد بدأه قائلاً: «لاتدعـو النصر الذي نلتموه مـؤخراً، وأعطي إليكم من الرب، يغـركم كثيراً، ويفرحكم، لأن هناك هؤلاء القادمون، سوف يطلبون بجرأة دماء الذين قهروا على أيديكم مؤخـراً، مع كثير من ردات الفعل الانتقامية»، ولدى سماع الحاضرين لهذا اعترتهم الـدهشـة، وسأل واحـد من كبـار مقدميهم، محضر الأرواح المتقدم ذكـره، من كان مقدم الجيش الصليبي، وعلى سـؤاله تلقى الجواب التـالي: «إنه واحـد من الشبـاب، قـد اقترب وصوله وبات وشيكاً»، ثم قال المقـدم للساحر: «هل هو من أسرة ذلك الملك الشهير الذي ألقى بالرعب بالشرق كله، في وقت مضى»؟ وأجابه

الســاحــر: «إنه حفيـد ذلك الملك، ويحمل اسمــه» «وكيف هي سماته؟ وماهي قدرته»؟ «إن حكمته أكبر، لكن قوته أقل، ومع ذلك تزداد قوته يوماً إثـر يوم»، وبهذا استولى الخوف واليأس على الجميع، لكن الســاحر عندمـا رآهـم يبكون بشكل وافـر، وآسفين من دون ضـوابـط تابع يتنبأ قائلاً: «لاتبكوا، فـالذي علينا هو بالحري أن نصلي وأن نأمل، بأن يعاق بشباك ذنوبهم، ومن الممكن للصليبيين، مثمـلا فعلوا مؤخـراً في دمياط، أن يفقدوا حظوة المسيح، ربهم، الذي يحب نقاء الشرف»، وبهذه الطريقة ضعف خوفهم إلى درجة ما.

الميلانيون يحرقون الهراطقة بينهم

وقام الميلانيـون في هذه الآونة، من خلال الخوف من العقوبة، وليس من خـلال حب الفضيلة، ولكي ينقذوا اسمهم الصـالح، ومن أجل أن يكونوا متحررين أكثر في الاجابة على التهم التي عملت ضدهم من قبل الامبراطور، فأحـرقـوا الهراطقـة الذيـن سكنوا مـدينتهم بأعـداد كبيرة، وبهذه العمليـة نقص عدد سكان المدينة كثيراً، وذلك بسبب أنهم كـانوا خـــائفين على أنفسهم، لأنهم كـــانوا مثـل بقيـــة الايطاليين من أعـــداء الامبراطور، من الحرمان مـن التمتع بالهدنة، وكانوا واثقين تمامـاً بالبابا، الذي وعـدهـم أنه لن يبرم أي صلـح —ولا بأي شكل من الأشكال— مـع الامبراطور، مـن دون أن يخبرهم، ومـع ذلك وجـــــدوا أنفسهـم مرعوبين من صدور قـرار قضائي ضدهـم، وتدمير شامل لهم في المجمع العام ا لمزمع عقده.

حرمان سيمون النورماني من جميع منافعه إلاّ واحدة

في هذه الآونة، وبسبب الغضب الانتقـامي للملك، جـرى حـرمـان سيمـــون النورمـاني، الذي كـــان لبعض السنين التي خلت، المستشـــار الرئيسي للملك، والحافـظ للختم الملكي، وجـــاء حـــرمـــانه بمـــوجب

سلطات البابا، من جميع منافعه باستثناء منفعة واحدة، وطرد بالقوة من رئاسة شمامسة نورويك، وبما أنه كان مستحوذاً على حصة مؤلفة من عدة منافع، ولكي لايبدو البابا أنه قد وضع يده عليه ثقيلة جداً، ومع أنه لم يظهر هناك أي واحد قد تدخل من أجل سيمون المذكور، فإن البابا حدّد كمية دخل سيمون المذكور بمبلغ مائة ألف مارك، وبذلك صار علامة للنقد لدى معارفه، وهكذا جمع ثمار طرقه، كما قال الشاعر:

إنه إذا ما نهض الرجال الأشرار، إنني لن أشكو الآن،

فهم يمكنهم الصعود فقط حتى السماء، لكنهم سوف يسقطون من جديد.

ولقد كان هذا هو الرجل الذي قدم المشورة الشريرة، والمؤذية للمملكة، وهو الذي تسبب ببقاء النائب البابوي في انكلترا، عندما كان مستعداً للسفر للشطر الآخر من الألب، وهو الذي بحضورالبابا، عندما سئل من قبله، لماذا لم يحب ملك انكلترا رعاياه الطبيعيين، بل جلب الأجانب ليكونوا مستشاريه، أجاب: «لايوجد في هذه الآونة ولا واحد انكليزي برهن على الاخلاص في انكلترا، يمكن للملك أن يثق به وباخلاصه»، وهوالكلام الذي أغضب المعلم روبرت سمركوت، الكاردينال، والذي كان انكليزياً من حيث المولد، حيث قاطعه، ووجه اللوم بحدة إليه.

أخبار سارة من الأرض المقدسة

أثناء هذا العام، وبعد جميع الآلام والمعيقات التي عانى منها عباد خطوات المسيح، من الفرسان الصليبيين جداً في الأرض المقدسة، أعطى الرب مواساة عظيمة إلى شعبه، حسبما ورد خبر ذلك في الرسالة التالية:

«من الراهب هيرمان أوف بيريغورد Hermann of Perigord، الذي هو بنعمة الرب المعلم

المتواضع لفرسان الداوية المساكين، إلى أخيه المحبوب بالمسيح، المعلم روبرت ساندفور رئيس بيت الفرسان المذكورين في انكلترا، تحيات في الرب:

إننا نرغب في أن نعلم جماعتكم، انه بعدما أقام الجيش الصليبي لوقت طويل فوق الرمال، وهو منهك لايعمل شيئاً، ولايستطيع اتخاذ قرار حول الطريق الذي سوف يتبناه، أو ما الذي سوف يعمله، حتى قام الرب أخيراً فزاره وهو الرب القائم في عليين، وذلك ليس بفضل محاسنه، بل بفضل رحمته المعتادة، لأن سلطان دمشق، قد قام ليس لخوفه من الصليبيين، بل لتدخل اعجازي من الرب، فأعاد إلى السلطة الصليبية المنطقة كلها، الممتدة بأكملها من نهر الأردن، ومع هذا ميثاق واتفاقية بين الفريقين، قضت بأن الفريق الأول سوف يساعد الفريق الآخر إلى أقصى طاقته، في الدفاع عن بلاده ضد سلطان مصر، وأن لايعمل أي واحد من الفريقين مصالحة مع السلطان المذكور، من دون موافقة الفريق الآخر، وجرى استقبال هذه الاتفاقية بموافقة عامة، مبارك الرب من أجل كل شيء، الذي أمن هذا»، وقد قيل بأن هذا كله قد عمل نتيجة للنبوءة التي لم تكن لصالحهم، وهي النبوءة التي أتينا على ذكرها في الصفحة المتقدمة.

وكان الرسول الذي حمل هذه الأخبار من الأرض المقدسة، قد التقى باسطول الايرل رتشارد وهو مسافر بشكل موفق، كما أنه أعلن، أن سلطان دمشق، قد اقترح بشكل مؤكد تماماً بأنه سوف يتلقى طقوس التعميد».

رسالة الامبراطور إلى ملك إنكلترا

وفي هذه الآونة، كتب الامبراطور، الرسالة التالية إلى ملك انكلترا:

«من الامبراطور إلى الملك، تحيات:

إنظر إلى أي مدى عمل ضدنا في حالة الضغوط الحالية، اللومبارد،

والكاهن الأعلى للرومان، وذلك بمشورته المريضة الغاضبة، فهذا ما أفادتكم به التقارير العامة، بما فيه الكفاية، وتبصر كيف أنه قبل أن يحمل السلاح، قد ألقى جانباً جميع الاحترام للديانة، ولكرامة منصبه الحبري، وعيّن نفسه قائداً، ومقدماً لرعايانا العصاة، ولذلك نطالب بعقد مجمع عام، وبشكل خاص حضور رسل من عندكم، ولاأعتقد أن هذا سر لجلالتكم المخلصة، وثانية، إنكم فيما أعتقد قد علمتم كيف أنه بمبادرة من قبل بعض إخوانه، الذين كانوا يصممون خطة للتخلص من مثل هذا الخطر، وكيف أن جلالتنا تلطفت بالموافقة أكثر مما توقعوه وسألونا إياه، واستبعدنا اللومبارد فقط، فلم نسمح، باسترداد أنفاسهم، بوساطة الهدنة، وبعيداً عن الغضب، وهو أمر غير معتاد بالنسبة للكهنة، وقد ابتغينا تجنب فضيحة عامة، وأن نعثر على وسائل لإعادة تأسيس السلام، كي لانؤخر تحرير الأرض المقدسة.

وهو على كل حال، لم يسمح للومبارد، الذين كان متعاهداً معهم، باستبعادهم من هدنتنا، عادّاً معاناة الميلانيين والمرتبطين بهم أكثر أهمية من الانشطار، الذي انقسم به العالم كله، وعندما لم نوافق على هذا بأية وسيلة من الوسائل، ولم نسمح للذين هم مجرمون بالخيانة ضدنا، بأن يكونوا مشمولين بهدنتنا، أو أن نسمح لهم بأن يزدادوا قوة بوساطة الحماية البابوية، بأي شكل من الأشكال، وأخيراً عندما رأى بأن المتمردين المذكورين ضدنا، كانوا ضعفاء بالشجاعة بأنفسهم، وأنه لايمكنه أن يمنحهم الخلاص بوساطة السلام ولو لبعض الوقت، قام بعد ذلك بتحويل عقله لإبداع خطط أخرى، وسعى بوسائط الأسقف المحترم لبريشيا، الذي كان قادماً إلينا، ليتولى اقناعنا، بحكم أنه كان شاغلاً نفسه (كما ذكر) في استدعاء الرسل من لدن عدة ملوك وبعض الأمراء، والأساقفة من البلدان الغربية إلى المجمع، في سبيل إعادة تأسيس السلام بيننا وبين الكنيسة، بأن ندخل العصاة اللومبارد المتقدم

ذكرهم بالهدنة معه، وهي الهدنة التي سوف تستمر حتى العيد المقبل لقيامة ربنا، معطياً سبباً لذلك، أنه من خلال هدنة عامة، سوف يجري تقديم الأمن للذين جرى استدعاءهم إلى المجمع.

أصغ إلى طريقته العجيبة هذه بالتلاعب علينا، وتصاميمه الماكرة جداً في سبيل القضاء على قضيتنا العادلة، حيث تراه أحياناً يتظاهر بأنه يرغب بأن يحتفظ بالسلام معنا، فيقدم مظهراً للوئام معنا، في سبيل أن يتمكن هؤلاء اللومبارد في تأسيس عصيانهم، بأن يكسبوا بوساطة الهدنة فرصة لاسترداد أنفاسهم، ومن ثم التمكن في الوقت نفسه بالحصول بحرية أكبر على مساعدة الأساقفة، القادمين للالتحاق بالخصام ضدنا.

وهكذا يمكنك أن ترى بوضوح بأنه يريد من عقد هذا المجمع، زيادة الخلاف وليس صنع السلام، وانتبه إلى شكل الدعوات، التي لم يرد فيها ذكر قيامه بإعدادات من أجل السلام المقبل، باستثناء تأكيده بأن الدعوات الحالية هي ضرورية لتسوية القضايا الكبيرة والصعبة للكنيسة الرومانية، وانظر إلى الوقت، عندما سعى إلى فرض النائب البابوي علينا، قبل المجمع، وبعدما قاتلنا بطريقة عدوانية، وقدّر الأشخاص الذين دعاهم، ورفضه رسل جلالتك، الذين غالباً ماعرضت من خلالهم العمل على ترتيب هذا السلام معه، وهو على سبيل المثال وجّه الدعوة بإلحاح لحضور هذا المجمع إلى كونت بروفانس، الذي هو متمرد مكشوف ضد جلالتكم، وإلى دوج البندقية، وإلى مركيز أوستيا، وإلى كونت القديس بونيفاشيو Bonifacio, وإلى ألماريك دي رومانديولا Almeric de Romandiola, وبياكوين Biaquin, وغوستينو دي كامينو Giustino de Camino, وبولص ترافيرساري Traversari, فهؤلاء بعدما قدم لهم هدايا مالية، حثهم —كما هو واضح من التقارير العامة— على إلحاق الضرر بنا.

وعلى الرغم من هـذا كله، واحتراماً منـا للملك الذي هو في عليين، رأينا من المناسب الاجـابة على هذا المدعـو أسقفـاً، لأنـه ليس لدينا أية خلافات مع الكنيسة الرومانية المقدسة، التي هي أمنا، بل إننا ندافع عن القضيـة العـادلة ضـد عـدوان هذا الحبر الرومـاني، ونبعـد المضـار التي عملت من قبله..

ومع هذا، لقـد رغبنا دوماً، ومازلنا نرغـب، في أن نكون بسلام، في سبيل أن نتجنب شقاق عام في العالم، ولكي لاتكون الترتيبات من أجل السـلام آتيـة من أطراف نائيـة، قمنا من خـلال هذا الأسقف المذكـور، ومن خلال أشخـاص صالحين آخرين، كـانوا على دراية بعدالة قضيتنا، وكانوا راغبين ومتطلعين لترتيب السلام وإعداده فوراً، في سبيل التمكن من إزالة هذه الشرور على الفـور من بيننـا، كما أننا وافقنا على الدخـول بهدنة مع الحبر المذكـور، مع أن ذلك ليس لصـالحنـا، ومع الذين كـانوا مستـعدين لجمـيع فـرص الحرب ضـدنا، آملين بـالهدنة، مثل الأمل بمـرقاة حفظ الحيـاة، بأن نصعـد إلى الأماكن العـاليـة للسـلام بسهـولة أكثر.

أمـا بالنسـبة إلى اللومبـارد المتمـردين ضـد مقـامنا الملكـي، سـوف نظـل عـلى الـدوام، وكما فعلنا دومـاً، متمسكـين بإقصـائهم عن جميع العـلاقـات والارتبـاطـات بهذه الهدنة، كما أننـا، في الحـالة الحـالية الحـرجة للأمـور بيننا وبينه، لن نسمح بعقـد المجمع من قبله، الذي هو مكشـوف لـلامبراطورية، لأنه يتـوجـب أن نعـده غير مـوائم البتـة لنا وللامبراطورية، كما لن نسمـح لجميع نبـلاء البـلاد بعـرض قضيتنا على محكمـة مشكوك بها، أو لأن يتخذ قـرار بشأنها من قبل المجمع الكنسي، ونرفـض منح أي أمـان بالمـرور للأشخـاص أو المقتنيـات، للعبـور خـلال الأراضي الخاضعـة لحكمنا، وذلك يشمـل جميع المدعـوين إلى المجمع.

وبناء عليـه، إننـا بهذه العـروض نحث جـلالتكـم على نشر إعـلاننا الملكي هذا، بوسـاطة كل واحد من أساقفـة مملكتكم، وأن تنشروا ذلك في الخارج، حتى لايأتي أحـد إلى هذا المجمع، ولديه أية ثقة بتسلم أمـان عبور منا، لأننا مهما كنا راغبين في اظهـار الاحترام لرعايا مملكتكم، على أساس العـواطف الخاصة التي نحملها نحـوكم، مع ذلك لايجوز لنا أن نكون متسامحين تجاه الوقاحة الموجهـة ضدنا من قبل الذين سوف يأتون بناء على دعـوة من عـدونا. صـدر من معسكرنا، لـدى محاصرة فيـانزا Faenza, في هذا اليوم الثـالث عشر من أيلول، في العلامة الثـالثة عشرة».

البواعث التي أقنعت الامبراطور بالسعي للوقوف في وجه المجمع

كان الامبراطور مثاراً لأسباب باطنية، ولأسباب أخرى، وخشية منه، أن الخيانة قـد خططت ضده في عقد هـذا المجمع، لذلك اتخذ اجراءات للوقـوف ضـده، كما أنه كـان منذراً جزئيـاً بالأسبـاب التي ورد ذكـرها أعلاه.

وبناء عليه، اشتكى الامبراطور في المقـام الأول من الموعد غير الموائم والمفاجىء للتسوية، الأمر الذي لم يكن موافقاً عليه البتة.

ومجدداً لأنه كان قـد ترتب من قبل، وتقرر بمـوجب موافقـة متبادلة من البـابا وكـذلك من الامبراطور، بأن لايقـوم البابا بدعـوة المدعـوين لحضـور المجمع، عندما سيجـري عرض قضيـة الفريقين بشكل خـاص للمناقشة.

ومن جـديد، صحيح أن المجمع كـان سيـدعى إليـه من أجل إعـادة السـلام وتثبيته بقـوة، بينهما، وليس من أجل سبب آخـر، لم يذكر البـابا هذا السبب في مـذكـرة الدعـوات، بل الذي ذكـره كـان فقط: «تسـوية

المشاكل الصعبة للكنيسة»، وبذلك طمس كلياً القضية التي من أجلها بشكل رئيسي توجب الاستدعاء، وبذلك خرق وعوده التي عملها، وكانت قد تأكدت من على الطرفين.

ومجدداً، قال الامبراطور بأن البابا قد دعا إلى المجمع أعداء الامبراطورية المعلنين والمكشوفين (الذين ذكر الامبراطور أسماءهم في رسالته)، وقد رشاهم بهدايا فخمة، حتى يستجيبوا للنية الفاسدة، ولكي يوصموا باسم خونة إلى الأبد، هم وذريتهم، فإلى مثل هؤلاء الناس كان سيعهد بمهمة ترتيب الأمور الصعبة للامبراطورية.

ومن جديد قال الامبراطور:

«إنه سعياً من أوتو، النائب البابوي في انكلترا، ومن ملك انكلترا للحطّ من شأني، قد سحبا تقريباً جميع أموال تلك البلاد، وتسببا بالتفوه بتكفيري، وبإعلان ذلك ضدي في تلك المملكة، مما ألحق إهانة كبيرة بالامبراطورية، ولوث كرامتنا كثيراً، ولذلك يتوجب علينا لسبب جيد أن نعدهما مع جميع أساقفة انكلترا، بمثابة أعداء لنا، وكذلك بقدر ما صبا أموالهما من أجل ايذائنا، وتلويث شرفنا ومحقه، إلى أقصى درجات قوتهما، ولم يتأثرا بحال أنني حليف للملك الانكليزي، ومرتبط به بروابط القرابة، وأنني لم أؤذيهما قط، ولذلك سوف يكون أمراً غير طبيعي، ومتناقضاً تماماً مع العقل بالنسبة لي، بأن أحاكم من قبلهما».

وقال الامبراطور مجدداً بأنه «بوساطة التأخير الذي نجم عن الهدنة التي تمّ الاتفاق عليها، والتي هي مشكوك بها من قبلنا، لابل مؤذية لنا، ففي أثناء البحث بشؤون المجمع (التي ربما لن يجري على الفور تقرير تسويتها) سوف يكون بإمكان أعدائنا استرداد أنفاسهم، وبموافقة البابا وتشجيعه، وهو الذي عيّن نفسه مقدمهم، والمدافع عنهم، وبطلهم، سوف ينهضون بقوة جديدة لمهاجمتنا».

ومجدداً قال الامبراطور بأن «البابا كان ينتظر مبلغاً كبيراً من المال، يجري استخراجه من أساقفة فرنسا وانكلترا بشكل خاص، وهو المبلغ الذي وعد بإعطائه إلى أعداء الامبراطورية، ومن هذا المبلغ يستمد البابا وهم معه ثقتهم، وفخارهم، وأن الامبراطور، بناء على ذلك، لديه سبب مسوغ بأن يخاف من النتيجة على نفسه»، وتستمد هذه العادة المقيتة أصلها من سلفه أنوسنت، الذي قام أثناء المجمع الأخير، لابل بالحري بعد انهاء المجمع، بعدم السماح للأساقفة بالمغادرة، حتى استخرج البابا المال منهم، واحداً واحداً، دون إعطاء تقدير إلى متاعب ونفقات، واضطرابات الأساقفة أثناء سفرهم.

ومجدداً قال الامبراطور بأن جميع الأساقفة، وبشكل خاص أساقفة انكلترا، يعدّون أنفسهم مرتبطين باختصاصهم ويمينهم بالبابا الذي هو مولاهم الاقطاعي، وليسوا مرتبطين بالامبراطور أو بالامبراطورية، ولذلك عدّ الامبراطور، بأن قرارهم، سوف يكون لسبب جيد، مسألة مشكوك بها، ومخشي منها من قبله، خاصة وأن البابا معروف بأنه عدوه الخاص والمميت، ويمكنه بسهولة أن يحطّ من شأن قرار كهنته، وهو أيضاً يسعى، و يستغل كل معارفه وفنونه لتدمير الامبراطور وكذلك الامبراطورية، ولكن وفقاً لما قاله أوفيد:

«المسافر الحكيم مثله مثل اللص

بالسيف يسلح نفسه،

ليس مثله، لقتال الآخرين

بل ليحفظ نفسه من الأذى».

وبناء عليه، بعدما وزن الامبراطور هذه النقاط، مع نقاط أخرى غير معروفة من قبل الناس، في ميزان البراعة العقلية، ولمعرفته بأن كثيرين كانوا يتآمرون من أجل إلحاق الأذى به، بدأ بشكل حضاري بالرسالة

المتقدم ذكرها، بإنذار جميع الذين استدعيوا وكانوا قادمين إلى المجمع، وتحذيرهم من المخاطر المحيقة بهم، و أنه سوف لن يقدم الحماية إلى الذين شقوا طريقهم خلال ممتلكاته.

وصول الإيرل رتشارد إلى الأرض المقدسة بعد رحلة موفقة

في هذه الآونة، كان الايرل رتشارد، الذي كان مسافراً في رحلته إلى الأرض المقدسة قد وصل أخيراً سالماً إلى الأرض المقدسة، وكان وصوله بعد عشرين يوماً من عيد القديس ميكائيل، إلى ميناء عكا، ووصل معه أيضاً الاسطول الأجنبي الذي التحق به، ولدى نزوله إلى اليابسة استقبل بسرور عارم من قبل الأساقفة، ورجال الدين في مسيرة، وهم يرتدون ملابسهم المقدسة، وأيضاً من قبل مقدمي الفرسان، الذين قدموا لمقابلته باحترام وافر، وذلك وسط هتافات الناس، وقرع الأجراس، وغناء رجال الدين، وموسيقى الصنوج والزمامير، بحضور مجموعة من الراقصين، وهكذا بدا وصوله أنه متحد مع سكان السماء، حيث تجددوا مع سرور لايمكن وصفه وفرح، ولذلك رفعوا أيديهم نحو السماء، وصرخوا قائلين: «مبارك القادم باسم الرب»، وفي اليوم الثالث بعد وصوله، أمر بالإعلان بوساطة صوت المنادي في عكا، بأنه ما من واحد من الحجاج الصليبيين عليه المغادرة، بسبب الحاجة إلى المال، بل عليهم جميعاً البقاء، والقتال بجرأة من أجل المسيح، وهم سوف يعيشون بوساطة الدفع من قبله.

موت إدموند رئيس أساقفة كانتربري

وبينما كان دولاب الحظ يتغير هكذا، مبدلاً مجرى الأحداث العالمية، تهاوى بالعقل وبالجسد، ادموند رئيس أساقفة كانتربري، الذي كان قد ذهب متطوعاً إلى المنفى في القارة، وكان يقول متعجباً مع تنهدات متواصلة: «آه، كم هو أفضل للإنسان أن يموت، على أن يرى معاناة

الناس والقــديسين على الأرض»، وبالنسبــة للذين ربطهم بالحرمــان، والنائب البابـوي، قام بدون اهتمام بكرامته، ولابعـدم حظوته، فحللهم، والعكس صحيح، وبناء عليـه، كان في رغبتـه بالتفـاني، ولأن يكون مع المسيح، كـان يصلي كما يلي: «الويل لي، لقـد طـال أمـد نفيي، لقـد بات كـافياً، لابل أكثـر مما هو كـاف، ذلك أنني رأيت جميع الأشيـاء المرتبطة بالتدمير والخراب، خـذ حياتي، يامـولاي وربي»، وكان رئيس الأسـاقفة المذكـور مقيماً منذ أيـام في بونتني، حيث سكن سلفـه الشهيـد المبـارك تومـــاس، في وقت مضى، أثناء نفيـــه، وفي هذا المكان، مع الـدمـــوع والصـــوم، كـان يقــدم الصلوات إلى الـرب ليـلاً ونهاراً، وإلى المبــارك تومـاس، حــول وضع الكنيسـة الانكليـزية، التي كـانـت في حـالة من الرعب هائلـة، وأخيراً أصـابه الإعيــاء بسبب التقشف، وتهاوى بسبب الحزن، ولأن جسـده بات فارغـاً، فقـد تقلص وضعف، فسقط مريضـاً مرضـاً شديداً، وبنـاء على نصيحة أطبائـه سمح بنقل نفسـه إلى سويسي Soissy في سبيل الاستشفـاء بهواء أفضل، وبعـدمـا عـاني لبعض الوقت من الذرب الشديد، تحرر من روابط الجسد، وقال وداعاً إلى هذا العالم الشرير، وغادر طريق الجسد، وهكـذا فإن روحه استبدلت بسعادة النفي في هذه الحيــاة بالعيش في الديـار السماوية، وبالفعل كــان هو في منفى، وجسده فقط عمل حجاً في هذه الحياة، وقد أنهك تحت كثير من أسبـاب الغضب، فقد حلل العصـاة ضـد الكنيسـة من عقوبة الحرمـان الكنسي المحقة، وكذلك النائب البابوي المتمرد والذي هو بدون احترام، فقـد قـام هذا بناء على مـوافقـة الملك، فــاستأنف بطيش القيـام بأعمال أخرى، ليس لها علاقة بمنصبـه، من أجل إلحاق الضرر برئيس الأساقفة المذكـور، الذي هو الأول في جميع انكلترا، وقـام مصـدر الازعـاج هذا، بإثارة أساقفة انكلترا بالقوة، وكان هنـاك واحد من الهجائين عندما كان الملك والنائب البـابوي، يتمازحـان بالحديث مع بعضهما، ويعد أحـدهما الآخـر بالتعـاون معـاً ضد كل واحـد في كل شيء، وقتهـا تولى الهجـاء

لومهما بما فيه الكفاية بقوله الكلمات التالية:

«امض، امض، الآن سوف أعرف أنه عندما يدخل الراعي والذئب في معاهدة سلام، سوف تقع مذبحة دموية بين الأغنام».

دفن إدموند رئيس أساقفة كانتربري

وبهذه الطريقة، غادر بناء عليه، في السادس عشر من تشرين الثاني، في ثمانية القديس مارتن، إدموند، رئيس أساقفة كانتربري، من هذا العالم، وهو معترف، ومشابه بكثير من النقاط ذلك القديس والمعترف، وحدثت وفاته في بيت للكهنة النظاميين في سويسي، وأثناء إقامته هناك، خلال حياته، اعتقد الكهنة مرة بأنه مغادرهم وذاهب من عندهم، وبناء على ذلك قال له رئيس ذلك المكان: «لماذا أنت مغادرنا، ومبتعد عنها، يامولاي؟ لماذا سوف تهجرنا، إنك سوف تتضايق أثناء السفر، استرح بسلام معنا»، وعلى هذا ردّ رئيس الأساقفة قائلاً: «إن قلبي سوف يبقى معكم»، غير أنهم لم يفهموا كلامه، فهو على كل حال وقع مريضاً، ومات هناك، وبعد موته جرى فتح جسده، وتم دفن أحشائه وقلبه هناك، وكان ذلك المكان على بعد عشرين فرسخاً، أي أن تقول سفر يومين عن بونتني، وهكذا انفتحت أعينهم أخيراً، وفهموا معاني الكلمات التي تفوه بها رئيس الأساقفة.

وعند ذلك قام كهنته وخدمه، بلف جسده المقدس (كما كانت العادة) في ثيابه الحبرية، وحملوه إلى بونتني، على محفة خشبية، ليدفن هناك، لأنه في أثناء حياته، عندما رأى أنه لابد مغادر لهذا العالم بالحال، عهد بقضيته إلى الرب وإلى القديس توماس (الذي عندما نفي من انكلترا للسبب نفسه، مثله هو، وجد ملجأ هناك) ومنح جسده إلى كنيسة بونتني.

وعندما كانوا مسافرين، حاملين لجسده المقدس، من أجل دفنه، تدفق

المرضى عليه بسبب شهرة قداسته، وبثقة سألوه راجين أن يعودوا إلى الصحة بوساطة المسيح، ومن خلال صلواته، وفي أحد الأيام، وبسبب فضائله الكبرى، تنازل الرب ثلاث مرات فأشار بوضوح إلى هذا الرجل المقدس، وبسبب فضائله الكبرى، ومع معجزات كبيرة، وعنوان القداسة، من أجل ذلك جرى غناء ترنيمة الملائكة: «نحن نثني عليك، يارب» ثلاث مرات بشكل مهيب وتقوي.

وبناء عليه، فإن بونتني، التي كانت في وقت مضى مكان التجاء ومأوى لتوماس المبارك، تسلمت باستحقاق جسد المعترف، الذي عندما جرى دفنه، اكتشف أن الدود قد أكله، وتلاشى بوساطة المسوح، وأن ركبتيه، بسبب الانحناء المتواصل في الصلاة، قد ظهرت عليهما علامة وتجملتا بصلابة مقدسة، وهذا كله قد تحدث عنه بشكل مكشوف القديس توماس المذكور.

انطلاق أساقفة إنكلترا نحو روما

أثناء هذه التبدلات المتنوعة للأحداث، تراجع الامبراطور عن مراعاة الهدنة المتفق عليها من قبل، وذلك مثلما كان البابا قد فعل من قبل، ثم إنه قام بوحشية بالتضييق على المدينة التي كان يحاصرها، وقام الأساقفة الانكليز —على كل حال— والنائب البابوي، في طاعة منهم لأوامر البابا، بالاستعداد بجرأة، مع أن ذلك شكّل مخاطرة كبيرة لأنفسهم، لعبور الألب أثناء عيد الميلاد المقبل.

تكريس بطرس دي ايغيوبلانشي أسقفاً على هارتفورد

في هذه الآونة، وفي يوم الأحد التالي قبل عيد الميلاد جرى تكريس المعلم بطرس دي ايغيوبلانشي Aigueblanche أسقفاً على هارتفورد، وكان ذلك في كنيسة القديس بولص في لندن، وذلك بحضور الملك، والنبلاء، ووسط هتافات الجماهير، وفي الوقت نفسه

حـرك رهبــان كـانتربري بنشــاط دعـواهم ومطلبهم بممارســة امتيـاز كنيستهـم، وعرضوا ذلك على النائب البابوي وعلى رئيس أساقفة يورك، وكذلك على الأساقفة الآخرين، والنبلاء الذين كانوا حاضرين.

جلب تاج الشوك العائد للرب إلى فرنسا

ازدهرت فرنسا في هذا العام، وفـرحت، بنيلها المنح من مولانا يسوع المسيح، لأنها إلى جـانب المكافأة التي نالتهـا مع جسد ادمـوند المعترف، الذي نقل نفسه من انكلترا، لقد فرحت بالحصول على تاج ربنا المصنوع من شـوك، وجاء الحصول عليـه من القسطنطينية، لأنه في أيـام الحاجة، وعندمـا كـانت الأمـوال غير كافيـة (وهو الحال المعتـاد بشكل عـام مع الذين يتابعون الحرب)، بعث بلـدوين، امبراطور القسطنطينية رسالة إلى الملك الفرنسي يقول فيها، بما أنه لامال لديه، إذا ماأعطاه الملك الفرنسي مسـاعـدة مـاليـة فعـالة، سـوف هو يعطيـه —أي الامبراطور— التـاج الحقيقي لربنا، الذي نسجه اليهود ووضعوه على رأسه عندما كان سيتألم على الصليب من أجل تخليص الجنـس البشري، وأنه سـوف يفعل ذلك تقديراً منه لروابط الصداقة القديمة بينهما، ولقرابتهما.

وقام الملك الفرنسي بناء على نصيحة مستشاريه الطبيعيين، فوافق عن طواعية على هذا، وبالوفـاق مع أمه، بعث بكرم بمبلغ كبير من المال إلى الامبراطور بلدوين، الذي لحق الإنهاك أمـواله بسبب الحروب المستمرة، وهكذا أعاد تجهيـز خزينته، فشجع ذلك أعوانه، وجيشـه وشعر بلدوين بالثقـة والأمل بالحصــول على نصر على الإغــريـق، ومقـابـل هذا تمّ الحصـول على منفعة كبيرة من الملك، وقـام الامبراطور، تنفيذاً لوعـوده ولاتفـاقـاته، فـأرسل بوفـاء إليـه تاج المسيح، الـذي هو أعلى قيمـة من الذهب ومن الأحجــار الكريمـة، وبناء عليـه جـرى استقبــاله بمهـابة وتقـوى، وذلك لصـالح المملكة الفـرنسيـة، وفي الحقيقـة لصـالح جميع اللاتين، واحتفي به بمسيرة وسط قـرع الأجراس، والصلوات المخلصـة

للمؤمنين أتباع المسيح، ووضع باحترام لائق في بيعة الملك في باريس.

الاجتياح التتاري

في هذا العـام، حتى لايستمـر السرور البشري طويلاً، وكي لايطول أمد شعـور العالم بالبهجة، من دون أن تمتـزج بالنحيب، قام قطيع هائل من عـرق أبناء الشيطان المقيت، أي التتـار، فتـدفق أفـراده من مناطقهم ذات الحدود الجبليـة، وشقـوا طريقهـم بين الصخـور التي بدت وكأنها لايمكن خـرقهـا، واندفعـوا وكـأنهم شيـاطين قـد تحرروا من ترتاروس Tartarus (ولهذا السبب يعـرفـون باسم تتـار، لأنهم كـانوا سكان ترتاروس) واجتـاحـوا المنطقـة، حيث غطوا وجـه الأرض مثل الجراد، وعاثوا في البلدان الشرقية ودمّـروها تدميراً مريعاً، ونشروا النار والقتل حيثما ذهبوا، وجـالوا خلال البلـدان الاسلامية، حيـث اجتثوا المدن إلى الأرض، وأحـرقوا الغـابات، وهدموا القـلاع، وقطعوا أشجـار العنب، ودمروا الحدائق، وذبحوا السكان والفلاحين، وكـانوا إذا ما أبقوا بعض الناس أحيـاء، ممن رجوهم الحفـاظ على حياتهم، أرغموهم، كعبيـد من أدنى الدرجات، على القتال أمامهم ضد أقربائهم، وإذا ما تظاهروا فقط بالقتال تظاهراً، أو قاموا ربما بإنـذار أبناء وطنهم حتى يفروا، كان التتار الذين يسيرون خلفهم في الساقة يتولون قتلهم، وإذا مـا قاتلوا بشجاعة، فإنهم مـا كـانوا يحصلون على شكر عن طريق التعـويض، وهكذا أسـاء هؤلاء المتوحشون معـاملة أسراهم، وكأنهم كانوا من الدواب، والرجال لديهم ليسـوا مـن البشر، ولهم طبـائع الحيـوانات، أو بـالحري تتـوجب تسميتهم بالتنينات وليس البشر، متعطشين وراء شرب الـدمـاء، وتمزيق أجسـاد الكلاب وبنـي البشر والتهـامهـا، وهم يلبســون أنفسهم جلود الثيران، ويتسلحـون برماح حـديدية، وهـم قصـار القـامة، وأجسـادهم شديدة الكثافة، وقوية جـداً، لايشاهدون في المعركة، ولايمكن هزيمتهم في العمل، وهـم لايرتدون دروعاً على الأجزاء الخلفية من أجسادهم، بل

يدافعون عنها ويحمونها من الأمـام، وهم يشربون الدماء التي تتدفق من القطعـان، ويرونها شهية ولذيـذة، ولديهم خيول عـريضـة وقوية جـداً، تأكل أوراق الأشجـار، لابل الأشجـار نفسها، وبسبب قصر قـوائمهم، من الممكن الاعتـلاء على ظهورهم ثلاث خطوات، بدلاً من الركـابات، وليس لديهم شرائع بشرية، ولايعـرفون الرحمة، وأكثر وحشيـة وشراسة من الأسود أو الدببة، ولديهم قوارب مصنوعة من جلود الثيران، ولكل عشرة أو اثني عشر رجـلاً منهم واحـد يتشـاركـونه فيما بينهم، وهم بارعون بالتجـذيف وبالسباحة، ولذلك تراهم قـادرين على عبور أسرع الأنهار، من دون أي تأخير أو اضطراب، وعندمـا لاتكون لديهم دمـاء، هم يشربون بنهم المياه العكرة لابل حتى المياه الموحلة.

ولديهم سيوف وخناجـر بحد واحد، وهم رماة مـاهرون، لايوفرون جنساً، ولاعمـراً، ولارتبة، ولايعرفـون لغة أية بلد من البلدان، باستثناء لغتهم، التي يجهلهـا جميع النـاس والشعـوب، لأنه حتى الآن لم يجرب أحد الوصـول إليهم، أو هم أنفسهم قـاموا بالاتصال بسـواهم، بحيث يمكن الحصـول على أية معـرفـة بعـاداتهم أو أشخـاصهم، من خـلال التـواصل العـام مع الناس الآخريـن، وهم يأخـذون قطعـانهم معهم، وكـذلك يفعلون بالنسبـة لزوجـاتهم المدربات على القتـال، مثل تدريب الرجـال، وهم يدخلون إلى أراضي المسيحيين بقـوة سريعـة كـالبرق، فيعيثون فسـاداً في البلاد، ويقترفون مـذابح كبيرة، ويحدثون رعباً لانظير له، وخوفاً في كل انسان.

ولهذا رغب المسلمـون، والتمسوا السماح لهم بالـدخول بتحـالف مع المسيحيين، في سبيل زيادة قـوتهم، حتى يتمكنوا مـن مقـاومـة هذه الوحـوش البشرية، ويعتقد المسلمـون هؤلاء ذوي الذكرى المقيتـة، أنهم من الأسبـاط العشرة التـي تخلت عن شريعـة مـوسى، واتبعـوا عبـادة العجول الذهبية، وأن الاسكندر حـاول أن يحبسهم خلف شعاب جبال

قزوين، بوساطة أسوار بنيت بملاط من القار، ولكن بما أن هذا العمل فوق طاقة البشر، ومن غير الممكن انجازه، طلب العون من رب بني اسرائيل، وبناء على ذلك اتحدت شعاب الجبال أحدها مع الآخر، وصار المكان لايمكن الوصول إليه، كما لايمكن عبوره، وحول هذا المكان يقول يوسفيوس: «كم من الممكن أن يفعل الرب لعبيده المخلصين، عندما فعل هذا كله للكفار، ومن هذا واضح بأن الرب لم يكن راغباً بخروجهم، ولكن كما هو مكتوب في التاريخ اللاهوتي، هم سوف يخرجون في نهاية الدنيا، وسوف يقترفون مذبحة كبيرة بين البشر»، وانه لأمر مشكوك فيه، فيما إذا كان هؤلاء التتار، الذين ظهروا في هذه الآونة، هم الناس المقصودين بالذكر، لأنهم لايتكلمون اللغة العبرية، كما أنهم لايعرفون شريعة موسى، كما أنهم لايتمتعون، ولايدارون أو يحكمون، من قبل مؤسسات قانونية، ويردون على هذا، إنهم مع ذلك، من الممكن أنهم هم أنفسهم بعضاً من الذين حبسوا في الجبال، والذين تقدمت الاشارة إليهم من قبل، وبما أنه كان هناك في أيام حكومة موسى عصاة في قلوبهم، ضلوا فاتبعوا طريق الشيطان في التفكير، وبذلك اتبعوا الأرباب الأجانب، والعادات غير المعروفة، ومثل هذا هم اليوم، وبطريقة أكثر إدهاشاً، وبسبب انتقام الرب، كانوا غير معروفين لدى جميع الأمم الأخرى، وكانت قلوبهم ولغاتهم قد تمازجت، وعاداتهم قد تغيرت إلى الطبائع الوحشية والتصرفات الحيوانية غير العقلانية، وهم الآن يعرفون باسم التتار، ونالوا هذا الاسم من نهر اسمه تتار، يجري خلال جبالهم، فمن خلاله اتخذوا طريقهم، وذلك مثلما يطلق على نهر دمشق اسم فرفر.

آلام الأسرى الصليبيين في الأرض المقدسة

وطوال هذه المدة كلها، كان النبلاء الفرنسيون الذين أسرهم سلطاني: دمشق ومصر، محبوسين في سجن ضيق، وفي أحد الأيام أمر سلطان

مصر ببعض الأسرى من النبلاء الفرنسيين بجلبهم إلى أمامه، وكان من بينهم الكونت أميرك Almeric دي مونت فورت، حيث أمر به للمثول بحضرته، لأن السلطان قد عرف بأنه كان من أكثر النبلاء مكانة بين أسراه، وكان جاهلاً بمراتب جميع الآخرين، ووقتها خاطب السلطان الكونت قائلاً:

«هل هناك أي نبيل آخر من الجنس الفرنسي، أسيراً غيرك»؟ وعلى هذا ردّ الايرل بأنه لايوجد، فهو كان يؤثر بقاء السلطان جاهلاً بدلاً من أن يعرف هذا، لأن اطلاق سراحه سوف يكون وقتها الحصول عليه أيسر بكثير، وبناء عليه عمل السلطان بحثاً أكثر يقظة، فاكتشف رتشارد عمدة بومونت، وبعض النبلاء الفرنسيين الآخرين من ذوي المراتب، وعلم بوجودهم بين أسراه، ولذلك بات غاضباً جداً من الكونت لأنه كذب عليه، مع أنها كانت كذبة تقية، تلك التي أخبره بها، وأمر به فوضع في سجن مضيق عليه في قلعة إسمها المرقب، ومقت الأمراء المسلمون خداع وزيف الفرنسي، وسلطان دمشق الذي كان في حالةحرب ضد أمير مسلم آخر، كان من أقربائه، واسمه أيوب، والذي ضده طلب مساعدتنا، ودخل في معاهدة معنا، بات الآن على الرغم من شروط المعاهدة التي دخل بها مع الصليبيين —كما ذكرنا من قبل— مرتبط بصنع سلام بشكل سري مع الأمير المذكور، وذلك بسبب أنه لم تكن لديه ثقة بكلام أو بمواثيق الصليبيين، ولهذا لحق الخزي بالصليبيين، وتلاشت آمالهم.

ملك أراغون وكونت بريتاني يعقدان سلاماً مع حاكم الناصرة

وعندما غدت هذه الأشياء معلومة، وفي حوالي نهاية السنة، انحدر الشعور الفطري بالنبالة في عقول الفرنسيين وتدهور، لأن ملك أراغون، وكونت بريتاني، وبعض الآخرين من النبلاء الفرنسيين في الأرض المقدسة، كانوا غاضبين من ازدياد شهرة الايرل رتشارد، في

حين كانوا هم أنفسهم، بالفعل، جيشاً محطماً، وبقايا حشد قد أصابه التمزق، وقد أثيروا بلدغات الحسد، وقد كرهوا شباب الإيرل مثلما كرهوا أصله الانكليزي، وانعدام خبرته، وكفاءته، ولذلك مضوا بشكل سري إلى الزعماء المسلمين، من دون معرفة الجيش بشكل عام، ولدى تسلمهم مبلغاً كبيراً من المال منهم، منحوهم هدنة لمدة عشر سنوات، ثم إنهم حزموا سراً أمتعتهم، وقاموا وأثقالهم مليئة بالذهب، فمضوا إلى ميناء يافا، وهكذا غادروا الأرض المقدسة بشكل غير مشرف.

موت جون فتز روبرت

ومات في هذا العام جون فتزروبرت، وكان رجلاً من أصل نبيل، وواحداً من البارونات الرئيسيين في المقاطعات الشمالية لانكلترا.

سقوط بناء جديد

وحدث في العام نفسه، في ليلة عيد القديس جورج أن انهار بناء عمل من الحجر، مع بوابة رشيقة، وسقط إلى الأرض، وذلك مع الأعمال الخارجية والناتئة، وكأنه تعرض لهزة أرضية، وكان هذا البناء قد شيده الملك مقابل نفقات وجهد كبير، ولدى سماع الملك بهذه الواقعة، أمر بإعادة البناء المنهار، وأن تكون عمارته أكثر أماناً.

الوقائع المتنوعة للعام كله

وكانت مجريات أحداث هذا العام، غير موائمة لمملكة انكلترا، ومعاكسة للكنيسة المقدسة، وكانت مؤذية للبلاد الشرقية وكذلك للبلدان الغربية، وكان الفصل لمدة ثلاثة أشهر متوالية، هي شهر آذار مع الشهرين اللذين تلياه، جاف ممطر، وكذلك في بقية الأشهر، ومع ذلك أنتج كميات وافرة من القمح والفواكه، لكن الخريف الممطر إلى حد كبير خنق المحاصيل الوافرة، وكان هناك فياضانات في المناطق الايطالية

تسببت من الأمطار، التي انصبت مياهها وتدفقت من الجبال إلى السهول، وكان ذلك في نهاية هذا العام، ونادراً ما تركت جسراً واحداً سليماً.

معركة مدهشة بين الأسماك في البحر

ومع أنه وقعت حوادث مدهشة لم يسمع بمثلها في هذا العام، رأينا من المفيد والمناسب أن نذكر في هذا الكتاب حادثة أكثر عجباً من البقية، وبما أنه من طبيعة البحر أن يلفظ على اليابسة الأجساد الميتة الملقاة به، فقد جرى قذف حوالي أحد عشر حوتاً إلى جانب مخلوقات بحرية مخيفة على شاطىء البحر في انكلترا، وهم أموات، وكأنهم قد جرحوا في بعض أنواع الصراع، لكن ليس —على كل حال— بهجمات من الانسان أو ببراعة منه، وأعلن البحارة، والناس الشيوخ، الذين كانوا يسكنون قرب الساحل، والذين كانوا قد شاهدوا عجائب الأعماق عندما كانوا يتابعون أعمالهم في المياه الواسعة، ويرتحلون إلى البلدان النائية، أعلنوا أنه كانت هناك معركة غير اعتيادية بين الأسماك، والوحوش والتنينات في الأعماق، وقد تسببت جراحات بعضها بعضاً، وعض بعضها بعضاً بموت العديد منها، والذين قتلوا منها قد رميوا على الشاطىء، وقامت إحدى الأسماك، وكان لها حجم كبير مرعب، فشقت طريقها إلى نهر التيمز، وتمكنت بصعوبة، ودون أن تصاب بجراح من المرور بين أعمدة النهر، وقد تابعت سيرها حتى عزبة للملك اسمها مورتليك Mortlake, حيث لحق بها عدد من البحارة، وأخيراً تمكنوا من قتلها بعد كثير من المتاعب، وذلك بوساطة ضربات لاتحصى من الرماح، وعلى هذه الواقعة عقب واحد من الشعراء مازحاً:

إلى جنازتها قدمت سمكة عملاقة

قد أرسلت من نبتون لعمل صحن فاخر

النائب البابوي يسعى إلى استخراج المال من الرهبان السسترشيان

وفي هذا العام أيضاً، قام النائب البابوي، في سبيل استخراج المزيد من المال، ولاشباع نهمه، فطالب بوقاحة بوكالات من رهبان طائفة السسترشيان، وقاومه هؤلاء بتصميم ورفضوا هذا الطلب، معتمدين على امتيازاتهم، وذهبوا إلى بلاط روما للحصول على مرسوم ضد هذا الاستخراج الشرير، وجلبوا معهم رسائل إلى النائب البابوي، كان محتواها هو التالي:

رسالة البابا

«من غريغوري، أسقف، إلخ، إلى النائب البابوي أوتو، إلخ:

لو أنك تذكرت بشكل صحيح، لقد أرسلنا مؤخراً رسائل بتكليفك باستخراج وكالات من رهبان طائفة السسترشيان إذا كان الغفران الممنوح إلى تلك الطائفة، لايعترض على ذلك، ثم إنه ليس في نيتنا —وكما نعتقد ليس في نيتك أيضاً— استخراج وكالات مالية منهم، غير متوافقة أو متعارضة مع غفرانهم، وإننا بناء عليه نأمرك بالاكتفاء بالطعام العادي، من دون أكل سمك، عندما تذهب إليهم —وذلك حسبما تحتويه الغفرانات المتقدمة الذكر— وأن لاتسمح باستخراج وكالات مالية منهم، اعتماداً على سلطات هذه الرسائل».

القديسة اليزابث والقديسة هيلدغاري

تصبحان مشهورتين في ألمانيا

وفي هذه الآونة أصبحت القديسة اليزابث Elizabeth مشهورة ومتميزة في ألمانيا بوساطة عدد كبير من المعجزات، وتدفقت حشود من

الحجاج المسيحيين، من أمم بعيدة وأجنبية، على قبرها، لنيل الاحسان، وكانت هذه القديسة أثناء حياتها، زوجة لواحد من النبلاء، يدعى لاندغريف، ولدى موته كانت ثرية جداً، ذلك أنها كانت منحدرة من أسرة نبيلة، حيث أنها كانت ابنة ملك وملكة هنغاريا، لذلك تخلت عن أبهة، وترف، ومباهج العالم، ولهذا أصيب الأساقفة ورجال الدين بالدهشة والاعجاب، تجاه القداسة الكاملة في امرأة.

أما بالنسبة للقديسة هيلدغاري Hildegaris, فقد كانت أولاً ناسكة، ثم بعد ذلك راعية دير، وكانت سيدة ذات قداسة مدهشة، فيها، في أثناء حياتها، وخلال نوم استمر لمدة أربعة أيام متواصلة، غرس الرب روح التنبؤ، ومعرفة كاملة بالحروف، أثناء حبرية البابا الاسكندر، وقد أصبحت الآن مشهورة جداً، وحيث أنها تنبأت بشكل مكشوف، وأخبرت بشكل مسبق بظهور بعض الرهبان الجدد، وبأحوالهم، ومواعظهم وبتقدمهم المفاجيء وغير المتوقع وبسبب صدق نبوءاتها، حيث يشهد على ذلك الوقت الحالي، غدت أقوالها مشهورة جداً في جميع أرجاء مختلف بلدان العالم، وقد تبرهن أنها كلمات نبيلة جداً.

حمل الامبراطورة

وفي هذه الآونة بدأ الامبراطور يشعر بتقدير خاص تجاه الانكليز، رفعهم به فوق الشعوب الأخرى، وذلك من أجل الامبرطورة ايزابيلا، أخت ملك انكلترا، التي لجمالها المتفوق ولأخلاقها نالت الحظوة لدى الجميع، علاوة على ذلك كانت الآن حاملاً، ومجدداً أعطت آمالاً جيدة إلى قرينها الأغسطس، بزيادة أخرى في أسرته، لكن في ظل طالع غير سعيد، سارت الأحداث متحولة باتجاه معاكس لم يكن متوقعاً، حسبما سنحكي ذلك بالتفاصيل.

-٧١٥٢-

عام واحد وأربعين ومائتين وألف

كيف وضع الملك النائب البابوي في المقعد الملكي

عام واحد وأربعين ومائتين وألف لتجسيد الرب، الذي كان العام الخامس والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، وفيه عقد الملك المذكور بلاطه في عيد الميلاد، في ويستمنستر، في لندن،، حيث احتفل عدد كبير من النبلاء بعيد ميلاد الرب معه، وقام الملك في يوم عيد الميلاد، بناء على مبادرة من النائب البابوي، الذي اعتاد الملك على بذل قصارى جهده لإرضائه، فأضفى مرتبة الفروسية، على حفيد النائب البابوي المذكور، الذي كان اسمه أدفوكيت Advocate, وأعطاه على الفور دخلاً مقداره ثلاثين باونداً، حيث تولى هذا الفارس المعين حديثاً بيعه، لأنه كان يعلم أن عليه مغادرة المملكة فوراً مع سيده،وفي اليوم نفسه شرّف الملك واحداً من أهالي بروفانس بحزام فارس، وأغناه بمورد كبير.

وبعد الفراغ من القداس في الكنيسة، وعندما كان الملك على وشك تناول طعام الافطار في قصر ويستمنستر الكبير، قام دون المبالاة بنظرات الشجب لكثير من الحضور، بإجلاس النائب البابوي، الذي دعاه لتناول طعام الافطار معه، في أعلى المقاعد وراء المائدة أي على مقعده الملكي، الخاص به، الذي كان في الوسط وراء المائدة، واتخذ لنفسه مقعداً على يمين النائب البابوي، في حين جلس رئيس أساقفة يورك على يساره، وأخذ كل واحد من الأساقفة والنبلاء الآخرين مقاعدهم بانتظام، وفقاً لمراتبهم وحسب سلطاتهم، وذلك بناء على رغبة الملك الذي تولى هكذا ترتيب نظام العيد.

وفي اليوم الرابع بعد عيد الميلاد، قام النائب البابوي، المستدعى من قبل البابا للتوجه إلى البلاط الروماني، من دون تقاعس، فأرسل وراء

جميع الأساقفة الانكليز، وقال لهم وداعاً، وبعد ذلك شرع برحلته لعبور الألب، وجرى تشييعه حتى ساحل البحر من قبل الملك، وسط أبهة عظيمة، وذلك مع أصوات الأبواق، وقد رافقه حشد كبير من النبلاء، وعندما كانوا مرغمين على الافتراق، افترق الملك والنائب البابوي بتعابير عن الحزن المتبادل، لانفصالهما هكذا، مع أن النائب البابوي المذكور كان الآن قد مدّد إقامته في انكلترا لمدة ثلاثة أعوام، ليلحق ضرراً بالكنيسة لايمكن ترميمه.

سفر النائب البابوي أوتو من إنكلترا

في اليوم الذي جاء عقب عيد الغطاس، بعدما تلقى النائب البابوي العناق والقبلة من الملك، أخذ سفينة من دوفر، وبعدما خلع شارات نيابته البابوية أدار ظهره لانكلترا، ولم يترك أحداً حزيناً عليه سوى الملك، والذين كان قد أمنهم على ممتلكات المملكة، ولم يكن قد بقي في انكلترا في ذلك الحين —حسبما أفيد بشكل صحيح— كثيراً من المال، وذلك باستثناء أواني وتزيينات الكنيسة المقدسة، لأن النائب البابوي المذكور، كان قد استصفى أموال المملكة كلها، وهو فضلاً عن ذلك كان قد منح بناء على إرادته الشخصية، أو بناء على إرادة البابا، أوقافاً، وكنائس، وأكثر من ثلاثمائة مورد غني، ونتيجة لذلك صارت المملكة مثل كرم عنب، عرضة لكل عابر، وهو الذي شعثته الخنازير البرية للغابات، وتركته في حالة مزرية من الدمار.

وقد ترك كنيسة كانتربري، التي كانت أكثر الكنائس الانكليزية فخامة في حالة من الاضطراب، وآلام الترمل، ومثلها في ذلك كان مثل الكاتدرائيات الأخرى، والكنائس الديرية مجردة من كل راحة ومواساة، وهو لم يمتن أي جزء من الأجزاء الضعيفة للبلاد، كما هو مبرهن على ذلك بشواهد واضحة، لأنه كان قد أرسل ليس لحماية الشياه التي تشردت، بل لجمع محاصيل المال التي وجدها، وبناء عليه، بما أنه كان

مجرداً من الفضـــائـل، وبوســـاطـة الخطط الحسنة الإعـــداد مـن قبل الامبراطور، استحق التجـريد من جميع منهـوبـاته، وبعـدمـا كـان هو الناهب، صار هو المنهوب، وذلـك وفقاً لكلمات النبي الذي قال: «ويل لك أيها السالب، أتظن أنك لن تكون المسلوب؟»، وتحتـاج هذه الوقائع لأن تروى أخبارها بشكل أوفى، فيما بعد، في الأماكن المناسبة.

قدوم بطرس أوف سافوي إلى إنكلترا

وفي هذه الآونة، قدم إلى انكلترا بطرس أوف سافوي، الذي كان عم الملكة، والذي كان الملك قد منحه ايرلية رتشموند، لأنه تصور أنها بلاد أكثر نفعـاً له، وخرج الملك إلى استقبـاله لدى وصـوله، وتلقـاه بسرور لايمكن وصفه، وعهد بنفسه وبممتلكاتـه لآرائه، وكذلك وسع أراضيه عدة مرات بوساطة العطايا.

عواصف ريح متواصلة

وفي هذه الآونة نفسهـــا، ولاسيما في يوم ختـــان الرب، ولعـــدة أيام متواصلة، سبب ريح من الشمال، عنيف إلى أبعد الحدود، تهديماً لايمكن ترميمه، في كل من البر والبحـر، جالبـاً دماراً للأبنية وللقـلاع، ومهدداً بمخاطر كبيرة جداً، للذين كانـوا مبحرين فوق البحر، وعلى هذا بدت الأحوال المضطربة للأنواء متوائمة تماماً مع أحوال الجنس البشري.

تنصيب بطرس سافوي فارساً

في يوم عيـد القـديس ادوارد، الذي تولى فيـه الملك ممارسة مـراعـاته بتبجيل غير اعتيـــادي وبتشريـف، وفي سبيل أن يعطي لليــوم المزيد من السمات الدينيـة، أضفى مـرتبة الفـروسيـة على بطرس سـافوي المتقـدم ذكره، وعلى خمسة عشر شـابـاً لامعاً آخر، وكان ذلك في كنيسـة القديس بطرس في ويستمنستر، وفي اليـوم التالي، الذي كـان يوم عيـد الغطاس، وتشريفاً لبطرس المذكـور، احتفل مع عدد كبير من الضيـوف، بتنصيبه،

بوليمة غنية ومكلفة، وجرى أيضاً استدعاء بعض سكان لندن، بموجب مـذكرة ملكيـة قضت بحضـورهم، وكـان من بين الذين وجهت إليهم الدعـوة، عمـداء المدينة، فهؤلاء قـد أرغمـوا على الحضـور، تحت طائلة التغـريم بمائـة شلنغ، وأن يأتوا إلى هناك وهم يرتدون ثيـاب العيـد، أو كأنهم سيحتفلون بعرس.

انتخاب نيقولا أوف فارنهام إلى كرسي درم

وقام في هذه الآونـة، رهبان درم، بعد كثير من الاضطـراب، وانفاق كبير للمال، وبعد استقـالة رئيس رهبان درم، الذي سلف أن انتخب من قبلهم، والذي بموجب ذلك ألغي انتخابه، قاموا بدعوة الروح القدس، وانتخبـوا بالاجماع المعلم نيقـولا دي فـارنهام Farnham,وكـــان رجـلاً صـاحب أخـلاق رفيعة ومعـارف، واتخذوه أسقفـاً لهم، وراعيـاً لأرواحهم، وكـان معلماً للآداب في باريس لعـدة سنوات، ومارس بعـد ذلك فن الطبـابة في بولونا Bologna, حيث غـدا مشهـوراً جـــداً، وحصل على مكانة كبيرة لبراعته، وبعدمـا أصبح معلماً كاملاً في المنطق، وطبيبـاً، وعـالماً طبيعيـاً، حـوّل اهتمامـه إلى الطبـابـة الروحيـة، أي إلى اللاهوت، وبذلك أسس نفسـه في ذلـك العلم بالتعلم وبقـراءة الكتب، وبهذا تأهل للجلوس في كرسي الأستاذية الرهبانية.

وعندما صـار هكذا خبيراً، وبعدمـا ميّـز نفسه بشكل كبير بمعـارفه، وبطريقته المحمـودة في الحياة، قام الملـك والملكة، بناء على نصيحة بعض الناس المتعلمين، وبشكل خــاص بناء على مبـادرة من النائـب البـابوي أوتو، وأسقف كارآيل، وبعض الآخـرين من مستشاري الملك السريين، بتوجيه الدعوة إليه، ليتولى المسؤولية عن أرواحهم وأجسادهم، وليكون مستشـــاراً مقـــربـاً، حيث تصرف بذاته في ذلك المنصـب بشكل جيــد وبحكمة، حتى جرى انتخابه إلى ذلك المنصب الكهنوتي، غير أنه —على كل حال— لم يوافق على ذلك الانتخاب، لأن الأمر بدا له غير مشرف،

في أن يوافق على الانتخـاب، بما أنه كان قبل وقت قصير مضى، عندما جرى انتخابه لأسقفية كوفنتري، قد احتج ضد ذلك الانتخاب، ورفض الموافقـة عليـه، ولابأي حـال من الأحـوال، وفي سبيل اسكات الأفـواه المتكلمـة بالشرور، التي كـان من الممكن أن تقـول: «انظروا، أي نفـاق هذا، لقـد رفض الأسقفيـة الفقيرة، لأنه توقع أسقفيـة أغنى»، في سبيل ذلك قـاوم العرض بأقصى جهـوده، حتى أخيراً تولى ر. R أسقف لنكولن توجيـه الملامـة إليه بقسـوة، لتصرفـه على هذه الشـاكلة، وتمكن بفاعلية من اقناعـه بالموافقة بوساطة الحجج التاليـة: «اعرف، بأن رهبان درم وكنيستهم قد حـرموا من الراعي، وقاموا بدمـوع منهمرة، بالتماس المواسـاة، فلماذا —بناء عليـه— لاتوافق طالما جـرى انتخـابك بشكل قانوني؟ وإننى أستحلفك بسفك دم يسـوع المسيح، بأن تقوم بحمل هذا العبء، وأن تتقبل شرف هذا المنصب، لأن الملك سـوف لن يوافق على انتخـابك ولا بـأي شكل من الأشكال، مـالم يكن مجنـوناً تمامـاً، وإذا لم توافق على الانتخاب سوف يتـولى الملك بدسائسه تنصيب رجل أجنبي، وغير جــدير، وجــاهل أيضــاً، في هذا الكرسي في سبيل القضــاء على الكرامـة اللاهوتيـة، وتعـريض المملكة كلهـا للخطر، لأن أسقفيـة درم قـائمة على التخـوم بين مملكتي انكلترا.وسكوتلندا، والقـلاع القائمـة في أسقفيـة درم، أي قلعتي نورهام Norham ودرم، مـوجــودتان في ذلك الجزء من انكلترا، وهما الأسـاس المعتمـد عليه ضـد هجمات جميع أعـدائنا»، وبعـدمـا سمع المعلم نيقـولا هذا، قـال متنهـداً: «إنني أحب فضيلة الطاعـة، وفي أسقفيتك أنا مستحــوذ على منافعي، التي حصلت عليهـا من خـلال إحسـانك، ولذلك إنني أطيع أوامـرك الأبوية»، وإثر ذلك قام رهبـان درم وهم مسرورين بتقديمـه إلى الملك على أنه أسقفهم المنتخـب، وقـد قبل بانتخابهم بسرور، لأنه لم يجد أية غلطة منطقيـة لافي الشخص المنتخب، ولافي الانتخــاب، واستقبل الأسقف المنتخـب من دون تأخير، وعلى الفور، تثبت فيها بعد كرسيه.

تغريم اليهود بمبلغ من المال

وفي العام نفسه، أرغم اليهود على دفع مبلغ ثقيل، بمثابة مال فداء، وكان المبلغ حوالي عشرين ألف مارك، يجري دفعه على مرحلتين خلال العام، تحت طائلة النفي، أو السجن المؤبد.

استعدادات من أجل مبارزات

عقد في هذا العام بطرس أوف سافوي، ايرل رتشموند مباريات مبارزات aloutrance ضد ايرل بيغود، في سبيل أن يتمكن الأجانب من تجريب قوتهم مع الانكليز، لرؤية أيهم هو المتفوق في مباريات المبارزات، وعندما سمع الملك بهذا، بدأ بوساطة الرشاوى والتهديدات في افساد قلوب كثير من الأكثر نبالة وقوة بين الانكليز، والتأثير عليهم، وذلك من الفئة التي تؤيد ايرل بيغود، وذلك من أجل أن يتمكن فريق الأجانب من الانتصار، وكان بين هؤلاء المقدمين جون بيست Bisett المسؤول الأعلى عن الغابات في انكلترا، وعدد كبير من مشاركيه، وغيلبرت باسيت، وكان فارساً هو الأكثر شجاعة، مع أتباعه، وعدد كبير آخر، تعدادهم كبير جداً حتى يمكن ذكرهم، وكانت النتيجة، أنه بسبب دسائس الملك، عندما اقترب موعد عقد المبارزات، وعلى الرغم من ذلك قام غ. G ايرل مارشال وفئة قوية من النبلاء بتوحيد أنفسهم مع بعضهم بعضاً، ومع ذلك ظهر حزب الأجانب هو الأقوى والأكثر عدداً، وتجاه ذلك شعر الانكليز بغضب شديد، وحملوا حقداً عظيماً ضد الذين اقترفوا هذه الدناءات، ومقتوا وسائل دسائس أبناء وطنهم، ثم إن الملك أصغى إلى مشورة حكيمة، وندم لأنه رغب في أن ينتصر الأجانب في مباراة مادية بدلاً من انتصار رعيته، فبعث رسولاً، هو الراهب جون، وكان داوياً، ووكيل الصدقات، وأمره أن يمضي بكل سرعة إلى الفريقين، مع مذكرة ملكية بمنع المبارزات ذات الطالع السيء، والتي كانت على وشك الابتداء.

وفاة غيلبرت باسيت وابنه

وفي خريف العام نفسه، عندما كان غيلبرت باسيت، يصطاد في الغابة سقط فوق جذع شجرة كانت ملقاة في طريقه، فتكسرت عظامه، وأصيبت أعصابه بصدمة، فتسبب ذلك بموته بعد عدة أيام، وإثر ذلك على الفور فارق أيضاً الابن الوحيد والوريث لغيلبرت المذكور، هذه الحياة، في ثمانية عيد صعود القديسة مريم، مما سبب الحزن والأسى لأسرته كلها، وانتقل الميراث إثر ذلك إلى فولك باسيت، عميد يورك، وأخي غيلبرت المذكور.

وفاة جون بيست

وفي تلك الآونة أيضاً، أي في ثمانية صعود العذراء المباركة، فارق هذه الحياة جون بيست Bisett الذي كان المسؤول الأعلى عن الغابات في انكلترا.

انطلاق بعض نبلاء إنكلترا نحو القدس

ولما كان الموسم وقتاً موائماً، قام وليم دي فورتيبص Fortibus, وكان ايرل ألبيمارل Albemarle وفارساً جريئاً، وبطرس دي مولاك Maulac, وكان بواتياً من حيث المولد، ولقد تعلم لمدة طويلة واستغنى تحت حماية الملك جون، وايفيلين دي روتشفورت Rochfort, وكان بواتياً أيضاً، وجون أنسارد Ansard, و الاسكندر هلتون Hilton, وغيوفري تشانديلر Chandelers, وعدد كبير آخر من نبلاء انكلترا، كلهم قاموا بتوديع أصدقائهم، وعهدوا بأنفسهم إلى صلوات رجال الدين، وانطلقوا بأبهة كبيرة نحو القدس، وركبوا ظهر البحر المتوسط في الخريف، وأقلعوا في رحلتهم عبر البحر.

ملك فرنسا يعرض صليب ربنا وتاجه على الناس

في هذا العـام حدث أن صليب ربنا، الـذي بقي في دمياط، بعـد أيام صـلاح الدين، حتى المعـركـة غير السعيـدة، التي جـرى في بدايتهـا الاستيلاء على تلك المدينة، ثم جـرت خسارتها فيها بعـد، عندما سقطت في أيدي المسلمين، حـدث أن جلب إلى مملكة فرنسـا بتـدخل من الملك الفـرنسي وأمه بـلانشي، وبنعمة المسيح الذي دعـم رغبتيهما التقية، فقـد دفعا مبلغاً كبيراً من المال ليتمكنا من الاستحواذ عليه، ففي البداية ابتيع هذا الصليب —بعد جلبه— من قبل البنادقة مقابل عشرين ألف باوند، وكـانوا قد حصلوا عليـه من ابني ج. ل ملك القدس، الـــذي كان بحـاجـة إلى المال لشنّ الحرب ضـد الاغـريق، وفيما بعـد ارتهنه بلدوين مقابل مبلغ كان أيضاً أكبر، وباعه أخيراً إلى الملك الفرنسي لويس.

وفي يوم الجمعـة التاليـة قبل يوم عيد الفصح، وهو اليـوم الذي علق فيه المولى يسـوع المسيح بالمسامير، على الصليب المانح للحيـاة، من أجل انقـاذ العالم، حمل هذا الصليـب المذكور إلى باريس من كنيسـة القـديس أنطوني Antoine, حيث كان قد وضع على عـربة من نوع خاص، عليها ركب الملك مع الملكتين، أي الملكة بلانشي أمـه، والملكة مرغريت زوجته، وبحضـور رؤساء الأساقفـة، والأساقفة ورعـاة الديرة، ورجال الدين الآخـرين، وكذلك النبـلاء الفرنسيين، وأحيطوا بحشـد لايحصى تعـداده من الفرنسيين، الذين كـانوا ينتظرون هذا المشهد المجيـد بسرور عظيم في القلب، ورفع الملك الصليب فـوق رأسـه وهو يبكي، ووقتهـا صرخ الأسـاقفة الذين كـانوا حضـوراً بصوت مـرتفع: «انظروا صليب ربنا».

وبعـدما تعبـده الجميع بتبجيل لائق وتقوى، قـام الملك نفسه، وكـان حـافياً، ومن دون حـزام، وعاري الـرأس، وذلك بعد صـوم ثلاثة أيام، مقلداً مثل المنتصر النبيل، الأغسطـس هرقل، فحمله داخل صـوف إلى الكنيسة الكاتدرائية للعذراء المباركة في باريس، وبالنسبة لأخوي الملك،

فإنهما أيضاً بعدما طهرا نفسيهما، بأعمال تقوية مماثلة، بوساطة الاعتراف، والصوم، والصلاة، فقد سارا خلفه مع الملكتين، وقد حملوا أيضاً تاج الشوك (الذي منحته الرحمة الربانية، كما ذكرنا من قبل، إلى مملكة فرنسا،، في العام الفائت) ورفعوه أيضاً عالياً، فوق عربة مماثلة للأخرى، وعرضوه حتى يراه الناس.

وسند بعض النبلاء ذراعي الملك، وأذرعة أخويه، أثناء حملهم لهذا الحمل الثمين، خشية أن يصبحوا متعبين بالاستمرار برفع أذرعتهم، وأن يقعوا تحت هذا الكنز، الذي لايمكن تقدير قيمته، وتم فعل هذا بكل حذر، بناء على رغبات الأساقفة، من أجل أن يتم تناول هذا الشيء المقدس، باحترام من قبل ذوي السلوك الحكيم، والذين نالوا مجداً عظيماً، محتذين لمثل هرقل، الذي ذكرناه من قبل.

وعندما وصلوا إلى الكنيسة الكاتدرائية كانت جميع أجراس المدينة تقرع، وبعد تلاوة صلوات خاصة بشكل مهيب، عاد الملك إلى قصره الكبير، الذي هو في وسط المدينة، حاملاً صليبه، وأخويه يحملان التاج، والكهنة يتبعونهم بمسيرة نظامية (وهو مشهد كان الأكثر مهابة وسروراً بين جميع ماشاهدته مملكة فرنسا قط) وكان كل واحد منهم، لابل جميعاً، يصفقون آنذاك بأيديهم، ويمجدون الرب، الذي أظهر هكذا محبته الخاصة للمملكة الفرنسية، مؤثراً إياها ومفضلها على الآخرين، ومن أجل منحها مواساته الخاصة وحمايته.

وهكذا بناء عليه، فإن ربنا يسوع المسيح، ملك الملوك، ومولى الموالي، الذي أحكامه ذات عمق عظيم، والذي بين يديه قلوب الملوك، حيث يعطي الصحة لكل من أراد، أعطى في وقت قصير مملكة فرنسا، وأغناها، بهذه الهدايا الثلاثة الثمينة، وهي التاج المتقدم ذكره، وصليب ربنا الذي عنه قد تحدثنا الآن، وجسد إدموند المبارك رئيس أساقفة كانتربري، والمعترف، الذي يشع الآن بمعجزات غير عادية، ولذلك أمر

الملك ببناء بيعة جميلة، تكون لائقة لاستقبال كنزه المذكور، وأن يكون البناء قرب قصره، وبها وضع بعد ذلك الآثار المقدسة المذكورة بكل احترام، وإلى جانب ذلك امتلك الملك الفرنسي، في بيعته الجميلة في باريس الثوب العائد للمسيح، والرمح، أو بالحري سنان الرمح، والاسفنجة، وإلى جانبها آثار أخرى مقدسة، وبناء على ذلك منح البابا غفراناً مقداره أربعين يوماً إلى جميع الذين ذهبوا إليهم في البيعة في باريس، من أجل الصلاة والتعبد هناك.

موت ملك الدانمارك وابنه

وفي هذا العام أيضاً، حمل من بين الناس وأخذ بعيداً وولدمار Waldemar, ملك داشيا، الذي تظاهر بالتجرؤ على التهديد بغزو انكلترا، وتورط بكلام متعجرف حول ذلك، وجاء موته بعدما حكم لمدة أربعين سنة، ولكي يشعر بتأثيرات صلوات القديس إدوارد، ذلك القديس الذي توجه بأدعيته إلى الرب ليحمي الرب الانكليز ضد طغيان الدانيين، فإن ابنه الوحيد، ووريثه في كل ممتلكاته، قد غادر طريق الجسد، وبذلك صارت مملكة داشيا كلها بائسة، وكان هذا الملك الداني وولدمار، في سن المائة عندما مات، وقد حكم على الدانيين لمدة أربعين سنة، وطوال حياته كلها، منذ أن كان قادراً على حمل السلاح، استمر في ملاحقة الكفار في سكيزيا، وفريزلاند، وروسيا، وكسب خلال حياته ست أسقفيات كبار، وتدبر العدد نفسه من الأساقفة حتى يجري تكريسهم لهذه الأسقفيات، وبعد وفاته، ووفاة ابنه الأسن، أثار اثنان من أولاده الأصغر سناً ثورة، وهما هنري، والدوق آبل Abel[1], وشرعا بحرب دموية أحدهما ضد الآخر، وبذلك أصبحت المملكة مقسمة وفي حالة بائسة.

موت وولتر دي لاسي

وفي هذا العام أيضاً، غادر هذه الحياة وولتر دي لاسي Lacy,

وكان رجلاً هو الأكثر تميزاً بين نبلاء ايرلندا، وجاءت وفاته بعـدما فقد بصره، وبعدما عانى من كثير من الأمراض الجسدية.

رؤيا ليلية رائعة

وفي هذه الآونة، ظهـرت رؤيا ليليـة، إلى أحد الكهنة، وكـان حكيماً، ورجلاً مقـدساً، وقد شاهد فيهـا رئيساً للأساقفـة، مرتدياً أثواباً حبرية، وحـاملاً صليباً بيده، فـوصل إلى الأسـوار التي كان الملك قـد بناها في تلك الأيام قـرب برج لندن، وبعـد فحصه لهم بنظـرة غاضبـة، ضربهم بالصليب بقـوة وبعنف، وهو يقول: «لماذا أعـدت عمارتهم»؟، وبناء على ذلك تهاوت الأسـوار التي بنيت حـديثاً بشكل مفـاجىء، إلى الأرض، وكأنها دمـرت بوسـاطة هزة أرضيـة، وخـاف الكاهـن من رؤية هذا المشهـد، فقال لرجـل دين ظهر وهو يتبع رئيس الأسـاقفـة: «من رئيس الأسـاقفـة هذا»؟، وأجـابه رجل الديـن قـائـلاً: «إنه القـديس تومـاس الشهيـد، الذي هو لندني من حيث المولد، والذي قدّر أن هذه الأسـوار قـد بنيت لإهانة اللنـدنيين ولإلحاق الأذى بهم، ولهذا دمـرهم، بشكل لايمكن فيـه إعـادة ترميمهم»، وعند ذلك قـال الكاهـن: «أية نفقـات وجهـود بناء قـد كلفوا»، ورد عليـه رجل الديـن قائـلاً: «لو أن فقـراء الصناع، الذين يسعون وراء الدفع لأنهم يحتـاجون إلى ذلك، قد حصلوا على الطعام لأنفسهم بوساطة العمل، لصار من الممكن بقاء ذلك العمل لكن بما أنهم لم يعمـروا من أجـل الدفـاع عن المملكة، بـل فقط لظلم السكان الذين لايؤذون، ولو أن القـديس توماس لم يقم بتـدميرهم لقام القـديس ادمـوند المعترف، خلفـه، باصرار أكبر فـدمـرهم واجتثهم من أساساتهم»..

وبعـدمـا شـاهد الكاهن هـذه الأشيـاء، أفـاق من نومـه، ونهض من فـراشـه، وفي ظـلام الليل وسكونه، أخبر برؤياه، جميع الذيـن كـانوا في البيت، وفي الصباح الباكر، انتشر تقـرير في جميع أرجاء مدينة لندن، أفاد

بأن الأسوار التي بنيت حول البرج، والتي على عمارتها، أنفق الملك أكثر من اثني عشر ألف مارك، قد تهاوت الى قطع، مما سبب الدهشة الى كثيرين، قد عدّوها نذير شؤم، لأنه حدث في السنة المتقدمة وفي الليلة نفسها، التي كانت ليلة يوم عيد القديس جورج، وفي الساعة نفسها من الليل، أن سقطت الأسوار مع الأجزاء الناتئة منها، ومع ان سكان لندن دهشوا تجاه هذه الواقعة، لم يحزنوا لوقوعها لأن تلك الأسوار كانت بالنسبة لهم مثل أشواك في عيونهم، وقد سمعوا استهزاء الناس وسخريتهم، الذين قالوا بأن هذه الأسوار قد بنيت لإهانتهم وأنه اذا ماحاول واحد وتجرأ، واحتج من أجل حرية المدينة، كان سيسجن في داخلهم ويلقى به السجن، وفي سبيل أنه إذا كان عدد منهم سوف يسجنون، ولكي يسجنوا في عدة سجون مختلفة، جرى بناء عدد كبير من الزنزانات فيهم، كل واحدة منفصلة عن الأخرى.

وفي هذه الآونة أيضاً، أخذ الملك بالقوة من عمدة لندن مورداً سنوياً مقداره أربعين باونداً، وهو المبلغ الذي اعتاد كل عمدة، على استلامه سنوياً، أثناء أيامه، من أجل دعم مكانته، وذلك من المصالح العامة للمدينة، وكأنه كان يأخذه من جمهورية، لأنه ألح إليه، أي إلى الملك، بأن عمدة المدينة، كان يقوم بالتظاهر بالقيام بجباية ذلك المبلغ، الذي كان محدوداً ببعض الشروط، فيلقي بيديه بقسوة على المواطنين الفقراء، وذلك أكثر مما هو مسموح له أن يعمل، وبذلك جمع لنفسه المال وأودعه في حافظة نقوده،ولهذا أرغم جيرالد بات Bat, الذي كان العمدة وقتذاك، على أداء يمين انه نفسه لن يجمع ثانية، ولن يتسلم تلك الضريبة، كما انه لن يسمح لأي شخص آخر بقدر مايستطيع أن يمنع، أن يجبيها له، وقد وقع هذا في بيعة القديس اسطفان في ويستمنستر.

وليس بعد أمد طويل من هذا، تمّ ارغام سكان لندن على دفع مبلغ من المال إلى الملك، وذلك مراغمة لعرف وامتياز المدينة، وعوملوا

وكأنهم عبيد مـن أدنى الدرجات، ودفعوا من دون رضـاهم ومكرهين، ولم يكن ذلك تحت عنوان مسـاعدة طوعيـة، بل بمثـابة مكس، وأثقلهم هذا كثيراً جداً.

الإمبراطور يمنع الأساقفة من الاجتماع في المجمع

وقــدر الامبراطور في هذه الآونة، بما فيــه الكفــاية مـن الدهاء، أن المجمع العام إذا مـاجرى عقـده، وعلى رأسه عدوه المميـت البابا، الذي سـوف يترأس جميع الأسـاقفة الذين كـانوا ملزمين بطاعتـه، مثل طاعـة الأطراف لرأسهـا، سيكون في خطر عظيم، ولذلك أخــذ يتأمل ويفكر بابداع إجراءات وقائية لنفسه، ولهذا قـال لنبلائه: «إنني قلق ومهدد من كل جـانب، ومطوق بمختلف المشـاكل، وذلك بسبب المخـاطر التي ستحيق الآن بالامبراطورية، لأنه إذا ماجـرى عقد المجمع العام، حسبما يجري الإعداد له، وترأسـه عدوي المميت، الذي رؤساء الأساقفـة رعية له، وما من واحـد منهم يتجرأ على الاعتراض على رئاستـه، فإنه سوف يدمـرني دماراً لايمكن ترميمـه، ومثل ذلك سوف يدمـر الامبراطورية، لأن البـابا عـدو نهم وشره، ومعلن ضدي، وقـادر على خلع أي واحـد يقف ضد إرادته، من مـرتبته، لابل بعد خلعـه له التفوه بحكم التكفير، والحرمان الكنسي ضده، وإهانته بعقـوبات أشد سوءاً، وعلاوة على هذا أيضاً وأشـد خطراً هو أن قضيتنا، وأوضاع الامبراطورية في حـالة خطر شـديد، وكـذلك جميع الأمـراء، الذين أنا وحـدي ملزم بالدفـاع عنهم، وملوك وأمـراء العـالم الذين أنـا المناصر لقضيتهم، لأنني صرت المتكلم بلسانهم، هؤلاء سـوف لن يقدموا إذا ما دعيتهم، أو سـوف يطيعونني، وهم غير خـــاضعين لي، لـذلك لايمكنني ارغـــامهم على القـــدوم، ولامعاقبتهم إذا ماتمردوا، ومادمت يائسـاً —بناء عليه— من حضورهم ومسـاعـدتهم، هل سـوف أعهـد بامتيـازات الامبراطورية وقضيتهـا إلى بلاط مشكوك به، وأن يكون أعـداءها هم قضـاتها؟ لا لن يكون ذلك،

مـادمت حيـاً»، واتفق معـه نبـلاؤه في هذا العـرض المنطقي والحجج، وقرروا وجـوب تغيير الخطة الأجنبية، مع أن ذلك قد يبـدو سوف يرتد بالضرر على سمعتهم، وبسبب الخطر الذي سوف يحدق بالامبراطورية، وهو الذي جرى الحديث عنه، ينبغي منع المجمع الذي كـان موافقاً على عقـده من قبل، ولذلك قـام الامبراطـور على الفـور بوسـاطة رسـائله، بتحـذير الأساقفـة بعـدم القـدوم، ولابأي شكل من الأشكال، ومن ثم الحضور إلى المجمع العام، بناء على استدعاءات البابا، ومنذ ذلك الحين، إذا كان هناك أية أسـاقفة ذاهبين إلى البلاط الروماني، وكانـوا قد رفضوا إطاعة أوامره، ومروا بأراضيه هم شخصياً، أو كانوا قد بعثوا مندوبيهم، فقد تابع اعاقة تقدمهم، وهاجمهم، واعتقلهم، وعذبهم، وعاقب بعضهم بعقوبات مميتة مخيفة، وقد وصلت أخبار هذه الأحوال إلى مسامع البابا، فضاعف مـن لعناته له، وشتائمـه ضد الامبراطور، وكـدس الحرمانات الكنسَية ضده، كما جدد تكفيره له.

وبناء عليـه فإن النواب البـابويين، الذين كـان البـابا والدهم في جميع المسائل الروحية، والذين كـان قد أمرهم بناء على طاعتهم له، بالاجتماع في الفصح المقبل، الذي هو عيـد قيامـة ربنا، لحضور المجمع الذي كـان قد أعـدّ له، وهيأ، بناء عليه قد منع هؤلاء من الحضـور بشكل أو آخر، وقـد خـافـوا من معيقـات الامبراطـور، ومن أوامـر المنع الصـادرة عن المراسيم الامبراطورية، هذا من جـانب، وكـان هناك من الجانب الآخـر سيلا Scylla (صخـرة خطيرة من الجانب الإيطالي لمضيق مسينا) ومخاوف التيـارات البحـرية للكاريبي، التي كـانت تهددهم، وقـد طمأن البابا القلوب المرتجفـة للأساقفـة، ومنحهم قليلاً من المواساة والتهـدئة، وردت في كلمات الرسالة التالية:

رسالة البابا

«من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى الأسقف كذا وكذا،

صحة ومباركات رسولية:

إن قارب بطرس، هو الآن مقهور بثقل أمواج الأشياء الدنيوية، ويتأرجح بعواصف المسائل الملحة للشك والمصاعب، التي تحتاج إلى اليد اليمنى لمخلصنا يسوع، لأنه في الوقت الذي هو مدفوع فيه نحو الأمام بهبات الريح الشمالية العاصفة، يبدو أن الرب نائم، وتلاميذه هم في حال شك، ويخاف البحارة من الريح، ومما سيتمخض عنها، الذي هو غرق القارب، الواقع الآن، والناس خائفون، وبطرس يصرخ منادياً: هل من الممكن لأولادي —مع أن الآخرين صاروا باردين— تقديم العون على الأقل، ومنفعة نصيحتهم السليمة، حتى لاتتمكن الزوابع من قهره، ولا أن يستولي القراصنة المتوحشون عليه، وعلاوة على ذلك، إنه بوساطة تمزق الميثاق الطبيعي، اهتزت الثقة، وازداد الاحسان برودة، وتجمدت أسباب التقوى، وتضاعف الظلم، وكسب قوة ضد الرب، وضد جيران المرء، ومن هذه الأسباب واضح إلقاء معيق في طريق رفع شأن الإيمان المسيحي، وتبع ذلك الخسارة، وتمّ حرمان حشد تقي من المسيحيين الحقيقيين وإبعادهم عن منافع السلام، وأرهقوا بمختلف أنواع الاضطرابات.

ولذلك فإن المقام الرسولي، في إطار سلطته ومكانته، وبعدما وزن جميع هذه الأمور بميزان الرأي العام، وبعدما بحثهم وتفحصهم، وفي سبيل أن تتمكن الكنيسة التي هي الأم العامة والوحيدة، أن تسهم في سعادة الجميع، قد تقرر، مع سبب صالح، التوجه بالدعوة لطلب العون من أيدي جميع المسيحيين الأقوياء، مثل الملوك، والأساقفة، والمقدمين، وآخرين من ذوي الإيمان الصحيح، من أجل أنها بتكرار الصراخ، يمكنها إيقاظ الرب النائم، ولكي يمكنها بمعونة نصيحة أعداد كبيرة، جعل أعباء الظلم أخف، وأن تتمكن بسعادة من الوصول إلى المرسى المرغوب به.

وبين أشياء كثيرة نود أن نعيدها إلى ذاكرتكم أيها الأخ الأسقف، أننا قمنا بوساطة رسائل رسولية، بتوجيه الدعوة إليكم، بحكم كونكم ابن تقي، وعضو نبيل من أعضاء الكنيسة، بالقدوم إلى صدر أمك، الكنيسة المذكورة، في العيد المقبل لقيامة ربنا، لكن كما علمنا، أن الذي كان مرة الابن الخاص للكنيسة، وذلك منذ أن كان طفلاً، عندما كان في حالة ضعف مطلق، فحمته، ورفعته بوساطة عون الكرسي الرسولي، ونهضت به على كتفي أمه، إلى المقام الامبراطوري، والذي لم يقنع بالمضار التي ألحقها بنا، تعويضاً على إحساننا، والتي بها قاتل عرش أبيه، وسعى لإلحاق العار بأمه، ومن دون أي شعور بالتقوى أراد أن ينتحل لنفسه الامتيازات الأسقفية، وهو الآن يسلح نفسه بدهاء، ليمنع بالرعب الأساقفة الذين دعيوا مؤخراً من قبلنا، من الاجتماع بنا، وبذلك لن تكون هناك حاجة لمطلب اتهام ضدنا، كما أنه لن يسمح للكنيسة بالحصول على المواساة من أبنائها، لتتخلص من الأمراض التي تعاني منها.

وبما أنه بناء عليه، هذه النية هي من أجل المنفعة العامة، التي تولينا حملها بثقة، متوكلين على العناية الربانية، يتوجب عدم اعاقتها من قبل رجل ماكر، نحن نتمنى عليكم بحرارة، وبوساطة هذه الرسائل الرسولية، نأمركم بكل دقة، أن تفضلوا الرب على الانسان، وأن تنظروا إليه أكثر من نظرتكم إلى جميع المصاعب المتوجب مواجهتها، وأن لاتتقاعسوا عن القدوم في الموعد الذي سلف تحديده، إلى الكرسي الرسولي، من أجل أن تستمد الأم القوة بحضور أولادها، بحيث يمكن أن يرمى جانباً بكل معارضة قدمها العدو، وذلك بوساطة الحكمة الربانية، وأن تكون هناك بداية لنواياها التقوية للوصول إلى نهاية سعيدة، ونحن برضا الرب، سوف يكون شاغلنا تقديم التسهيلات إلى جميع الأشياء المفيدة لمثل هذه المسائل الكبيرة، حسبما سوف يجري شرح

ذلك لكم من قبلنا. صدر في اللاتيران، في هذا الخامس عشر من تشرين أول، في السنة الرابعة عشرة من حبريتنا».

وبناء عليه أصبح الأساقفة أكثر هدوءاً في عقولهم، واستعداداً من دون خوف من أجل رحلتهم، وهم متوقعون واثقين، بأن البابا، سوف يؤمن لهم بعون الرب، عبوراً آمناً بوساطة البحر، وأما الانكليز، وهم أسقف نورويك وبعض الآخرين، فقد قبلوا بخطط الفرنسيين ورضخوا لها، فذهبوا إلى أماكن آمنة على طريق رحلتهم، وتطلعوا بصمت وحذر نحو نتائج الحوادث.

آلام مدينة فيانزا

وفي هذه الآونة، تمكن الامبراطور، الذي كان يحاصر مدينة فيانزا Faenza منذ وقت، من انزالها إلى حالة من الضيق، أصبح فيها الذين كانوا من قبل هم الأقوى والأغنى من البقية، فقراء وضعفاء، وأرغم الآن عامة الناس من قبلهم على مغادرة المدينة من الأبواب والأبواب الفرعية، حتى لايتمكن هؤلاء العامة من أكل قمحهم، الذي تناقص كثيراً لديهم، ثم إنهم كانوا يتسللون ويهربون من قبل أنفسهم بسبب الجوع، والحاجة المضاعفة لأشياء كثيرة أخرى، وفيما بعد وجدوا أنفسهم يعانون أكثر من الجوع، لذلك قاموا وهم يتألمون في أفكارهم، فأرغموا زوجاتهم وأولادهم وامائهم بالقوة على مغادرة المدينة، وخيّل للنساء أنهن سوف يحصلن على الرحمة من الامبراطور، فذهبن إليه، ومثلن أمامه وشعورهن منشورة، وسجدن أمام معسكره، وهن يبكين، ويولولن، ورجوه بموجب رحمته الامبراطورية، أن يظهر الرحمة نحو نسائهن، لكن مع أن الامبراطور قد سمعهن، لم يوافق على التماسهن، بل أجابهن بغضب شديد: «دعوهن يذهبن إلى أزواجهن، وإلى أسيادهن الذين تولوا الحكم علي، بأنني خائن أمام الرب وأمام الانسان، وبما أنهم قبل بعض الوقت لم يظهروا نحوي رحمة، إنه من غير العدل بالنسبة لي

تلقيهم رحمة منـي، لأنه منـذ بعض الـوقت، عندمـــا كنت محاصراً في مـــدينتهم، والأبواب مغلقـــة من أمـــامي ومن خلفـي، دخلوا فجأة في مؤامرة ضدي، وعزموا على قتلي، وبانحطاط قتلوا رجلاً آخر مثلي، كان مرتدياً دروعاً امبراطورية، كما أنهم قـدموا عدم تشريف لأمي، وإهانات مضاعفـة لها، وذلك عندما كانـت عابرة خلال مـدينتهم، وبعدم احترام شوهوا المطيـة التي كانت راكبة عليها، وبذلك أنزلوا انتقـامهم بحيوان، ولم يظهـروا التقدير لمرتبتهـا الامبراطورية، ولا حتى لكونها امـرأة، وإنه بناء عليه من العدل مواجهتهم بالانتقام».

وبعدما صرخ مزمجراً بقراره هذا ضـدهم، أمر بتلك النسوة الضعفاء، واللائي كن يتهـاوين من الجوع والحاجة، بأن يسقن عـائدات إلى المدينة التي غـادرنها، وعندمـا علم المواطنون بهذه النتيجـة، باتوا متأكـدين من دمـارهم، ولذلك بعثوا بعض الرجـال المحترمين بمثابة رسل خـاصين، وقد عـرض هؤلاء وهم يبكون طاعتهم للامبراطور، ورجوه أن يسمح لهم فقط بمغـــادرة المدينة، التي تخلـوا عنهـــا إلى صـــاحـب الجلالة الامبرطورية مـولاهـم، وهم فقط أحيـاء يرتدون من الثيـــاب مـايغطي عوراتهم، ليتجولوا مثل المتشردين والمنفيين، في فقر دائم، وأن يذهبوا إلى أي مكان من العـــالم يختـار أن يرسلهم إليـــه، ورد الامبراطور على هذا العرض قائلاً: «بما أنهم في أحـوالهم المزدهرة رفضوا العودة إلى ولائهم، وإلى الاعتراف بي سيـــداً لهم، إنني لن أصغي إليهم وهم يصرخـــون في أيام اضطرابهم، لأن كل مـن كـان بإمكانه الاعتـداء وفعـل ذلك بقـدر مـــااستطـاع، يتـوجب بشكل عـــادل أن يعـاقب بأقسى عقـــوبة ممكنة»، وعندما سمع المواطنون بهذا غرقوا في أعماق اليأس، وصاروا الآن تحت وطأة أسف أكثـــر شـــدة، ومن دون أي أمل في الحالة البـــائســـة آنذاك لمدينتهم.

البلاط الروماني يرتبط بعاهرة

وفي هذه الآونة، ازداد النهم غير المستقر للبلاط الروماني، إلى درجة أنه مزج فيها بين الصواب والخطأ، وجاء ذلك إما بناء على إذن من البابا غريغوري، أو بتدبير منه، وألقى هذا البلاط كل حياء جانباً، وصار مثل الوجه البرونزي للبوق، معروضاً للاستئجار من قبل أي انسان، وقد عدّ الربا ذنباً تافهاً، والسيمونية ليست ذنباً على الاطلاق، وبهذا عدت الدول الأخرى المجاورة، حتى طهارة انكلترا أصيبت بهذه العدوى، ومع أن الأمثلة التي تعرض نفسها على صحة هذا وافرة، لقد رأيت من المناسب، أن أحكي باختصار خبر مثل واحد، لأظهر بعدل، مع أن ذلك جاء متأخراً، أن غضب الرب قد اشتعل ضد البلاط المذكور.

البابا يطالب بمورد مقداره مائة مارك من رهبان بيتربورا

ورغب البابا غريغوري في تقديم العون إلى واحد من المتحزبين له، فبعث برسائل إلى انكلترا، كانت وطأتها شديدة على بعض الكنائس، وجرى في هذه الآونة، بعث رسول بابوي مرافق بعدة توسلات وتهديدات، وجاء بعثه إلى راعي دير بيتربورا Peterborough وإلى رهبان الدير، آمراً إياهم بإعطاء البابا مورداً سنوياً يصل إلى قيمة لاتقل عن مائة مارك عن كل كنيسة ورعوية تابعة لهم، وإذا كان المبلغ مضاعفاً، فذلك سوف يزيد سروره، والبابا وقتها سوف يمنح الكنيسة إليهم، للاحتفاظ بها مقابل ضمانة لها، وهي شريطة أن يدفعوا له كل سنة مائة مارك مقابلها، وكل ماتبقى من الممكن تحويله لاستخداماتهم، وفي سبيل أن يجعل الراعي المذكور والرهبان ميالين بسهولة أكثر إلى الموافقة على هذه الاتفاقية، (أو بالحري على هذا الميثاق السيموني الخبيث، والغش السري)، وكأنها ضرورية لمنفعتهم، كتب قداسته إلى بعض الكهنة، الذين كانوا من جانبه من الألب، والذين كان بين أيديهم منافع جيدة في انكلترا، يأمرهم، بموجب السلطة الممنوحة إليهم، بتقديم النصيحة بشكل فعال إلى الراعي المذكور وإلى الرهبان للموافقة

على هذا، وإذا ماستدعى الأمر إرغامهم على ذلك.

وبناء عليه، قاموا في طاعة منهم لأوامر البابا، فذهبوا إلى بيتربورا، واستدعوا الرهبان وقالوا لهم: «انتبهوا أيها الأصدقاء والإخوان، أن هناك منفعة سوف تضفى عليكم، من قبل اليدين القادرتين للبابا، لأنه قد سألكم الآن، الذي كان ينبغي أن تسألوه إياه، وترجونه من أجله بركب جاثية، وبأيد مصفقة، وبتواضع كبير».

وبعدما أوضحوا للرهبان جميع الذي طلبه البابا، قدموا وعداً، وكأنهم ضامنين ووكلاء مخلصين للبابا، وباسمه، بأنهم سوف يفون بجميع وعوده، شريطة أن يوافقوا —الرهبان— على الذي سأله بشكل سري، وإبقاء الأمر كما هو، من دون فضيحة، ذلك أنهم قدموا فضيلة الحاجة الضرورية، وأجابهم الرهبان، أنه ليس بإمكانهم فعل هذا، من دون إذن الملك، الذي كان راعيهم، والمؤسس لكنيستهم، وكذلك لكنائس أخرى في هذه المنطقة، ومع ذلك رجاهم الكهنة بحرارة في سبيل فعل هذا بسرية، آملين بفعل الشيء نفسه في كنائس أخرى، وأن يجعلوا هذا سابقة، ولكن الرهبان لم يرغبوا في أن ينصاعوا لحججهم المخادعة، وطلبوا منحهم وقتاً حتى يعود راعيهم إلى الوطن، لأنه كان غائباً، لكي يعطي موافقته على رضاهم بهذا الطلب، إذا ما رآه موائماً، ولذلك بعثوا رسالة إلى راعيهم، يوضحون له بها اشكاليات هذا العمل.

وعند ذلك أرسل الراعي، بوساطة كاهن مخلص وحكيم تابع له، اسمه وليم دي بورغ Bourg, رسالة إلى الملك، وطلب نصيحته حول المسألة، وأخبره بالمخاطر التي من الممكن أن تنجم عن هذه القضية، ورأى الملك أن عملاً من هذا النوع من الممكن أن يكون مصيرياً بالنسبة إلى تلك الكنيسة، ومثل ذلك إلى الكنائس الأخرى، وذلك بحكم أنه كان راعيهم، وحاميهم، وحاكمهم ولأنه أبعد الدسائس الخفية، وشره البلاط الروماني، منع بحزم ودقة الاقدام على

مثل هذه السابقة غير النظامية، حتى لايجري تلويث الهواء أكثر مما هو ملوث.

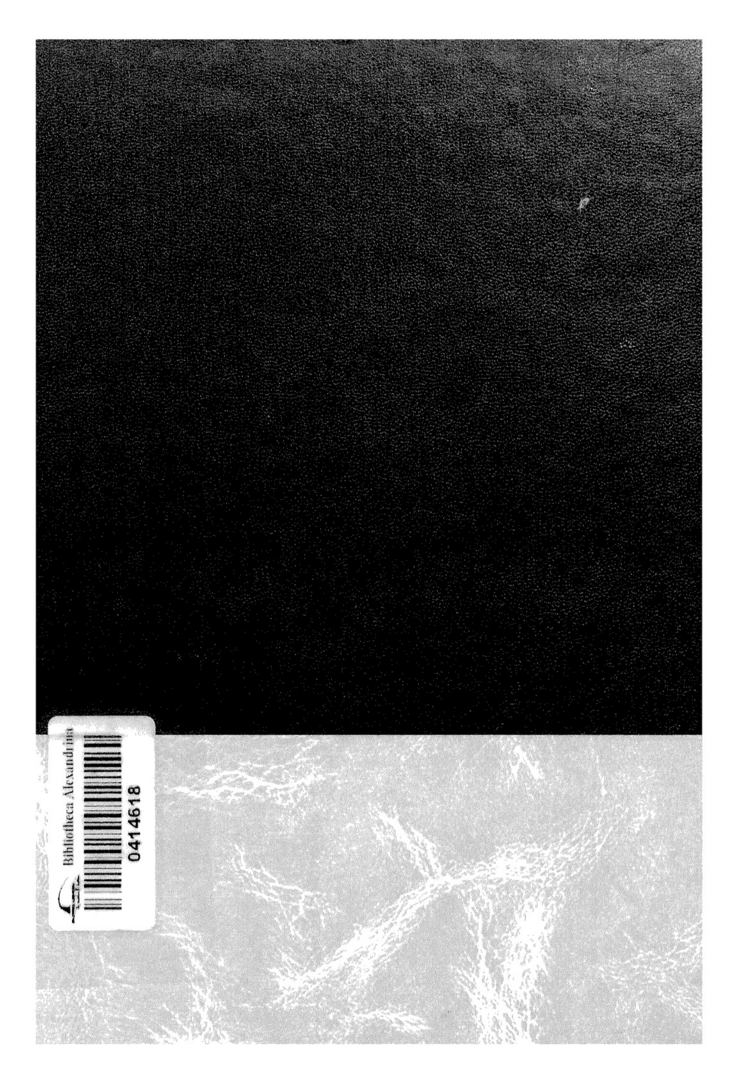
القديس إدموند يصبح متميزاً بالمعجزات

وملأت في هذه الآونة أخبار الاسم المقدس، والذكرى المشهورة لإدموند المبارك، رئيس أساقفة كانتربري، ومعجزات قداسته، بلدان هذا الجانب من الألب، وذلك مع سمعته المجيدة، وبلغ الأمر حداً، أنه بوساطة المعجزات غير الاعتيادية، التي تلطف الرب فعملها من أجله، أن أيام الرسل بدا أنها قد تجددت، وانجذب رؤساء أساقفة، وأساقفة، ونبلاء مع حشود لاتحصى من الناس، من كلا الجنسين، برائحة العطر الطيبة، التي صدرت بالفعل من مناطق نائية عن ضريحه في بونتني، لذلك أخذ هؤلاء يسألون مساعدة ادموند المذكور.

وفي انكلترا أيضاً، في دير للنساء في كيتباي Catesby, حيث كان رئيس الأساقفة المذكور قد ترك اثنتين من أخواته بمثابة راهبات، وكان قد أعطى إلى إحداهن هبة تعبّر عن العاطفة، تمثلت بطيلسانه، وقد تلطف فعمل بشكل مدهش عدداً من المعجزات هناك، الحديث عنها ووصفها سوف يتطلب رسائل طويلة خاصة.

رهبان كانتربري يحصلون على تحليل من البابا وينتخبون بونيفيس رئيساً لأساقفتهم

في هذه الآونة، في شهر نيسان، تمكن رهبان كانتربري، الذين أرسلوا إلى روما، لصالح التجمع الديري، للحصول على تحليل من القرار الذي تفوه به رئيس الأساقفة ضدهم، من الرجوع من البلاط الروماني، بعدما حصلوا على وجوب تسلمهم تحليلاً بوساطة طريق التحذير، حيث جرى ندب راعي دير القديس ألبان مع رئيس الشمامسة هناك، مع رئيس رهبان دنستيبل Dunstable, من أجل تسوية القضية، لكن


Bibliotheca Alexandrina
0414618